الطبعة المصرية

يوري بار-جوزيف

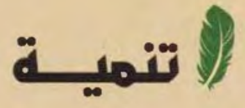
URI-BAR JOSEPH

"الملاك"!

الجاسوس المصري الذي أنقذ إسرائيل

THE ANGEL

The Egyptian Spy Who Saved Israel





الطبعة الأولى: ٢٠١٧ م - ١٤٣٨ هـ

طبعة خاصَّة بجمهوريَّة مصر العربيَّة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb



مكتبة تنمية
العنوان: ١٩ شارع هدى شعراوي من شارع طلعت حرب - وسط البلد، القاهرة
محمول ٠٠٢٠١٠٠٤٣٦٧٧٤٤
هاتف ٢٣٩٢٦٢٤٩ / ٠٠٢٠٢
Email: khaled_tanmia@hotmail.com

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

THE ANGEL

The Egyptian Spy Who Saved Israel

حقوق الترجمة العربية مرخَص بها قانونياً من الناشر

HarperCollins

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

ردمك 978-614-01-2140-9

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

مصر

- أشـرف مـروان، المعروف أيضاً بـ «الملاك»: صهر الرئيس عبد الناصر، مستشـار مقـرب مـن الرئيـس السـادات، وجاسـوس في الموسـاد (شـعبة الاسـتخبارات الإسرائيلية)
- منى مروان: ابنة الرئيس ناصر وزوجة أشرف مروان
- جمال عبد الناصر: رئيس مصر ما بين 1952–1970
- تحية جمال عبد الناصر: زوجة جمال عبد الناصر
- سـامي شـرف: رئيس مكتب عبـد الناصر والرجـل القوي في المخابرات (شـعبة الاستخبارات المصرية) لغاية اعتقاله عام 1971
- محمد حسـنين هيكل: رئيس تحرير الأهرام، الصحيفة المصرية الأوسـع انتشاراً، من 1957 حتى 1974، وأحد أصدقاء عبد الناصر المقربين
- أنور السادات: رئيس مصر ما بين 1970–1981
- جيهان السادات: زوجة أنور السادات
- سعد الدين الشاذلي: رئيس الأركان خلال حرب أكتوبر
- محمد عبد الغني الجمسي: رئيس هيئة العمليات خلال حرب أكتوبر
- حسني مبارك: رئيس مصر ما بين 1981–2011

للموساد ومساعد مروان من 1970 حتى 1998

- **اللواء تسفي زامير**: رئيس الموساد من 1968 حتى 1974
- **فريدي عيني**: رئيس مكتب تسفي زامير
- **شمويل غورين**: قائد عمليات الموساد في أوروبا، 1968–1974
- **غولدا مائير**: رئيسة وزراء إسرائيل، 1969–1974
- **موشي دايان**: وزير الدفاع، 1967–1974
- **يسرائيل غاليلي**: وزير من دون حقيبة، ومستشار مقرب لرئيسة الوزراء مائير
- **الفريق ديفيد إلعازار**: قائد أركان الجيش الإسرائيلي، 1972–1974
- **اللواء إيلي عيزرا**: مدير الاستخبارات العسكرية، 1972–1974
- **العميد أريه شاليف**: رئيس شعبة الأبحاث في الاستخبارات العسكرية، 1967–1974
- **المقدم مائير مائير**: رئيس الفرع 6 (المسؤول عن مصر) في وحدة أبحاث الاستخبارات العسكرية، 1969–1972
- **المقدم يوناح باندمان**: رئيس الفرع 6 في شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية، 1974–1972
- **أهرون بريغمان**: مؤرخ إسرائيلي يعيش في لندن
- **رونين بيرغمان**: صحفي إسرائيلي كتب عن مروان

شعبة الاستخبارات السعودية، ونظير مروان في توطيد العلاقات بين السادات والملك فيصل

- **معمر القذافي**: القائد الليبي، 1969–2011
- **عبد السلام جلود**: الرجل الثاني لدى القذافي، 1969–1977 ونظير مروان في توطيد العلاقات المصرية الليبية
- **عبد الله المبارك الصباح**: أصغر أبناء الشيخ مبارك أمير الكويت، وهو ملياردير وصديق لأشرف ومنى مروان
- **سعاد الصباح**: زوجة الشيخ عبد الله الصباح، وأيضاً صديقة لمروان وزوجته
- **حافظ الأسد**: رئيس سوريا، 1970–2000
- **رولاند «الصغير» رولاند**: زعيم مالي بريطاني وشريك مروان في لندن منذ بداية الثمانينيات
- **محمد الفايد**: رجل أعمال مصري عاش في لندن، ومنافس لرولاند ومروان
- **كريس بلاكهورست**: صحفي بريطاني غطى نشاطات مروان في لندن في فترة الثمانينيات

الجنازة واللغز

يتميّز شهر تموز في القاهرة بأنه شهر حار، والأول من تموز 2007 لم يكن استثناءً. الشوارع الضيقة كانت مكتظة بملايين المارّة المتصببين عرقاً، وهم يصطحبون أولادهم في إجازتهم الصيفية. كان سوق خان الخليلي يغص بربات بيوت يشترين حاجياتهن على عجل، وبسياح أتوا لرؤية سحر هذا السوق الشرقي الشهير، بينما كان سائقو سيارات الأجرة الثمانية آلاف في القاهرة يطلقون أبواق سياراتهم وهم يجاهدون لإيجاد سبيل عبر شوارع المدينة المختنقة بالسيارات.

غير بعيد عن هذه الفوضى كان ينتصب مسجد عمر بن عبد العزيز في حي هليوبوليس في ضاحية مصر الجديدة، حيث كان مئات المحزونين يحضرون جنازة في المسجد مرتدين، على نحو غير اعتيادي، بذلات رسمية مع ربطات عنق، أو لباساً عسكرياً. كانوا من النخبة السياسية والأمنية والمالية، وقد أتوا جميعاً لإلقاء نظرة الوداع على رجل كان واحداً منهم – فرد من العائلة، صديق، زميل، وشريك في العمل لسنوات: إنه الدكتور أشرف مروان.

توفي مروان قبل أربعة أيام، حين سقط بشكل غامض عن شرفة الطابق الخامس لشقته الفارهة القريبة من سيرك البيكاديللي في لندن. في العام 1966 تزوج مروان ابنة الرئيس جمال عبد الناصر، منى، وهذا الانضمام إلى العائلة الرئاسية مهّد له الطريق إلى أعلى المراتب بين الساسة المصريين: بادئاً كمسؤول في مكتب ناصر الرئاسي؛ ولاحقاً، بعد وفاة ناصر، كمستشار مقرَّب للرئيس أنور السادات. وبعد تخليه عن

كان رفات مروان قد وصل قبل يوم، وكان بانتظاره في المطار الدكتور زكريا عزمي، رئيس ديوان رئيس الجمهورية حسني مبارك، وأحمد شفيق، وزير الطيران المدني. والآن، في المسجد، يقوم جمال (جيمي) مبارك، ابن الرئيس ووريثه المُنتَظَر، بمواساة أرملة مروان وابنيها. لم يكن ذلك مبادرة رسمية صرفة بل شخصية أيضاً، إذ كان جمال صديقاً لابن أشرف مروان، وكثيراً ما كانا يتبادلان الزيارات في المنزل، كما أن عائلة مروان كانت قد حضرت قبل أقل من شهرين عرس جمال مبارك البديع في شرم الشيخ عند الطرف الجنوبي لشبه جزيرة سيناء.

كان الرئيس مبارك يشارك في قمة أفريقية في أكرا، بغانا، ولم يستطع حضور الجنازة. لكنه أصدر بياناً رسمياً وصف فيه مروان بـ «الوطني الحقيقي المخلص لبلده». وأضاف مبارك أنه كان يعرف شخصياً الخدمات الجليلة التي قدَّمها الراحل لبلده. اللواء عمر سليمان، رئيس المخابرات، والذي كان يحضر الجنازة، أعطى الموافقة الرسمية على التصريح الرئاسي المتعلق بوطنية مروان غير المشكوك فيها.

الفرع التشريعي كان ممثلاً بالمتحدث باسم البرلمان المصري ورئيس مجلس الأعيان. قادة الألوية في القوات المسلحة كانوا يقفون إلى جانب رموز المال والأعمال، وشوهد أكاديميون، مثل رئيس جامعة القاهرة، يتكلمون مع صحفيين مخضرمين مثل رئيس تحرير الأهرام، اليومية المصرية الأبرز.

الدكتور محمد سعيد طنطاوي، المفتي السابق لمصر الذي رشحه مبارك عام 1996 ليكون الإمام الأكبر لجامعة الأزهر، أقدم معهد من نوعه في العالم الإسلامي، كان يؤم الجنازة. وبجواره وقف أفراد عائلة مروان: الأرملة، منى، بلباس أسود أنيق ووشاح على رأسها؛ الابن الأكبر، جمال - الذي أخذ اسمه مثل كثيرين من أبناء جيله تيمناً بجمال عبد الناصر - كان واقفاً إلى جانبها، وإلى جانبه وقف الابن الأصغر، هاني. كان هاني قد تزوج ابنة عمرو موسى، وزير خارجية مصر الأسبق، الذي أصبح

إخوتها وأختها عن الحضور لإلقاء النظرة الأخيرة، بينما لم يحضر أحد من عائلة أنور السادات. كان الأمر مفاجئاً جداً، وهو ما لاحظه بعض صحفيي القاهرة، نظراً لعلاقة الصداقة المعروفة التي كانت تجمع السادات، قبل اغتياله في أكتوبر 1981، وزوجته جيهان بأشرف ومنى مروان.

أياً يكن الأمر، لم يكن غياب جيهان السادات وبناتها عن الجنازة أمراً بالغ الأهمية، فبحسب ما شعر به بعض المشيعين، لم يكن التكريم المقدم لزميلهم السابق أكثر من غطاء لحقيقة مؤلمة جداً: وهي أنه بالرغم من كل الاهتمام الرسمي، لم يكن الرجل الذي يشيعونه وطنياً مصرياً على الإطلاق. بل على العكس من ذلك، لقد كان أكبر خائن في تاريخ أمتهم.

منذ مطلع التسعينيات بات معروفاً أن للموساد الإسرائيلي «مصدراً عجائبياً» في قلب الجهاز العصبي الاستراتيجي في مصر في السنوات التي سبقت حرب أكتوبر 1973 – الحرب الأضخم في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي. بعض الأشخاص – مثل اللواء إيلي عيزرا، مدير الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية الذي نشر مذكراته عام 1993 – يزعمون أن المصدر كان في الحقيقة عميلاً مزدوجاً خان الموساد في أحلك اللحظات، وبذلك مكّن الجيوش العربية من مباغتة إسرائيل في يوم كيبور، العيد اليهودي الأكثر قداسة. بينما يستبعد آخرون، على دراية بالأحداث ولا يقلون مصداقية عن عيزرا، نظرية العميل المزدوج ويؤكدون أن إسرائيل كانت لتخسر الحرب حتماً لولا أن حذّرها المصدر في اللحظة الأخيرة.

بمرور الوقت بدأت تتوضح بعض التفاصيل الإضافية المتعلقة بهوية الجاسوس ونشاطاته. وفي العام 2001 أصبح معروفاً أنه من المقربين جداً للرئيس ناصر والرئيس السادات وأنه شخص يُطلِق عليه الإسرائيليون القلائل الذين يعرفونه اسماً مستعاراً هو «الصهر». في الحقيقة، لقد قام بعض الصحفيين المصريين بسؤال مروان عما إذا كان

الجاسوس الغامض، لصحفي مصري أن «مصدر الموساد العجائبي» كان مروان حقا.

استمر مروان في إنكار الاتهامات، لكن إثر جلسة محكمة في تل أبيب في السابع من حزيران 2007 أكدت أنه قطعاً الجاسوس الشهير، بدأ مروان يشعر بالحبل يشد على عنقه. وبعد ثلاثة أسابيع لقي مصرعه.

كان بضعة أشخاص على الأقل من الحاضرين في الجنازة، مثل اللواء عمر سليمان، يعرفون جيداً من أصدر الأوامر للتخلص من مروان ولماذا. ففي النهاية، لقد أنقذت ميتة مروان الشنيعة القيادة المصرية من الإحراج الذي كانت ستتعرض له إذا ما خضع مروان للمحاكمة واعترف على الملء بأن عنصراً بارزاً في النخبة الحاكمة المصرية – زوجته هي ابنة الأسطورة ناصر، وابنه البكر صديق حميم وشريك عمل للوريث المرجَّح للرئيس مبارك، وابنه الثاني متزوج من ابنة عمرو موسى – كان جاسوساً للموساد في ذروة الصراع المصري الإسرائيلي.

نتيجة لسقوط نظام مبارك في بداية 2011، تمت الإجابة عن السؤال: من أعطى الأوامر لتصفية مروان. ووفقاً للمجلة المصرية روز اليوسف لم يكن أحد سوى مبارك نفسه، وهو الرجل الذي قال للصحفيين بعد وفاة مروان الغامضة، «أنا لا أشك بولائه».

في العاشر من أيار 2009 عرضت محطة CBS في برنامجها *60 Minutes* تحقيقاً عن صعود وسقوط أشرف مروان والجدل المحيط بموته، وفي نهاية الحلقة، التي حملت اسم «الجاسوس الكامل»، لخَّص مُقدِّم البرنامج ستيف كروفت مجريات الحلقة بطرحه السؤال الاصعب بهذه الطريقة: «إذاً، في النهاية، من كان أشرف مروان يخون فعلاً؟ ومن قتله في النهاية؟ إن لم تكن الحقيقة قد دُفنَت معه، فعلى الأرجح أنها مدفونة في سرداب سري جداً في مكان ما».

هذا الكتاب يكشف الحقيقة، ولكي نصل إليها علينا العودة بالزمن إلى القاهرة وإلى العام 1944 حين بدأ كل شيء.

الفصل الأول

القاهرة، 1944-1970: البدايات

وُلِد محمد أشرف أبو الوفا مروان، المعروف باسم أشرف مروان، في الثاني من شباط، 1944 في منزل عائلته الكائن في 5 شارع الحكماء في منطقة منشية البكري في القاهرة، التي كانت ولا تزال حتى اليوم حياً من أحياء الطبقة الوسطى في مصر الجديدة. تنحدر عائلة مروان من أرقى السلالات المصرية. فمن طرف والدته كان جزءاً من عائلة الفايد، صاحبة الأملاك في قرية صا الحجر بمحافظة الغربية، وهي قرية زراعية في دلتا النيل شمال القاهرة. ووالده أتى من قرية سوهاج، بمحافظة المنية، التي تبعد حوالى 240 كيلومتراً جنوب القاهرة. وعائلة مروان هي من أشرف العائلات في تلك المنطقة؛ ولا يزال العديد من أفرادها يعيشون هناك حتى اليوم.

جد أشرف مروان، محمد أحمد مروان، هو من نقل فرع عائلته إلى القاهرة. فبعد تخرجه من جامعة الأزهر، أقدم وأهم مدرسة لتعليم الشريعة والعلوم الإسلامية في العالم العربي، ارتقى ليصبح رئيس المحاكم الشرعية في مصر. والد أشرف مروان، أبو الوفا مروان، كان في الجيش المصري. في بدايته كان ضابط صف في جيش الملك فاروق وتدرج على سلم الرتب العسكرية حتى تقاعده، في سبعينيات القرن الماضي، برتبة لواء. آخر مركز خدم فيه هو نائب القائد العام للحرس الجمهوري المصري، وهو فرع من الجيش مسؤول عن حماية المقام الجمهوري والمنشآت الحيوية. على الرغم من أن أشرف مروان وعائلته كانوا في القاهرة، فقد ظلوا على اتصال بقريتهم الأم وكانوا يسافرون إليها لزيارتها وللمشاركة في الاحتفالات

ما جعل أهل المنطقة، إلى جانب الحرارة والدعم اللذين قدمتهما عائلة مروان للقرية على مر السنين، لا يزالون ممتنين إلى يومنا هذا[1].

لا يوجد في نشأة مروان ما هو غير اعتيادي بشكل خاص. فهو قد ترعرع مع شقيقه هاني، وأختيه الأصغر، منى وعزة، في القاهرة في منزل عادي من منازل الطبقة الوسطى. في العام 1952، حين كان بعمر الثامنة، شهدت مصر تولي الضباط الأحرار زمام الأمور، وهم الذين أوصلوا جمال عبد الناصر – الرجل الذي أصبح في غضون سنوات القائد الأكثر شعبية في العالم العربي – إلى السلطة. لكن والد مروان كان لا يزال ضابطاً بسيطاً، ولهذا لم تكن له أي علاقة بحركة الضباط الأحرار. ومع ذلك فقد ترعرعت العائلة بجوار القيادة الجديدة، نظراً لمجيء العديد من الشخصيات القيادية لتعيش في الجوار بعد وصولها إلى السلطة بوقت قصير. ناصر وعائلته كانوا يعيشون منذ سنوات في منشية البكري، التي انتقل إليها عدد كبير من الضباط الأحرار. وسرعان ما أصبحت تُعرَف بالمركز العصبي للسلطة السياسية في النظام الجديد.

المدارس التي ارتادها مروان على امتداد طفولته تقع في الحي نفسه: ست سنوات في مدرسة منشية البكري الابتدائية، ثلاث سنوات في مدرسة الحلفاء الإعدادية، وأخيراً في مدرسة كوبري القبة الثانوية، حيث تخصص في العلوم. كانت المدارس في مصر في ذلك الوقت مجانية، لكن كان على العائلة دفع ثمن الكتب المدرسية وبعض المصاريف الأخرى مثل الضمان الصحي. الدراسة في الثانوية كانت مكثفة: سبع أو ثماني ساعات يومياً، تتضمن سبع حصص أسبوعية للرياضيات، خمس حصص للغة الإنكليزية، أربع حصص للفرنسية، وثلاث حصص لكل من الكيمياء وعلم الأحياء ومادة ثالثة للعلوم التربوية من اختياره.

في هذه المرحلة كانت مزايا مروان الكثيرة قد بدأت تتبلور، وخاصة الذكاء المتقد الذي أمَّن له درجات عالية متميزة؛ درجات مكّنته من الحصول على قبول

تضمنت دراسته برنامجاً خاصاً لتدريب الضباط، وقد أتمّه برتبة ملازم ثانٍ. في عام 1965 حصل على البكالوريوس وبدأ يخدم كضابط ومهندس كيميائي في الصناعة العسكرية المصرية.

بالرغم من منهاجه الدراسي المكثف كان مروان يجد وقتاً ليستفيض في قراءة مواضيع لا علاقة لها باختصاصه، بشكل خاص الاقتصاد والصناعة المصرفية والاستثمار. الناس الذين يتذكرونه من تلك الفترة يصفونه بأنه كان طويلاً وجذاباً وودوداً، كان يعرف كيف يحصل على أقصى ما يمكن من الحياة. درس معه اثنان من أقرب أصدقائه من أيام الجامعة، محمد فخري وعصام صيام، في الاحتياطي الأكاديمي. اختار صيام مهنة عسكرية ووصل في النهاية إلى رتبة لواء، كما نجح كمعلق رياضي وحكم على المستوى الدولي، وعمل لسنوات في اتحادي كرة القدم المصري والأفريقي. خلال الفترة التي قضوها معاً في أواسط الستينيات، كان الثلاثة يستمتعون بليالي القاهرة؛ في أيام الجمعة، حيث لا حصص دراسية، كثيراً ما كانوا يسافرون إلى الإسكندرية، حيث يستلقون تحت أشعة الشمس ويسبحون في البحر ويتمشون على الشاطئ.

مع كل ذلك، كانت أفضل طاقات أشرف مروان تنصب على ملاعب التنس. كان عضواً في رابطة مشجعي نادي هيليوبوليس سبورتنغ، الذي لا يبعد أكثر من ثمانمائة متر عن منزل والديه. وهناك، في عمر الحادية والعشرين، التقى المرأة التي أصبحت فيما بعد زوجته ورافعته على الهرمية المصرية[2].

وُلدت منى عبد الناصر، ابنة الرئيس، في كانون الثاني 1947، بعد زواج والديها بعامين وبعد عام على ولادة شقيقتها الكبرى، هدى. اسم هدى، مشتق من كلمة هدية، وقد أطلقت والدتها، تحية، هذا الاسم تعبيراً عن امتنانهما لحصولهما على طفل ولو أنهما كانا يريدان صبياً. بعد منى، رُزقت عائلة ناصر بثلاثة أولاد: خالد،

الجامعة الأمريكية في القاهرة حين التقت أشرف مروان للمرة الأولى.

لم تكن الحياة في منزل ناصر بسيطة. في أواسط الخمسينيات، حين اعتلى القائد المصري للمرة الأولى منصة السياسة، سرعان ما أصبح نوعاً من الشخصية الإصلاحية بالنسبة إلى الجماهير التي رأته في الوقت ذاته واحداً منهم وقائداً فذاً سيمضي بهم ليخلصهم من الفساد ويقودهم إلى حقبة جديدة من العزة القومية والازدهار. إنجازاته المبكرة المجيدة – طرد الإنكليز من قناة السويس عام 1954؛ إبرام صفقات أسلحة مع الاتحاد السوفييتي عام 1955؛ تأميم القناة عام 1956؛ والتصدي للعدوان الثلاثي الإسرائيلي، الفرنسي، والبريطاني خلال أزمة القناة، التي تلت ذلك بأشهر عدة، رسّخت وحصّنت مكانته في الداخل والخارج. إصلاحاته الزراعية، التي انطلقت بعد وقت قصير من توليه المنصب، ومبادراته الأخرى بخصوص التوزيع العادل للثروة كانت شاهداً له على رؤيته السياسية الراديكالية، وأعطت نظامه، الذي بدأ عام 1960، وقعاً اشتراكياً لم يكن قد سُمع به من قبل في العالم العربي. مزداناً بشخصية كاريزمية استعذبها القادة وعامة الشعب على حد سواء، ومدفوعاً برؤية عربية شاملة ممتزجة مع نظرته الخاصة السياسية والدبلوماسية التي مكّنته من التغلب بحذاقة على التحديات الداخلية والخارجية، حوّل والد منى نفسه، في غضون سنوات، من مجرد ضابط مصري مغمور إلى أعظم قائد عربي منذ صلاح الدين.

لا يمكننا أن نعرف مدى تأثير مكانة ناصر الأسطورية على حياة عائلته أو تأثيرها على طريقة تربيته لأولاده. ما نعرفه فقط هو أن ناصر بعكس الحكام العرب الآخرين، وخاصة سلفه الملك فاروق، لم يستغل مكانته لتحقيق أي مكاسب شخصية. إذ استمرت عائلته في العيش في المنزل نفسه الذي كان قد اشتراه في منشية البكري مباشرة بعد زواجه من تحية عام 1944، واستمرت تحية في تدبير أمور

وحين أصبحت السيارة في الرمق الأخير استبدلوها بسيارة فورد اشتروها بالتقسيط.

ضمن مجتمع كان الفساد فيه بمثابة الزيت الذي يحرك كامل مفاصل الآلة، كان ناصر مثالاً في النزاهة. لكنه عرف في الوقت ذاته بوضوح أن أيدي زملائه في القيادة المصرية، وخاصة صديقه المقرب عبد الحكيم عامر، ملطخة بالوحل، ورأى في فسادهم نقطة ضعف يمكنه الاستفادة منها لتحقيق مآربه. كان ناصر يشعر من كل قلبه بالاشمئزاز من فاحشي الثراء. ذات مرة قام بزيارة إلى نادي الجزيرة الرياضي، أحد أماكن الاستجمام المفضلة لدى الطبقة الأرستقراطية المصرية، لكن الأجواء البغيضة هناك جعلته يرفض تكرار الزيارة ثانية. عُرِف عنه أيضاً أنه كان يرفض إعطاء أولاده أي امتيازات خاصة، وكان دائماً يذكِّرهم بأصولهم التي تعود إلى قرية بني مر على ضفاف النيل. كان يقول لهم «يتملكني الفخر لكوني أنحدر من عائلة قروية فقيرة، وسيشهد التاريخ على حقيقة أن ناصر وُلِد من عائلة فقيرة، وأعدكم بأنني سأحيا وأموت فقيراً». تتذكر ابنته البكر أن حياتها كانت «حياة عادية لفتاة مصرية من بنات جيلها». وابنه خالد يُصرُّ على أنه لم يتلقَّ في حياته أي مراعاة خاصة في عمله السياسي[3].

لم يكن هناك أدنى شك في أن أولاد ناصر كانوا مدركين للتغييرات التي طرأت على مكانتهم حين وصل والدهم إلى السلطة، إلا أنهم استمروا في ارتياد مدرسة القومية في الجيزة، حيث يتعلم أولاد النخبة الجديدة، واللعب مع الأصدقاء أنفسهم. ولأن ناصر كان يفضل العمل في المنزل واستقبال الوجهاء الأجانب هناك وليس في قصور القاهرة، كانت الحياة في منزلهم أقرب إلى أي شيء إلا الطبيعي. لقد بنوا ملحقات للمنزل أكثر من مرة، سواء لاستيعاب العائلة التي تكبر أو لتسهيل العمل بفعالية على القادة الأجانب وأطقمهم. وسرعان ما أضيف إلى المنزل ملعب تنس ومكتبة وغيرها. في بعض المناسبات، حين كان الضيوف يبدون شيئاً من الاهتمام،

بعض التأثير على حياتهم، لكن هذا التأثير كان محدوداً بشكل جلي ومتفاوت من ولد لآخر، وهو ما يظهر بأوضح صوره في الاختلاف بين تجارب منى، حبيبة مروان، وشقيقتها الكبرى هدى.

كانت هدى، بكل المقاييس، الأكثر جدية وذكاءً بين الاثنتين. ويذكر أساتذتها، الذين حرموها من أي معاملة مميزة بناءً على طلب ناصر، ذكاءها الفطري والتزامها وأخلاقها العملية، وهو ما مكّنها من إنهاء دراستها في المرتبة الأولى. تمضي حياة هدى كما كان يظهر للكثيرين كمسار طبيعي لها: إذ حصلت على درجة البكالوريوس في الاقتصاد والعلوم السياسية، ثم شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة القاهرة. وخلال دراستها بدأت تعمل وزوجها، حاتم صادق، في مركز الدراسات الاستراتيجية الذي أنشأته صحيفة الأهرام عام 1968. صحيح أن روابطها العائلية ساعدتها طبعاً في الحصول على العمل، لكن إنجازاتها الشخصية بررت ذلك. ولكونها تتمتع بموهبة فذة، وبسبب المسار المهني الذي اختارته، رأى فيها كثيرون خلفاً طبيعياً لوالدها، ونموذجاً مصرياً لأنديرا غاندي. لكن كما اتضح فيما بعد، كانت لدى هدى مخططات أخرى: إنها تفضل الحياة الأكاديمية، وما تتمتع به من إمكانات سياسية لم يبصر النور مطلقاً.

بالمقابل، لم تكن منى لامعة كأختها الكبرى، والقلة القليلة التي تعرفها خلال تلك الفترة تتذكرها كفتاة طائشة لا يبهجها شيء أكثر من حفلة رائعة. لم يظهر عليها أي اهتمام بالسياسة أو أي شيء يتطلب مجهوداً فكرياً. وعلى عكس شقيقتها، التي مكّنتها درجاتها في الثانوية من السير في مهنة أكاديمية في أهم جامعة في القاهرة، كانت درجات منى متوسطة. وكانت تتمنى بعد الثانوية أن تلحق بشقيقتها في دراسة الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة، لكنها لم تحصل على العلامات المطلوبة. وبالرغم من موافقة وزير التعليم العالي والمسؤولين في الجامعة على

عـن معهـد خاص لا يتمتع بسـمعة طيبة، والطلبة الذين يرتادونهـا هم أبناء العائلات الميسورة الذين لم تمكّنهم درجاتهم من دخول جامعة القاهرة. وقد واجه ناصر، كما صرَّح، صعوبـة في تغطيـة نفقات تعليم منى. لقد تغيرت عاداتهـا قليلاً حين ارتادت الجامعـة. ويتذكّـر أصدقاؤها من تلـك الفترة أنها كانت تُمضي في ملاعب التنس في نادي هيليوبوليس سبورتنغ والمقاهي أكثر مما كانت تمضيه في قاعات الدراسة.

فـي صيـف عـام 1965، وبعـد إنهائها السـنة الأولى فـي الكلية، التقت بأشـرف مروان، وتزوجا في غضون سنة[5].

لم يكن اللقاء مجرد صدفة، فقد كانت عزة، شقيقة مروان المقربة جداً منه، في عمـر منـى وصديقـة مقرَّبة لها، وعملـت على ترتيب اللقاء بعـد أن أخبرت منى بكل شيء عن شقيقها الوسيم والموهوب. وبحسب ما تذكره تحية، والدة منى، فقد التقيا للمـرة الأولـى فـي نادي هيليوبوليس، الـذي كان في ذلك الوقت من أشـهر الأماكن العصرية لالتقاء الشباب المصري المتحدر من عائلات مرموقة[6]. أما منى فتزعم أنها التقت بمروان على الشاطئ، أي في الإسكندرية[7]. ومهما تكن الحقيقة، فهناك أمران جليان. أولاً، وقعت منى بحب مروان من النظرة الأولى. لقد أسـر قلب الفتاة بطوله الفارع وقوامه النحيل وملامحه الناعمة وملابسـه الباهظة[8]. ثانياً، ما جذب الشـاب الوسـيم والطمـوح إلى منـى لم يكن مظهرها أو نباهتها أو أياً من مزاياها الشـخصية، بل كان ببسـاطة عائلتها. كان بعمر الحادية والعشـرين، متعطشـاً وطموحاً وباحثاً عن العَظَمـة. وزواجه من ابنة عبد الناصر سـيضعه مباشـرة علـى الطريق لتحقيق قدره[9]. وحتى لو كانت معظم مصادرنا ترى في ذلك السـبب الرئيسـي لمواعدته منى، إلا أن هناك من يُصرّ على أن مروان قد وقع بحب منى بشكل عفوي[10].

لـم تتأخـر منى كثيراً فـي إخبار والدها عن صديقها الجديـد، ولم تخفِ رغبتها في الزواج منه وتأسـيس عائلة معه. في تلك الأثناء كان ناصر قد تلقى طلبات كثيرة

وكيف انه ينحدر من عائلة «السعيدي» (أي من أرقى الأنساب المصرية)، وان والده، أبو الوفا مروان، كان ضابطاً في الجيش.

سمع ناصر ما فيه الكفاية، وفي الحال طلب إجراء استعلام كامل عن أشرف مروان[12]. الرجل المسؤول عن ذلك كان سامي شرف، سكرتير ناصر للمعلومات وأحد أكثر رجال مصر نفوذاً. وهو من سيؤدي في السنوات التالية دوراً حاسماً في قصة مروان.

التقرير الذي قدَّمه شرف لناصر لم يكن مشجعاً، وفيه تشديد على طموحات مروان وولعه بالحياة المترفة، مع التشكيك بصدق مشاعره نحو منى. بالنسبة إلى عبد الناصر، المتشدد في حياته الشخصية والقلق أصلاً من نمط حياة ابنته، لم يكن ذلك الخاطب خياراً جيداً، على أقل تقدير. كان ناصر مقبلاً على تزويج هدى من رجل جدي ومتعلم ومتواضع، وكان يعتبر عريسها مثالاً جيداً للشخص الذي يرغب في أن تتزوج منه منى أيضاً[13]. وهكذا جلس بعد استلامه تقرير شرف مع منى في حديث من القلب للقلب محاولاً إقناعها بعدم الزواج من أشرف مروان.

رفضت منى الإصغاء. كانت قد اتخذت قرارها وأصرت على أن يجلس ناصر مع والد مروان للتباحث في ترتيبات الخطوبة. رفض ناصر طلبها أكثر من مرة، لكن في النهاية، تراجع أعظم قائد عربي منذ صلاح الدين أمام إصرار ابنته، ووافق على مقابلة والد أشرف مروان[14].

اتفاق الخطوبة الذي تم بين العائلتين لم يكن ملتزماً كثيراً بالتقاليد، إذ تم الاتفاق على أن تدفع عائلة العريس مهراً قدره 1000 جنيه مصري (100 دولار تقريباً)، لكن لم يتم تحديد أي مبلغ يُدَفع في حالة الطلاق. كما أن عائلة العريس لن تشتري مجوهرات للعروس كما كانت تقتضي التقاليد. وبدلاً من ذلك قدَّم مروان لمنى خاتماً ماسياً يعود لوالدته التي ورثته عن والدتها[15].

والدها شعر بحاجة إلى استضافة حدث ضخم لأن زفاف هدى في العام السابق كان أكثر تواضعاً وتم إغفال الكثير من الشخصيات المهمة من قائمة الدعوة. هذه المرة، تم توسيع لائحة المدعوين لتشمل ليس فقط أفراد العائلة المقربين بل وأيضاً زملاء العريس والعروس، بالإضافة إلى كل النخبة السياسية في مصر، بمن فيهم أعضاء مجلس قيادة الثورة. وعقد القران على يد مأذون القاهرة نفسه الذي عقد قران والدَي منى في العام 1944، ووقع وزير الدفاع عبد الحكيم عامر، وهو صديق قديم لناصر، كشاهد على عقد القران، وكذلك فعل رئيس الوزراء زكريا محي الدين، الذي كان أحد قادة حركة الضباط الأحرار.

تظهر الصور ومقاطع الفيديو الملتقطة للاحتفال عبد الناصر جالساً وإلى يمينه زوجته تحية، ابنه خالد إلى يساره، وشقيق خالد الأصغر، عبد الحكيم، إلى يسار خالد. أشرف ومنى كانا جالسين مقابل والديها، وإلى جانبهما هدى وزوجها. بعد الاستماع لتلاوة الفاتحة وبعض المواعظ، قام ناصر بمباركة الثنائي الشاب. نهض مروان، ببذلته الرمادية الأنيقة، وربطة عنقه السماوية، وقميصه الأبيض، وعانق عمَّه الجديد. لكن لم يكن كل شيء وردياً: إذ نهضت منى فجأة في منتصف الاحتفال والتفتت إلى والدها مطالبة إياه بقرطين كهدية زفافها. وحين أحجم ناصر، أسرع القائد الميداني عامر لتدارك الموقف وبحث عن القرطين وقدمهما للعروس المتألقة[16].

الحفلة كانت على مستوى العالم، بمشاركة اثنين من أهم المغنين العرب هما عبد الحليم حافظ وأم كلثوم. كان عبد الحليم نجماً سينمائياً في قمة عطائه ومقرباً جداً من سامي شرف، وكثيراً ما كان يزور المكتب الرئاسي لاستنشاق الهواء الثوري، لينسجه بعد ذلك في أغانيه الوطنية[17]. لعبد الحليم أغانٍ كثيرة، منها أغنية «سوّاح»، التي كانت إحدى الأغاني المفضلة لناصر.

أم كلثوم كانت أعظم مطربة عربية في القرن العشرين، وكانت تعرف ناصر منذ

وأخبرها أيضاً أنه كان يتعمد إجراء اجتماعات المجلس الثوري السرية وقت إذاعة حفلاتها على الراديو المصري لعلمه بأن البلد بأسره يستمع إليها ويمكن للمجلس الاجتماع بدون مقاطعة[18]. جعلتها تلك الكلمات تنتشي فخراً. وبالفعل كانت حفلات أم كلثوم، التي كانت تُبَث في كل أرجاء العالم العربي في الخميس الأول من كل شهر عبر صوت القاهرة، حدثاً ثقافياً من الطراز الأول يوقف عجلة الحياة في الشرق الأوسط بأسره عن الدوران، إذ كان ملايين المستمعين، من أفقر فلاح إلى أغنى شيخ، يلتصقون بالمذياع في المنزل أو على نواصي الشوارع للاستماع لصوتها الساحر. أرشيف أم كلثوم يزخر بالأغاني القومية بالإضافة إلى أغاني الحب، فقد غنَّت أغنية «الفجر الجديد» تمجيداً للجمهورية العربية المتحدة، التي جمعت مصر وسوريا بين عامي 1958 و1961؛ وأغنية «بغداد يا قلعة الأسود» التي كُتِبَت بعد إسقاط الملكية في العراق عام 1958. أما في زفاف ابنة ناصر وفي منزله فلم تغنِّ أياً منها بل غنت، بناءً على طلب منى، أغنية «أنت الحب»، التي غنتها للمرة الأولى عام 1965 وأصبحت إحدى أعظم أغنياتها[19].

بث راديو القاهرة تقريراً عن الزفاف شدّد فيه على الجو البهيج ونظرات الحب التي تبادلها الثنائي مع أهلهما، كما في أفضل المشاهد الرومانسية التي كانت تزخر بها الأفلام المصرية في تلك الحقبة. كما نشرت الصحف أيضاً صوراً للمناسبة ظهر فيها أشرف مروان بأفضل حلة، واقفاً بجوار عروسه بثوب زفافها التقليدي، وهي تمسك بيد والدها.

لم تَرِد طبعاً أي كلمة عن عدم رضا ناصر على خيار ابنته، مع أن الرئيس لم يكن الوحيد الذي كانت تنتابه الشكوك. يتذكر أحد أصدقاء مروان، بعد سنوات، أن «زواجه من منى لم يكن ليفاجئ أحداً من الذين يعرفونه، بل كان تأكيداً على طموحاته الكبيرة»[20].

عن سوق العقارات في القاهرة، كما أنه لم يكن يعير اهتماماً كبيراً لميزانيته، ولذلك لم يكن يعلم أنه كان بعيداً كل البعد عن التمويل المطلوب. فاتفق عدد من أصدقائه ودفعوا معاً جزءاً كبيراً من المبلغ، حتى دون أن يعلم ناصر بذلك[21]. وكما ساعد هدى وزوجها في الحصول على عمل في صحيفة الأهرام، كذلك ساعد منى. لكن في حين كانت لدى هدى وحاتم الكفاءة للعمل في قسم الدراسات الاستراتيجية المُعتَبر، عملت منى في قسم كتب الأطفال[22]. ورأى البعض في عمليهما تعبيراً مناسباً عن الفروقات في القدرات والكفاءة بين الأختين[23].

شهدت حياة أشرف مروان أيضاً تغيرات عدة، إذ أدى زواجه من منى إلى تحسين وضعه بشكل كبير وقرَّبه من المراكز الرئيسية للسلطة في مصر، بما فاق توقعاته وتمنياته. فسرعان ما تم نقله من المعامل الكيميائية في الصناعة العسكرية المصرية إلى الحرس الثوري، وهو فرع من الجيش مهمته الرئيسية حماية المنشآت الحساسة على الجبهة الداخلية. لكن في حين اعتبر أشرف مروان هذا الانتقال خطوة للأعلى، كان ذلك في الحقيقة دليلاً على ثقة ناصر الهشة بصهره. لقد أراده أن يبقى قريباً منه.

لكن قربه لم يكن كافياً، والمعلومات التي وصلت إلى الزعيم المصري عن طموحات أشرف مروان جعلته مقتنعاً بضرورة القيام بخطوة أخرى. وهكذا، عام 1968، تم نقل أشرف مروان للعمل في المكتب الرئاسي، تحت إشراف مباشر من رئيس المكتب، سامي شرف[24].

كان معروفاً عن سامي شرف أنه مخادع من الطراز الأول وأحد أكثر الرجال طموحاً بين حاشية ناصر. لقد كان من تلك النوعية التي تعمل في الظل وتتلمس طريقها عبر سراديب السلطة في جميع الأنظمة الديكتاتورية. وُلِد في هيليوبوليس لطبيب بسيط، وأنهى دراسته في الأكاديمية العسكرية برتبة شرف عام 1949 والتحق

الداخلية زكريا محي الدين، الذي كان مشرفاً على فرع المخابرات. وقد أعجب محي الدين بمواهب الضابط الشاب وضمه إلى وحدة الاستخبارات. وفي آخر الأمر ارتاح وزير الداخلية من ناحية شرف، وحين طلب منه عبد الناصر عام 1961 أن يجد له مديراً جديداً لمكتبه، أرسل محي الدين سامي شرف إلى المكتب الرئاسي.

في منصبه الجديد، أخرج المتآمر السابق أعتى أسلحته، وسرعان ما شكَّل مجموعة كاملة جديدة لوكالة الاستخبارات. كانت المهمة الرئيسية للوكالة هي جمع المعلومات السرية والعامة على حد سواء عن جميع عناصر النظام المهمين، فأصبح شرف عين ناصر وأذنه في الدوائر المصرية العليا[25].

بتوجيه من شرف، أصبح المكتب الرئاسي المركز العصبي لمصر، وفي الوقت نفسه المُرشِح الذي تمر عبره المعلومات إلى الرئيس. كل ما كانت تجمعه وكالات الأمن من معلومات ذات أهمية دبلوماسية أو سياسية أو عسكرية، بل وحتى القيل والقال، كانت تمر عبره، ويقوم شخصياً بتحرير التقارير الاستخباراتية المُعدَّة حصرياً لعبد الناصر. في تلك الفترة نفسها، بدأ الزعيم المصري يعزل نفسه ويتجنب اللقاءات المباشرة مع رؤوس النظام. وفي غضون فترة قصيرة، لم يتبقَّ سوى عدد قليل من الأشخاص – مثل صديقه المقرَّب محمد حسنين هيكل، المحرر في صحيفة الأهرام – باستطاعتهم مقابلة ناصر دون موافقة مسبقة من مدير مكتبه. لقد حرص شرف ليس فقط على عزل ناصر، بل وأيضاً على تلطيخ سمعة أي شخص بحسب مقتضيات الحاجة. كل من كان يفقد حظوته لدى ناصر يجد نفسه مباشرة بلا عمل، وفي بعض الأحيان في السجن. وسرعان ما راكم شرف نفوذاً قوياً، ليصبح أحد أكثر الرجال الذين يُخشى جانبهم في مصر[26].

حين انتقل أشرف مروان إلى مكتب الرئيس لم يكن شخصاً غير معروف لدى سامي شرف، فببلوغه هذا الحد كان لا بد لشرف أن يكون قد جمع ملفاً ضخماً عن

ناصر الأول – جمال. وكان ناصر يكرس بعضاً من وقت فراغه الضيق جداً لحفيده، ولحفيدته الجديدة التي أنجبتها هدى في الفترة نفسها تقريباً. إلا أن أشرف مروان كان يشعر بالإهمال، ولعلمه بأن عمه لا يوليه ثقة كبيرة فقد فشل في تطوير أي علاقة مهمة معه. وبدلاً من أن يتكفل بردم الهوة بين الاثنين والشعور بالتردد الذي يسيطر على ناصر، كان الزمن كفيلاً بتعقيد الأمور أكثر. والأشخاص الذين حضروا لقاءات بين الاثنين يتذكرون مروان الشاب يقف أمام عمه متوتراً، بل وحتى مرتعشاً، ومتلعثماً حين يضطر للحديث مباشرة معه[27].

لم يكن ذلك في حساب مروان حين تزوج من منى. لا شك أن التقرب من مركز القرار في مصر قد أعطى دفعاً لأهدافه الشخصية والسياسية، لكن الحياة في ظل عم لا يوليه الثقة، وتحت إشراف مدير مراوغ عنيف لا ينفك عن مراقبته، كانت مضنية جداً. وإذا افترضنا معرفة مروان الجيدة بالقدر الذي ينتظر كل من يتجاوز سامي شرف، يمكن القول إنه كان خائفاً أيضاً. أضف إلى ذلك أن المراقبة اللصيقة منعت الشابين من الاستمتاع بالحياة بالطريقة التي اعتادا عليها في الجامعة. الراتب الذي كان يتقاضاه مروان كان زهيداً جداً، وبحسب عبد المجيد فريد، الذي عمل معه في المكتب الرئاسي وألّف كتاباً مهماً عن سنوات ناصر الأخيرة، كان مروان يتقاضى 70 جنيهاً مصرياً في الشهر، وهو أدنى مرتب في المكتب[28]. ووفقاً لمصدر آخر، كان مروان موظفاً «من المرتبة السادسة» ويكسب 32 جنيهاً في الشهر. في كلتا الحالتين، كان دخله المتواضع يعبِّر عن منصبه المتواضع أيضاً. وبحسب المصدر نفسه، كانت منى تتقاضى من عملها في قسم كتب الأطفال في مركز الأهرام 35 جنيهاً في الشهر[29]. صحيح أن دخل الثنائي كان مقبولاً لعائلة من الطبقة الوسطى، إلا أنه لم يكن يلبي توقعاتهما بحياة أفضل. وما زاد الطين بلة أن القاهرة، بعد هزيمة مصر عام 1967 في حرب الأيام الستة، لم تعُد المدينة المتوثبة التي كانت عليها من قبل، فمع

كان التركيز منصباً أيضاً على سد الثغر الأساسية مثل الأداء المنخفض لأفراد الجيش والفساد على جميع المستويات، ومنها الفساد على مستوى وزير الدفاع، الذي عزّته الحرب.

إذاً، سواء كانت المسألة أنه يرغب حقاً في العودة للدراسة، أم فقط للابتعاد عن ناظري عمه، قرر أشرف مروان تقديم طلب للدراسة في الخارج. وللإنصاف، لا بد أن نذكر المستوى المتواضع للمراكز التعليمية في مصر. فحتى جامعة القاهرة، حيث نال شهادة البكالوريوس، والتي كانت تُعتَبر الأفضل في العالم العربي، لم تلبِّ معايير مهنته، والانتقادات الموجهة لنظام التعليم العالي، وخاصة في مجال العلوم، كانت تُسمَع على الملأ[30]. بالطبع، كانت الحياة خارج مصر تبدو واعدة أكثر. وهكذا، في العام 1968، انتقلت عائلة مروان إلى لندن، حيث سيتقدم لنيل شهادة الماجستير في الكيمياء.

لقد أعطى ناصر موافقته.

في أواخر عام 1968، وصل أشرف ومنى مروان إلى واحدة من أكثر مدن العالم ديناميكية وإثارة، إلى قِبلة الموسيقى والأزياء، وموطن الجمال والثروة؛ إنها لندن مدينة البيتلز ورولنغ ستونز، المتاجر في شارع كارنابي، ودور الأزياء في تشيلسي ونايتسبريدج. المصممة الرائدة كانت ماري كوانت، مخترعة التنانير القصيرة والسراويل الضيقة؛ والعارضة الخارقة كانت تويغي، التي أعطت الجمال الأنثوي أبعاداً جديدة. كانت لندن في تلك الفترة مكان إقامة عدد لا يُحصى من نجوم السينما والكُتّاب، والعاصمة العالمية لثقافة العالم المعاصر، والوجهة الرئيسية لكل من هو عصري وشاب.

لقد لاءمت لندن أشرف مروان كما يلائم القفاز اليد. وسرعان ما استقر الثنائي. كان ناصر قد خصص لهما منحة متوسطة، وأضاف إليها مروان راتبه من

مـروان، وتحترمـه أيضاً. ومـروان، حتى وإن لم يكن يحبها بالقدر نفسـه، إلا أنه ظل على الأقل مخلصاً لها. لكن لندن كانت مدينة الإغراءات اللامحدودة، وسـرعان ما وقـع مـروان فـي فخ الإغراء. وبعد فتـرة قصيرة من وصولهما شـوهِد على طاولات اللعب في نادي بلاي بوي، أضخم كازينو في المدينة، والمغناطيس الذي جذب منذ افتتاحه عام 1965 من هم على درجة من الثراء للعب فيه. لم يكن مروان واحداً منهم، لكنـه تدبـر أمـره بطريقة ما لبلوغ أقصـى ما كانت لندن تتيحه، وإشـباع ولعه بالقمار. ونتيجةً للامبالاته، سـرعان ما اسـترعى انتباه ناصر واستياءه الشديد. لقد أوصل نفسه بكلتا يديه إلى أشد أزمة تقع بينهما، وفقد كل شيء كان قد كسبه تقريباً.

بعد وصولهما إلى لندن مباشـرة، صادقت عائلة مروان ثنائياً كان قد وصل لتوه أيضاً: إنهما الشيخ عبد الله المبارك الصباح وزوجته، سعاد، ابنة محمد الصباح. كان الشيخ أصغر أولاد مؤسس دولة الكويت الحديثة، الشيخ مبارك الكبير. وفي عام 1954 أصبح قائداً عاماً للجيش الكويتي، ثم تقلّد سنوات عدة منصب رئيس وزراء بالوكالة لغايـة اسـتقالته وتقاعـده من الحياة السياسـية عـام 1961. لقد أمضى فترة السـتينيات خارج الكويت، معظمها في لندن، لغاية عودته إلى بلده في أواسط السبعينيات. تزوج عام 1960 من سعاد، التي كانت تصغره بنحو ثلاثين عاماً، وأنجبت له خمسة أولاد. علماً بأن سـعاد كانت شـخصية مهمة أيضاً، ففي سن الحادية والثلاثين حصلت على البكالوريـوس بمرتبة الشـرف مـن جامعة القاهرة، وبعدها على شـهادة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة سـوري (surrey) البريطانية. كانت أيضاً شـاعرة، ونشـرت ثلاثة دواوين عام 1960. ثم نشرت لاحقاً كتباً أخرى، بعضها أكاديمي. وكانت في الوقت ذاته ناشطة اجتماعية في مجالات حقوق المرأة والتعليم والثقافة.

الشيخ عبد الله، الذي كان عروبياً مناهضاً للإيديولوجيا البريطانية، التقى بناصر للمرة الأولى عام 1956 وكان سعيداً جداً واعتبر نفسه واحداً من أكثر الأتباع الغيارى

1956 وأقاما شبكة من العلاقات هناك. شارك الشيخ عبد الله في مختلف الاحتفالات الرسمية، مثل افتتاح جلسات البرلمان، واحتفالات يوم الثورة، وزيارات القادة الأجانب. وأصبح الزوجان صديقين مقربين لعائلة ناصر ودُعيا لحضور زفاف منى وأشرف[31].

كان طبيعياً إذاً لدى وصول عائلة مروان إلى لندن أن تأخذهما عائلة الصباح تحت جناحيها، وتريهما المدينة وتصحبهما لحضور الأمسيات فيها. وحين وقع أشرف مروان في المشاكل بسبب إدمانه على القمار، قامت سعاد بتسديد ديونه. ليس هناك أي مبرر يدفعنا للشك بوجود علاقة رومانسية بين سعاد ومروان. صحيح أنه كان وسيماً ويتمتع بشخصية مميزة، وهي أصغر منه بسنتين فقط بينما يكبرها زوجها بكثير، لكن لا يوجد مع ذلك أي دليل على علاقة بينهما. والسيرة الذاتية التي كَتَبَتها عام 1995 عن زوجها كانت في الحقيقة تعبيراً منها عن عرفانها تجاه الرجل الذي شاركته حياة غنية وطويلة. وليس من المنطقي أيضاً الظن بأن مروان كان يخون زوجته بعد زواجه مباشرة، ليس فقط لخوفه من عمه، لكن لأن الخيانة لم تكن من صفاته المعروفة. أما التفسير لما لم تجد سعاد بداً من القيام به فهو قناعتها بأنه من غير المعقول لابنة أعظم زعيم في العالم العربي وأم حفيده أن تعيش في الفقر، وبما أن لديها من الوسائل ما يمنع ذلك، فقد تصرفت على ذلك النحو. وهذا يتماشى أيضاً مع الكرَم الذي كان معروفاً عن الثنائي الكويتي: ففي بداية عام 1963 تبرَّع الشيخ عبد الله بخمس وعشرين سيارة جيب للجيش المصري، وقدَّم مرتين، مباشرة قبل حربي 1967 و1973، مبلغ مليون دولار للمساهمة في تغطية نفقات الجيش المصري. وقدّم لناصر شخصياً عام 1966 مبلغ مليون دولار ليتصرف به كما يشاء، فتبرع به عبد الناصر للتعليم في مصر[32]. من الواضح إذاً لعائلة الصباح، التي تنعّمت بمدخول النفط الكويتي، أن ترى في دعم المشاريع العزيزة على قلب ناصر، وعلى قلوب

صعب. فهو كشخص عمل تحت قيادة سامي شرف، كان يعرف نوعية التدقيق الذي يواجهه كل من له علاقة بالنظام المصري. وهو السبب الذي دفعه أصلاً للذهاب إلى لندن. كما كان مروان يدرك جيداً معارضة ناصر الشديدة لتحويل أي احترام يشعر به الناس نحوه إلى هدايا للعائلة. وبالتالي كان يعلم حتماً طبيعة الحبل الذي كان يسير عليه حين أخذ المال، والمشكلة التي سيواجهها إذا ما افتُضح أمره. لكن يبدو أن أشرف مروان كان يعشق المخاطرة، فقد كان يتمتع بثقة عالية بالنفس، وهي في جزء منها بسبب نجاحه في أن يصبح جزءاً من العائلة الرئاسية في مصر، وقد لازمته هذه الثقة بالنفس طويلاً لأنه لم يكن على احتكاك يومي بالرئيس ناصر. من الواضح أنه لم يجد أي مشكلة في قبول المال، فمن وجهة نظره – المتجذرة في تقاليد المجتمع الذي ترعرع فيه – كان قبول الرشى وتقديمها شيئاً لا مفر منه في الحياة. وفي هذه الحالة لا يمكن اعتبار ذلك رشوة أصلاً. أما ما كان يستطيع مروان تقديمه لعائلة الصباح بالمقابل فلم يكن سوى الشعور بالمودة من قبل عائلة الرئيس.

على ضوء تلك الظروف، كان الاصطدام مع ناصر مسألة وقت لا أكثر.

الصداقة القوية بين عائلة مروان وعائلة الصباح لم تمضِ من دون ملاحظة السفارة المصرية في لندن، التي أُعطيَت أوامر واضحة بإبقاء العين مفتوحة على صهر الرئيس. وبعد أن بدأ الثنائيان يمضيان أوقاتهما معاً بفترة وجيزة، بدأت التقارير تصل إلى سامي شرف، الذي سمع مباشرة بحصول مروان على المال. المسافة من مكتب شرف إلى أذن ناصر لم تكن بعيدة، وهكذا كان دليل الإدانة على مكتب الرئيس في غضون ساعات. كان رد فعله سريعاً وعنيفاً، فأمر السفارة بوضع مروان على أول طائرة متجهة إلى القاهرة. بمجرد وصوله، اقتيد مروان مباشرة إلى الرئيس ناصر، الذي طالبه بتقديم تفسير. لكن لم يغير ما قاله مروان في الأمر شيئاً. حاول إقناع الرئيس بأن الحياة الباهظة في لندن جعلته مضطراً لقبول المال. لكن ناصر كان قد

لكن منى، التي كانت تعشق مروان من كل قلبها، رفضت ذلك.

وكما حدث تماماً في الجدال الذي دار بينهما بشأن الزواج، اتضح أيضاً في الخلاف بين الأب المغتاظ وابنته العنيدة أن اليد العليا هي لمنى. استسلم ناصر، فدعا والد مروان للاجتماع به، وعمل الاثنان على وضع اتفاق يسمح باستمرار الزواج بشرط ألا تلحق برئيس مصر سمعة أن أحد أفراد عائلته يتلقى الدعم من شيخ كويتي[33]. وتضمنت بنود الاتفاق أولاً، يعيد مروان المال الذي تلقاه من سعاد الصباح. وثانياً، يعود أشرف ومنى إلى مصر، بحيث يعود أشرف للعمل لدى سامي شرف؛ ويتابع دراسته في لندن لكن لا يذهب إلى إنكلترا سوى لبضعة أيام من حين لآخر من أجل تسليم الأوراق أو التقدم للامتحانات، بينما يظل لبقية الوقت تحت ناظري شرف. وهكذا عاد مروان إلى الحياة التي حاول يائساً النجاة منها[34].

مع أن مكانة مروان في نظر ناصر كانت هشّة طبعاً، إلا أن الرئيس كان يلجأ من حين لآخر لمهاراته الدبلوماسية. وربما يكون أهم مثال على ذلك ما حدث مع سعد الدين الشاذلي، الذي أصبح فيما بعد رئيس أركان الجيش المصري خلال حرب 1973. يروي الشاذلي في مذكراته كيف أنه استقال في آذار 1969 من منصبه كقائد للقوات الخاصة بسبب القرار الذي اتخذه ناصر بتعيين أحمد إسماعيل بمنصب رئيس أركان الجيش بدلاً من عبد المنعم رياض الذي اغتالته إسرائيل بهجوم بقذائف المورتر. كان الشاذلي وإسماعيل متنافسين ضروسين منذ عام 1960، وفي دائرة الجيش المصري كان الكل يعرف بأمر اللكمة التي وجهها الشاذلي إلى فك إسماعيل أثناء جدالهما.

كل المحاولات لإقناع الشاذلي بسحب استقالته باءت بالفشل، وفي النهاية، بعد ثلاثة أيام من استقالة الشاذلي، أرسل ناصر أشرف مروان حاملاً رسالة شخصية من الرئيس كتب فيها أنه يرى في الاستقالة انتقاداً شخصياً له. لكن الشاذلي أنكر

وعد من ناصر – مستخدما مروان ثانية كمرسال بينهما – بعدم السماح لإسماعيل بتجاوز صلاحياته[35].

انطلاقاً من الثقة العامة التي منحها ناصر لصهره في قضية الشاذلي، يبدو الاستنتاج منطقياً بأنه، بصرف النظر عن التوتر الذي ساد بين الاثنين، لم يكن مروان مهمشاً بالكامل. وما يؤكد ذلك أن جزءاً من السبب الذي جعله الشخص المناسب لحل قضية الشاذلي كان روابطه العائلة؛ فهو من الناحية الرمزية يُجسد الإرادة الشخصية للرئيس. وفي الوقت عينه، حقيقة أن ناصر اعتمد عليه في هذه المهمة تدل على أن ناصر كان يعرف المواهب التي يتمتع بها مروان، وهي مواهب يمكنها أن تعطي دفعاً للمسألة التي كان ناصر يعمل عليها. من الواضح أن مروان كان يتمتع بصلات جيدة مع الشخصيات المهمة في الجيش؛ فقد كانوا يرون فيه شخصاً يمكن الاعتماد عليه، بل وفي بعض الأحيان، واحداً منهم.

لكن هذا لم يكن، على أي حال، كافياً لأشرف مروان.

في صيف عام 1970 كان، وهو بعمر السادسة والعشرين فقط، مهندساً كيميائياً وضابطاً في الجيش المصري. وكابن لعائلة مرموقة، نجح مروان، عبر زواجه بمنى، في التقرُّب من مركز القرار، وبتناوله الطعام على طاولة أعظم زعيم في العالم العربي. لم يعُد هو أو أي فرد من عائلته مهملاً أو مهدداً من قبل الدولة.

كان يبدو من الخارج الوطني المصري النموذجي، لكنه في الحقيقة كان على وشك الإقدام على أكبر خيانة في تاريخ بلده. أما السؤال بدقة عن السبب الذي جعله يختار المخاطرة بحياته ومهنته لمساعدة ألد أعداء بلده في خضم الصراع العنيف المحتدم الذي يريق يومياً دماء أفضل شباب بلده، فتصعب الإجابة عنه.

ظهر في السنوات الأخيرة مجال جديد من الأبحاث يساعدنا على فهم السبب وراء إقدام أشخاص في عز نجاحهم المهني في الجيش أو الاستخبارات أو العلاقات

الجنسي. وتورد الدراسات الحديثة دافعا إضافيا هو الولاء المزدوج لبلد المنشأ أو الانتماء الإثني القوي، ولعل أفضل مثال على ذلك ضابط الاستخبارات البحرية جوناثان بولارد الذي مرر معلومات في غاية الحساسية إلى إسرائيل بسبب غيرته على الصهيونية؛ ونذكر أيضاً التحديات الكبيرة التي تعرضت لها الوكالات الفيدرالية منذ عام 2001 بسبب الأمريكان المسلمين الذي يعملون لحساب القاعدة.

أظهرت هذه الدراسات أيضاً حقيقة أخرى وهي أن الدوافع الرئيسية الكامنة خلف الخيانة يمكن أن تتغير مع الوقت. على سبيل المثال، كانت الخيانة منذ الثلاثينيات وحتى الستينيات بدوافع إيديولوجية بحتة، وارتكبها بشكل عام شيوعيون ملتزمون اختاروا مساندة الاتحاد السوفييتي. أحد الأمثلة على ذلك الحلقة المعروفة باسم «خماسي كمبريدج»، وهي عبارة عن خمسة رجال ارتادوا معاً جامعة كمبريدج وتم تجنيدهم على يد KGB في الثلاثينيات. الإيديولوجية أيضاً كانت دافعاً قوياً لكثير من العلماء الذين شاركوا في «مشروع مانهاتن» والذين مرروا أسرارهم إلى السوفييت بعد أن كانوا قد ساعدوا الولايات المتحدة على تطوير القنبلة الذرية في الحرب العالمية الثانية. معظمهم كان قد فر من أوروبا، وهم إما كانوا مع الاتحاد السوفييتي، الذي تحمَّل العبء الأكبر في محاربة النازيين، أو فقط لأنهم كانوا يعتقدون بأن السلام يتطلب ألا تكون أميركا هي الوحيدة التي تمتلك القنبلة. الاعتبارات الإيديولوجية يمكن في بعض الأحيان أن تعمل في الاتجاه المعاكس: الكولونيل أوليغ بينكوفسكي، الذي كان يُعتَبر أهم جاسوس غربي في الاتحاد السوفييتي في أوج الحرب الباردة، مرر أسرار بلده إلى بريطانيا العظمى والولايات المتحدة لحرصه البالغ على مستقبل روسيا في عهد نيكيتا خروتشيف.

خيبة الأمل من الشيوعية، التي حدثت بعد مناهضة الستالينية في الخمسينيات والستينيات، زادت إلى حد ما من تأثير الدافع الرئيسي الثاني لارتكاب الخيانة:

الأمريكيين الذين عملوا في الاتحاد السوفييتي في فترة الثمانينيات، وذلك مقابل 4.6 مليون دولار. لكن العميل في مكتب التحقيقات الفيدرالية روبرت هانسن يرى في هذه الخيانة أمراً خطيراً على اعتبار أن مرتبه البالغ 1.4 مليون دولار كان أقل، ويرى هانسن أن المال لم يكن الدافع الوحيد: فالدراسات التي تناولت هذه القضية ترى شبكة كاملة من التعقيدات والتناقضات الشخصية، مثل الميل نحو المخاطرة، ميول جنسية شاذة، و«أنا» محطّمة، لتجتمع كلها وتشكّل حافزاً قوياً لخيانة بلده.

مع ذلك كله، قلما يكون الجشع كافياً وحده للقيام بعمل ينطوي على قدر كبير من الإشكالات الأخلاقية والمخاطر الشخصية مثل خيانة المرء لبلده. وبحسب الدراسات، فإن مثل هذا السلوك يرتبط بأنماط شخصية معينة، ومن أقواها الميل إلى تقسيم ولاءات المرء، بما في ذلك الميل لإقامة علاقات خارج إطار الزوجية. وهناك أيضاً النزعة النرجسية وحب الذات، الذي غالباً ما يتجلّى في اضطرابات في العلاقة مع الرئيس أو الشريك، والشعور بعدم تقدير مواهب المرء أو إنجازاته. هناك دراسات أخرى تناولت حالات الفارّين والخونة خلال الحرب الباردة، لاحظت أن كثيرين منهم كانوا يعانون من الفقدان المبكر لآبائهم أو إشكالات في العلاقة معهم. وبحسب تلك الدراسات فإن الشعور بالفقدان يجري تصريفه كفعل أو دافع لتقديم خدماتهم للأعداء[36].

كل تلك الدراسات يمكن أن تساعدنا في فهم الأسباب التي جعلت أشرف مروان يقرر تقديم خدماته للاستخبارات الإسرائيلية. وهنا يبرز بشكل خاص عاملان واضحان. الأول هو المال؛ كان مروان تواقاً للحياة المترفة، والفترة التي قضاها في لندن أظهرت له بشكل واضح ما يمكن أن يكون عليه ذلك. انضمامه للعائلة الرئاسية جعله على احتكاك بطيف واسع من الأثرياء في داخل مصر وخارجها، لكنه في الوقت ذاته قلل من فرصه في أن يصبح هو نفسه ثرياً وذلك بسبب النزعة التقشفية

المساعدة التي تلقاها من آل الصباح وأد هذه الفكرة. وهكذا أصبح واضحاً له أنه إذا ما أراد تحقيق أحلامه فإنه بحاجة لمصدر دخل لا يمكن حتى لمخابرات ناصر كشفه.

الدافع الثاني كان الغرور؛ إنه أفضل تفسير للسبب الذي جعل مروان يختار الموساد من بين جميع وكالات الاستخبارات الأخرى. فبزواجه من ابنة الرئيس والانضمام لدائرة السلطة في مصر، حقق هذا الشاب الوسيم والموهوب والطموح نجاحاً يفوق أقصى أحلام أي شاب مصري آخر في عمره. لكن طموحات أشرف مروان كانت أبعد، فثقته اللامحدودة بنفسه جعلته يتوق إلى السلطة والنفوذ اللذين شعر أنه يستحقهما. لكنه فشل في الحصول على ذلك من محيطه، لا بل أن ما حصل عليه من عمه كان على نقيض ذلك تماماً. مرتب مروان كان زهيداً، ومكانته بالكاد كانت ملحوظة بين من حوله وهم ليسوا متزوجين بابنة الرئيس. شعوره بأنه كان مشبوهاً، وأن أقل حركة منه تخضع للتدقيق، كان يطارده دائماً. لا شك أنه فهم بأن ناصر لا يثق به كثيراً. والضغط الذي مارسه ناصر على ابنته لإقناعها بطلاق مروان كان تعبيراً صارخاً عن ذلك، وهو تذكير دائم بإمكانية أن يجد نفسه ذات يوم مُبعَداً عن العائلة. بالنسبة إلى مروان، كان هذا الخطر المحدق مدعاة للخزي أيضاً. ليس فقط لأنه لا يمتلك أي سبب للاعتقاد بأن الأمور يمكن أن تتحسن في المستقبل، بل لأن حالة الغرور المتقدمة لديه اصطدمت بانعدام الثقة التي تلقاها والتي خلقت، كما هو واضح، حاجة ماسة لديه للحصول على ثمن من العالم الذي حوله، العالم الذي يقف عائقاً في طريقه. عليه أن يريهم من هو أشرف مروان.

وما هي أفضل طريقة كي يريهم؟ إنها بتقديم ولائه لألد أعداء ناصر، العدو الذي ألحق بمصر قبل ثلاث سنوات الهزيمة الأكثر إذلالاً، وإلحاق العار بالرئيس وإيذائه بطريقة لم يسبق أن فعلها أحد من قبل. وسواء كان مروان يعي ذلك أم لا،

نفسها من خلال توقه اللامتناهي للمجد والسلطة والنفوذ، ومن خلال الإصرار على أن يتبع الناس مشورته. إنه يشبه في ذلك الكولونيل أوليغ بينكوفسكي من الاستخبارات العسكرية السوفييتية. كان بينكوفسكي مقتنعاً بأن سياسات خروتشيف تعرِّض وجود الأمة بأكملها للخطر ورأى في نفسه شخصاً يمكنه إنقاذ البلاد. تدل أنماط سلوكه وتفكيره إلى رجل كان مقتنعاً أن باستطاعته تغيير مجرى التاريخ، لا بل أن من واجبه القيام بذلك. وسنرى لاحقاً كيف أن مروان أيضاً كان يُظهر ميولاً مشابهة. لمس مشغّلوه في الموساد هذه السمات فيه وعرفوا كيف يستغلونها. والقرار الذي اتُخِذ بتقديمه لرئيس الموساد، تسفي زامير، كان في جزء منه نابعاً من قناعة بأن هذا الشاب بحاجة ليرى أن الإسرائيليين وحدهم هم من يقدِّر قيمته الحقيقية.

إذا ما نظرنا إلى الناحية الإيديولوجية بالطريقة المعتادة لن نجد أمامنا عاملاً ذا أهمية، فأشرف مروان لم يكن من محبي الصهيونية. لكن هناك ما يمكن تسميته بالمزايا التخيّلية، وهي جوانب من نظرته العامة قادته إلى نتيجة تفيد بضرورة أن يكون في صف الإسرائيليين. لقد أدى انتصار إسرائيل الكاسح في حرب الأيام الستة إلى إدارة مفتاح في رأسه. لم يكن شخصاً يمكن أن يتقبل إذلال بلاده ببساطة. شعور كهذا كان قد خيَّم على مصر بأكملها، وطبعاً ترك أثره الأكبر على المقربين من ناصر. لكنه بتبديل ولائه الداخلي إلى صف الإسرائيليين ووضع نفسه في جانب المنتصر استطاع إيجاد سبيل للخلاص من عذاب الهزيمة. الإسرائيليون الذين تكلموا معه لمسوا لديه حاجة عاطفية عميقة كي يكون إلى الجانب صاحب اليد العليا في الصراع العربي الإسرائيلي، مهما يكن هذا الجانب. وكما سنرى لاحقاً، كان لحرب أكتوبر، وخاصة بعد استعادة الفخر المصري الجريح، تأثيرٌ عكسيٌ على مروان إذ إنها قوضَت دافعه للعمل مع الموساد.

من الوارد أيضاً أن يكون لحرب الأيام الستة أثر آخر كذلك. إن أحد أعظم

العالمـي بعد أن كانوا مهمشـين لقرون أمام القـوى الأوروبية. لقد نما جيل كامل في جو من الحماسـة مصحوبة بالشـعارات التي كان يرددها ناصر: ارفع رأسـك يا أخي! فقـد مضـى عهد الاسـتعباد. لكن حرب الأيام السـتة هبت رياحها بعكس ما تشـتهيه سـفن ناصـر، فقد فشـل في قيادة مصر إلـى تلك الحداثة التي كان مـن المفترض بها أن تُجنِّـب مصـر هذا النوع تحديـداً من الإذلال. وهكذا انصبـت خيبة الأمل القومية بعد الحرب في أحد اتجاهين رئيسين: الأول كان الإسلاموية، التي جاءت كانعكاس للبحـث عـن مصـادر جديـدة للإيمان. أمـا الاتجـاه الثاني فـكان نوعاً مـن العدمية، والتخلـي عـن الإيمـان بأي فكرة قوميـة أو دينية أو اجتماعيـة والبحث بدلاً من ذلك عن الكسب السريع كمفتاح للتحقق على المستوى الذاتي بعيداً عن مصير الجماعة. وعلى الأرجح أن يكون مروان قد دُفِع في الاتجاه الثاني.

فـي النهايـة يجب علينا ألا ننسـى أن مروان لم يكن شـخصاً عادياً. أحد ضباط الموساد الذين كانوا على معرفة وثيقة بحالته وصفه بأنه «معقّد للغاية» ولديه «تعقيدات خطيـرة». سـلوكه كان يتضمن حاجة للمحفزات، وهـذا غالباً ما يقود الناس لخوض المخاطر، سـواء على المسـتوى الجسـدي أو العاطفي. بعض الأشـخاص يلجؤون لتسلق الجبال أو القفز بالمظلة، لكن مروان لـم تكن لديه ميول رياضية وهكذا انغمس فـي القمـار، ولاحقاً في الصفقات المشـبوهة، وأحياناً في القيـام بمجازفات لا مبرر لها للقاء مشـغّليه الإسـرائيليين. على هذا الأسـاس سـيكون من الإنصاف الافتراض، بمعـزل عـن «أنـاه» المتضخمة، وعلاقته المحبطة مع ناصـر، وحاجته إلى المال، بأن فعـل الخيانـة بحد ذاته قد أعطى مروان إحساسـاً بالمغامرة كانت نفسـه الجامحة في أمس الحاجة إليه.

كل ذلك وصل إلى ذروته باتخاذه القرار، في صيف 1970، بالاتصال بالسـفارة الإسرائيلية في لندن.

الفصل الثاني

لندن، 1970: الاتصال[1]

شق أشرف مروان طريقه إلى الموساد الإسرائيلي عبر إحدى حجرات الهاتف الحمراء الشهيرة التي تميز لندن. زيارته إلى لندن كانت على علاقة بدراسته، بحسب الاتفاق بين ناصر ووالده. ادعى البعض لاحقاً أنه ظهر فجأة ذات يوم في السفارة الإسرائيلية طالباً التحدث مع ضابط الاستخبارات، لكن هذا غير صحيح. قد يكون مروان متهوراً أحياناً في تعامله مع الإسرائيليين، لكن اتصاله الأول انطوى على قدر كبير من التروي.

لم يكن العثور على عنوان ورقم هاتف السفارة يتطلب مهارات تجسسية فذّة، فهما موجودان في دليل الهاتف. حين أجابت عاملة المقسم، طلب مروان التحدث مع أحد من المخابرات. بالنسبة إليه، كان مثل هذا الطلب طبيعي جداً، ليس فقط لأنه يعرض نفسه على الاستخبارات الإسرائيلية، لكن لأن الشخص المسؤول عن المخابرات في عالم مروان كان دائماً الشخص الأقوى.

ربما لم تعرف عاملة المقسم معنى كلمة مروان، لكنها كانت تعرف البروتوكول. لم تكن تلك المرة الأولى التي تتلقى فيها اتصالاً من شخص يتكلم العربية ويطلب منها التكلم مع ضابط في الاستخبارات أو مسؤولاً عن الدفاع في السفارة. كانت الإجراءات واضحة، فحوَّلت المكالمة إلى مكتب الملحق العسكري.

رفع الملحق العسكري سماعة الهاتف ورد بتهذيب. عرَّف مروان عن نفسه بالاسم وطلب أن يتحدث مع ضابط الاستخبارات في السفارة. وكما فعلت عاملة

يستطيع تحويله مباشرة إلى ضابط الاستخبارات، لكنه اقترح عليه أن يترك رسالة، ووعده بأنه سيمررها إلى من له علاقة بالموضوع. فكرر مروان اسمه، مضيفاً أنه يريد أن يعرض خدماته على الاستخبارات الإسرائيلية. طلب منه الملحق العسكري تهجئة اسمه ثانية. رفض مروان أن يترك رقم هاتف يمكن الاتصال به عليه، فطلب منه الملحق العسكري أن يتصل ثانية. وانتهت المكالمة.

تناول الملحق العسكري الورقة التي كتب عليها اسم مروان والتفاصيل الأخرى ووضعها في علبة البريد الصادر على مكتبه، وبقيت هناك. إذ لم يكن الملحق العسكري في لندن في تلك الفترة على علاقة طيبة بالممثلين المحليين عن الموساد.

بعد خمسة أشهر من محاولته الأولى، أي في أواخر عام 1970، عاد مروان إلى لندن وقرر أن يحاول ثانية. لكن بين محاولته الأولى والثانية كان قد حدث تطور مهم: عمه، أعظم قائد عربي منذ صلاح الدين، كان قد توفي على إثر أزمة قلبية حادة. وكان لوفاة ناصر أثر كبير على مجرى الأحداث في مصر، بل وفي العالم العربي كله، وعلى الصراع العربي الإسرائيلي. كما أنها أحدثت تغييرات في حياة أشرف مروان. الشيء الوحيد الذي لم يتغير كان عزم مروان على العمل مع الموساد.

اتصل مروان ثانية بالسفارة وتم تحويله مجدداً إلى الملحق العسكري وكان شخصاً آخر هو اللواء شمويل إيال، وهو قائد كبير استلم مناصب عليا عدة في الجيش منها فرع إدارة الموارد البشرية في قوات الدفاع، وكان قد تحوَّل للتو إلى لندن بناءً على أوامر جديدة استجدت نتيجة استهداف السفارات الإسرائيلية في أوروبا. طلب مروان مجدداً التكلم مع ضابط الاستخبارات، وهذه المرة ترك رقم هاتف للاتصال به، لكن إيال شرح له ضرورة أن يحضر شخصياً إلى السفارة. أوضح له مروان أنه شخصية معروفة ولا يمكنه ذلك، لكن إيال أصر على موقفه، ومضت أيام عدة دون أي تقدم. فعلى غرار سلفه، كانت علاقة إيال مضطربة مع موظفي الموساد المحليين،

الأخيرة. في أواسط كانون الأول، وصل مسؤولان كبيران في الموساد إلى لندن في مهمة منفصلة. أحدهما كان ريهافيا فاردي، رئيس تيزموت (Tzmot)، جناح الاستخبارات البشرية هومنت (Humint) في الموساد. بعمر الرابعة والسبعين ورأس أصلع، كان فاردي معروفاً كمحترف من الطراز الأول، يتمتع بخبرة واسعة. بدأ عمله في الاستخبارات قبل قيام دولة إسرائيل عام 1948، حين كان ضابط استخبارات في الهاغانا (Hagana) في منطقة شارون. وبعد تشكل الكيان عمل في الاستخبارات العسكرية، وفي عام 1950 استلم قيادة فرع هومنت لدى الاستخبارات العسكرية. ثم تولى لاحقاً مسؤولية جميع عمليات جمع الاستخبارات لدى الاستخبارات العسكرية، وهناك تعلّم الرصد التكنولوجي سيغينت (Sigint) أيضاً. عام 1963 تم تعيين اللواء في الاستخبارات العسكرية مائير عاميت رئيساً الموساد، وأخذ فاردي معه لإدارة عمليات هومنت. وفي السياق ذاته كُلِّف فاردي أيضاً بالعمليات الخاصة، وأشهرها عملية هرب الطيار العراقي إلى إسرائيل عام 1966 جالباً معه طائرته السوفييتية المتطورة.

كان فاردي يتنقل في لندن بصحبة شمويل غورين، مدير عمليات الموساد في أوروبا. أصيب غورين مرتين في حرب 1948 تحت إمرة موشيه دايان، وبعد الحرب التحق بالاستخبارات العسكرية وتولى مهمة بإدارة العملاء. وبعد سلسلة من المناصب تتضمن كلها تعاوناً وثيقاً مع الموساد، تم تعيين غورين عام 1968 ملحقاً عسكرياً في السفارة الإسرائيلية في واشنطن. كان الرئيس الجديد للموساد، تسفي زامير، قد طلب منه قبل قبوله المنصب الجديد أن ينضم إلى منظمته، لكن غورين رفض. ثم عاد إليه زامير بعد عام وعرض عليه هذه المرة منصباً مهماً وهو رئاسة فرع الموساد في أوروبا، الذي يعني عملياً أوروبا الغربية. أعطى السفير الإسرائيلي في واشنطن، إسحق رابين، ورئيس الاستخبارات العسكرية آهارون ياريف موافقتهما،

الموساد المحلي، واتفق الأربعة على الذهاب إلى مطار هيثرو حيث كان لدى رئيس الاستخبارات العسكرية استراحة توقف في طريقه إلى الولايات المتحدة. في السيارة، ذكر إيال موضوع الشاب العربي الذي ظل يتصل أياماً عدة عارضاً خدماته، مع تكرار رفضه القدوم إلى السفارة. وعند سؤاله عن الاسم، قال إيال إنه يسمي نفسه أشرف مروان.

تبادل فاردي وغورين ورئيس الفرع النظرات. لقد كانوا يعرفون الاسم جيداً.

كان مروان تحت أعين الموساد لفترة من الزمن. وكان فرع لندن، الذي كان في بحث دائم عن مصادر جديدة من الجانب العربي، يحتفظ بسجلات عن صهر عبد الناصر منذ لحظة وصوله إلى لندن. كانوا على علم بتوقه للمال، حتى وإن لم يعرفوا التفاصيل، وكانوا يعرفون أنه أجبِر على العودة إلى مصر. بمعنى آخر، كانوا يعرفون أن المال يمكن أن يكون عاملاً حاسماً لتحفيز مروان على بيع أسرار بلده. قربه من عبد الناصر واطلاعه على المواد التي كانت تمر عبر مكتبه يمكن أن يجعلا من مروان مصدراً بالغ القيمة. لكن حتى تلك اللحظة، كانت تلك العوامل نفسها تُصعِّب فكرة أن يقبل مروان بالعمل مع الموساد. فجاء ما قاله إيال بشكل شبه عابر ليغير الصورة بأكملها.

الخوف من أن يغادر مروان لندن ثانية دون إجراء اتصال ناجح معه الآن عجَّل في سير الأحداث. ولعدم علمهم بالوقت المتاح لهم للعمل على الموضوع، كان عليهم الارتجال والتعامل بمرونة مع القوانين المتعلقة بمقابلة العملاء. وفي الحال تم توجيه رسالة إلى مركز الموساد الرئيسي في تل أبيب، لكن غورين، الذي كان يبذل أقصى طاقته في إدارة عمليات الموساد في أوروبا الغربية، لم ينتظر أن يقوم المحللون في الديار بدراسة الموقف من جميع الزوايا والموافقة على مقابلة العميل المُنتَظر. وما سهَّل الأمر اتفاقه هو وفاردي، وهما اثنان من أهم موظفي الموساد،

استلم الرسالة من الملحق العسكري، وكان من الممكن لأي تأخير أن يؤدي إلى فقدان الاتصال بمروان.

مع ذلك، لم يكن موضوع مقابلة مروان بالقرار السهل، فمروان كان شخصاً يُسمى بلغة الاستخبارات «الطارق (walk–in)»، وهو شخص من الجانب المعادي يظهر فجأة ذات يوم ويعرض خدماته. هذا النوع من المتطوعين تتحاشاه وكالات الاستخبارات بشكل عام، وفي أغلب الأحيان بسبب الاحتمال الكبير في أن يكون ذلك نوعاً من الفخ. على سبيل المثال، اكتشفت وكالة الاستخبارات المركزية CIA مؤخراً درجة التعقيد التي انطوى عليها العمل مع أمثال هؤلاء المتطوعين عام 1962 حين عرض ضابط في KGB اسمه يوري نوسينكو خدماته على CIA ثم انقلب على الولايات المتحدة بعد عامين. سرعان ما اقتنع جيمس جيسس أنغليتون، رئيس فرع مكافحة التجسس في الوكالة، بأن نوسينكو كان عميلاً مزدوجاً أرسله KGB لإبعاد الشكوك التي كانت تدور حول لي هارفي أوسوالد لاحتمال أن يكون قد تدرَّب على يد السوفييت لاغتيال الرئيس كينيدي. الآخرون في CIA ومنظومة الاستخبارات الأمريكية في الخارج رفضوا نظرية أنغليتون ورأوا في نوسينكو فارّاً حقيقياً ويجب التعامل مع معلوماته بصدقية. بقيت المسألة بين أخذ ورد لسنوات، وأدت إلى تمزيق قسم كبير من عملاء الوكالة الموجودين في الاتحاد السوفييتي في فترة الستينيات[2].

كان الموساد مطلعاً على كامل تفاصيل قضية نوسينكو. فأنغليتون لم يكن، في النهاية، مسؤولاً فقط عن مكافحة التجسس بل أيضاً رجل إسرائيل في عالم الاستخبارات الأمريكية. وقد رأى فيه الموساد وCIA على حدّ سواء أفضل صديق لإسرائيل في الوكالة، وما من شك في أن نوسينكو كان أحد المواضيع الرئيسية التي كانت تتناولها النقاشات بين أنغليتون وعملاء الموساد في واشنطن. من هنا يمكن أن نفترض أن غورين أيضاً كان على اطلاع كامل بالقضية. ومع أن الاستخبارات

MI5 أن الموساد يقوم بأنشطة في وسط لندن بعد أن تعرِّيه الاستخبارات المصرية. والأسوأ من ذلك كان احتمال أن تحاول وكالة استخبارات عربية أو مجموعة فلسطينية اغتيال عملاء الموساد حين يظهرون في اجتماع مع شخص يدعي أنه أشرف مروان. لكن مقابل هذه المخاوف كان يبرز اعتبار يضاهيها جميعها: الجائزة ستكون في غاية الضخامة والغنيمة الاستخباراتية المُحتَملة عظيمة جداً، وهذا يعني وضع بقية الاعتبارات جانباً.

جميع تلك الاعتبارات انصهرت في قرار سريع واحد اتخذه الرجال الأربعة وهم في طريقهم إلى مطار هيثرو. أوقفوا السيارة، وترجل منها رئيس فرع الموساد عائداً إلى السفارة.

لم يمضِ وقت طويل حتى كان رقم الهاتف الذي تركه أشرف مروان يرن. تم إخباره أنه سيتم ترتيب اجتماع معه في وقت قريب، وأُعطي رقم هاتف في لندن ليتصل عليه كلما أراد التواصل مع الاستخبارات الإسرائيلية. طُلِب منه ألا يبتعد عن هاتفه حتى يتلقى اتصالاً فيه تفاصيل اللقاء. وفي تلك الأثناء عاد فريق الموساد في لندن للعمل على التحضيرات.

كان الوقت قد تأخر، فقرروا إرجاء اللقاء إلى اليوم التالي. وحدث اللقاء في بهو أحد الفنادق وسط لندن. إذا مضى كل شيء تبعاً للخطة، سيتكلم مروان مع مرشده دقائق معدودة في البهو ثم يصعدان إلى غرفة محجوزة مسبقاً في أحد الطوابق العلوية، حيث يمكنهم التكلم بحرية.

الملاحظة الصغيرة فرضت عبئاً كبيراً على كاهل المسؤولين عن تأمين الموقع، لكن فرع الموساد في لندن تكفل فوراً بالترتيبات الضرورية. كل ما تبقّى كان اتخاذ قرار بشأن من سيقود الاجتماع. لكن من خلال حوار مقتضب بين غورين ورئيس الفرع استقر رأيهما على رجل اسمه دوبي (كنيته لا تزال سراً رسمياً). كان الرجل

في بداية القرن، وبرغم ملامحه الأوروبية فإنه كان يتكلم العربية بطلاقة. وكان ذلك أمراً في غاية الأهمية لأنه لم يكن أحد في فرع الموساد يعرف مدى قدرة مروان على تكلم الإنكليزية.

تقرر عقد الاجتماع مساءً. وأخذ عملاء فرع الموساد في لندن مواقعهم خارج الفندق للتأكد من عدم وقوع مكيدة. جلس غورين على أريكة في البهو، متظاهراً بأنه يقرأ صحيفة وعينه مسمرة على المدخل. وكان يُخفي في الصحيفة صورة لأشرف مروان. أما دوبي فانتحى جانباً بما يتيح له التواصل البصري مع غورين.

لم يَطُل انتظارهما. وفي تمام الوقت المتفق عليه مع مروان، دخل البهو، حاملاً حقيبة يد سوداء. تعرَّف دوبي عليه فوراً من خلال الأوصاف التي حصل عليها: طويل، نحيل، أسمر. وتعرَّف عليه غورين أيضاً لكنه أراد التأكد. رمق الصورة ثم نظر مجدداً إلى الرجل. كانت الصورة من عرس أشرف ومنى قبل أربع سنوات وتم اقتطاعها من صحيفة مصرية. تردد غورين. نظرة أخرى على الصورة، ثم نظرة ثانية على الرجل الواقف في البهو، وكان ذلك كافياً. نظر إلى دوبي وأومأ له إيماءة خفيفة. وقف مروان متوتراً بينما كان دوبي يتقدم منه، ماداً يده بابتسامة.

«السيد مروان»، قال له بعربية طلقة. «يسرني لقاؤك. اسمي أليكس».

كانت الدهشة واضحة على الشاب المصري من العربية الطلقة. كان نفسه قلقاً أيضاً من احتمال أن يقع في فخ تنصبه له المخابرات المصرية. فأجابه بالإنكليزية، «هل أنت إسرائيلي؟».

انتقل دوبي مباشرة للتكلم بالإنكليزية، مؤكداً أنه إسرائيلي ومحاولاً تهدئة أعصاب الرجل. تبادلا بضع كلمات أخرى، ثم اقترح دوبي أن يصعدا إلى غرفة حيث يمكنهما التكلم بحرية. أومأ مروان موافقاً. أما غورين، الذي لم يكن بعيداً عنهما، فتنفس الصعداء حين رآهما يسيران باتجاه المصعد. لقد تم الاتصال الأولي

من هو. كان دوبي متمرساً بما فيه الكفاية ليعرف أنه ليس مضطراً للإفصاح عن كل ما يعرفه. بدأ مروان بوصف نفسه مطولاً، منصبه الرسمي، زواجه من منى، علاقته مع عبد الناصر والسادات، وحقيقة أنه عمل في فرع المعلومات في المكتب الرئاسي تحت إمرة سامي شرف. حاول دوبي إحالة كل التفاصيل إلى الذاكرة.

شرح مروان دوره في العمل، مبالغاً قليلاً في تقدير أهميته. أما بالنسبة إلى دوبي فلم يكن السؤال المهم هو منصب مروان أو علاقته بخليفة عبد الناصر، وإنما طبيعة المعلومات التي تمر عبر مكتبه. فأثار المسألة بحرص وتهذيب. ابتسم مروان، بشيء من التفاخر. وأوضح أن المعلومات الأكثر أهمية في مصر كلها كانت مركّزة في يدي سامي شرف. طلب منه دوبي مزيداً من الإيضاح. هل كانت معلومات سياسية؟ عسكرية أو دبلوماسية؟ وعن العلاقات مع السوفييت؟ وكان مروان مستعداً للسؤال. التقط حقيبته، وأخرج منها أوراقاً عدة مكتوبة بخط اليد بالعربية، وقال لدوبي إنه يقدمها كعربون ثقة، وهي في غاية الأهمية لإسرائيل، وبدأ القراءة بصوت عال. أدرك دوبي، الذي كان مطلعاً إلى حد ما على المسائل العسكرية، أن مروان يُسلّم تفاصيل لمذكّرة في غاية السرية فيها فهرسة لأمر معركة موجه إلى كامل الجيش المصري. بدأ دوبي على الفور بتسجيل تفاصيل القطعات، مواقعها، قادتها، ومدى أسلحتها. متوقفاً من حين لآخر للاستيضاح من مروان عن نقطة أو أخرى. حين انتهى مروان من القراءة، نظر ضابط الموساد إلى المذكرة. كانت مدهشة.

استعداد مروان لتقديم معلومات في غاية الحساسية عن القدرات العسكرية المصرية شجّعت دوبي على طرح أسئلة أكثر تحديداً. كانت إسرائيل قلقة منذ سنوات من احتمال أن تكون مصر قد طوّرت أسلحة غير تقليدية. في بداية الستينيات، كانت الوكالة قد أطلقت حملة مثيرة للجدل لإيقاف عمليات العلماء الألمان العاملين مع المصريين على تطوير أسلحة بيولوجية وكيميائية. وفي أواسط الستينيات، استخدمت

فكرة استخدام الأسلحة الكيميائية ضد المدنيين مسألة في غاية الحساسية. ولهذا كانت المعلومات المتعلقة بالأسلحة الكيميائية المصرية تحتل الأولوية بالنسبة إلى الموساد. كانوا يعرفون أن مروان يحمل إجازة في الكيمياء وأنه عمل ككيميائي في الجيش، وأرادوا أن يعرفوا كل ما يمكن أن يطلعهم عليه. وهكذا سأل دوبي. مستفسراً على وجه التحديد عن النشاطات الدائرة في أبو زعبل، شمال غرب القاهرة، حيث تنتصب المنشآت الكيميائية المدنية والعسكرية جنباً إلى جنب.

تفاجأ مروان من منحى السؤال. لم يفهم السبب الذي يجعل الإسرائيليين قلقين إلى هذا الحد من هذا المجال على وجه التحديد. ومع أنه لم يعمل من قبل في أبو زعبل، لكنه كان قادراً على إعطاء معلومات مهمة ودقيقة عما كان يجري هناك. تابع دوبي تدوين كل شيء. وحين انتهى، سلّمه مروان ظرفاً يحتوي وثيقة أخيرة، وضعها دوبي في حقيبته دون أن يفتحها، وأومأ مروان موافقاً. ولغاية يومنا هذا، لم يتذكر أحد، أو يرغب في الإفصاح عما كان في ذلك الظرف.

لم يتطرق مروان ولو لمرة لموضوع الأجر، وبطريقة النبلاء، ترك هو ودوبي مثل هذا الموضوع الشائك لوقت آخر. طبعاً من الواضح أن المصري لن يعمل مع الموساد كمتطوع، لكنه حاول من جهته أن يبرز قيمة مساهمته قبل أن يناقش موضوع الأجر. وقد تصرف دوبي من جهته بحكمة ولم يخاطر بتعكير الجو. وسرعان ما بنى الاثنان جسوراً متبادلة من الثقة، واستطاع دوبي أن يتلمس شخصية مروان ومعدنه الجيد وحس الدعابة لديه، بينما وجد مروان في دوبي محاوراً مثقفاً وشخصاً جدياً وموثوقاً. من المعروف جيداً أن بوادر العلاقة بين المرشد والعميل يمكن أن تترك أثراً كبيراً على قدرة المصدر على المساهمة على المدى الطويل، ومن هذه الزاوية يمكن القول إن لقاء الموساد الأول مع صهر الرئيس المصري السابق كان في غاية النجاح.

أسابيع ووعد بالاتصال لدى عودته. وطلب ألا يحضر في اللقاء التالي سوى اليكس، ووعده دوبي بذلك.

غادر مروان الغرفة، استقلّ المصعد نزولاً إلى البهو، ومشى خارجاً من الفندق. راقبه عملاء الموساد بينما كان يستدعي سيارة أجرة ويستقلها مغادراً. أما دوبي فتأكد من وجود كل المواد في حقيبته وتبعه بعد بضع دقائق. استقل هو الآخر سيارة أجرة، معطياً السائق عنواناً قريباً من السفارة الإسرائيلية، وليس عنوانها بالضبط.

لدى وصوله إلى مكتبه، وجد شمويل غورين بانتظاره. وبانضمام ريهافيا فاردي ورئيس الفرع إليهما، بدأوا على الفور بمراجعة الأوراق التي أعطاها مروان لدوبي. نظر غورين إلى الوثيقة التي في يده وقال: «مادة كهذه، من مصدر كهذا! إنه أمر لا يحدث إلا مرة كل ألف عام».

وجد التقرير طريقه إلى تل أبيب في اليوم التالي عبر البريد الدبلوماسي، ووصل إلى مكتب تسفي زامير، رئيس الموساد. كان يتضمن شرحاً عن الطريقة التي اتصل فيها مروان بالسفارة في لندن، الصدفة السعيدة التي لعبت دوراً في وصول الرسالة إلى مسامع مسؤولي الموساد المتوجهين إلى مطار هيثرو، اللقاء الذي دار بين مروان ودوبي في الفندق، ورواية دوبي المفصلة للحوار الذي دار بينهما. كان مسؤولو الموساد في لندن قد ترجموا معظم المستندات التي أعطاها مروان لدوبي إلى العبرية، وأرفقوها مع التقرير بالطريقة المُشفَّرة نفسها.

بمجرد انتهاء زامير من قراءة التقرير أدرك الطاقة الكامنة في مروان كعميل إسرائيلي. الوثائق بحد ذاتها كانت لا تقدر بقيمة. طلب عقد اجتماع لكل من له صلة بالموضوع، بمن فيهم شمويل غورين، الذي استُقدِمَ من بروكسل، وريهافيا فاردي، الذي كان قد عاد من لندن.

لم يزعج زامير أن المسؤولين اتصلوا بمروان دون انتظار التفويض. حين وصل

أكثر من عامين في المنصب، لا يزال يرى في فاردي شخصاً يمكن الاعتماد عليه. والأمر نفسه مع غورين، الذي انتقاه زامير بنفسه لترؤس العمليات في أوروبا الغربية. كان يعرفهما جيداً ولديه ثقة مطلقة بحكمهما المهني بشأن الطريقة المثلى لاغتنام فرصة هائلة. والأكثر من ذلك أن تحمُّل المسؤولية والارتجال لطالما كانا من الدعائم القوية التي ترتكز عليها عبقرية الوكالة. لهذا لم يوجِّه إليهما أي سؤال عما إذا كانا قد حصلا على تفويض لبدء الاتصال بمروان. بل كان الهاجس المركزي متمحوراً حول الخطوة التالية الواجب اتخاذها. فقام رئيس الموساد بإدارة الحوار.

وُلِد تسفي زامير عام 1925. وأمضى، لغاية انضمامه إلى الموساد عام 1968، جل حياته في الجيش. في سن السابعة عشرة، تطوَّع في البلماح، قوات النخبة في العصابات الصهيونية في فلسطين؛ وبانتهاء الانتداب البريطاني كان قد أمضى عشرة أشهر في معسكر اعتقال بسبب عمليات التهريب غير الشرعية للمهاجرين اليهود إلى فلسطين عبر الحدود السورية. في حرب عام 1948، وكان في الثالثة والعشرين، تم اختياره لقيادة الفوج السادس في لواء هارل المُكلَّف بمهمة المحافظة على الطريق مفتوحة بين السهول الساحلية وأورشليم القدس المحاصرة. وبعد الحرب شغل مناصب مهمة في القوات الإسرائيلية المُحدَثة، منها رئيس شعبة التدريب وقائد قيادة المنطقة الجنوبية. عُيِّن عام 1966 ملحقاً عسكرياً لدى بريطانيا والدول الإسكندنافية، وفي عام 1968 فاجأه رئيس الوزراء ليفي إشكول بطلبه منه أن يحل محل رئيس الموساد مائير عاميت. كان إشكول قد ضاق ذرعاً بعاميت الذي أصبح يُظهر ولاءً متزايداً لوزير الدفاع موشيه دايان، بينما يُفترَض به أن يتبع مباشرة لإدارة رئيس الوزراء. كان إشكول يريد رئيساً للموساد لا يخضع للاستثمار السياسي، ونُصِح بزامير المعروف باستقلاليته وحياده السياسي.

حين باشر زامير عمله في الموساد، أبدى موظفو الوكالة المهمون قلقاً من أن

في الاستخبارات العسكرية، والتي كانت تُركز على تنفيذ العمليات داخل أراضي العدو. عام 1963، حين تم تعيين مائير عاميت، الذي كان يخدم كرئيس للاستخبارات العسكرية، رئيساً للموساد أيضاً، انتقلت الوحدة 188 لتتبع الموساد، وانتقل ياريف معها. حين وصل زامير إلى الموساد عام 1968، كان ياريف يترأس وحدة العمليات القيصرية، المسؤولة عن عمليات الاغتيال، والتي تضم الوحدة 188 ووحدة أخرى كان يرأسها رئيس الوزراء اللاحق إسحاق شامير. رأى ياريف في نفسه مرشحاً لترأس الوكالة بأكملها؛ فصداقته مع رئيس الأركان شيم بارليف (حاييم بارليف) ونائب رئيس الوزراء إيغال عالون كانت تعني أن لديه فرصة كبيرة لذلك. لكن كان هناك مسؤولون مهمون آخرون في الموساد يرون إنه غير مناسب للمنصب وأصبحوا على قناعة بأنه تم إحضار زامير، الذي كان لواءً في الجيش وصديقاً لبارليف وعالون، لتحضير المنصب لياريف وتعبيد الطريق أمامه ليصبح لاحقاً رئيساً للموساد. بعضهم، ومنهم ريهافيا فاردي، أوضح بشكل قاطع أنه سيترك الموساد إذا ما حدث ذلك.

تحرك زامير بسرعة لتبديد الشكوك. وبخلاف سلفه، لم يُعيِّن نائباً له، وهو قرار يعكس قلة حساباته السياسية أكثر من فهمه للعمل. كان يشعر أن المهمة الرئيسية للنائب هي تولي الإدارة إذا ما حدث شيء للرئيس لكن، كما كان يشرح لكل من يسأله، لم يكن رئيس الموساد على الخطوط الأمامية وبالتالي فإنه لم يكن تحت تهديد مباشر بالاغتيال، أي أنه ليس بحاجة إلى نائب يمكن أن يُعقِّد عمله أكثر لكونه سيصبح فاصلاً بين الرئيس ووحداته العاملة.

أمضى زامير سنته الأولى من العمل في دراسة منهجية للمسائل الجوهرية في أنشطة الموساد. كان يمضي ساعات في مراجعة إضبارة كل عميل في الموساد، يجري الاستشارات مع فاردي ورؤساء أفرع تيزموت، ويتعلم كل ما أمكنه عن كيفية تقييم المصادر وتوظيفهم وإدارتهم وكيفية دفع طاقاتهم إلى حدودها القصوى، وغير

كبرى للاستخبارات في إسرائيل. وفي سياق ذلك أدرك زامير أيضاً مدى الهشاشة التي يمكن أن تكون عليها العلاقة بين العميل ومرشده، وكيف تُشكِّل قدرة المرشد على تلمُّس المتطلبات السيكولوجية للعميل وتلبيتها أمراً حاسماً في مسار العلاقة بينهما. بالطبع كان المال دافعاً جوهرياً لمعظم العملاء الذين عملوا مع الموساد، لكنه بعيد كل البعد عن أن يكون الدافع الوحيد.

أحدث زامير أيضاً تعديلات على أولويات الموساد في جمع الاستخبارات، إذ أراد من الوكالة أن تعمل بجهد أكبر على دعم المتطلبات العملانية للجيش. حين كان قائد المنطقة الجنوبية في وزارة الدفاع في بداية الستينيات، كان يشعر بأن الموساد لا يقدم له أي دعم على الإطلاق. الآن وقد بدأت تُقرَع طبول حرب الاستنزاف، كان على الوكالة تكريس أفضل جهودها لمساعدة الجيش، وخاصة على إعطائه تحذيرات مسبقة موثوقة بالهجمات المحتملة وجمع كل أنواع المعلومات التي يمكن أن تساعده على اتخاذ الإجراءات الدفاعية اللازمة في الوقت المناسب. في بداية تسلُّم زامير لمنصبه عام 1968 لم يكن السؤال عن احتمال وقوع هجوم مباغت أمراً ملحاً لكون الجيوش العربية، وخاصة الجيش المصري، لا تزال تضمد جراحها من حرب الأيام الستة، لكن هذا السؤال أصبح أكثر خطورة بعد أن انتهت حرب الاستنزاف عام 1970 وراح السادات يُهدد علانية بالعودة إلى القتال. وهذه المرة كانت الاستخبارات العسكرية تتوقع بأن الجيش المصري لن يلجأ لتكتيكات حرب الاستنزاف بل سيحاول عبور قناة السويس والتقدُّم في سيناء.

التعديل الثاني المهم على سلم الأولويات كان بخصوص جمع الاستخبارات من المصادر التكنولوجية (استخبارات الإشارة Signal Intelligence، أو سيغينت Sigint) بدلاً من الاكتفاء بالمصادر البشرية (الاستخبارات البشرية Human Intelligence، أو هومينت Humint). كان الموساد منذ بداية تأسيسه عبارة عن شبكة من موارد

التنصت. وقد قرر زامير الآن الاتكال أكثر على فرع سيغينت، بما في ذلك إنشاؤه لشعبة جديدة تُسمى كيشيت («القنطرة»). كان يمكن أن يبدو ذلك تعدّياً على مجالات كانت إلى حينه من اختصاص الاستخبارات العسكرية، لكن الصداقة الوطيدة بين زامير ورئيس الأركان حاييم بارليف ورئيس الاستخبارات العسكرية أهرون ياريف أبقت العلاقات بين أفرع الاستخبارات في حالة صحية.

قبل وصول زامير، كان رؤساء الموساد المتعاقبون يعانون من العلاقات المعقدة مع رؤساء الوزراء الإسرائيليين. كان إيسار هرئيل أحد أشد المعجبين بدافيد بن غوريون، لكنه وجد نفسه على صدام معه وانتهى أمره بتقديم استقالته من منصبه على خلفية قضية العلماء الألمان في مصر عام 1963. في السنوات التي تلت ذلك، كانت العلاقات بين رئيس الوزراء ليفي إشكول ورئيس الموساد مائير عاميت متوترة أيضاً. تورُّط الموساد المثير للجدل، ودون علم إشكول على ما يبدو، باختطاف وقتل زعيم المعارضة في المغرب، مهدي بن بركة، عام 1965 جعل الأمور أكثر تعقيداً من ذي قبل. مع تأسيس بن غوريون لحزب رافي، المنافس السياسي الأقوى لإشكول، وقلق رئيس الوزراء من التعاون الوثيق بين رئيس الموساد وبن غوريون، لم يكن لدى عاميت خيار سوى النأي بنفسه.

بخلاف أسلافه، كان زامير بعيداً عن جميع أشكال الارتباطات السياسية. وكضابط سابق في البلماح، كان يحرص على الروابط القوية مع إخوة السلاح من الأيام السابقة على نشأة الكيان، لكنه ظل بعيداً عن تجاذبات الأحزاب السياسية سواء في خدمته العسكرية أو في منصبه كرئيس للموساد. التقاه إشكول بضع مرات في سياق العمل، لكن لا يمكن لنا أن نجزم من خلال تلك اللقاءات وحدها إن كان إشكول يجده رئيساً مريحاً للموساد. لكنه كان متأثراً جداً بالتقرير الذي كتبه زامير حين كان ملحقاً عسكرياً في بريطانيا العظمى والذي نصح فيه بتقليل عدد الطاقم

علـى أي حـال، لم تتـح لزامير فرصة كافية للعمل مع إشـكول، الذي توفي في شباط 1969. أما علاقته الحقيقية فكانت مع خليفة إشكول، غولدا مائير. بالكاد كانت مائير تعرف زامير قبل توليها المنصب، لكنه سرعان ما فاز بثقتها وأصبح الناصح لها في المسـائل الاسـتخباراتية. «العمل مع زامير في غاية السهولة»، قالتها ممازحة ذات مـرة، «طالمـا أنك تنوي القيام بما يريده»[3]. ولو أنها كانت في ذات الوقت تعتمد في القضايا الأمنية الأشمل بشكل شبه حصري على حُكم وزير دفاعها، موشيه دايان.

لـم يكن ذلك يُشـكِّل مشـكلة على اعتبار أن دايـان كان يحصل على التقديرات الاسـتخباراتية مـن رئيس الاسـتخبارات العسـكرية أهرون ياريف، الـذي كان زامير يعمل معه بشـكل جيد. لكن في أكتوبر 1972 تم اسـتبدال ياريف باللواء إيلي عيزرا، وعندها اتسعت الهوة كثيراً بين التقديرات الاستخباراتية في كلتا الوكالتين. كان دايان ميالاً للاعتماد على تقديرات عيزرا، ولم تُبدِ مائير رغبة لتحديه في هذا الأمر. وهكذا بـدأ الشـعور بالإحباط يتزايد لدى زامير. كانت قناعته هـو، بناءً على عدة مصادر من أهمهـا أشـرف مـروان، بأن مصر مُقدِمة على حرب. لكن الاسـتخبارات العسـكرية، وخاصـة عيـزرا، كانـت ترى الأمـور بطريقة مختلفـة. وبما أن دايان يتـكل بقوة على عيزرا، وغولدا مائير تتكل بقوة على دايان، تم تحجيم زامير، وأدرك هو ذلك.

سنرى لاحقاً كيف كان يمكن لمثل هذه الكوكبة أن تكون مدمرة لإسرائيل. أما الآن فيكفـي القـول إنه في نهاية عام 1970 كان تسـفي زامير قد اكتسـب ما يكفي من الخبرة ليقود مناقشـات الموساد بشأن السـعي للحصول على خدمات أشرف مروان أم لا.

كانت مجموعة صغيرة لكنها فائقة الخبرة تلك التي تولت المناقشـات بعد لقاء دوبي الأول مع أشرف مروان. زامير، فاردي، وغورين، وانضم إليهم كل من شلومو كوهين أبرابانيل، مسـؤول مهم في تيزموت ولاحقاً نائب رئيس الموسـاد، ونافوت،

على اتصال مع أعلى مراكز صنع القرار في مصر. الوثائق التي أعطاها مروان إلى دوبي كانت، أو كما تبدو، مجرد قضمة مما يستطيع الرجل تقديمه. ومن خلال الحديث الذي دار بينهما أوضح مروان أن باستطاعته أن يضع يده على جميع المواد التي تمر عبر مكتب الرئيس. المشاركون في النقاش تقبَّلوا الوصف الذي قدَّمه مروان لمكانته أو لما يستطيع الوصول إليه. وفي النهاية، وعلى المستويات العليا للحياة السياسية المصرية، ألن يكون الباب مفتوحاً دائماً لصهر عبد الناصر؟

النقطة الثانية التي حققت إجماعاً كانت بخصوص السؤال عما إذا كان مروان قد أُرسِل من المخابرات المصرية. وبعد معاينة المسألة من جميع الزوايا، استنتجت المجموعة أن احتمال أن يكون مروان غير ما يبدو عليه ضعيف جداً، ويرجع ذلك لثلاثة أسباب رئيسية. أولاً، لأنه لا يمكن سوى لأقوى وكالات التجسس أن تعرف كيف تُشغِّل عميلاً مزدوجاً على امتداد الوقت. البريطانيون كانوا الأفضل في ذلك، وخاصة خلال الحرب العالمية الثانية. السوفييت جيدون أيضاً، لكنهم ليسوا بمستوى البريطانيين. في الموساد كانوا يدركون مدى صعوبة تشغيل عميل مزدوج وامتنعوا عن ذلك كلياً. الوكالة الإسرائيلية الوحيدة التي كانت تستخدمهم هي الشين بيت، وخبرتها كانت محدودة. لم يكن يُعرَف عن المخابرات المصرية أنها بهذا التعقيد، والجهود التي كانوا يبذلونها لزرع الجواسيس في إسرائيل أوضحت أنهم ليسوا سوى منظمة هاوية أقصى نجاحاتها كان القضاء على المعارضة داخل مصر نفسها. كان ضباط الموساد مترددين تجاه التقليل من شأن أعدائهم، لكنهم وجدوا صعوبة في إعطاء المصريين تقديراً لا يستحقونه، انطلاقاً من آرائهم الاحترافية. على هذا الأساس قرروا أن احتمال أن يكون مروان مزروعاً من طرف المصريين ضئيل جداً.

السبب الثاني يتعلق بروابط مروان العائلية. إذا كان إرسال عميل عادي في مهمة عميل مزدوج أمراً بتلك الخطورة، فما بالك إذا كان هذا العميل هو صهر عبد الناصر

يمكـن أن يُقتَل أو يُسـجَن. لكن التكلفة سـتكون أعلى مـن أن تتحملها مصر، وذلك في جزء منه لكون مروان كان يعرف الكثير من أسرار الدولة، بما فيها الحياة الخاصة للشخصيات المصرية المهمة، وكل ذلك يمكن أن يصبح في يد الإسرائيليين.

الأمـر الأخيـر الـذي يجعـل فرضيـة العميل المـزدوج غيـر معقولـة كان نوعية المعلومـات التـي سـلَّمها مروان إلى دوبـي في لقائهما الأول. في الـدور الذي يلعبه العميل المزدوج مع مرشده المفترض، غالباً ما يُقدِّم العميل معلومات حقيقية، لكنها من النوع الذي سيبطل مفعوله بسرعة أو التي على الأرجح أن المتلقي يعرفها مسبقاً. أجل، يجب أن يكشف العميل بعض المعلومات الحقيقية كي يحقق عنصر المصداقية – معلومات يسـميها البريطانيون، الذين حوَّلوها إلى ضرب من الفن خلال الحرب، «طُعـم الدجـاج». قـد يكون أهم مثال على ذلك ما حدث عشـية غـزو نورماندي في حزيران 1944. حين قام خوان بويول غارسـيا، وهو عميل مزدوج يُشـغِّله البريطانيون تحـت الاسـم الحركـي غاربو، بتحذيـر الألمان من الغزو قبل سـاعات مـن وقوعه. وبالفعـل بـدأ الغزو وفق تحذيراته تماماً، ما أكسـبه مصداقية وأهمية في نظر الألمان. بعـد ثلاثـة أيام، أرسـل تحذيراً آخر يقول إن هجوم النورمانـدي كان تضليلاً يراد منه إبعاد القوات الألمانية عن منطقة الإنزال الضخم المخطط له في مضائق دوفر كاليه. صدَّقت الاستخبارات الألمانية بويول، واستمر الألمان في حشد قواتهم الأرضية في كاليه حتى نهاية حزيران. وحين أدركوا أنهم تعرضوا للخداع، كان قد فات الأوان. إذ كان الحلفاء قد أقاموا رأس جسر في النورمادي وتوغلوا عميقاً في فرنسا[4].

كان رجال الموسـاد يعرفون قصة بويول والتجارب المشـابهة، ودرسـوا بعناية الوثائق والمعلومات الأخرى التي أعطاها مروان إلى دوبي. لا يمكن لذلك أن يكون طُعم دجاج، فهي ليسـت موثوقة فقط بل وبالغة القيمة. هذا يسـتبعد أكثر احتمال أن تكـون الاسـتخبارات المصرية قد أرسـلت مروان. وحتى لـو كان عميلاً مزدوجاً فلا

عليه: واحدة تتألف فقط من موظفي الموساد، والثانية لجنة مشتركة مع الاستخبارات العسكرية. الأخيرة كانت نتاج تقليد قوي في مجتمع الاستخبارات الإسرائيلية يعتقد بضرورة فصل بعض الأشخاص المكلفين بتقييم العملاء الجدد عن وظائفهم وإشرافهم.

الإجماع حول هاتين النقطتين المبدئيتين مكّن زامير وفاردي وغورين والآخرين من تحويل النقاش إلى مسائل عملية أكثر. الأولى تتعلق بالدفع. لم يذكر مروان أي شيء عن الرقم الذي يتوقع الحصول عليه، لكن الجميع يعرف أنه لن يكون صغيراً. قبل أكثر من أربع سنوات، في آب 1966، دفع الموساد 50000 دولار للطيار العراقي منير روفا مقابل أخذ طائرته المقاتلة من طراز ميغ 21 والهبوط بها في قاعدة حتزور الجوية في إسرائيل. هذه العملية المثيرة التي تم التخطيط لها وتنفيذها بعناية فائقة سمحت للطيارين الإسرائيليين بدراسة الطائرة الحربية المهيمنة في الترسانة المصرية والسورية عن كثب، وساهمت إلى حد كبير في هيمنة إسرائيل على الأجواء خلال حرب الأيام الستة. بعد ذلك سمحت إسرائيل لخبراء من القوى الجوية الأمريكية بمعاينة الطائرة، ما ساعد على تعزيز الروابط الأمنية بين الإسرائيليين والأمريكان، الذين كانت طائرة ميغ 21 بالنسبة إليهم بمثابة لغز. كان مائير عاميت مستعداً لدفع ضعف المبلغ مقابل إقناع روفا بالانقلاب على بلده، لكن الأخير قبل بأول مبلغ عُرَض عليه. ومع ذلك، أمر كهذا لا يحدث إلا مرة واحدة. أما بالنسبة إلى مروان فهم يرون أنه يتوقع الحصول على دفعة في كل لقاء يُقدِّم فيه معلومات سرية، لكن ليس بوسعهم هنا سوى الانتظار وسماع السعر الذي يحدده.

هنا، ظهرت مشكلة أخرى. من خلال كل ما يعرفونه عن مروان، كان واضحاً أن سيل المال يمكن أن يؤدي لنمط حياة مسرف مفاجئ، ما يدفع للتساؤل إن كان يبيع أسرار الدولة. واجه الموساد هذه المشكلة في الماضي، لكن المبالغ كانت

لصفوة المجتمع المصري وأجمعوا على أن باستطاعة مروان إيجاد تفسير مقبول للتغير المفاجئ في نمط حياته. وعلى حد قوله في لقاء لاحق مع مرشده، في بلد مثل مصر، حيث تُشكّل الرشوة القاعدة وليس الاستثناء، لستَ مضطراً لأن تشرح من أين حصل صهر عبد الناصر على المال. الإجابات كانت واضحة وهي أنه لا مبرر لطرح الأسئلة.

السؤال الأخير كان حول الشخص الذي يمكن أن يكون مرشد مروان. كانت المشكلة معقدة، فالمرشد الناجح يجب أن يتمتع بمجموعة من المهارات والميزات البارزة. ذات مرة وصف جون لي كاريه، الذي عمل مع الاستخبارات البريطانية، المرشد الناجح بأنه يُقدِّم لعميله «صورة مُعلِّم، راعٍ، أب وصديق، كركيزة ومستشار زواج، كمسامح، مُرفِّه، وحامٍ...»[5]. كذلك كان المزاج السائد في الموساد أيضاً، وخاصة عند التفكير بكيفية التعامل مع شاب معقد مثل أشرف مروان. ينبغي أن يتمتع المرشد بصلاحيات لا محدودة، أن يكون كتفاً يتكئ عليه، ويمكن أن يساعده كي يعمل في غمار حياة مزدوجة خطرة. شخص مخضرم، خبير، حكيم، وحريص.

لم تكن تتوفر في دوبي جميع تلك المقومات، لكن تم اختياره للقاء مروان في لندن لسبب رئيسي هو عدم العثور على شخص آخر في الهامش الزمني الضيق. لكنه لم يكن خياراً طبيعياً. طُرح في النقاش الدائر الآن عدد من الأسماء، ومع ذلك أثبت دوبي منذ وصوله إلى فرع لندن بأنه الأوفر حظاً واكتسب سمعة بتحمله للمسؤولية واحترافيته، دقته والتزامه بالقواعد، وبأنه شخص يصف في تقاريره الأمور كما هي، دون تهويل. هذه الميزة الأخيرة في المرشد على درجة خاصة من الأهمية. عملاء مثل مروان يرغبون عادة بالعمل مع شخص واحد فقط، ما يعني أن المرشد هو المصدر الوحيد في الوكالة لمعرفة كل ما يجري على الأرض. كانت تتوفر في دوبي مزايا أخرى أيضاً. كان لديه سحر، وكياسة، وقدرة على توليد الكيمياء. كل تلك

من الواضح أن لقاءه الوحيد مع مروان سار بشكل جيد. ومن تقريره المقتضب ظهر جلياً أن الرابط بينهما قد تأسس. لكن نظراً للمخاطر الشخصية، أصر مروان على أنه لن يقابل أحداً غير «أليكس». وهنا كان يثير قلق زامير والآخرين عدم استعداد مروان لاستبدال المرشد في المرة التالية التي يأتي فيها إلى لندن، ولم يكونوا على استعداد للمغامرة. قد يولِّد استبدال دوبي لدى مروان شعوراً بأن الموساد لا يأخذ مطالبه على محمل الجد، وقد تضيع الفرصة الجديدة بسهولة. على هذا الأساس تم اتخاذ القرار، بعد مداولات مسهبة، بأن يستمر دوبي في التعامل مع مروان في الوقت الحالي. وبخلاف العملاء الآخرين، ستتم إدارة التعامل مع مروان بالرجوع إلى مراكز القيادة في تل أبيب. وهذا يعكس أهمية مروان غير الاعتيادية. بالنتيجة، سيصبح فاردي وزامير في الدائرة المباشرة المسؤولة عن التعامل مع مروان.

بهذا تم اختتام النقاشات بالتوافق على قبول عرض أشرف مروان، ولم يبقَ سوى سلسلة من الإجراءات البيروقراطية التي يتطلبها قبول أي عميل جديد. الأول كان اختيار اسم حركي لحماية هويته، وهذه مسؤولية فرع سوبونيت (subunit) في تيزموت. الأسماء كانت تؤخذ من لوائح مُعدَّة مسبقاً وتُعطى بشكل عشوائي. أعطيت لأشرف مروان عدة أسماء في البداية منها «باكتي» و«أتموس»، لكن تم الاستقرار على اسم الملاك «the Angel». الضابط الذي خرج بهذا الاسم كان مولعاً بالمسلسل التلفزيوني The Saint «القديس»، من بطولة روجر مور، والذي تم بيعه لإسرائيل تحت اسم حملاخ «الملاك» بسبب الوقع المسيحي للاسم الأصلي.

بعد سنوات، وبانتهاء حرب أكتوبر، ظهر جلياً كم كان الاسم الحركي ملائماً.

الفصل الثالث

نيسان 1971: الانضمام إلى الاستخبارات العسكرية

حدث اللقاء الأول مع أشرف مروان بعد قرابة أربعة أشهر من اتفاق وقف إطلاق النار في 7 آب 1970 الذي وضع حداً لحرب الاستنزاف بين مصر وإسرائيل. لم تعطِ حصيلة تلك الحرب الحكومة المصرية أي سبب للاعتقاد بأنها في موقع يؤهلها لإطلاق جولة أخرى من الأعمال القتالية، وخاصة إذا كانت تهدف إلى عبور قناة السويس واستعادة شبه جزيرة سيناء. صحيح أن الحرب أثبتت عزم مصر على تعويض خسارة حرب الأيام الستة، لكنها أثبتت أيضاً ضعف قدراتها العسكرية.

كانت الاستراتيجية التي اتبعها المصريون في حرب الاستنزاف تهدف إلى ثني عزيمة الإسرائيليين عن القتال من خلال السفك المستمر لدماء جنودهم. استفادت مصر من تفوقها في سلاح المدفعية، وكانت تمطر بشكل مستمر خطوط التحصينات الإسرائيلية على طول القناة والمعروفة بخط بارليف، والطرقات الواصلة بينها، والقيام بين حين وآخر بعمليات كوماندوس لقتل الجنود الإسرائيليين. الكلفة الإسرائيلية كانت باهظة لكنها محمولة. ففي سبعة عشر شهراً من القتال قتل 260 جندياً؛ أقل من نصف عدد ضحايا حوادث الطرقات السريعة في إسرائيل عام 1970. أما عدد الجنود المصريين الذين ماتوا في الحرب فغير معروف بدقة. أحد المصادر الأمريكية يقدر العدد بأقل من 5000، بينما تقدره المصادر الإسرائيلية بحدود 15000. هذه النسبة من الضحايا ليست الشيء الوحيد غير المحتمل لدى المصريين، فهي أيضاً تذكير دائم لهم بأن للإسرائيليين اليد العليا في أي معركة، سواء في الجو أو على الأرض.

من الطائرات في حرب فيتنام والتي بلغت أكثر من خمس عشرة مقاتلة F105 مقابل كل طائرة ميغ 21 لفيتنام الشمالية. في أواخر عام 1969، كانت هجمات سلاح الجو الإسرائيلي قد قضت على منظومات البطاريات المضادة للطائرات في مصر، تاركة البلاد برمتها مفتوحة للهجمات الجوية. وفي أوائل عام 1970 بدأت إسرائيل بعمليات القصف في عمق الأراضي المصرية، مهاجمة القواعد العسكرية في ضواحي القاهرة والإسكندرية وأي مكان آخر. لم يكن الهدف من تلك الهجمات إضعاف القدرات العسكرية المصرية فقط بل زعزعة نظام عبد الناصر وإجباره على الذهاب إلى وقف إطلاق النار. لكن جاء بعد ذلك السوفييت لإنقاذ مصر، فأرسلوا منظومة دفاع جوي متكاملة تتضمن أكثر من سبعين بطارية من نوع SA-2 وSA-3 مجهزة بصواريخ أرض جو وسبعين طائرة مقاتلة من طراز ميغ 21، وهي ترسانة مهمة وضعت حداً للهجمات الإسرائيلية في عمق الأراضي المصرية وعادلت، إلى حد ما، السيطرة على الأجواء. تصاعدت العمليات القتالية لتبلغ ذروتها في 30 تموز 1970، في معركة جوية إسرائيلية – سوفييتية خسر السوفييت فيها خمس مقاتلات بينما تضررت مقاتلة إسرائيلية واحدة. وبعد المعركة، وافق الطرفان على وقف إطلاق النار.

حين اتصل مروان بالسفارة الإسرائيلية في لندن للمرة الأولى، في حزيران، كانت حرب الاستنزاف في ذروتها. وفي أواسط كانون الأول، حين التقى أخيراً بدوبي، كان الطرفان قد وقعا اتفاقية تنص على وقف الأعمال القتالية لمدة تسعين يوماً وتم خرقه. ومع أن الاتفاق كان يتضمن التمديد لتسعين يوماً أخرى، كان من الواضح أنه في حال عدم إحراز تقدم دبلوماسي ملموس، يتضمن تعهُّد إسرائيل بالانسحاب من قناة السويس، ستكون معاودة القتال مسألة وقت لا أكثر. سرعان ما أصبح «الملاك» مورداً مهماً للإسرائيليين في محاولتهم فهم النوايا المصرية بخصوص الحرب، وهذا السؤال كان المهمة الاستخباراتية الرئيسية التي أوكلت إليه.

الجديد صورة رجل يواجه معضلة مستحيلة. من ناحية، كلما استعرض السادات الفرص المتاحة لهزيمة إسرائيل بطريقة عسكرية، كلما أدرك مدى قلتها وعدم جدواها. في نهاية حرب الاستنزاف، أصر بعض القادة على أنهم يعرفون كيف يسترجعون سيناء؛ لكن السادات لم يكن مقتنعاً بقدرة جيشه حتى على عبور قناة السويس. وكان يبدي اهتماماً أكثر بإطلاق عملية عسكرية محدودة تهدف لإعادة إسرائيل إلى طاولة المفاوضات. لكن حتى ذلك كان يبدو خطيراً؛ فقد حذرت إسرائيل علانية أنها لن تقف مكتوفة الأيدي أمام أي عمليات حربية تقوم بها مصر. وأقصى ما كان يربك السادات كان التفوق الجوي الإسرائيلي، الذي حوَّل الجبهة المصرية الداخلية إلى هدف هش. الطريقة الوحيدة أمام المصريين لإبعاد الإسرائيليين عن استخدام قوتهم الجوية بكامل ثقلها كانت بإقناع السوفييت إعطاء مصر بعض «أسلحة الردع» المهمة، تحديداً الطائرات الحربية بعيدة المدى التي يمكنها مهاجمة القواعد الجوية الإسرائيلية وصواريخ باستطاعتها الوصول إلى المراكز السكنية الإسرائيلية. لكن السوفييت، بدافع خوفهم من هزيمة أخرى لمصر وبهدف الحفاظ على توافق مع الأمريكيين، لم يستجيبوا لذلك. وهكذا، في بدايات عام 1971، أصبح السادات مقتنعاً بأنه لا يملك خياراً عسكرياً.

كانت الأبواب الدبلوماسية في الوقت نفسه، تبدو موصدة أيضاً. أجل، كان موشيه دايان يؤيد فكرة اتفاق تنسحب بموجبه القوات الإسرائيلية من ضفة قناة السويس، لكن بشرط ألا تدخل القوات المصرية إلى المنطقة التي انسحبوا منها، وذلك من أجل التمكن من إعادة فتح القناة وإنشاء منطقة عازلة تُصعِّب على المصريين أكثر استعادة سيناء بالقوة. لكن رئيسة الوزراء غولدا مائير كانت تعارض أي مبادرات دبلوماسية في تلك المرحلة ومنعت ديان من اتخاذ أي إجراء في ذلك الاتجاه. حين قدَّم السادات اقتراحاً مشابهاً في شباط 1971، بعد شهرين تقريباً من بدء

يشعر السادات به، مضيفا أنه حتى لو كان الرئيس الحالي أكثر انفتاحا من سلفه على الاتفاق السياسي، فإن أفضل ما يطمح إليه كان هدنة واسعة النطاق وليس اتفاقية سلام. كما شرح مروان المفهوم المصري الجديد للمعركة الهجومية الذي طوَّره وزير الدفاع محمد فوزي والنقاش العقيم مع السوفييت بشأن تزويدهم «بأسلحة الردع». من كل ذلك، أدرك الإسرائيليون مدى عدم واقعية الخيار العسكري بالنسبة إلى المصريين، ما أعطى تأييداً لموقف الحكومة الإسرائيلية، وخاصة غولدا مائير، التي كانت تعارض المساعي الدبلوماسية.

كان المقابل الذي حصل عليه مروان لقاء كل هذا متوسطاً نسبياً. كما حدث في لقائه الأول مع دوبي، لم يتطرق مروان في لقائهما الثاني لمسألة الدفع، تاركاً المسألة لتُطبَخ على نار هادئة ريثما يُقدِّر الإسرائيليون قيمته الحقيقية. وحين طُرح الموضوع في نهاية المطاف، تم الاتفاق على أن يحصل على دفعات مقدار الواحدة منها 10000 دولار من حين لآخر. لم يكن بالقدر الزهيد، لكنه كان معقولاً بالنسبة إلى نوعية المعلومات التي يقدمها، وخاصة الوثائق فائقة السرية من مكتب الرئيس التي بدأت تجد طريقها إلى مكاتب القادة الإسرائيليين بلمح البصر.

يمكن القول في الحد الأدنى إنها كانت بداية واعدة. لكن برغم اليسر الذي وجده «أليكس» و«الملاك» في توطيد علاقتهما، كانت هناك جهود تُبذَل باتجاه استبدال دوبي بمشرف آخر على مروان. المحرك وراء ذلك كان شمويل غورين، قائد العمليات في أوروبا الغربية. كان يعرف من خلال خبرته أن العلاقة بين المشرف وعميله يمكن أن تُشكِّل عائقاً، مثلاً، أمام الضغط على العميل لتسليم المعلومات اللازمة الملحة. لكن دوبي، بالرغم من جميع محاسنه، كان لا يزال جديداً نسبياً على العمل، وكان غورين يريد شخصاً أكثر خبرة. أو ربما كانت لدى غورين دوافع خفية، فعلاقته برئيس الفرع في لندن كانت متوترة، وكان يريد الحصول على تفويض مباشر

في الأمر لكنه قرر في النهاية عدم إجراء التغيير. لم تكن المرة الأخيرة التي يُطرَح فيها موضوع استبدال دوبي.

أصبح من الواضح مع تعاظم أهمية مروان، ضرورة تقديمه لعناصر من فروع الاستخبارات الإسرائيلية، أشخاص يمكنهم إضفاء خبراتهم الشخصية على الحوار. لم يكن ذلك أمراً غير اعتيادي، فبحسب التقسيم الذي كان مُعتمَداً في ذلك الوقت للعاملين في الاستخبارات الإسرائيلية، كانت الوكالة المسؤولة عن وضع التقييمات الاستخباراتية الوطنية هي الاستخبارات العسكرية؛ في حين كان الموساد في الأصل تحت إمرة رئيس الوزراء ومهمته تنفيذ العمليات في الدول العربية والأماكن الأخرى ذات الصلة. بعد ذلك كانت المعلومات التي يجمعها الموساد تُرسَل إلى شعبة الأبحاث في الاستخبارات العسكرية، التي كانت الزبون الرئيسي لمعلومات الموساد؛ حيث يتم هناك تحليلها مع المواد التي يجمعها الشين بيت والاستخبارات العسكرية نفسها، لتقوم شعبة الأبحاث في النهاية بوضع أولويات جمع المعلومات ومن ضمنها الأسئلة التي يريد الجيش إجابات عليها. الوحدة 11 في الاستخبارات العسكرية كانت مسؤولة عن العلاقات مع الموساد، وتُحضِّر الأسئلة وترسلها إلى فرع عمليات تيزموت في الموساد، الذي يقوم بدوره بتمريرها إلى المشرفين الذين لهم علاقة بالموضوع. تلك كانت الطريقة التي تم وفقها إدارة التعامل مع مروان منذ اللقاء الأول معه، وحتى أوائل ربيع 1971. كان على دوبي أن يطرح على نفسه الأسئلة التي أرسلتها الوحدة 11 ويكتب الأجوبة ثم يعيدها إلى شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية واستخبارات القوات الجوية.

كان التعاون بين الوكالتين يتضمن ممارسات أخرى أيضاً، بموجبها لا تقتصر علاقة العملاء رفيعي المستوى على مشرفيهم من الموساد فقط بل يلتقون أيضاً بخبراء مختلفين متخصصين في المسائل قيد النقاش، وهم عادة من شعبة أبحاث

العسكرية على ضوء أهمية المعارك الجوية في أي صراع مع مصر، وقدرة مروان على الوصول إلى مواد حساسة في ذلك المضمار، أنه من المفيد لو يقابله محلل من استخبارات القوى الجوية الإسرائيلية. لكن الرجل الذي يعتقدون أنه أفضل من يستفيد من اللقاء المباشر كان رئيس الفرع 6 (مصر) في شعبة الأبحاث، المقدم مائير مائير.

كان مائير مائير في عام 1971، قد أمضى عامين في رئاسة الفرع 6 في شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية، لكنه كان قد أمضى في الاستخبارات أكثر من ذلك بكثير. أُصيب في حرب عام 1948 إصابة بليغة في معركة الدفاع عن كيبوتس (مزرعة أو مستوطنة يهودية) نجبا (السهل الداخلي الجنوبي في النقب)، وهي معركة عنيفة أدت إلى إبطاء تقدم القوات المصرية إلى قلب المناطق الإسرائيلية. وبعد تعافيه من إصابته، انضم مائير إلى فرع الاستخبارات العسكرية الناشئ حيث اكتسب خبرة في حقل الاستخبارات، وتم اختياره في الاستعدادات لحرب 1956 لوضع الكرّاس الميداني لشبه جزيرة سيناء الذي سيستخدمه الجيش كمرجع رئيسي أثناء الحرب. كان هذا الكرّاس، الذي استعان فيه بمعطيات خبراء الجيولوجيا والموارد المائية والتنقيب عن النفط وغيرها، على درجة عالية من الدقة وأصبح دليلاً لا يمكن الاستغناء عنه للقوات المتقدمة في شبه جزيرة سيناء. بعد الحرب، تدرّج مائير في سلسلة من الوظائف في الاستخبارات العسكرية، منها ضابط استخبارات معاون لدى قائد المنطقة الشمالية وسكرتير قائد الاستخبارات العسكرية مائير عاميت. خلال الأزمة التي سبقت اندلاع حرب 1967، عمل معاوناً لقائد الاستخبارات العسكرية آهرون ياريف. لكن حين أغلق عبد الناصر مضائق تيران، قاطعاً حركة المرور البحرية عن ميناء إيلات في الجنوب، أصبحت الحرب مع مصر حتمية، وعندها حاول مائير الانتقال إلى عمل ميداني أكثر. فخدم خلال الحرب كضابط استخبارات في الوحدة

الضباط المصريين الأسرى، ليُعيَّن لاحقاً ملحقاً عسكرياً في باريس، وهو المنصب الأخير الذي تولاه قبل أن يصبح أهم خبير استخباراتي في الشؤون المصرية.

كان الفرع 6 (مصر) في أواخر الستينيات، أهم فرع في شعبة الاستخبارات العسكرية، ومن موقعه كقائد قام مائير مائير بجمع العقول الاستخباراتية الأكثر ذكاءً في البلاد. رئيس القسم العسكري، المقدم زوسيا كانيازر، كان رجلاً استخباراتياً فذاً. ورئيس القسم السياسي كان شمشون إسحاق، الذي ألف لاحقاً كتاباً عن التصورات العربية لحرب الأيام الستة، من واقع خدمته في الاستخبارات العسكرية. وسرعان ما تم استبداله بشخص مدني هو ألبرت سوداي، الذي كان أحد أهم الخبراء في الشؤون المصرية. ظهرت تحت قيادة كانيازر وسوداي مجموعة جديدة بالكامل من الضباط الشباب يتمتعون بمعرفة عميقة وواسعة بالأنظمة المصرية العسكرية والسياسية. وبخلاف بقية الفروع في شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية، كان الفرع 6 ضخماً لدرجة أنه لم يمكن استيعابه في مكان واحد. فصار مائير والقسم العسكري يعملون في الطابق نفسه مع رئيس الاستخبارات العسكرية اللواء أهرون ياريف، ويعمل القسم السياسي، مع بقية الضباط المتخصصين بمختلف دول شمال أفريقيا، مع رئيس شعبة الأبحاث العميد أرييه شاليف في طابق آخر ضمن مقر القيادة العامة للجيش.

دُعي مائير في أوائل نيسان 1971، إلى مكتب شاليف، وهناك وجد ياريف جالساً مع شاليف ومعهما قائد استخبارات القوى الجوية العقيد شمويل شيفر. لم يضيع ياريف الوقت، وقام بإعطاء مائير لمحة عامة عن مصدر جديد اكتشفه الموساد في مصر، وطريقة انخراطه. لم يكشف ياريف اسم المصدر، لكن مائير استنتج من المواد التي استلمها أنه مصدر استثنائي وشخص قادر على الوصول إلى المعلومات الأكثر حساسية على الجبهتين العسكرية والدبلوماسية، بما في ذلك معلومات عن

الاستخبارات العسكرية إلى اللقاء التالي مع العميل. ومن حضور رئيس استخبارات القوى الجوية، عرف مائير بأن الاجتماع سيضم أيضاً أحداً من القوى الجوية.

ختم ياريف كلامه بالطلب من مائير التوجه مباشرة إلى قيادة الموساد حيث سيستلم شرحاً للمهمة قبل سفره إلى لندن صباح اليوم التالي. علاوة على الهدف الرامي إلى جعل الحوار مع العميل مثمراً أكثر من وجهة نظر الاستخبارات العسكرية، كان الهدف الرئيسي من الاجتماع هو الاستفادة من خبرة مائير في الشؤون المصرية من أجل الإجابة عن سؤالين مفصليين: الأول، إن كان المصدر حقيقياً فعلاً أم فخاً؛ والثاني، إن كان يستطيع حقاً الوصول إلى المعلومات التي يدعي قدرته على الوصول إليها. وللإجابة عنهما، كان على مائير تحضير لائحة مفصلة بالأسئلة قبل الانطلاق إلى لندن.

لم يتفاجأ مائير على الإطلاق من كل ذلك، فقد توجب عليه منذ تكليفه بالمنصب السفر مرات عدة إلى الخارج للقاء مصريين يعرضون خدماتهم على الاستخبارات الإسرائيلية. الخوف الأكبر كان يتمثل دائماً في احتمال أن يكون هؤلاء الطارقون عملاء مزدوجين؛ وأفضل طريقة للتحقق من ذلك كانت في إرسال خبير يجري معهم حواراً طويلاً مفصلاً يتوضح من خلاله مدى تطابق المعلومات مع ما هو معروف مسبقاً، وإن كان ما يقوله المتطوع عن نفسه صحيحاً، والسبب الذي دفعه لخيانة بلده معقولاً. والأهم من ذلك أن مثل تلك المحادثات تُمكِّن الخبير من تكوين انطباعه المباشر الخاص حول القيمة المحتملة التي يعرضها المصدر.

لكن برغم خبرة مائير مع الطارقين المصريين، كان هناك ما يوحي بشيء مختلف حيال هذا. العجلة في الأمر ومشاركة رئيس الاستخبارات العسكرية بنفسه ونوعية المعلومات التي قدَّمها المصدر، كل ذلك كان يشير إلى شخص في موقع مختلف تماماً.

غيتا لن تسامحه أبداً إن لم يكن في المنزل للتحضير له. لكن كان عليه إخراج الفكرة من عقله، فرئيس استخبارات القوى الجوية يتكلم الآن. أخبر مائير أن جزءاً كبيراً من المعلومات التي نقلها المصدر تتعلق بالقوى الجوية المصرية وبطلبات شراء من الاتحاد السوفييتي، ولذلك سينضم إليهم ضابط استخبارات من القوى الجوية.

كان مائير قد سلك الطريق من مكتب ياريف إلى مقر الموساد عدداً لا يُحصى من المرات منذ انضمامه إلى شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية. وهكذا غادر مقر القيادة العامة للجيش متجهاً شمالاً إلى أن وصل إلى مركز الحرس عند بوابة المعسكر، عند ناصية شارع الملك شاؤول في تل أبيب. ثم استدار يميناً، وفي غضون خمس دقائق وصل إلى تقاطع الملك شاؤول ودفنا. المبنى الرمادي عند الزاوية كان حينها أحد أعلى الأبنية في تل أبيب، ويُعرَف باسم مبنى الجدار الصامت (Hadar–dafna). كانت قلة من الناس تعرف أنه يضم مقر قيادة الموساد. التف مائير إلى الجهة اليمنى للمبنى، نزل بضع درجات، ثم ضغط زراً على جهاز الاتصال الداخلي. عرفه الحارس، فقد كان قد تبلَّغ بحضوره. كان رئيس الفرع 6 في شعبة الأبحاث قد ترك بطاقته العسكرية، وأخذ بدلاً عنها بطاقة زائر، ثم دخل المصعد الضيق الذي أوصله إلى مكتب زامير.

كان يجلس في مكتب رئيس الموساد أربعة أشخاص. وكان مائير يعرف زامير من الفترة التي قضاها كضابط استخبارات في قيادة المنطقة الجنوبية، حين كان زامير قائداً لها. في بداية الستينيات، كانت العلاقات بين ضباط القيادة وثيقة وغير رسمية، وكانت قد تمت استضافة مائير وزوجته أكثر من مرة في منزل زامير. الرجل الثاني، ريهافيا فاردي، كان معروفاً أيضاً بالنسبة إليه؛ إذ كان مائير قد خدم تحت قيادة فاردي في قسم جمع العملاء في الاستخبارات العسكرية. النقيب يوآف داياغي كان ضابط أبحاث في استخبارات القوى الجوية، وهو مسؤول عن القوى الجوية المصرية،

جرت بعض المجاملات، ثم بدأ فاردي بعدها بتقديم إيجاز للرجلين العسكريين، مائير ودايانغي. لم يكشف كل شيء، لكن من النذر اليسير الذي باح به أصبح واضحاً مدى أهمية الموقع الذي يتمتع به هذا المصدر الجديد. أخبرهم كيف اتصل «الملاك» بالسفارة الإسرائيلية، وكيف كانت الفرصة على وشك أن تضيع، وكيف سار اللقاء بينه وبين دوبي في الفندق في لندن. تردد فاردي، وأضاف بحذر «إنه ليس بالمصدر العادي». «إنه ليس ضابطاً في الجيش أو دبلوماسياً. كان لدينا مثل هؤلاء في الماضي، ويمكن لنا الحصول عليهم في المستقبل. هذا المصدر مُقرَّب جداً من الرئيس، سواء من خلال موقعه أو من خلال روابطه العائلية». لم يشأ الخوض في التفاصيل أكثر، لكنه أكد لهم أن دوبي سيطلعهم على التفاصيل، بما في ذلك هوية «الملاك»، قبل لقائهم به. تفهم العسكريان سلوك فاردي جيداً. إنه مبدأ أساسي في الاستخبارات العسكرية والموساد ينص على إعطاء المعلومات على قاعدة ما تقتضيه الضرورة فقط. هما بصدد العمل في بلد أجنبي، وحتى لو كان بلداً حليفاً، يظل هناك احتمال أن يُلقى القبض عليهما ويتم استجوابهما. وكلما كان ما يعرفانه أقل، كان الضرر أخف.

ختم زامير الاجتماع ببعض التعليمات العملية. سيغادران على متن رحلة الخطوط الجوية الإسرائيلية إلى هيثرو صباح الاثنين. على مكتب نافوت كان بانتظار كل واحد منهما مغلفاً يحتوي جواز سفر، تذاكر الطائرة، ومبلغاً من أجل المصاريف في لندن. كان متوَقعاً أن يتم اللقاء بعد وصولهما بوقت قصير، لكن تبقى الاحتمالات معلقة حتى اللحظة الأخيرة. إذا تم تمديد إقامتهما واحتاجا مزيداً من المال، يمكنهما الحصول عليه من مكتب الموساد في لندن.

هذه النقطة الأخيرة لم ترُق كثيراً لمائير. في الماضي، كانت الرحلات إلى لندن للقاء مصادر للموساد تتطلب الإقامة ليومين أو ثلاثة في الحد الأقصى. لكن

«اهتم إنت بأمر الملاك»، قال زامير باسما، «وأنا ساهتم بأمر غيتا».

عـاد مائيـر ودايـاغـي إلـى مكتبيهما وأغلقـا على نفسـيهما الأبـواب. كان على كلٍ منهمـا الآن الغـوص فـي الأضابير التي اسـتلمها والتي تتضمن كمـاً لا نهائياً من المعلومـات الاسـتخباراتية التـي تـم جمعهـا سـواء عن طريـق المصادر البشـرية أو المصـادر التقنية، الوثائق المطبوعة، والتقارير الاسـتخباراتية الواردة من الحكومات الحليفـة. وعلـى أسـاس كل ذلـك، قاما بوضـع لائحتي أسـئلتهما التي سـيطرحانها علـى «المـلاك». صحيح أن عامل الوقت كان يضغط عليهما، لكن ما بسـط مهمتهما كثيـراً كان معرفتهمـا الجيـدة بالموضـوع وما كان يحتويه أرشـيف الفرع 6 في شـعبة أبحاث الاسـتخبارات العسـكرية وأرشـيف اسـتخبارات القوى الجوية من كم هائل من المجلدات المليئة بأسئلة محكمة طُرِحت على المصادر الأخرى وعلى وكالات الاستخبارات الأخرى التي تعاونت معها الاستخبارات الإسرائيلية لسنين طويلة.

وصـل مائير إلى منزله في المسـاء. وضَّب حقيبـة صغيرة، آملاً ألاّ تطول رحلته لأكثـر مـن بضعـة أيام. وتشـارك في هـذا الأمل مع زوجتـه. في صباح اليـوم التالي، أقلته سيارة تابعة للموساد من منزله. وكان داياغي في السيارة. بعد ساعتين، كانا في مقعديهما على متن طائرة بوينغ 707 متجهة إلى لندن.

كان مطار هيثرو فارغاً نسبياً بالنسبة إلى منتصف النهار في يوم اثنين، ولم يكن الطابور عند مكتب الهجرة والجوازات طويلاً. استولت على مائير مشاعر عدم الارتيـاح حيـن قدَّم جواز سـفره للضابـط. كانت المـرة الرابعة التي يدخـل فيها إلى بريطانيـا بجـواز سـفر طبيب أصدره له الموسـاد، وفـي كل مرة كان ينتابـه القلق من أن يبـدأ ضابـط الهجـرة بطرح الأسـئلة. لكن دائرة الهجـرة والجوازات فـي بريطانيا كانت في تلك الفترة لبقة وغير مشـككة بشـكل عام؛ إذ لـم يكن الإرهاب العالمي قد ضـرب المملكـة المتحدة بعد. ختم الضابط جواز السـفر، وفي غضون دقيقتين، عبر

لوحات ضخمة يمكن للناس ترك رسائلهم عليها. عاينا اللوحة، التي كانت مرتبة بحسب الاسم الأخير للمتلقي، فرأيا رسالة تحمل الاسم المكتوب على جواز سفر مائير. كان قد جاء عميل من الموساد قبل وقت قصير وترك ملاحظة مكتوبة بخط اليد. متبعَين الإرشادات الواردة فيها، استقلا سيارة أجرة أوصلتهما إلى عنوان في وسط لندن. لم تستغرق الرحلة ساعة. دفعا الأجرة، سارا مائتي متر، وقرعا الباب.

فتح الباب شخص في منتصف الثلاثينات. بهي الطلعة، نحيل، شعره بني وعيناه زرقاوان، عذب اللسان. كان دوبي يتوقع قدومهما. دعاهما للدخول وبدؤوا فوراً بإعداد القهوة. وبمجرد أن صارت الفناجين في أيديهم، بدأ يخبرهما قصة «الملاك» بأدق التفاصيل.

لم يكن مائير قد سمع من قبل عن أشرف مروان، ولا عن والده، الضابط رفيع الرتبة. وقد أوضح لاحقاً أنه برغم دراسته المتأنية للأسماء والتفاصيل المتعلقة بمعظم الضباط المهمين في الجيش المصري، بما في ذلك قادة الفِرق، لم يكن الحرس الثوري يثير اهتمامه يوماً. كانت الأولوية لدى الفرع 6 هي معرفة كل شيء عن القوات المصرية المقاتلة التي قد يواجهها الجيش الإسرائيلي في الحرب القادمة، أما الحرس الثوري فكانت مهمته حماية المنشآت الحساسة في القاهرة والنظام بأكمله، وتأمين الرحلات الرئاسية، ولم يكن ذلك من الأمور التي تثير اهتمام الاستخبارات العسكرية. ولم تكن أيضاً الحياة الخاصة لعبد الناصر أو السادات من القضايا التي تهم مائير، الذي كان لا يجد فيها أكثر من ترهات. كان متلهفاً لمعرفة ما يفكر به عبد الناصر نحو السوفييت أكثر منه تجاه صهره. والأكثر من ذلك كان دراية مائير الواسعة بالثقافة والتقاليد المصرية فيما يتعلق بتقدير أهمية شخص مثل مروان. فحتى لو كان موقعه في الديوان الرئاسي ثانوياً نسبياً، يظل باستطاعته وضع يده على وثائق لا يحلم برؤيتها أي مصدر آخر في مصر. كان مائير متأثراً حقاً.

وكل الآفاق مفتوحة أمامه، على خطوة دراماتيكية مثل الاتصال بالسفارة ومحاولة الاجتماع بالمخابرات الإسرائيلية، هي مسألة يصعب تقبلها. صحيح أنه رأى من قبل بضع حالات كهذه على مر السنين، لكن الجوانب الشخصية لمروان كانت مختلفة. وصحيح أن الموساد قد تحقق جيداً من المصدر الجديد، لكن لكونه المختص الذي سيعمل معه فإنه يشعر من منطلق الواجب الوظيفي بضرورة التحقق من موثوقيته باستخدام المجهر إذا اقتضى الأمر. كان قد التقى من قبل بمجندين محتملين آخرين لدى الموساد ولديه خبرة واسعة في التحقق من أمرهم، كما أنه يعرف مصر جيداً. إنه يشعر بأنه الشخص المناسب للمهمة.

أما بقية الأخبار التي ساقها دوبي فلم تثر حماسته كثيراً. قبل كل شيء، لم يتم التحضير للقاء مروان في اليوم نفسه كما كان مزمعاً. شرح له دوبي أن الرجل وصل فعلاً إلى لندن لكنه غادر فجأة إلى روما لبضعة أيام. واستطرد قائلاً: «نحن لا نتحكم جيداً في تحركاته. إنه يعرف أننا سنفعل كل ما يلزم للتمسك به، ولهذا لا يمكننا إملاء تحركاته عليه». وهناك مشكلة أخرى. لقد أخبره مروان قبل يوم إنه لا يرغب تحت أي ظرف بلقاء أي إسرائيلي آخر غير مشرفه. أوضح دوبي أن المسألة تتطلب بعض الوقت لبناء ثقة مروان الكاملة بحرص الإسرائيليين على تأمين حمايته. لديه خشية دائمة على حياته، ويعتقد أن أي إسرائيلي آخر ينكشف أمامه يمكن أن يزيد من احتمال تسليمه للمصريين. لهذا، حين أخبره دوبي بانضمام خبيرين إسرائيليين، أحدهما خبير بشؤون الجيش المصري والآخر من القوى الجوية إليهما في الاجتماع المقبل، أبدى رفضه القاطع.

تلك المشكلة لم تكن بجديدة. إن رفض مروان مقابلة شخص آخر غير دوبي لم يكن سوى الحلقة الأخيرة في عقد من حالات الرفض التي كان يواجهها المشرفون في الموساد، وفي حالة العملاء المشكوك في كونهم عملاء مزدوجين، لم يكن يؤدي

سلامته الشخصية إلى الحد الأقصى.

لكن في هذه اللعبة الدقيقة بين المشرف والعميل، كان الموساد أيضاً يحتفظ بأوراقه الخاصة. لقد حاز دوبي ثقة مروان. وكما هي الحال مع كثير من العملاء والمشرفين، تنشأ علاقة لا يملك العميل فيها خياراً آخر غير وضع ثقته الكاملة بمشرفه؛ وهذا يجعل مروان خاضعاً بالكامل لحكم دوبي. والأكثر من ذلك أن الموساد دفع لمروان بسخاء، وللزبون كامل الحق في طلب ما يريده مقابل ما يدفعه. وأخيراً، من اللحظة التي بدأ فيها مروان ببيع أسرار بلده للاستخبارات الإسرائيلية، كان يعرف أنه لن يطيق فكرة ألا يكون شديد النفع للأناس الوحيدين على الأرض الذين يعرفون ما هو بصدده. مع ذلك كله، لم يجد دوبي بُدّاً من التأكيد لمائير وداياغي على أن عدم تزحزح مروان عن موقفه يعني أنه سيستمر في مقابلته لوحده، وأن على المسؤولين في إسرائيل تقبُّل الأمر. لا يمكن المخاطرة بفقدان شيء ثمين مثل «الملاك».

كانت تلك مشكلة كبيرة، ولم يكن هناك حل يلوح في الأفق. لكن مرة أخرى، كانت لدى مائير مشكلة مختلفة تدور في رأسه. أخبرهما دوبي أن الأوامر الصادرة من إسرائيل تقتضي ببقاء مائير وداياغي في لندن إلى حين عودة مروان، واحتمال أن يحدث ذلك قبل عيد الفصح كان ضعيفاً جداً. إنه لأمر محزن. لكن يبقى هناك جانب مشرق؛ قال لهما دوبي إن باستطاعتهما طوال مكوثهما في لندن أن يفعلا ما يحلو لهما، ضمن حدود الميزانية المتاحة لهما. التزامهما الوحيد هو التحقق عبر الهاتف مرتين في اليوم، عند التاسعة صباحاً والخامسة مساءً، مستخدمين هاتفاً عمومياً. والشخص الذي سيجيب على اتصالهما سيُعلمهما إن طرأ أي تغيير.

هكذا، أمضى المقدَّم مائير مائير والنقيب يوآف دايا‌غي الأسبوعين التاليين في لندن، منتظرَين. عاينا ممرات المشاة في متنزهي هايد بارك وسانت جيمس، الأزقة في حيي مايفير وبلغرافيا، النوادي الليلية التي كانت مزدهرة حينها في شارع كينغز

يتصلان بالرقم الذي أعطاهما إياه دوبي فيكتشفا أنه لم يطرأ أي تغيير. وفي كل بضعة أيام كانا يتصلان بمنزليهما من هاتف أجرة ويتبادلان على عجل بعض الكلمات مع أحبتهما. كان ذلك كل ما في وسعهما فعله. ثم أتى يوم الجمعة، وحل العيد. وكما وعد تسفي زامير، اتصل بغيتا ليخبرها بأن زوجها على خير ما يرام لكنه لن يستطيع العودة إلى المنزل لمشاركتها الفصح.

ثم، في بداية الأسبوع الثالث من نيسان، سُمِعَت إجابة مختلفة من على الطرف الآخر للخط: «تم تحديد اللقاء اليوم».

كان دوبي قد التقى مروان في الليلة الفائتة. كان المصري قد عاد لتوه من روما، حيث التقى بأشخاص مهمين في نظام العقيد الليبي معمر القذافي وناقش معهم فكرة إنشاء شركة تُمكِّن مصر من الالتفاف على حظر التسليح الذي فرضته الولايات المتحدة وبريطانيا على ليبيا. أخبره دوبي في اللقاء بأن ضابطي الاستخبارات الإسرائيلية موجودان في لندن وينتظران الاجتماع به. وكما هو متوقَع، كان رد مروان مرة أخرى هو الرفض القاطع، متذرعاً كالسابق بقلقه من وقوعه في يد الاستخبارات المصرية؛ فتوسيع الدائرة لن يؤدي إلا إلى زيادة الخطورة. هنا تشبّث دوبي برأيه، مستخدماً جميع المناورات التي تعلّمها لإقناع مروان. وفي النهاية، توصلا إلى تسوية. سيقابل مروان أحد الضابطين، وليس الاثنين. الخيار الواضح كان مائير مائير، بحكم موقعه الأهم ومسؤولياته الأوسع. بينما يبقى داياغي، ومعه استخبارات القوى الجوية، خارج الدائرة الضيقة من الإسرائيليين الذين يمكنهم مقابلة مروان.

في اليوم التالي جلس دوبي مع مائير، وعرض عليه تفاصيل خطة المساء. سوف يذهب إلى بناء فاره في ضاحية مايفير. يخبر الحارس عن اسمه المذكور في جواز السفر الذي أعطاه إياه الموساد. فيعطيه الحارس مفتاحاً. سيرى إلى يساره مصعداً، يستقله إلى الطابق الرابع، ثم يجد شقة تطابق الرقم الذي على المفتاح. وبعد

سار كل شيء وفقاً للخطة، ما أراح مائير كثيراً. كان الحارس يتوقع وصوله، والمفتاح كان مناسباً. كانت الشقة رائعة، لكن مائير لم يهدر وقتاً كثيراً في معاينتها. توجه فوراً إلى غرفة النوم، أغلق الباب خلفه، وجلس على كرسي بجوار السرير. بعد نصف ساعة، سمع صوت باب الشقة ينفتح. تعرَّف إلى صوت دوبي؛ وكان معه شخص آخر. صبَّ دوبي كأساً لضيفه. لم يستطع مائير سماع كلماتهما، لكنه ميَّز حديثهما باللغة الإنكليزية. مضت بضع دقائق، ثم قرع دوبي على باب غرفة النوم ودعا مائير للانضمام إليهما.

كان مائير يعرف مسبقاً شكل مروان من صوره. لكن كان هناك شيء لم تستطع الصور التقاطه. كان انطباعه الأول عن مروان أنه فتي ومتغطرس، كان جالساً مسنداً ظهره إلى الكرسي، ومرخياً ذراعيه للأمام، وسيجارة متقدة في إحدى يديه وكأس ويسكي في الأخرى. حين مد مائير يده وقدَّم أفضل ما لديه بالإنكليزية «كيف حالك؟»، تكرَّم مروان بمصافحتها لكنه لم يفكر في النهوض. سيذكر مائير لاحقاً كيف تصرَّف مروان كما لو أن هناك صرصوراً ضخماً يتجول في الغرفة. لكن مائير كان ضابط استخبارات متمرس. ودون أي كدر، جلس على الكرسي بجوار مروان. أما دوبي، الذي ظل حتى تلك اللحظة واقفاً، فقد جلس إلى طاولة الطعام وأخرج لوح كتابة وقلم وانتظر أن يبدأ مروان ومائير بالكلام. وعلى امتداد كامل الحديث بالكاد كان يفتح فمه، فقط اكتفى بكتابة كل ما دار بين الاثنين.

كان رئيس الفرع 6 في شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية قد قرر مسبقاً أنه سيبدأ بالأسئلة الأدسم ذات الأولوية القصوى. وقد فعل ذلك لسببين: أولاً، للاستفادة من اللقاء إلى أقصى حد ممكن، واستخراج أفضل المعلومات وأكثرها تفصيلاً قدر الإمكان؛ وثانياً، لإعطاء مروان انطباعاً بأن الذي يسأله خبير مهم يعرف مصر جيداً ولديه فهم كبير بالمسائل العسكرية، وبالتالي ينبغي التعاطي معه بجدية.

مخططات مصر للحرب أن الاستنزاف هو بالأساس مرحلة تمهيدية للحرب «تلين» الدفاعات الإسرائيلية من أجل خلق أفضل الظروف لمصر كي تعبر القناة وتحاول استعادة سيناء. لهذا السبب، كان سؤال مائير الأول لمروان يتعلق بنوايا مصر في الحرب. أجاب مروان بثقة، لكن جوابه كان مجرد تكرار لما كان يُقال في وسائل الإعلام المصرية: إن الهدف هو استعادة سيناء. وحين سأل مائير كيف تنوي مصر فعل ذلك، أجاب مروان «سوف نبني جسوراً وعوامات عبر القناة ونعبر».

«لكن كيف»، سأل مائير، «هل ستقاتلون في الصحراء ونحن نتمتع بالتفوق الجوي؟» أجاب مروان بما كان قد سمعه بوضوح من الجنرالات. ستستخدم مصر الطيران وصواريخ أرض أرض لمهاجمة وتحييد القواعد الجوية الإسرائيلية في سيناء. شدد مائير على النقطة: كيف ستقوم مصر بتحييد القواعد الجوية الموجودة في الداخل الإسرائيلي، بعيداً عن مدى الصواريخ؟ تردد مروان قليلاً ثم كرر ما كان مائير قد سمعه من عدد لا يُحصى من المصادر: إذا فشلت مصر في تحييد القواعد الجوية الإسرائيلية، سيُقدِّم السوفييت مضادات طيران متقدمة تسمح للمصريين بعبور القناة تحت مظلتها. وبعد الإمساك بأول شريط من الضفة الشرقية للقناة، سينقلون الصواريخ المضادة للطيران عبر القناة إلى سيناء، لتوسيع المظلة شرقاً، ما يسمح للقوات البرية بالتقدم.

لم يكن مائير قد تلقى أي توجيهات حول كيفية المتابعة، لكن بخبرته الوافية في التعامل مع عملاء الموساد قرر، بالاعتماد على حدسه، أن ينقل الحوار إلى اتجاه مثمر أكثر. حاول مراراً وتكراراً، وبعناية وحرص، أن يوضِّح لمروان أن ما كان يقوله عن الخطط المصرية لتحرير سيناء غير منطقي أو أنه سمعه من قبل. سأل ثانية كيف ينوي الجنرالات المصريون معالجة مشكلة التفوق الإسرائيلي في الجو والبر. لكن كل ما سمعه كان أقرب إلى الشعارات وليس إلى الخطط. ثم أصبح جلياً لمائير أن

عـدم وجـود إجابات لدى مروان يعكس مـا كان يُقال فعلاً في مصر، وأن الجنرالات أنفسهم لم يجدوا بعد طريقة لمعالجة مشكلة الهيمنة الإسرائيلية في الجو والعتاد.

أثناء محاولته استخراج كل ما أمكنه حول الخطط المصرية للمعركة، كان مائير يحاول في الوقت ذاته تقييم مصداقية مروان، فكان من حين لآخر يرمي بسؤال يعرف مسبقاً الجواب عليه. من هو قائد اللواء المدرع 21، وأين مقر قيادته؟ من يدير مطار غرب القاهرة، وما هي الطائرات الموجودة هناك؟ لم يخطئ مروان أبداً. في معظم الحالات كانت أجوبته تتطابق مع ما يعرفه مائير مسبقاً، وفي بعض الحالات التي لا يمتلك فيها إجابة كان يقول ما أمكنه ويعد بالحصول على الأجوبة في الاجتماع المقبل. مع تقدُّم الجلسة، بدأ المزاج يتغير في الغرفة. تخلى مروان عن كثير من تكلّفه وبدأ ينظر إلى ضابط الاستخبارات الذي أمامه كشخص يفهم في المسائل العسكرية بشكل عام والجيش المصري بشكل خاص كما يفهمها مروان. وحل محل نبرته المتغطرسة اختيار دقيق للكلمات. من حين لآخر، حين كانت أسئلة مائير تصبح أكثر تحديداً ومهنية، كان مروان يجد نفسه مجبراً على الاعتراف بعدم معرفته للأجوبة.

وهذا كان هدف مائير مائير من كل ذلك.

انتقل الحديث الآن إلى موضوع كان يقلق القادة الإسرائيليين بشكل خاص. منذ منتصف آذار 1970، حين علم الإسرائيليون بوجود خبراء سوفييت يديرون الوحدات المضادة للطيران في مصر، تولّد لدى صنّاع القرار في إسرائيل القلق من احتمال الصدام المباشر مع قوات الجيش الأحمر في الحرب المقبلة. حين سأل مائير عن الموضوع، كشف مروان عن اشمئزازه من الوحدات السوفييتية العاملة في مصر، ومن الاتحاد السوفييتي برمته. وظل يردد قناعته بأن السوفييت كانوا يحاولون السيطرة على مصر وجيشها. إنه يكشف هنا عن عاطفة وطنية صادقة وقوية. لكن إذا ما أخذنا بعين الاعتبار حقيقة أن السوفييت كانوا يساعدون مصر بفعالية في الدفاع

الغريبة في فكره، والتناقضات في نفسه.

دام الاجتماع ثلاث ساعات كاملة. وبحلول النهاية، أعطى مائير لمروان المهمة المطلوبة منه للاجتماع المقبل. عليه أن يُحضِر معه خطط الجيش المصري لعبور قناة السويس، بالإضافة إلى أمر المعركة الموجّه إلى كامل الجيش المصري. تلك كانت الأولوية القصوى لدى الفرع 6، بالإضافة إلى نوعية المواد التي ستبطل كل الشكوك في احتمال كونه عميلاً مزدوجاً.

رافق دوبي مروان إلى خارج الشقة، بينما جلس مائير إلى الطاولة الثقيلة في غرفة الطعام وبدأ بالكتابة، ليسجل كل شيء سمعه. فكَّر في نفسه أن أصعب شيء في هذه الاجتماعات كان التأكد من عدم نسيان شيء أو انحرافه عن مساره، ولحسن حظه أنه لم يكن وحيداً. عاد دوبي بعد بضع دقائق وبدأ الاثنان بمقارنة الملاحظات، وتدقيق جميع التفاصيل، وحل كل التضاربات، ليخرجا أخيراً بتقرير من أربع صفحات تضمَّن كل ما أخبرهما به مروان. في صباح اليوم التالي، أرسلاه من مكتب الموساد في لندن إلى القيادة في تل أبيب.

عاد مائير ودایاغي إلى إسرائيل في اليوم التالي للاجتماع. أوصلتهما السيارة التي أقلتهما من المطار مباشرة إلى مقر الموساد. أعادا جوازي سفرهما المزورين، وذهبا إلى مكتب المحاسبة لأخذ مكافأتهما. كان قد تم التشديد عليهما بألا يبوحا بالهدف من رحلتهما لأي كان. طُلِب من مائير مراجعة التقرير الذي وضعه الموساد بناءً على البيان المُرسَل في الصباح من لندن. وفي غضون بضع ساعات، تم إصدار التقرير تحت الاسم الرمزي «خوتيل Khotel» إلى ثلاثة أشخاص بالتحديد: رئيسة الوزراء غولدا مائير، ووزير الدفاع موشيه دايان، ورئيس الأركان حاييم بارليف. خلال السنوات التالية، أصبحت هذه الطريقة في إيصال المعلومات الاستخباراتية الخام مباشرة إلى القيادات العليا، دون المرور عبر عمليات التصنيف والتحليل التي

غولدا مائير وموشيه دايان أصبحا يعتمدان بشكل كامل على تقارير خوتيل تلك.

حصل اللقاء التالي بين مائير مائير وأشرف مروان بعد أربعة أشهر تقريباً. كان السادات قد أعلن أن سنة 1971 ستكون سنة اتخاذ القرار بين الطريقين الدبلوماسي والعسكري لاستعادة سيناء. وفي ظل عدم إحراز أي تقدم دبلوماسي، أصبح خيار الحرب على السكة. لكن الاستعدادات المصرية للحرب لم تتطور بشكل كبير. وبناء عليه، كان السادات يعلم أن جيشه غير جاهز للنيل من الجيش الإسرائيلي.

وبالفعل، كان السؤال إن كان القتال سيتجدد ومتى؟ في صلب نسق أسئلة مائير في اجتماعهما التالي، والأجوبة التي أعطاها مروان لم تكن مرضية تماماً. لكن لم يعد ذلك مهماً بعد أن أخرج الوثائق التي أحضرها معه. مائير يمسك بيديه الآن بالخطط الموضوعة لعبور قناة السويس وأمر المعركة لكامل الجيش المصري وهو ما كان قد طلبه تماماً. إن كانت هناك أي شكوك لدى مائير في نوايا مروان، فقد زالت الآن.

في الأشهر التي أعقبت اجتماعهما الأخير، شهدت مصر عدداً من التغييرات الداخلية بعد الصحوة من موت عبد الناصر. والآن يشغل معظم المراكز العليا في مصر طاقم جديد من القادة، وأحدهم كان أشرف مروان.



الفصل الرابع

أيار 1971: الصعود

منذ اليوم الذي ظهر فيه عبد الناصر على مسرح الأحداث العالمية، أصبح الإسرائيليون يرون فيه أخطر عدو على الإطلاق يمكن أن يواجهوه يوماً، ورجلاً يمكنه ذات يوم أن يوحد العالم العربي بأسره في حرب لتدمير الدولة العبرية. وقد حدثت تطورات عديدة تعزز تلك المخاوف. ففي العام 1955، أجرى عبد الناصر تحسينات جذرية على الوضع العسكري لمصر وذلك بعقده اتفاقيات تسليح ضخمة مع بلدان المعسكر الشرقي؛ إعلانه، عام 1958، الوحدة مع سوريا وتأسيس الجمهورية العربية المتحدة (اتحاد لم يدم سوى ثلاث سنوات)؛ افتعاله، عام 1967، أزمة حادة مع إسرائيل أدت لاندلاع حرب النكسة.

رأى الإسرائيليون في صفقات التسليح تهديداً لا مثيل له، وشعروا أنه بمجرد إتمامها لن تعود إسرائيل قادرة على هزيمة مصر في الحرب. ولدرء هذا الخطر، أطلق رئيس الوزراء ديفيد بين غوريون عام 1956 حملة سيناء من أجل تدمير الجيش المصري قبل أن يُشكِّل تهديداً حقيقياً. كانت الخطة فعَّالة لكنها لم تدم طويلاً، إذ سرعان ما انسحبت إسرائيل من سيناء تحت الضغط الدولي الشديد. الوحدة مع سوريا، مضافاً إليها سقوط الملكية في العراق والجهود الرامية للإطاحة بالملك حسين في الأردن والمسيحيين الحاكمين في لبنان، اجتمعت كلها لتعطي الإسرائيليين شعوراً بأن هناك حبلاً جيوسياسياً يلتف حول رقبة بلدهم. وتولدت لدى الاستخبارات الإسرائيلية قناعة بأن الظروف قد نضجت كي يشن عبد الناصر حرباً كاسحة على إسرائيل.

وبحركـة مبالـغ فيهـا، أمر بعدها بإغـلاق مضيق تيران (ممر مائي ضيق يفصل سـيناء عـن المملكة العربية السـعودية) أمام السـفن الإسـرائيلية، قاطعـاً حركة الملاحة عن ميناء إيلات في جنوب إسرائيل. لم يعد ذلك مجرد تصعيد في التوتر بل أصبح أزمة كاملـة، وهـا هي مصـر الآن تقود تحالفاً واسـعاً من الجيوش العربيـة وتطلق ما رأى فيه كثير من الإسـرائيليين أول أزمة وجودية منذ إعلان دولتهم عام 1948. وحتى بعد الانتصار الساحق لإسرائيل في حرب النكسة في حزيران 1967 وتخطيهم الأزمة، ظل إسرائيليون كثر مأزومين لفترة طويلة بسبب أسابيع التوتر التي عاشوها.

على الأرجح أن تلك النكسـة كانت النهاية الفعلية لعبد الناصر. «أولئك الذين يعرفـون عبـد الناصر»، كما كتب السـادات لاحقاً في مذكراتـه، «يدركون أنه لم يمت في 28 أيلول 1970، بل في الخامس من حزيران عام 1967، بعد ساعة واحدة بالضبط من انطلاقة الحرب»[1]. لقد شـعر عبد الناصر في قرارة نفسـه أن سياسة حافة الهاوية التي قاد بها بلده قبيل الحرب قد عجَّلت بوقوع أسوأ كارثة في تاريخ مصر المعاصر، وربما يكون ذلك قد ساهم كثيراً في تسريع أجله.

كان عبـد الناصـر بجميـع الأحوال، يعاني من مشـاكل صحيـة، وخاصة مرض السكري والقرحات منذ سنوات، وهو السبب في أنه كان يتناول طعاماً معداً خصيصاً له، حتى في المآدب الرسـمية. لم يسـاعد نمط حياته المغرق بالانشـغال على تحسن الأمور، ومنذ عام 1961 بدأ بتناول مسكنات الألـم بشكل منتظم. ثم جاءت حرب 1967 لتجعـل الأمور أسـوأ. آلامه التي لم تعد تطاق أدت إلـى نوبات من التوتر والعصبية. ارتفع معدل السكر لديه، وبدأت تظهر عليه أولى علامات مشاكل القلب. عيَّن طبيباً شـخصياً هـو الدكتـور الصاوي حبيب، وهـو طبيب ممارس في طـب الأوعية. كتب الدكتور حبيب في مذكراته أن عبد الناصر عانى من أول ذبحة قلبية في كانون الأول مـن عـام 1969. وبعـد تعافيـه منها رفض نصيحـة الدكتور حبيب بـأن يبطئ من إيقاع

القلب. وأيضاً نصحه الأطباء بالراحة، لكن عمله كان لا ينتهي.

بعد شهر من ذلك، وقبل أيام عدة من اتفاق الهدنة، الذي أنهى حرب الاستنزاف مـع إسـرائيل، كشـفت الفحوصـات أن حالته لم تتحسـن، ورجاه حبيـب مجدداً أن يرتاح. بانتهاء الحرب أتيحت له فسـحة وجيزة خارج إطار الضغط المفروض عليه، لكن لم تمضِ سوى بضعة أسابيع حتى اندلع القتال بين الأردن والفصائل الفلسطينية الناشـطة على أراضيه، وهو حمَّام الدم الذي أصبح معروفاً باسـم أيلول الأسـود. في 28 أيلول، بعد سـاعات فقط من توديع القادة العرب المشـاركين في القمة التي نجح فيهـا عبـد الناصر في صياغة اتفاق بين الملك حسـين وياسـر عرفـات أدى إلى إنهاء القتـال، عانـى عبد الناصر من أزمة قلبية أخرى. وبعد بضع سـاعات، محاطاً بأقربائه وأصدقائه وأطبائه، توفي أعظم قائد عربي منذ صلاح الدين.

كانت تصدر في وسائل الإعلام الغربية من حين لآخر تقارير عن اعتلال صحة عبد الناصر، لكن موته المفاجئ صدم العالم بأسره، وكان وقع ذلك كبيراً على العالم العربـي، وأكبـر علـى مصر. مشـهد ملايين المصرييـن ينتحبون في شـوارع القاهرة، موكـب الجنـازة الذي ضم أكثر من مليوني شـخص خرجوا جميعاً عن طورهم حين رأوا الهيسـتيريا التـي انتابت المعزين المفجوعين بجـوار النعش، وعناوين الصحف التـي اعتبـرت أن مائـة مليون عربي قـد أصبحوا الآن يتامى، كل ذلـك عبَّر عن الألم الصادق واللامحدود، وعن الفراغ الذي خلَّفه وراءه.

تـرك رحيـل عبد الناصـر أثراً بالغاً على مسـتقبل مصر والعالم العربـي، وأيضاً على الصراع العربي الإسرائيلي. فقد أطلق معركة ضروساً على النفوذ بين النخبة المصرية وأدى إلى حدوث تحولات في التحالفات على مستوى العالم العربي على المدى المنظور، كما أدى إلى تغييرات جذرية في علاقات مصر مع قطبي الحرب الباردة على المدى البعيد.

كان لموت عبد الناصر تداعيات جمة على أهم جاسـوس لدى الموسـاد. فبعد

قدرة مروان على الوصول إلى أكثر أسرار النظام المصري تعتيما لا محدودة تقريبا. بمعنى آخر، أدت وفاة عبد الناصر إلى نقل أفضل مصدر للمعلومات حظيت إسرائيل به يوماً إلى مرتبة أفضل من ذلك بكثير وبشكل مفاجئ.

بالنسبة إلى أشرف مروان وضعه موت عمه في آن معاً أمام مخاطر وفرص جديدة. الخطر الأكبر كان فقدانه لجميع الامتيازات التي حظي بها كونه فرداً من عائلة الرئيس. لكن هذا التهديد سرعان ما تبدد، وما حدث هو أن مكانة عبد الناصر علت أكثر بعد موته وأُضفيت على العائلة التي تركها وراءه صبغة ملكية سواء في عهد أنور السادات أو لاحقاً في عهد حسني مبارك. لكن في الوقت ذاته، لطالما كان أشرف مروان مثل النعجة السوداء، وليسوا بقلائل الأشخاص من الطغمة الحاكمة الذين كانوا يعرفون رأي عبد الناصر بصهره. لقد علِموا أن الرئيس طلب قبل وفاته بأقل من عام طلاق ابنته من مروان، وأن عناد منى هو الوحيد الذي حال دون حصول ذلك. أما وقد توفي عبد الناصر فقد أدرك مروان أن النظام الجديد لن يكون متأثراً بعواطف منى للدرجة التي كان عليها عبد الناصر، وأن ذلك قد يؤدي إلى استبعاده.

في الوقت ذاته، كان لدى أشرف مروان سبب جعله يشعر بارتياح كبير. فحتى لو افترض أن شخصيات بارزة من الحرس القديم كسامي شرف ستظل تضع حوله علامات استفهام، فإن أياً من علامات الاستفهام هذه لن تصل إلى المستوى التي كانت عليه أيام عبد الناصر، الذي كان يرفض بشكل قاطع تكسب أي شخص من عائلته بالاستناد إلى قرابته منه. بل إن الأمر على النقيض من ذلك تماماً، فالحرس الجديد كان يعتبر أن الانتفاع من المنصب أمر طبيعي للغاية. وفجأة تلاشت في الأوساط الحاكمة إمكانية أن تثار مسألة كتلك التي أثارها شرف وناصر بشأن قصة أشرف مروان مع آل الصباح في لندن. وبناء عليه، أفسح موت عبد الناصر المجال أمام مروان كي يُحسِّن وضعه المادي بشكل ملحوظ.

قيد الحياة حين أقدم أشرف مروان على خطوته الأولى، وليس لدينا أي سبب يجعلنا نعتقد بأن أي شيء قد تغير بوفاته. ربما يكون العامل المادي قد تراجع على ضوء الفرص الجديدة التي بدأت تبزغ الآن، وربما تكون حاجته للرد على ازدراء ناصر له قد فقدت شيئاً من حدتها بمجرد وفاة عبد ناصر، لكن الوقائع تشير إلى أن مروان لم يُظهِر يوماً أي تردد في مساعدة إسرائيل سواء قبل وفاة عبد الناصر أو بعدها. فبعد أن اجتاز عائق إجراء المكالمة الأولى مع السفارة الإسرائيلية في تموز، أصبح الاتصال مرة ثانية في كانون الأول أسهل بكثير.

خلف السادات عبد الناصر وكان نائبه وهو أحد الأعضاء الأقل بروزاً في القيادة المصرية التي تولت زمام الأمور بعد حركة الضباط الأحرار عام 1952. كانت التوقعات، سواء في العالم العربي أو في إسرائيل، أن السادات لن يتمكن من الاحتفاظ بالسلطة لفترة طويلة. لكن في غضون الأشهر القليلة التالية رسّخ موقعه، ملحقاً الهزيمة بخصومه وسابحاً إلى بر النجاة. الفترة ما بين وفاة عبد الناصر في أيلول 1970 وذروة حملة التطهير التي شنها السادات على الناصريين في أيار التالي والتي أطلق عليها اسم «الثورة التصحيحية» أثبتت براعته في الإبحار في عالم السياسة وأثارت إعجاب المراقبين حول العالم. أما بالنسبة إلى أنشطة مروان السياسية خلال الأشهر القليلة نفسها فلم تلفت انتباهاً كثيراً إليها، إلا في أوساط قادة الاستخبارات الإسرائيلية. وعلى غرار السادات، أظهر مروان قدرة منقطعة النظير على استغلال الفرص وتحويل الخصوم ليصبحوا في صفه. وهنا برز تحالف وثيق العروة بين السادات وصهر عبد الناصر الشاب والطَموح، وهو تحالف لعب الحظ دوراً كبيراً فيه. والنتيجة أنه بحلول أيار 1971، بعد أن رسّخ السادات حكمه لمصر، كان مروان قد حقق قفزة هائلة في سلم الهرمية المصرية.

وهكذا أصبحت مصر كتاباً مفتوحاً بالنسبة إلى الاستخبارات الإسرائيلية.

1918 فـي ميـت أبـو الكوم القرية النائيـة في دلتا النيل. في عـام 1938 أكمل أكاديميته العسـكرية، وسـرعان ما أصبح معروفاً كقومي مناوئ بالسـلاح للنفوذ البريطاني في مصر. في الحرب العالمية الثانية، ذاع صيته حين اعتقله البريطانيون بتهمة التجسـس لصالـح ألمانيـا. ولاحقاً اتُّهِم باغتيـال الوزير الوفدي أمين عثمـان، لكن تمت تبرئته لانتفاء الأدلة. انضم السادات لحركة الضباط الأحرار التي قامت بانقلاب عام 1952 الذي قام بخلع الملك فاروق وتأسيس نظام جمهوري بقيادة اسـمية لمحمد نجيب، الرئيـس الأول للجمهوريـة، وفعلية لعبد الناصر الذي عزل نجيب وأعلن الاسـتقلال عام 1954. الضباط الأحرار يتذكرونه بشـكل خاص لتأخره، لسـاعات عدة حاسـمة، عن الانضمام للحركة الثورية وهي تحاول خلع الملك فاروق، والسـبب وجوده في السـينما مع زوجته. بينما تتذكره العامة بصورة إيجابية أكثر، لكونه الضابط الذي تلا بيان الإطاحة بالملك عبر الإذاعة المصرية.

بالرغـم من مسـتواه الرفيع، لم يكن السـادات شـخصية بارزة فـي حركة الضباط الأحـرار. والمناصـب التـي تولاهـا كانت أقرب إلى الرسـمية منها إلـى التنفيذية. كان عبـد الناصـر والآخرون لا يقدرونه كثيراً، فكان عبد الناصر يقول عن السـادات «أعطه سـيارة وقسـائم بنزين، وسوف يكون سعيداً». كان الاعتقاد بأن السادات يفتقر للطموح السياسي ويمكن شراءه بسعر بخس. وحين كان يتقدم في المناصب المهمة كان أداؤه فـي حـده الأقصى ضمن حـدود المقبول. أحد الأمثلة على ذلك مسـاهمته الفريدة في الحرب التي خاضتها مصر في اليمن. في العام 1962، حين كان النظام الملكي في اليمن على وشك السقوط إثر انقلاب عسكري، اندلعت حرب أهلية بين الجمهوريين الجدد مدعومين من المصريين والقوى الموالية مدعومة من المملكة العربية السعودية والدول الغربية. أرسل عبد الناصر السادات إلى اليمن ليرى إن كان تدخل مصر منطقياً، ولدى عودته أعلن أمام المجلس الوطني أن مسـاعدة الجمهوريين لكسـب الحرب سـتكون

المصرية بالكامل، وامتدت لسنوات دون أمل بنهاية قريبة لها. وهكذا كانت نتيجة التقييم المتهور والمتعالي للسادات أن ارتكب عبد الناصر أحد أكبر إخفاقاته الدولية.

الصورة التي بدأت تتكون بين صانعي القرار الإسرائيليين عن السادات لم تكن مختلفة كثيراً عن تلك التي يراها نظراؤه. عند وصول نبأ وفاة عبد الناصر، تم استدعاء المؤرخ شيمون شامير، الذي كان يخدم كضابط احتياطي لدى الفرع 6 (مصر) في شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية في ذلك الوقت، وإعطائه ملفات لثلاثة مرشحين مُحتَملين لإبداء رأيه في كل واحد. الأول كان علي صبري، الذي كان يُعتَبر الشخصية الأقوى في النظام بعد عبد الناصر؛ والثاني شعراوي جمعة، وزير الداخلية والمسؤول عن الأمن الداخلي؛ أما الأخير فكان أنور السادات. وفي مذكرة بتاريخ 6 تشرين الأول 1970، كانت خلاصة شامير هي أن صبري وجمعة هما المتنافسان الأوفر حظاً في ذلك الوقت. من الواضح أن السادات لم يكن ليملأ فراغ عبد الناصر. وفي كل مركز كان يحل فيه كان شامير يكتب «ليس السادات أكثر من مجرد مبعوث لنقل البريد الدبلوماسي، حمّالة في قاعة الاجتماعات». وبحسب المعلومات التي كانت متوفرة في ذلك الوقت لدى الاستخبارات العسكرية، كان الانطباع عن السادات أنه متبلد الذهن، ضيق الأفق، «يفتقر للتفكير السياسي المستقل، وموقفه السياسي رمادي يفتقر للون خاص به». بعيداً عن قدراته الذهنية المحدودة، شدد التقرير، مستنداً إلى مصادر متعددة، على أن السادات «يُعتَبر انتهازياً، فاقد الضمير، ديماغوجياً ومنافقاً؛ يوحي مظهره بالفظاظة، والافتقار للموهبة وعدم القدرة على المساهمة الذاتية في إدارة العمل السياسي». استخلص شامير في تقريره أن «السادات شخص لا يتمتع بالمهارات اللازمة لإدارة بلد. إنه يفتقر للحد الأدنى من المواصفات اللازمة لتولي مقاليد الحكم بشكل حقيقي، أو ليكون مقبولاً في مصر كخلف لعبد الناصر وكقائد للعرب»[3]. وكالات الاستخبارات الأخرى حول العالم كان تقييمها مشابهاً أيضاً،

لقيادة مصر تمت فبركتها عن قصد. وبحسب أنيس منصور الصحفي المصري المتمرس وأحد أصدقاء السادات، فإن خليفة عبد الناصر كان في الحقيقة متقد الذكاء وطموحاً، أكثر بكثير مما كان يُفتَرض به. ويرى منصور إن السادات كان يعرف أن لفت الانتباه كثيراً إليه سيعرضه لخطر إعطاء انطباع بأنه كان يحاول منافسة عبد الناصر وزعزعة حكمه. لهذا كان يحرص دائماً على عدم الظهور بشكل قوي، والإيحاء قدر المستطاع بأنه لا يشكل أي تهديد، وهدفه من كل ذلك الاستمرار. إن كان منصور محقاً فقد أثبتت استراتيجية السادات جدواها، لأن الصورة التي أعطاها بأنه لا يشكل أي تهديد هي بالضبط ما أوصله إلى منصب نائب الرئيس عام 1969، وهو منصب شكلي جداً لم تظهر أهميته الحقيقية إلا عند وفاة عبد الناصر بشكل مفاجئ في العام التالي.

بغض النظر عما إذا كانت صورة ضعف السادات متعمدة، فهي تفسر السبب في الرغبة الأولية لدى رجال مثل صبري، جمعة، سامي شرف، ونائب الرئيس السابق حسين الشافعي في المضي مع خيار تولي السادات منصب الرئاسة، فهذا الخيار سيحقق مصلحتين. أولاً، سيعطي دلالة على استمرارية ودستورية النظام. وثانياً، أن ضعفه السياسي يعني أنه لن يشكل تهديداً على مناصبهم، وبالتالي سيظلون قادرين على خلعه في الوقت المناسب. لم تكن شعبيته استثنائية في مصر ولا يستند على سلطة مستقلة. في ذلك الوقت، كان هناك قول دارج في القاهرة مفاده أن الله أحل بمصر كارثتين: فقد أخذ عبد الناصر ووضع السادات مكانه. في احتفالات عيد العمال عام 1971 التي أقيمت في مصنع الحديد والصلب في منطقة حلوان الصناعية، ألقى السادات الخطاب الافتتاحي. فهلل آلاف الأشخاص «سادات! سادات!»، وهم يلوحون بصور عبد الناصر.

الضعف السياسي للسادات كان أيضاً جزءاً من البنية الحكومية التي التأمت تحت قيادة عبد الناصر. كان نتيجة لوجود قائد قوي يتمتع بشخصية مميزة ويعرف

عددها بحدود الخمسة عشر، كانت قريبة من عبد الناصر وأصبحت معروفة باسم «مراكز القوة». كان كل واحد منها مسؤولاً عن جانب من العملية - الدبلوماسية، الدفاع، البنية التحتية، سياسات الحزب. وكل واحد منها صنع قوته ليس بالاستناد كثيراً إلى علاقته بعبد الناصر أو مهاراته الشخصية بل بناءً على قدرته على حشد مجموعة من الموالين المدربين جيداً تُعرَف باسم الشلة.

بالنتيجة، حرص أولئك القادة على إبقاء أتباعهم سعداء أكثر من حرصهم على إلزامهم بتأدية واجباتهم. وهكذا، عندما استيقظ المشير عبد الحكيم عامر من غفوته على صدمة النكسة، قال البعض إنه استثمر في العناية بشلته العسكرية أكثر مما كان يستعد للحرب. وبالطريقة نفسها، كان الولاء الحقيقي لعملاء شبكات الاستخبارات الواسعة العاملة تحت إمرة وزير الداخلية شعراوي جمعة ومدير مكتب الرئيس سامي شرف ليس لتحقيق أمن البلد بالدرجة الأولى إنما خدمة للرجلين المسؤولين عنهما أولاً. لكن نظراً لهيمنة القيادة الشخصية لعبد الناصر على كامل الحياة المصرية، كان دعمه من عامة الناس منقطع النظير، لدرجة جعلته لا يشعر بأي منافسة على منصبه من قِبل رجال السلطة وأذيالهم. لكن بوصول السادات إلى السلطة، لم تعد الأمور تجري على هذا النحو إطلاقاً، فاستمراريته في الحكم كانت تعتمد بالكامل على قدرته على العمل مع مراكز السلطة أو التلاعب بها.

لم يكن ذلك بالأمر السهل على عبد الناصر. فقد كان الأذيال يتجمعون من حوله، وكان رجال السلطة الآخرون يطوِّرون بدورهم علاقاتهم بعضهم مع بعض. في بعض الحالات، كما حدث بين سامي شرف ووزير الدفاع محمد فوزي، كانت العلاقة تقوم على أساس رابط الدم. وفي حالات أخرى، كانت التحالفات تتم بناءً على تقاطعات في وجهات النظر أو المصالح السياسية. النتيجة كانت قيادة سلسة استطاعت العمل إلى جانب عبد الناصر والقبض على معظم مفاصل السلطة في

السادات بدلاً منه؛ وأيضاً وزير الداخلية شعراوي جمعة. كان الكثيرون، بمن فيهم الاستخبارات العسكرية في الجيش الإسرائيلي، يرون هذين الشخصين خلفاً طبيعياً لعبد الناصر وأن أحدهما سيحل بسرعة محل السادات في منصب الرئيس. لكن مراكز السلطة كانت قد وضعت في ذهنها شخصاً آخر. ربما يكونوا قد خططوا لاستبدال السادات بسرعة، لكن على المدى الطويل كان سامي شرف، رئيس أشرف مروان، هو من سوف يقود البلاد. أو هكذا كانوا يظنون.

لم يعمل أنور السادات أبداً على صناعة مركز قوى أو أذيال. ليس فقط لأن ذلك لا يتماشى مع أسلوبه في القيادة الذي يعتمد بدرجة كبيرة على عدد صغير من المساعدين، بل أيضاً لأن المناصب التي ملأها كانت بغالبيتها شكلية، وبالتالي لم يجمع حوله أتباعاً لأنه لم يكن لديه الكثير ليعطيهم إياه. لهذا رأينا كيف أنه في الأشهر القليلة الأولى من رئاسته تعاون مع مراكز السلطة، على الرغم من معرفته بنواياهم نحوه. لكنه في ذات الوقت أقدم على خطوات لكسب محبة الشعب مثل الإفراج عن السجناء السياسيين وتحسين مستوى المعيشة العام في مصر.

أدت تلك الخطوات إلى تعزيز مكانة السادات وإعطائه، في غضون بضعة أشهر، ثقة بقدرته على الوقوف في وجه مراكز القوى. من وجهة نظرهم، السادات لم يكن عبد الناصر، بل كان في أحسن الأحوال الأول بين أقرانه، وذلك لفترة مؤقتة. لكن ما حدث أن السادات بدأ يتخذ القرارات بنفسه، فبدأ التوتر بين القادة يظهر. وظهر ذلك بشكل واضح فيما يتعلق بالجهود المبذولة لاستعادة سيناء من إسرائيل. فبوجود قناعة بأن مصر لا تستطيع استعادتها بالقوة، اقترح السادات عام 1971 تسوية مؤقتة يقوم بموجبها الجيش الإسرائيلي بالانسحاب من قناة السويس إلى الحد الذي يسمح لمصر بإعادة فتحها لحركة الملاحة البحرية. هذا الاقتراح أغضب علي صبري، الذي كان مقتنعاً بأن الحل الوحيد مع الاحتلال الإسرائيلي هو الحرب؛ كان صبري يعقد آماله على الاتحاد

وصـل التوتـر بين السـادات ومراكز القوى إلـى ذروته في الأسـبوع الثاني من أيار 1971، وقد لعب أشرف مروان دوراً محورياً في الأحداث. وبحسب رواية السادات، كان مروان الشخص الذي سلمه الورقة الرابحة، ممكّناً إياه من هزيمة خصومه هزيمة نهائية.

كانت إحدى نقاط ضعف السـادات حقيقة أن خصومه، وخاصة سـامي شـرف وشـعراوي جمعة، كانا يسـيطران على وكالات الاسـتخبارات؛ كانـوا يتنصتون على خطوط هواتفه ويخترقون الدوائر الأكثر قرباً منه. ولعلمه بذلك، كان السـادات يلجأ للمراوغة واعتماد وسـائل الاتصال العادية، ولم يكن ذلك سـهلاً أبداً لافتقاده لتابع مخلص. وهكذا صار مضطراً للاعتماد على أفراد عائلته. حين أراد التحقق من تحذير وجهـه إليـه محمد حسـنين هيـكل، الصحافي في جريـد الأهرام وأحـد أصدقاء عبد الناصـر المقربيـن، بخصوص مؤامرة تُعَد لاغتياله، أرسـل ابنته نهى ابنة الثلاثة عشـر ربيعـاً إلـى شـقة هيكل لتطلب منـه مقابلة السـادات في القصر الرئاسـي. وعلى نحو مشـابه، في الثالث عشـر من أيار، حين شـعر باقتراب لحظة الحقيقة في الصراع على السـلطة، أرسـل ابنته الكبرى لبنى بسـيارتها الخاصة إلى الإسـكندرية، حيث قابلت هناك محافظ المدينة ممدوح سـالم. كان سـالم ضابطاً سـابقاً في فرع التحقيق، وهو أحد أفرع الشرطة، ومسؤولاً، من بين أمور عدة، عن الحماية الشخصية لقادة الدولة. كانت رسالة لُبنى مقتضبة وواضحة: «الرئيس يرغب بلقائك في الحال. لا تُخبر أحداً». انطلق سـالم إلى القاهرة. سـأله السـادات إن كان يرغب في منصب وزير الداخلية، فقبل سالم العرض وتم بهدوء تسليمه المنصب ليحل محل شعراوي جمعة.

وحتـى قبـل أن يؤدي سـالم اليمين الدسـتورية، حين كان السـادات جالسـاً في مكتبه منتظراً وصوله من الإسكندرية، قرَّر الرئيس امتحان ولاء اللواء الليثي ناصف، قائـد الحـرس الجمهوري، الـذي كان قد عيَّنه عبـد الناصر شـخصياً ومهمته الأولى تأمين حماية السـادات. إلا أن اللواء وحرسـه كانوا تحت قيادة سـامي شـرف، وكان

غير اعتيادي بأن عليه مهما كانت الظروف أن يحترم تسلسل الأوامر كجزء من واجبه المهني. وكانت النتيجة حين سأل السادات ناصف عن ولائه الشخصي للرئيس وعن رغبته وقدرته على اعتقال رجال الحكومة الذين يتآمرون ضده، استوعب ناصف ماذا كان يحدث وأقسم على ولائه للرئيس. جعله السادات يُقسِم بألاّ يُخبر أحداً عن هذه المحادثة، فأقسم ناصف ولم يحنث بيمينه.

شعر السادات الآن، وهو المتآمر المحنك، أن كل شيء قد أصبح في مكانه الصحيح ولم يعد أمامه الا القيام بخطوته التالية. وتم تحديد الوقت، إلى حد كبير، من قِبل أشرف مروان، الذي كان لا يزال يعمل تحت إمرة سامي شرف في قصر الرئاسة.

مع أن جميع الروايات تتفق على أن مروان لعب دوراً مركزياً في مساعدة السادات على التغلب على خصومه وبسط حكمه على مصر في أيار 1971، لا يتفق الجميع على حقيقة ما فعله بالضبط. يقول السادات في مذكراته، البحث عن الذات، المليء بالمعلومات المغلوطة، إن مروان جاء إليه في الساعة 10:57 من عصر الثالث عشر من أيار، حاملاً طلبات استقالة رئيس مجلس الشعب، وزير الدفاع، مدير الديوان الرئاسي، وأعضاء من المجلس التنفيذي الأعلى. شعر السادات أن الهدف من استقالتهم الجماعية كان خلق أزمة دستورية تجبر الرئيس على الاستقالة. لكن بدلاً من ذلك، كتب السادات «قُبِلت استقالتهم»[5].

كتبت جيهان، زوجة السادات، هي الأخرى مذكرات بعنوان امرأة من مصر، نسبت فيها لنفسها دوراً مهماً في إرشاد زوجها بشكل عام وفي التغلُّب على المؤامرة بشكل خاص، وقد روت تفاصيل كثيرة ومثيرة. بحسب روايتها، كانت تشاهد مع زوجها نشرة أخبار العاشرة في منزلهما حين سمعا طرقاً على الباب. كان الطارق أشرف مروان، الذي كان، إلى جانب صلته بعائلة عبد الناصر ودوره في المكتب الرئاسي، صديقاً شخصياً لهما أيضاً. سلَّمهما طلبات الاستقالة وقال، بشيء من عدم

واقفاً في مكانه بعدم ارتياح، وحين سألته جيهان لماذا لم يخبرهما قبل ذلك، أجاب أن سامي شرف لم يسمح له بمغادرة المكتب. أدركت جيهان من ذلك أن مروان، الذي لم تكن تشك أبداً بولائه للسادات، لم يكن قادراً على مخالفة أوامر شرف، قبل أن تضيف قائلة «لم أعد أعرف ماذا أصدق». ربما قالت ذلك لأنه، بحسب أحد المتآمرين، تم إعطاء مروان أمر تسليم طلبات الاستقالة في الثامنة مساء[6]. في هذه اللحظة، كما تقول جيهان، انتهى دور مروان وبدأ دور الليثي ناصف. فأمر السادات ناصف بأن يسجن كل من ورد اسمه على اللائحة.

يرى السادات وجيهان أن جل ما فعله مروان هو أنه لعب دور المراسل. وليس واضحاً من موقعهما ما إذا كان قد جاء بناءً على أوامر من سامي شرف، بهدف إعطاء انطباع بمراعاة الأصول البيروقراطية في عملية تسليم الاستقالة الجماعية الهادفة لتدمير النظام؛ أم أن إيصال طلبات الاستقالة كان مبادرة فردية من مروان، كونه حليفاً للسادات داخل مكتب الرئاسة، ولو أنها جاءت متأخرة، ولم يكن من المفترض بهما أن يعرفا بأمرها لحين إذاعة الإعلان العام. على كل حال، بعض الروايات لا تعتبر أن مروان فقط قرر من تلقاء ذاته إيصال الرسائل، بل ترى أنه خاطر بحياته لوضع يده على دليل دامغ ضد خصوم السادات ليقدمه بعد ذلك للرئيس، وبالتالي تسليم السادات الأدوات اللازمة لتدمير أعدائه.

يبدو أن عبد الناصر كان يحتفظ بخزنتين آمنتين في منزله الخاص. الكبيرة كان يحفظ بداخلها مبلغاً من المال كان يُستخدَم لتمويل المشاريع السرية، أما الأصغر فكان يحفظ فيها مستندات في غاية الحساسية عن الاستخبارات ووكالات الأمن. وبعد وفاة عبد الناصر، قامت أرملته تحية بإعطاء مفاتيح الخزنتين لسامي شرف. في الثالث عشر من أيار، أرسل شرف مساعده، محمد سعيد، لنقل المستندات من الخزنة الصغيرة إلى مخبأ آخر. وهناك روايتان تؤكدان أن مروان عرف بذلك فتبع سعيد

وأعطاها للسادات[7]. كانت تحوي وثائق تأسيس حزب الاتحاد الاشتراكي، الذي كان يُشكِّل القاعدة المركزية لسلطة المتآمرين، وأوراقاً شخصية عن سامي شرف وقادة المعارضة الآخرين، وتفاصيل حساب مصرفي كانوا، على ما يبدو، يودعون فيه أموال الرشى التي يتقاضونها. وبحسب إحدى الروايات، كانت هناك مستندات أخرى تكشف عن شتم سامي شرف وأشرف مروان للسادات – وقد أخذ مروان وقته لإتلافها قبل إحضار بقية الوثائق إلى الرئيس[8]. لكن هناك رواية أخرى تخالف هذا الرأي وتقول إن مروان أحضر للسادات كل ما أخذه سعيد.

في سيناريو آخر للأحداث، يُقال إن الاستخبارات الأمريكية CIA لعبت دوراً مركزياً في إفشال الانقلاب بعد كشفها عن المؤامرة عبر تنصّتها على بعض المتآمرين، وأيضاً عبر فلاديمير ساخاروف، وهو ضابط في مكتب KGB المحلي كان يعمل في السر لصالح الأمريكان. المدير المفوض لفرع CIA في القاهرة، توماس تويتن، والذي سيصبح لاحقاً مدير العمليات في الوكالة، مرر وثائق الإدانة إلى مروان، الذي أعطاها للسادات في تلك الليلة[9]. وهناك رواية مشابهة تقول إن الموساد مرر إلى جيمس أنغلتون، رئيس مكتب مكافحة التجسس في CIA وحلقة الاتصال مع الإسرائيليين، معلومات عن محاولة انقلاب تتضمن اغتيال السادات على يد مؤيدين للسوفييت في مصر. تم تمرير المعلومات إلى تويتن في القاهرة، الذي أعطاها إلى مروان، الذي بدوره سلَّمها للسادات[10].

ثم يأتي وصف سامي شرف لتلك الأحداث مخالفاً لجميع الروايات السابقة، فقد ادعى أنه في ليلة الثالث عشر من أيار أعطى مروان أمراً بأخذ طلبات الاستقالة إلى السادات، وأن صهر عبد الناصر رفض تنفيذ الأمر وقدَّم استقالته. رفض شرف الاستقالة وأصر على بقائه في منصبه لحين العثور على شخص أكثر ولاءً منه ليحل محله. وحين أُسقط بيد مروان وافق على أداء المهمة، فطلب شرف من سعيد إعطاء مروان ثلاث حقائب جلدية مليئة بوثائق تتعلق بأشخاص على صلة بعبد الناصر، ليس من ضمنهم

المتآمرين ضده في اليوم التالي بمكافأة مروان على خدمته المخلصة.

مـع أنـه من الصعب معرفة ما فعله مروان فعلاً لمنع محاولة انقلاب أيار 1971، فمن الواضح أن دوره كان أكبر بكثير من مجرد نقل طلبات الاستقالة. وعلى ما يبدو، فقد أعطى مروان أيضاً للسادات دليلاً يدين المتآمرين. صحيح أن ذلك لم يرد، لا في مذكـرات السـادات ولا مذكرات زوجته، لكـن توجد مصادر مصرية موثوقة تقول إن السادات قال بعد سنوات إن مروان «أنار طريقه» في ما يتعلق بأحداث أيار 1971[12]. على ضوء ذلك، وبالنظر إلى الترقية الفورية التي حصل عليها مروان، لا بد أن دوره كان جوهرياً وحاسماً.

حتى لو كانت قصة سرقة مروان للوثائق من سعيد تحت تهديد السلاح مستبعدة، فهي تبدو أقرب للتصديق من ادعاء سـامي شـرف بأنه طلب من سـعيد إعطاء الوثائق لمروان. قد يعذر المرء سـامي شـرف في أشـياء كثيرة، لكن لا يمكن اعتباره ساذجاً. ففكرة أن يكون قد أعطى السادات متعمداً الوثائق التي أدت إلى اعتقاله بعد ساعات لا تبدو معقولة على الإطلاق.

إذاً، إذا كان مقبـولاً الافتـراض بـأن مروان قد أعطى السـادات، فـي ليلة الثالث عشر من أيار، الدليل الذي كان يحتاجه لإدانة المتآمرين، سيبدو مرجحاً أنه قام أولاً بإزالـة كل مـا يمكـن أن يعيبـه بنظر الرئيس. نحـن نعلم أن مروان لم يكنُّ للسـادات أسـمى المشـاعر[13]؛ فإذا كانت الوثائق تتضمن أي دليل على ذلك فسـوف يفعل ما أمكنه ليضمن عدم رؤية الرئيس له. وهذا يتماشى أيضاً مع رواية جيهان السادات عن عـدم ظهـور مروان مرتاحاً خلال الزيارة، واعتذاره علـى تأخره كثيراً في القدوم. في النهايـة، إذا كان قـد أحضر للرئيس دليلاً دامغـاً على إدانة الآخرين، وهي مواد خاطر بحياته للحصول عليها، هل سيكون التأخير أمراً يستحق القلق في مقابل ذلك؟ يبدو أمراً منطقياً، إلا إذا كان مروان قد اسـتغرق وقته للبحث في كل الوثائق وإزالة كل ما

قصة «الملاك» بالكامل، وهو يستحق نظرة عن كثب. كيف تحوَّل السادات، الذي بدا أنه يقلل عن عمد من دور مروان في المؤامرة بأكملها، ليعتمد عليه إلى ذلك الحد ويُعيِّنه، برغم افتقاره للخبرة والعلاقات مع مؤسسة الاستخبارات العسكرية، في منصب حساس ومهم للغاية كمنصب المدير العام لمكتب الرئيس بدلاً من سامي شرف؟ ويمكن أيضاً طرح الأسئلة من الزاوية المقابلة أيضاً: ما الذي دفع صهر عبد الناصر للمراهنة على السادات الذي كانت فرصته في ذلك الوقت، بحسب معظم المراقبين، عادية في أحسن الأحوال، مخاطراً بموقعه مع أكثر الرجال قوة في مصر؟

بالنسبة إلى السؤال الأول هناك عاملان جعلا أشرف مروان محط جذب السادات؛ العامل الأكثر أهمية بينهما هو الهالة التي كان يتمتع بها كفرد من العائلة التي وضعت الأمة على سكتها. إذ كانت مراكز القوى تعتبر نفسها ورثة حقيقيين لعبد الناصر، وكان السادات بحاجة لتعزيز شرعيته من خلال العلاقة مع عائلة عبد الناصر. ومروان كان الفرد الوحيد من عائلة عبد الناصر المستعد للمساعدة. فتحية، أرملة عبد الناصر، كانت قد عزلت نفسها عن الحياة العامة منذ أن كان عبد الناصر على قيد الحياة، وقد أغرقت في ذلك بعد وفاته. وأبناء عبد الناصر الثلاثة كانوا لا يزالون صغاراً: فخالد، الأكبر بينهم، كان فقط بعمر الثالثة والعشرين وكان يمقت السادات. قبل شهر فقط من محاولة الانقلاب، اتصل السادات بعائلة عبد الناصر طالباً منهم السماح له باستخدام سيارة الليموزين المضادة للرصاص التي كانت قد كلَّفت 36 ألف دولار. كانت السيارة مركونة في المرأب منذ وفاة عبد الناصر، لكن العائلة رفضت بحجة أنها تخصهم وليست من أملاك الدولة. فألحَّ السادات في طلبه، وفي خضم النقاش المحتدم، ذهب خالد إلى المرأب، سكب البنزين على السيارة وأشعلها[14].

ربما يكون في تعبير خالد عن موقفه انفعال كثير، لكن العدائية التي كان يشعر بها نحو السادات لم تكن شعوره وحده بل كانت تشاركه فيها غالبية عائلة عبد

لذلك لم يكن أمام السادات خيار أفضل من الاستدارة نحو أشرف مروان إذا ما أراد الاستفادة من مكانة العائلة. ربما ما كان عبد الناصر ليوافق، لكن الشعب المصري لم يكن بحاجة لمعرفة ذلك.

كان الاعتبار الثاني حقيقة عمل مروان في مكتب الرئاسة، الذي شاءت الأقدار أن يكون العصب المركزي في المؤامرة. كان السادات بأمس الحاجة لشخص ما يخبره بما كان يحدث بالضبط في المركز الذي كان واضحاً جداً أنه المركز الذي يخدم مصالحه. فكان مروان، الذي لم يكن يشعر بكثير من الولاء للناصريين الذين ملؤوا المكتب، الشخص المناسب تماماً.

بالنسبة إلى السادات، كانت هناك مسألة أخرى لا تقل أهمية عما سبق وهي أن صهر عبد الناصر كان شاغراً، فهو غير مدين بالفضل لأي «تابع» أو «مركز قوة»، ولا حتى لرئيسه سامي شرف. وهذا ما جعله قيِّماً جداً بالنسبة إلى رئيس يحاول إيجاد موطئ قدم له مقابل لاعبين كان معظمهم قد حدد ولاءه للتحالف القائم. وضع مروان كان مختلفاً. فهو من جهة زوج منى ابنة عبد الناصر ومن جهة أخرى صديق مقرَّب لأنور وجيهان، حتى لو كانت تلك الصداقة لا تخلو طبعاً من المصلحة. في مذكراتها، وصفت جيهان مروان كرجل يشبه في شخصيته وطموحه زوجها السادات أكثر من أي شخص آخر في عائلة عبد الناصر. وقد عملت على الاستفادة من صداقتها مع سعاد الصباح، زوجة الشيخ عبد الله الصباح الذي ساعد مروان في لندن، لتعميق العلاقة بين مروان والسادات[15].

السؤال عن السبب الذي جعل مروان يختار التحالف مع السادات ربما يكون أصعب، خاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار قبضة السادات التي تبدو ظاهرياً ضعيفة في الصراع على الخلافة. والمشكلة الأكبر ربما تكون حقيقة أن عائلة عبد الناصر كانت تعتبر دعم السادات بمثابة تنصل من العائلة نفسها، مع كل ما قد يترتب على ذلك.

يمكن أن يعطينا صورة أوضح بكثير إن كان عن حساباته أو عن شخصيته.

أولاً، هناك السؤال عن البدائل. صحيح أن دعمه لسامي شرف وبقية القادة كان أكثر أماناً بالنسبة إليه، لكنه لم يكن يجد في ذلك أي جاذبية خاصة. كان مروان يشعر بالخجل من موقعه المتدني في مكتب الرئاسة ولم يكن لديه ما يدفعه للتفاؤل بتحسن الأمور إذا ما أصبح شرف رئيساً. فسامي شرف كان يعرف بالضبط رأي عبد الناصر في زواج منى من مروان، وأن زواج مروان بها كان بدافع الطموح أكثر من الحب. الأكثر من ذلك أن شرف والبقية كان لديهم ما يكفي من الأدلة على شغفه بالحياة الجيدة التي تحطمت بقسوة نتيجة تزمت عبد الناصر، ويمكنهم استخدام تلك الأدلة بسهولة ضده. وعندها سيصبح في أحسن الأحوال أحد أولئك الأشخاص الكثر الذين يجاهدون للحاق بالركب. لكن ذلك لم يكن الشيء الذي كان يخطط له.

مقارنة بذلك فإن فكرة أن يصبح جزءاً من حاشية السادات كانت تبدو له واعدة أكثر. لم يكن للسادات أذيال كثر وإنما عدد صغير من الأشخاص المخلصين يعتمد عليهم. وبالنسبة إلى مروان، كان العمل مباشرة مع القائد أسهل بكثير من الانضمام إلى شلة أو أخرى. والوسيلة لتحقيق ذلك كانت بأن يُقسم على ولائه للسادات. أهم ما كان باستطاعة مروان تقديمه للرئيس هو الاتصال بعائلة عبد الناصر، الأمر الذي يمكن أن يمنح شرعية لسياساته التي يسعى إليها على انفراد، حتى ولو كانت زائفة، من الناصريين.

يأتي بعد ذلك العامل المادي. كان مروان يدرك جيداً أن أنور وجيهان ينظران إلى الأمور بطريقة مختلفة جداً عن طريقة عبد الناصر الذي كان يُحرِّم على أفراد عائلته قبول أي رشوى أو أي مكسب آخر، وكان نمط حياة عبد الناصر المتقشف غريباً بالنسبة إليهما. قبل أن يستلم السادات مكان عبد الناصر، كان قد زوَّج ابنته الكبرى من عثمان أحمد عثمان، أحد أغنى أغنياء مصر، الذي جمع معظم ثروته من عمله كأحد المقاولين الرئيسيين في بناء سد أسوان. ولاحقاً زوَّج ابنة أخرى لسعيد

في تلك الفترة، قبل أن يصبح السادات رئيساً بوقت قصير، أعجبت جيهان بأحد منازل القاهرة. لكن المالك لم تكن لديه نية لبيعه. في أوائل تموز 1970، سافر عبد الناصر إلى موسكو؛ فقام السادات من موقعه كنائب للرئيس باستلام القيادة وأصدر في الحال أمراً بمصادر المنزل مع كامل محتوياته. حين عاد عبد الناصر إلى مصر بعد بضعة أيام، اشتكى له المالك مصادرة أملاكه. وبعد إجراء التحريات، قام عبد الناصر بإلغاء الأمر وأعاد للرجل منزله. بحسب إحدى الروايات، كان عبد الناصر غاضباً لدرجة أنه قرر إقالة السادات، لكن المنية وافته في أيلول قبل أن ينهي تلك المسألة.

بغض النظر عما إذا كانت القصة حقيقية أم أنها مجرد مثال على الشائعات التي كانت تتحدث عن ميل السادات إلى الفساد، الواضح هو أن الدائرة المقربة من القائد الجديد كانت منفتحة على مثل تلك السلوكيات أكثر بكثير مما كان عليه عبد الناصر. مروان، الذي احتدمت المشكلة بينه وبين عمه بسبب المال الذي أخذه من سعاد الصباح، كان على يقين بأن مثل تلك الأزمة لا يمكن أن تقع في كنف السادات. وفي النهاية فإن مروان كان بحاجة لتبرير مقنع للثروة الجديدة التي انهالت عليه منذ بدأ العمل مع الموساد، والفساد الشخصي كان مبرراً ممتازاً.

لكن إلى جانب كل تلك الاعتبارات السابقة، كان العامل النفسي حاضراً أيضاً. وكما قلنا سابقاً، كان مروان ينشد في داخله الإثارة والمغامرة. وبربط مصيره بالسادات، أشبع ميله نحو المخاطرة – بدرجة أكبر بكثير حتماً مما لو صار أحد أتباع سامي شرف. لكنْ كان هناك عامل نفسي آخر أيضاً، وهو ما يمكن تسميته «تحالف الخاسرين». كان مروان يشعر برفض عبد الناصر له، وقد عامله شرف وأزلام السلطة الآخرون بالطريقة نفسها. كما أنهم كانوا ينظرون بازدراء إلى السادات أيضاً، وربما تولّد لدى مروان شعور بوحدة الحال مع الرئيس المحاصر. إذاً ليست المسألة أن مروان كان ينظر إلى السادات بعين التقدير إلى ذلك الحد، وهذا ما شرحه لمشرفيه الإسرائيليين أكثر من مرة. بل ربما

لعب دوراً حاسماً في الخيار الذي اتخذه في تلك اللحظة المحورية.

أخيراً، علينا أن نتذكر أن أشرف مروان كان يفتقر لأي شعور بالولاء السياسي الحقيقي أو، بالدرجة نفسها، إلى معيار أخلاقي. الأشخاص الوحيدون الذين كان مخلصاً لهم على الدوام، كما يبدو، كانت زوجته منى، التي وقفت إلى جانبه في وجه أبيها، وابنيه. ولا ننسى أن رجلاً على استعداد لبيع أسرار بلاده إلى ألد أعدائها لن يرى مشكلة كبيرة في إعطاء السادات الدليل الذي وضع سامي شرف والمتآمرين معه في السجن.

حين اختار أنور السادات أشرف مروان ليصبح مدير مكتب الرئاسة بدلاً من سامي شرف، أصبح من كان أهم جاسوس على الإطلاق لدى الموساد أكثر قيمة بكثير من قبل. لقد أصبح الآن مسؤولاً عن العصب المركزي للنظام الأقوى في العالم العربي. بالطبع، لم يكن مروان كسامي شرف: فالمنصب لوحده لم يمنحه تلقائياً أي شيء يشبه السلطة التي كان شرف ممسكاً بزمامها. فحين كان «وزير الدولة للشؤون الرئاسية»، حوَّل سامي شرف مكتب الرئيس إلى وكالة استخبارات مرعبة، وأيضاً إلى مركز تبادل معلومات تمر عبره أي معلومة مخابراتية تتعلق بأمن الدولة ونظام عبد الناصر. وقد استغرقه الأمر سنوات للعب ذلك الدور. ابتداءً من عام 1954، حين كان مروان لا يزال بعمر العاشرة، بدأ شرف يحيك شباكه، وذلك بتوسيع نفوذه واكتساب الخبرة في مجال جمع المعلومات. حتى توسَّعت شبكته لتصل إلى أي بقعة مظلمة في مصر، وقليلة جداً كانت الأمور التي لا يعرفها سامي شرف أو لا يمكنه اكتشافها. لقد كانت تحفة يدوية مفصَّلة على الطلب، وقد بذل قصارى جهده ليكون طاقهما بالكامل من أشخاص يدينون بالولاء الشخصي الكامل له. تلك كانت حاشيته.

لكن لم ينتقل أي من ذلك إلى أشرف مروان حين استلم المنصب.

تولى مروان المنصب وهو يفتقر بالكامل لأي خبرة بهذا الخصوص. صحيح أنه عمل تحت إمرة سامي شرف لعامين، لكن نظراً لانعدام ثقة رئيسه فيه، لم يتعلم سوى

الداخلية شعراوي جمعة أو القادة العسكريين. حاول في إحدى المرات في مكتبه قيادة شبكة الاستخبارات التابعة لشرف، لكنه لم ينجح في ذلك. بسرعة كبيرة أصبح جلياً أن رجال شرف لن يقدموا ولاءهم لشخص شاب وضعيف الخبرة مثله. والأكثر من ذلك أن أسلوب السادات في العمل كان مختلفاً عن أسلوب عبد الناصر الذي حوَّل مكتب الرئيس إلى ركيزة لكامل نظامه. كان السادات يفضل عدم الانخراط كثيراً في الشؤون اليومية، بل وضع جل تركيزه على القرارات الاستراتيجية المهمة، فيما يتعلق بالحرب والسلم - وأن يترك مهمة إدارة البلاد لأشخاص آخرين، أشخاص يشعر أنهم جديرون بالثقة. لكن شباب مروان وقلة خبرته وضعفه في السياسة، إلى جانب عاداته الشخصية وخاصة طموحه غير المسبوق الذي وضعه في حالة صدام مع الشخصيات القيادية الأخرى - كل تلك العوامل جعلت من المستحيل على السادات أن يضع كامل حقيبة المسؤوليات التي كان شرف يتولاها بين يدي مروان.

وهكذا، استمر مروان في حمل لقب سكرتير الرئيس لبعض الوقت، لكن عملياً كان دوره يتضاءل، ليصبح فيما بعد نوعاً من «مسؤول ارتباط في الشؤون الخاصة»، وليعمل بشكل أساسي كمبعوث خاص للرئيس إلى القادة الكبار في العالم العربي. شباب مروان وروابطه العائلية جعلته مثالياً للمحافظة على أواصر الصلة، مثلاً، مع النظام الليبي الجديد بقيادة العقيد معمر القذافي، الذي أطاح بالملك إدريس بانقلاب عسكري في أيلول 1969. القذافي، وهو من أشد المعجبين بعبد الناصر، كان أكبر بسنتين فقط من مروان. وكان عبد السلام جلود، الذراع اليمنى للقذافي، بعمر مروان نفسه.

كان خيار السادات حكيماً، فقد عمل جلود ومروان معاً عن كثب، وكان أهم إنجاز لهما الاتفاق الذي مكَّن مصر من الالتفاف على حظر توريد الأسلحة الذي فرضته فرنسا عام 1967 في إطار الجهود الرامية إلى منع وصول السلاح إلى طرفي النزاع. وبالمقابل ساعد مروان جلود في كسر الحظر الذي فرضته الولايات المتحدة

مشبوهة كان الاثنان يبرمانها، وحفلات جامحة كانا يقيمانها في لندن وروما والقاهرة.

إلى جانب عمله مع ليبيا، طلب السادات أيضاً من مروان العمل على توطيد العلاقات مع المملكة العربية السعودية التي كانت تقدم دعماً كبيراً لميزانية الدولة المصرية. صلة الوصل مع مروان من العائلة الملكية السعودية كان كمال أدهم، الأخ غير الشقيق لزوجة الملك فيصل بن عبد العزيز، الذي أسس شعبة الاستخبارات السعودية في أواسط الستينيات واستمر بإدارتها. المثير في الأمر أن تلك الوكالة كانت قد أنشئت في الأساس لإيقاف المد العروبي الناصري في شبه الجزيرة العربية. لكن بعد سحب مصر لقواتها من اليمن، تحسَّنت العلاقات كثيراً بين عبد الناصر والمملكة السعودية. هنا أيضاً ظهرت حكمة السادات في اختياره. فإلى جانب علاقات العمل بين أدهم ومروان، أصبح الاثنان صديقين مقربين أيضاً، في إطار علاقة عادت بمكاسب اقتصادية لا يُستهان بها على الطرفين. وبعد توليه ملف العلاقات مع السعودية بفترة وجيزة بدأت تظهر في الصحافة المصرية تقارير تزعم تورط مروان في مختلف أشكال الفساد، وظهر اسم كمال أدهم أكثر من مرة في تلك التقارير. سنعود لاحقاً إلى الحديث عن تورط مروان في الفساد في تلك المرحلة بشكل عام، وإلى الحادثة التي ظهر فيها اسم كمال أدهم بشكل خاص. لكن من الجدير ذكره أن صيت الفساد الذي لحق بمروان جعل ملاحظة المال الذي كان يحصل عليه لقاء خيانته أمراً في غاية الصعوبة على أي شخص.

مع أنه لم يتولَّ كامل مسؤوليات سامي شرف، إلا أن قيمة مروان لدى الموساد تعاظمت كثيراً بعد أيار 1971. فقربه من السادات، الذي كان في السابق مقتصراً على العلاقات الشخصية فقط، أصبح الآن رسمياً. وأصبح بمقدور مروان الآن أن يطلب بشكل شرعي من أي شخص أي معلومة يريدها، وهكذا لم يعد هناك من الآن فصاعداً أي حدود للمعلومات التي يمكن أن تجمعها إسرائيل عن مصر.

حلم أي وكالة استخبارات على وجه الأرض

أثار أشرف مروان إعجاب مشرفيه أكثر من أي عميل آخر في تاريخ إسرائيل حتى قبل قيام الثورة التصحيحية في أيار 1971. في لقائه الأول مع دوبي في كانون الأول 1970، سلَّمه وثائق استخباراتية من الطراز الرفيع، واستمر في لقاءاته اللاحقة بتقديم معلومات في غاية الدقة عن كل ما يحدث في القيادة المصرية. ساهمت مشاركة المقدم مائير مائير في اجتماعات لندن في شحذ فعالية مروان وتركيز جهوده على الحصول على كل ما تعتبره إسرائيل المعلومات الأكثر أهمية. وفي لقائه الأول مع مروان في نيسان 1971، سأل مائير مروان عن خطط المصريين لعبور قناة السويس، فأحضر معه مروان في الاجتماع التالي النصوص الفعلية لأوامر القيادة المُعدَّة لعبور القناة، وكانت تتضمن كل التفاصيل حول الطريقة التي سيهاجم بها المصريون. كانت الأوامر تتضمن شرحاً عن القوات التي ستقوم ببناء الجسور، والمواقع التي ستتخذها، ومن سيعبر أولاً ومن الذي سيتبعه، والكثير من التفاصيل العملانية الأخرى. كانت كل محطة قيادة فرعية حول القناة تحتفظ بنسخة عن الأوامر في خزنتها الخاصة. وبحسب مروان، تم إجراء اختبارات بناءً على تلك الخطط قبل انتهاء حرب الاستنزاف في آب من عام 1970، لكن التحركات استمرت بشكل حثيث أكثر منذ ذلك الحين. أصبحنا الآن نعرف أن تلك الأوامر كانت في غاية الدقة، وقد تم تحديد موعد المرحلة الأولى في يوم عيد الفصح اليهودي في السادس من تشرين الأول عام 1973.

وأسماء قادتها، والأسلحة المُخزّنة في المستودعات، ولوائح مفصّلة عن الطائرات الحربية ومواقع أسراب طائرات القوى الجوية، ومجموعة واسعة من التفاصيل حول جميع الوحدات العاملة في الجيش المصري. حتى ذلك الوقت كانت استخبارات الجيش الإسرائيلي قد وضعت خريطة دقيقة نسبياً عن الجيش المصري، استناداً إلى تشكيلة من المصادر البشرية والتقنية. لكن ما أضافه مروان من معلومات زاد في عمق الصورة وأعطى تفاصيل تجاوزت كل ما كانوا يعرفونه بكثير. لقد كانت من نوعية لا سابق لها، وساعدت في رفع مستوى التأكد مما كانوا يعرفونه مسبقاً. وبسبب الدرجة العالية من التكامل مع المعلومات التي كانت أصلاً في متناول أيديهم، ازدادت ثقتهم إلى حد كبير بأن مروان لم يكن عميلاً مزدوجاً. وبالنسبة إلى كل من كان لا يزال يتساءل، من الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى إزالة كل الشكوك[1].

التطورات الدراماتيكية التي طرأت على حياة مروان ومكانته، وخاصة تعيينه في المنصب الذي كان يشغله سامي شرف سابقاً، أدت إلى نشوء حالة استثنائية جداً في تاريخ الجاسوسية: مساعد مباشر لقائد دولة تستعد للهجوم على عدوها يكون عميلاً سرياً لمصلحة ذلك العدو. في الفترة التي بدأ فيها مروان العمل مع الموساد، نجح أسطورة الجاسوسية الألماني الشرقي ماركوس وولف في زرع عميل، هو غانتر غويللوم، في منصب المساعد الشخصي للمستشار الألماني الغربي فيلي برانت. كما اعتقد المشرفون على أشرف مروان، لم يكن مشرفو غويللوم يتخيلون أبداً أنه يمكن أن يرتقي إلى مثل ذلك المنصب؛ فهدفهم الأساسي كان فقط إيصال أحدهم إلى درجة متقدمة في الحزب الحاكم. عمل غويللوم عن كثب مع برانت لأربع سنوات، ونقل المعلومات الاستراتيجية السرية إلى ألمانيا الشرقية، وعبرها إلى موسكو. تم إلقاء القبض عليه عام 1974، وأُجبر برانت على الاستقالة[2]. لكن بخلاف ما كان يجري في مصر عام 1970، لم تكن لدى ألمانيا الغربية أي خطط فورية لمهاجمة

مصر العسكرية الأكثر حساسية والمتعلقة بخطط الهجوم المُحكمة، وهو أقصى ما تسعى إليه الدوائر الاستخباراتية في إسرائيل.

الوثائق التي سلَّمها مروان لإسرائيل محفوظة اليوم في أربعة مجلدات ضخمة جداً في أرشيف الموساد، وهي لا تتضمن فقط الوثائق وترجمتها العبرية، بل وأيضاً توثيقاً لانطباعاته الشخصية التي تفوّه بها، والتي تُعرَف باسم «تقييم المصدر». إنها تغطي طيفاً واسعاً من المواضيع، بعضها غير ذي أهمية كبيرة، منها الاجتماعات المقررة للحكومة التي كان السادات يجريها لدراسة التحديات الاقتصادية التي تواجهها البلاد، وإعادة هيكلة سلك الشرطة وقوى الأمن الداخلي، ومواضيع محلية أخرى. وهذه كلها ساعدت العدد القليل جداً من ضباط الاستخبارات الإسرائيلية الذين قرؤوها على تكوين فكرة جيدة عن الحياة في الدوائر العليا ضمن المجتمع المصري[3].

لكن تبقى المواد الأكثر أهمية هي المعلومات العسكرية، وهي تتضمن في قسم منها ملاحظات تم تدوينها أثناء النقاشات، وتتناول المواضيع الأكثر حساسية عن المواقع الأكثر حساسية في البلد. منها، على سبيل المثال، النقاشات داخل المجلس الأعلى للقوات المسلحة، واجتماعات قيادات الجيش، والأحاديث بين كبار القادة ونظرائهم السوفييت، واللقاءات التي تجري مع رسميين من الدول العربية الأخرى، بما فيها لقاءات القمة، ومقابلات السادات مع القادة الأجانب أثناء رحلاته إلى الخارج. كان أسلوب السادات في الإدارة يجعله يتحاشى الاجتماعات التي تتناول مواضيع لم يكن مهتماً كثيراً بها، حتى لو كان اجتماعاً بغاية الحساسية مثل اجتماعات القيادات العليا للجيش. وكان في أغلب الأحيان يرسل مروان نيابة عنه. وهو السبب في أهمية الملاحظات المدونة أثناء أحاديث مروان مع مشرفيه. ففي نقاشاته مع دوبي ومائير، لم يكن مروان يترك مجالاً للشك بسبب حضوره

المعلومات التي قدَّمها مروان حول النقاشات مع السوفييت – وهو موضوع يثير اهتمام إسرائيل كثيراً لأن المصريين مقتنعون بحاجتهم للأسلحة السوفييتية لبدء الهجوم – كانت بغاية التفصيل، ولم تقتصر فقط على الملاحظات الآنية والحوارات بين السادات والقادة السوفييت، بل تضمنت أيضاً شرحاً مفصلاً عن اللقاءات على المستويات الأدنى بين وزراء الدفاع، وقادة الجيش، ورؤساء الاستخبارات. وبجمع هذه التقارير مع بعضها، فُتحت نافذة واسعة استطاع القادة السياسيون والاستخباراتيون الإسرائيليون أن يروا من خلالها ليس فقط ما تعتبره مصر حرب مواجهة بين طرفين، بل وما يفكر به الكرملين أيضاً، وبالتحديد أن المصريين غير جاهزين للانقضاض على الجيش الإسرائيلي.

أفضل مثال على حجم المساهمة التي قدمها مروان للاستخبارات الإسرائيلية لمساعدتهم في اختراق العلاقات المصرية السوفييتية هو على الأرجح في ما يتعلق بالحوار الذي دار بين السادات والقادة السوفييت في موسكو في تشرين الأول 1971. كان الهدف من الزيارة هو إقناع الكرملين بتزويد مصر بأسلحة «ردع» يمكن بواسطتها منع الإسرائيليين من قصف الأهداف الحساسة في العمق المصري. في جولة محادثات سابقة مع رئيس الوزراء السوفييتي ليونيد بريجينيف في آذار 1971، طلب السادات شحنة من صواريخ كيلت (Kelt) – صواريخ جو – أرض تُطلَق من قاذفات توبوليف تو – 16 (Tupolev Tu–16). وكان في الفترة نفسها قد طلب شحنة صواريخ سكود، وهي صواريخ أرض – أرض يصل مداها إلى 270 كيلومتراً – تكفي للوصول إلى معظم الأهداف الرئيسية في إسرائيل.

كانت الاستخبارات العسكرية والموساد قد استلمت معلومات جزئية فقط عن الزيارتين، بما في ذلك حقيقة توقيع اتفاقية التسليح خلال محادثات تشرين الأول. وبما أن ذلك كان يحدث و«سنة اتخاذ القرار» التي حددها السادات بشأن الحرب مع

التقى مروان مع مائير ودوبي في لندن. أمطر مائير مروان، الذي لم يكن برفقة السادات، بوابل من الأسئلة تم تحضير معظمها من قِبل مخابرات القوى الجوية الإسرائيلية. ما خطط الحرب التي طرحتها مصر؟ ما هي تفاصيل الاتفاق، ما هي أنظمة الأسلحة، ومتى سيتم تسليمها؟ بذل مروان قصارى جهده للإجابة، لكن كان هناك الكثير مما لا يعرفه. فسأله مائير في نهاية الاجتماع إن كان بمقدوره تقديم تقرير عن المحادثات التي دارت بين السادات وبريجينيف، مشدداً على أهمية مثل هذه الوثيقة. فأجاب مروان أنه سيُحضِر الوثيقة[4].

إذا كانت الفترة الفاصلة بين اللقاءات في المناسبات السابقة قد استغرقت أسابيع أو أشهراً، فقد عاد مروان إلى مشرفيه هذه المرة بعد أيام، وسلّمهم التفاصيل الدقيقة للاجتماع. فتبيّن أن السوفييت وعدوا مصر بإعطائها صواريخ كيلت، من دون شروط (كالتي وضعوها في آذار) تفرض على مصر طلب الإذن من موسكو قبل استخدامها ضد إسرائيل. لكن ظل السوفييت رافضين الالتزام بموعد محدد لتسليم مصر أو بيعها صواريخ سكود التي كانوا يرغبون بها بشدة.

إلى جانب هذه المعلومات القيِّمة والمتماسكة بشأن صفقات الأسلحة، كوَّن الإسرائيليون أيضاً فكرة واسعة عن تحضيرات مصر للحرب، وعن رأي السوفييت بها، وعن طبيعة العلاقات بين البلدين. واقفاً أمام خريطة ضخمة لشبه جزيرة سيناء معلقة في قاعة الاجتماعات في الكرملين، شرح وزير الدفاع المصري محمد أحمد صادق خطط مصر لعبور قناة السويس وإرسال دباباتها إلى سيناء، باتجاه ممري متلا والجدي بهدف العبور إلى سيناء. عند هذه النقطة، وقف بريجينيف وطلب رؤية موقعي هذين الممرين على الخريطة، فأسرع السادات وأشار إليهما بنفسه. مع الوقت بدأت تتكشف شكوك السوفييت في قدرة مصر على تنفيذ الخطة، وأخبروا السادات وأعوانه أكثر من مرة خلال الاجتماع بأن الجيش المصري غير مجهَّز لهزيمة الجيش

ستقاتلون الإسرائيليين بها؟» كان عمر دبابات T-34 ثلاثين عاماً وكانت نواة العتاد السوفييتي في الحرب العالمية الثانية، لكنها عديمة الفائدة مقابل الأسلحة الحديثة التي يمتلكها الجيش الإسرائيلي. في الحقيقة، كان السوفييت قد باعوا مصر الجيل التالي من الدبابات، وكان سلاح المدرعات المصري يعتمد منذ سنوات على دبابات T54 وT-55. لكنهم رفضوا إعطاء مصر دبابات T-62 الأحدث، التي تمت صناعتها لمجابهة دبابات M60 الأمريكية، وهي عماد الجيش الإسرائيلي. المعنى الذي فهمه الإسرائيليون قد لا يكون مقصوداً حرفياً، لكنه كان تعبيراً من الخبراء السوفييت عن رأيهم بتواضع القدرات التسليحية المصرية، وربما يصل إلى رغبة الكرملين في تثبيط عزيمة المصريين عن إطلاق حملة عسكرية كارثية أخرى ضد إسرائيل[5].

التفاصيل التي أعطاها مروان عن محادثات السادات في موسكو أصبحت مكوناً مركزياً في التقييم الاستخباراتي الذي أرسله رئيس الأركان الإسرائيلي حاييم بارليف إلى اجتماع مُصغَّر ضم رئيسة الوزراء غولدا مائير، ووزير الدفاع موشيه دايان، ونائب رئيس الوزراء يغال عالون، والوزير بدون حقيبة إسرائيل غاليلي. في الحادي والعشرين من تشرين الثاني 1971، قدَّم بارليف تقريراً يفيد بموافقة السوفييت على بيع مصر سرباً من اثنتي عشرة قاذفة توبوليف Tu-16 قادرة على إطلاق صواريخ جو - أرض من طراز كيلت وزن رأسها المتفجر نصف طن ويصل مداها إلى مائتي كيلومتر. وقال بارليف إن مصر تستضيف حالياً نحو 9500 استشاري وتقني ومدرب، وأكثر من 10000 جندي من قوات الجيش الأحمر ينتشرون في قطاعات مضادة للطائرات، منها منصات الدفاع الجوي، بالإضافة إلى أسراب من الطائرات المقاتلة يقودها طيارون سوفييت. وكانت لديه أيضاً معلومات عن أنشطة عسكرية كثيفة تحدث على طول قناة السويس، تشمل تدريبات على عبور القناة وإنشاء متاريس من أجل العبور. طبعاً، لم تكن جميع تلك المعلومات عن طريق مروان فقط بل من المصادر

لكنه كان على الأرجح مصدر تلك المعلومة الإضافية والمقلقة بشكل خاص وهي دخول السادات إلى غرفة عمليات الجيش تحت الأرض والمعروفة باسم المركز 10، وهي خطوة أظهرت مدى جدية نواياه. كما تولَّد أيضاً انطباع مشابه من خلال الخطاب الذي وجهه السادات إلى ضباطه وجنوده المرابطين عند القناة، والذي أعلن فيه عن عدم وجود أي أمل باسترجاع سيناء بالطرق الدبلوماسية، وبالتالي فإن الطريق الوحيدة للأمام هي الحرب[6].

كانت المعلومات التي قدَّمها مروان حاسمة في خضم المحاولات الإسرائيلية لفهم نوايا المصريين وقد شارفت «سنة اتخاذ القرار» التي أعلنها السادات على نهايتها. ربما كان السوفييت، الذي كانوا يعرفون القدرات العسكرية المصرية أكثر من أي أحد آخر، يعتقدون بأن مصر لا يمكنها الانتصار في الحرب وأنها لن تحاول؛ لكن بالنسبة إلى الإسرائيليين فقد تضافر عدد من المؤشرات لرفع الراية الحمراء. ولمعرفة حقيقة ما تبطنه مصر، أقامت شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية سلسلة مكثفة من الاجتماعات ركَّزت فيها على التناقض الظاهري ما بين التصريحات العامة العدائية التي يطلقها السادات وإلى جانبها التحضيرات المصرية لعبور القناة، من جهة، وبين القناعة السائدة في الاستخبارات العسكرية، من جهة ثانية، بأن القادة المصريين يدركون في أعماق نفوسهم تواضع قدراتهم البرية والجوية مقارنة بالإسرائيليين، وهذا ما يرجح عدم استعدادهم لشن الهجوم. في النهاية، كانت خلاصة مائير مائير، الذي يترأس شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية المسؤولة عن مصر، أنه لا حاجة لإعلان النفير بدون توفُّر أي مؤشرات إضافية على إكمال المصريين استعداداتهم للحرب. ادّعى بعض المحللين أن هذا التقييم المتزن هو ما أكسب مائير ترقيته إلى عقيد[7]. لكن حتى لو دلّ اتزانه في ذلك الوقت على حكمة – مرت سنتان قبل أن تندلع حرب أكتوبر – فقد ظل دعم الاتحاد السوفييتي للمصريين مثار قلق حقيقي.

إحداث بعض الضرر أيضاً. كان قلقه منصباً بالأخص على صواريخ كيلت. إذا قدر لمثل هذه الصواريخ «أن تسقط في تل أبيب أو رامات غان أو بات يام» قال محذراً، «فسيحدث خراب كبير، لأن تلك المناطق تحتوي أبنية مرتفعة»[8].

المعلومات التي أعطاها مروان للموساد كان لها أثرها أيضاً على العلاقات بين إسرائيل والولايات المتحدة. كان الموساد يُرسل في بعض الأحيان تقارير إلى CIA بناءً على معلومات مروان الاستخباراتية، بعد أن يتم تحريرها بعناية بحيث يصبح من المستحيل تحديد مصدرها، وهي عملية تُسمى إعادة الصياغة. والأهم من ذلك أن المواد الحساسة للغاية كانت تُسلَّم مباشرة من رئيس الموساد تسفي زامير إلى مدير CIA ريتشارد هيلمز، وذلك لضمان عدم رؤية الوثائق سوى من أقل عدد ممكن من الأشخاص، حتى من الجانب الأمريكي أيضاً.

كان محضر اجتماع أكتوبر بين السادات وبريجينيف على درجة من الأهمية جعلت الإسرائيليين محتارين في أن يتعاملوا معه لوحدهم أم أن يتشاوروا مع CIA، فقررت رئيسة الوزراء غولدا مائير أن على إسرائيل تقديم ما لديها للبيت الأبيض بصيغته الأصلية، بحيث يعطوا الأمريكان لمحة بسيطة عن علاقات الاتحاد السوفييتي بإحدى أهم دول العالم الثالث بالنسبة إليهم. تضمنت الوثيقة أيضاً فرضية غير منقحة عن موقف الكرملين من الشرق الأوسط، لمساعدة الأمريكان على تكوين فكرة أوضح عن عدد من القضايا المتعلقة بالسياسة الخارجية للسوفييت. عارض زامير ذلك خوفاً منه على افتضاح مصدره، لكنه رضخ لقرار غولدا مائير واتصل بمدير مكتب الموساد في واشنطن، أفرام هاليفي، الذي كان في إسرائيل حداداً على وفاة والدته، ليتولى عملية التسليم. وبعد ذلك انضم زامير إلى غولدا مائير في رحلتها إلى واشنطن. عند اجتماعها بالرئيس نيكسون ومستشار الأمن القومي هنري كيسنجر، قامت رئيسة وزراء إسرائيل بتسليم كل واحد منهما نسخة عن المحضر. وفي تلك

مثل هذا المصدر الاستخباراتي القيِّم. العلاقة الوثيقة بين مديري الوكالتين كانت تقوم على قواعد واضحة تتعلق بالشكليات، فلم يسأل هيلمز شيئاً عن هوية المصدر، ولم يفسح له زامير مجالاً لذلك.

لم تكن غولدا مائير تهوى كتابة الملاحظات، لكنها في نهاية زيارتها لواشنطن كتبت لزامير بضع كلمات على صورة تظهر فيها إلى جانب الرئيس نيكسون، معبِّرة فيها عن تقديرها وامتنانها لعمل زامير. ثم تحدثت عن الأثر العميق الذي تركه هذا الإنجاز الإسرائيلي في نفس نيكسون وكيسنجر وتقديرهما لرغبة إسرائيل في مشاركة الوثيقة بصيغتها الأساسية، وما نتج عنه من استعداد الرئيس الآن لبيع إسرائيل طائرات فانتوم F-4.

بعد فترة وجيزة، مرَّر مروان معلومة إضافية في غاية السرية عن العلاقات السوفييتية المصرية، وأرادت غولدا مائير أن تعطيها أيضاً للبيت الأبيض. لكن هذه المرة كانت معارضة زامير أشد ضراوة لاقتناعه بأن CIA ستكتشف حتماً الآن من يكون المصدر. وبالمقابل زاد إلحاح رئيسة الوزراء، فنشب خلاف كبير. في اجتماع رفيع المستوى ضم السكرتير العسكري العميد إسرائيل ليور والوزير بدون حقيبة إسرائيل غاليلي، قال زامير لمائير إنها إذا ما أصرت على موقفها فإنه سينفذ الأوامر، لكنه سيظل مصراً على أن ذلك يُشكِّل تهديداً لسلامة المصدر. ومن دون أن تتخلى مائير عن عنادها، طلبت منه أن يستقل الطائرة وينقل المعلومة بنفسه. فأجابها زامير أن بإمكان أفرام هيلفي أن ينقلها بالسهولة نفسها. لكن مائير أصرّت ليس فقط على تنفيذ زامير لأوامرها بل وأيضاً على احترام منصبها من حيث المبدأ في ما يتعلق بتسليم المواد بنفسه. رفض زامير، فنهضت غولدا مائير وراحت تعصف في أرجاء الغرفة. ومن دون تأثر بتكتيكاتها العدائية السلبية، نهض زامير بدوره ووقف في مكانه.

في النهاية، استسلمت رئيسة الوزراء، ولم تقع عين الأمريكان على الوثيقة[9].

المصريون سيهاجمون ثانية ومتى سيفعلون ذلك. وقد قامت الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية بجهود جبارة في محاولة للإجابة على هذا السؤال في وقت مبكر. وكانت التوقعات في ذلك الخريف بأن عبد الناصر ينوي الهجوم في آذار من عام 1969، وأن الصراع سيكون ساكناً، على الأقل في البداية. وعلى هذا الأساس، أعطى قائد أركان الجيش الإسرائيلي بارليف أوامره بإكمال الاستعدادات للحرب على طول جبهة قناة السويس في الأول من آذار. تم إكمال خط بارليف، وهو عبارة عن امتداد من المتاريس والتحصينات على طول القناة، في الموعد المحدد، بما في ذلك البنى التحتية اللوجستية من أجل تأمين الدعم له إذا ما طال الصراع مع مصر. حين بدأت حرب الاستنزاف في الثامن من آذار 1969، كانت إسرائيل جاهزة. وقد انتهت تلك الحرب في الثامن من آب 1970 دون أن تحقق مصر أي مكسب دبلوماسي أو عسكري.

لكن هذا الفشل المصري وضعنا في الحال أمام سؤالين مهمين. هل سيبحثون الآن عن سبيل دبلوماسي أم عسكري لاستعادة سيناء؟ وإذا كانت نيتهم هي الحرب، فمتى سيشعرون أنهم جاهزون للهجوم؟

ترقية مروان إلى الدائرة المقربة من السادات بعد الثورة التصحيحية في أيار 1971 مكّنته، في تموز التالي، من أن يمرر للإسرائيليين الأفكار الحقيقية لرئيس مصر بخصوص السؤال الأول. ووفقاً لمذكرة نُشرت في ذلك الشهر:

> بحسب مصدر رفيع المستوى في مصر، لم يعد هناك أي أمل في التوصل إلى اتفاق دبلوماسي. وبحسب جميع المؤشرات، لا توجد لدى إسرائيل أي نية في الانسحاب من المناطق التي احتلتها. «الاتفاق الدبلوماسي» من وجهة نظرهم سيتطلب من إسرائيل التعهد لمصر بإعادة جميع الأراضي المحتلة عام 1967، وليس فقط سيناء (أي إعادة الضفة الغربية للأردن ومرتفعات الجولان لسوريا). وصل المصريون إلى قناعة بأن الأمريكان يضللونهم، لكن الحقيقة هي أنهم لا يملكون الرغبة ولا الوسيلة للضغط على إسرائيل من أجل الانسحاب. النتيجة التي

في الفترة نفسها تقريباً طُلب من سفير إسرائيل لدى الولايات المتحدة، إسحق رابين، إعداد رسالة شخصية جداً لتسليمها لنيكسون وكيسنجر. وتلك أيضاً كانت مبنية على معلومات قدَّمها مروان بخصوص الموقف المصري، وكانت تتضمن أربع نقاط محددة:

1. مصر على استعداد لإبرام اتفاقية سلام شامل مع إسرائيل بناءً على خطة روجرز (التي تقترح إعادة سيناء مقابل السلام)؛
2. الولايات المتحدة تتعهد للمصريين بالتزامها بخطة روجرز؛
3. إذا رفضت الولايات المتحدة الضغط على إسرائيل، لن يكون أمام مصر خيار آخر سوى الذهاب إلى الحرب؛
4. ما يُصر عليه نظام السادات في جهوده الدبلوماسية والعسكرية ليس مصير الفلسطينيين، بل استرجاع الأراضي المصرية[11].

لم يكن واضحاً ما الذي أقنع غولدا مائير أن عليها إرسال رسالة إلى واشنطن تصوِّر فيها مصر كصانع سلام وإسرائيل والولايات المتحدة كمعتدين. على الأرجح أنها كانت تحاول أن تُظهِر للأمريكان كيف كانت إسرائيل تعمل بانسجام مع الاستراتيجية الصارمة لإدارتهم في الشرق الأوسط – والتي تعتمد في جزء أساسي منها على رفض أي اتفاق سلام يمكن أن يعيد سيناء للسادات دون أن ينقلب ليصبح في صف الأمريكان في الحرب الباردة. وعلى اعتبار أن صانعي القرار في إسرائيل لم يكونوا على أي حال يثقون بنوايا مصر السلمية، وبالتالي غير مستعدين للتخلي عن السيطرة على الثلث الشرقي من سيناء تحت أي ظرف، فقد التقت المصالح الإسرائيلية والأمريكية لتصب باتجاه إجهاض أي جهود مصرية للتقدم باتجاه اتفاقية سلام تعيد بموجبها كامل سيناء، وهي البنود نفسها التي أصبحت، بعد سبع سنوات

بغض النظر عن الحُكم الذي يمكن إطلاقه الآن على تلك التحركات، تظل الحقيقة هي أن الفضل يرجع لأشرف مروان في إعطاء صانعي القرار الإسرائيليين صورة دقيقة جداً عن نوايا مصر بخصوص الحرب والسلم. كان المصريون يعلمون أنهم لا يستطيعون استعادة سيناء بالقوة، وكان الإسرائيليون يعرفون أنهم يعلمون ذلك. وهكذا تولّد لدى المحللين في الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية قناعة بأن إعلان مصر الحرب لن يكون بهدف استعادة سيناء، فهذا غير واقعي، وإنما «لإجبار القوى المؤثرة على التدخل وفرض حل ما»[12].

بعد نجاحها في الإجابة على السؤال الأول، انتقلت الاستخبارات العسكرية للعمل على الثاني: ما هي الظروف التي يمكن أن تجد مصر نفسها جاهزة فيها للهجوم، حتى ولو بقصد تحقيق أهداف محدودة؟ الجهود المبذولة هنا كانت خطوة مهمة في تطوير ما أصبح يُعرَف باسم ’التصوُّر‘، الذي أصبح الإطار الأساسي لتحركات الاستخبارات وصانعي القرار الإسرائيليين في معظم الفترة ما بين عام 1970 وحرب أكتوبر 1973. بحسب هذا التصوُّر، لن تهاجم مصر أبداً قبل أن تحل أولاً مشكلة ضعفها العسكري. وهنا أيضاً أدّت المعلومات التي قدَّمها مروان دوراً حاسماً[13].

المشكلة رقم واحد التي كانت تواجه مصر هي التفوق الجوي الإسرائيلي الكبير. بعد خسارة شبه جزيرة سيناء، أصبح من شبه المستحيل على المصريين شن هجوم مباغت على القواعد الجوية الإسرائيلية يشبه ما فعله الطيران الإسرائيلي من تدمير كامل لسلاح الجو المصري في الخامس من حزيران 1967، وذلك لسببين. أولاً، المسافة الكبيرة التي يتوجب على المقاتلات المصرية أن تقطعها الآن، إضافة إلى تحسين الإسرائيليين لنطاق التغطية الرادارية لديهم، يجعل قدرة مصر على مباغتة إسرائيل بطريقة مشابهة لما فعلته إسرائيل مع مصر مستبعدة جداً. وثانياً، لم يُنتِج السوفييت حتى الآن طائرة مقاتلة قادرة على اختراق الدفاعات الجوية الإسرائيلية.

5 (التي تم تطويرها خصيصا لسلاح الجو الإسرائيلي)، كانت المصانع السوفييتية تركز جهودها على الطائرات المعترضة قصيرة المدى والقاذفات الاستراتيجية بعيدة المدى المُعدَّة لحمل رؤوس نووية. أي أن الكرملين لم يكن ببساطة يمتلك نوع الطائرات التي تحتاجها مصر. وقد عبَّر قائد سلاح الجو المصري، اللواء علي مصطفى بغدادي، عن إحباطه خلال أحد اجتماعات المجلس الأعلى في أوائل عام 1972 قائلاً: «ما أحتاجه هو طائرة ردع. قاذفة - مقاتلة، تطير بسرعة 2 ماخ، وقادرة على حمل كمية جيدة من الذخائر وذات مدى جيد، بحيث تسمح لنا بالتوغل عميقاً في مناطق العدو»[14]. وفي ذلك الوقت لم يكن هناك سوى طائرة واحدة تلبي متطلبات البغدادي، وهي طائرة فانتوم F-4. وطالما أن مصر تتعامل مع السوفييت، ستظل مشكلة التفوق الجوي الإسرائيلي بدون حل.

لكن بدون تحييد التفوق الجوي الإسرائيلي، ستصطدم أي جهود مصرية للتقدم في سيناء بحائط مسدود. الإنجاز العسكري الرئيسي الذي حققه المصريون منذ حرب الاستنزاف كان نشر بطاريات مضادة للطائرات على نطاق واسع على طول الضفة الغربية لقناة السويس، بمساعدة السوفييت وبخرق صارخ لاتفاق وقف إطلاق النار. وهذا سيمنح القوات والدبابات المصرية التي ستعبر قناة السويس مظلة جوية فعَّالة. لكن بطاريات سام تلك ليست من النوع المتحرك، ما يعني أن أي قوات مصرية تبقى تحت المظلة الجوية - تمتد حوالى عشرة كيلومترات إلى شرق القناة - ستكون بمأمن من هجمات الطيران الإسرائيلي؛ لكن في اللحظة التي تحاول فيها التقدم أبعد من ذلك المجال، سينهمر عليها جحيم من النار. في ظل تلك الظروف، ستكون استعادة سيناء أمراً مستحيلاً. وبما أن الهدف الأساسي في أي خطة هجوم وضعها المصريون لغاية أواخر عام 1972 كان استعادة مساحة مهمة من سيناء، فقد استمر التفوق الجوي الإسرائيلي في كونه العامل الحاسم في تحديد

كان مروان قد قدَّم مساهمتين حاسمتين ساعدتا إسرائيل على فهم الظروف التي قد تُقدِم مصر فيها على شن الهجوم، وما مدى شعور المصريين بقربهم من تحقيقها. التقارير الشفوية والوثائق التي قدَّمها أكدت التقديرات الإسرائيلية بأن مسألة تفوقها الجوي كانت حاسمة. وفي حوارات أجراها مع مائير حين كان مروان لا يزال يعمل مع سامي شرف، أكد على وجود اقتراح واحد للحل: بعد عبور القناة تحت غطاء المضادات الأرضية، سيحاول المصريون تحريك بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات نحو الشرق، ما يسمح تدريجياً للدبابات باختراق شبه الجزيرة، ودائماً تحت غطاء المظلة، باتجاه ممري متلا والجدي. لكن من كل ما كان معروفاً في ذلك الوقت عن خطط مصر الحربية، كان واضحاً أنهم يركزون كثيراً في تصميماتهم وتدريباتهم على هجوم أرضي لا يكون قريباً من مقتلهم المتمثل بالطيران الإسرائيلي. لم تكن مصر عام 1970 تمتلك بعد بطاريات SA–6 المتحركة المضادة للطيران، إنما فقط بطاريات SA–2 وSA–3 الثابتة. بطاريات SA–3 كان يُشغلها الجنود السوفييت، ولم يكن واضحاً إن كان الكرملين سيوافق على استخدامها إذا ما قررت مصر شن هجوم على حليف قريب للولايات المتحدة. لكن حتى لو وضعنا هذا الاعتبار جانباً، يظل تحريك بطاريات سام عبر القناة عملية في غاية التعقيد، والعدد القليل الذي قد ينجحون في إعادة تموضعه لن يكون كافياً لمجابهة القوة الجوية الإسرائيلية الضارية، وهي قوة جرى تطويرها إلى حد كبير منذ أواخر الستينات، بوصول عدد كبير من طائرات F–4 وA–4 من الولايات المتحدة. إذاً، حتى لو وضع المصريون خططاً للعبور، وأجروا تدريبات على تلك الخطط، فالجميع يعلمون إنها غير عملية[15].

إذا كان المصريون يدركون عدم استطاعتهم شن حملة ناجحة بالأسلحة التي لديهم، فما الذي كانوا يعتقدون أنهم بحاجة له لتصبح ممكنة؟ بعد وفاة عبد الناصر، وتحديداً بعد أيار 1971، بدأ المصريون ينظرون إلى مشكلة التفوق الجوي الإسرائيلي

بشكل تدريجي نحو الشرق لن تنجح، وأن مصر لا يمكنها أيضاً أن تتحمل استمرار غارات القصف في العمق. الحل الوحيد الحقيقي لتينك المشكلتين كان معروفاً جيداً، وهو إقناع السوفييت ببيعهم أسلحة أفضل تتضمن قاذفات بعيدة المدى يمكنها حمل كمية كبيرة من الذخيرة إلى القواعد الجوية الإسرائيلية، وصواريخ جو - أرض وأرض - أرض يمكنها الوصول إلى المراكز السكانية الإسرائيلية بهدف ردع إسرائيل عن القيام بغارات على عمق الجبهة الداخلية المصرية.

من التفاصيل التي أعطاها مروان عن الحوارات التي أجراها السادات في موسكو في آذار وتشرين أول من عام 1971، أصبح واضحاً أن اهتمام مصر ينصب في معظمه على الأسلحة التي يمكن أن تهدد إسرائيل في عقر دارها، وذلك لردع إسرائيل عن مهاجمة عمق الأراضي المصرية. وبحلول تشرين الأول 1971، وافق السوفييت على بيع مصر سرباً من قاذفات Tu-16 القادرة على حمل صواريخ كيلت، لكنهم ظلوا على رفضهم بيع أنظمة صواريخ سكود أرض - أرض. قرابة أيلول 1972، أعطى مروان للإسرائيليين نسخة عن رسالة وجهها السادات إلى نيكولاي بودغورني، رئيس مجلس السوفييت الأعلى، يعرب فيها عن تذمره من استمرار عدم رغبة السوفييت إعطاء مصر «أسلحة ثأرية تردع العدو عن مهاجمة الأهداف المصرية في عمق أراضينا». وأضاف السادات «كان وسيظل واضحاً أن عدم امتلاكنا أسلحة ثأرية من هذا النوع يعني أننا سنكون بدون أي خيارات عسكرية على الإطلاق»[16]. وفي المعلومات التي قدَّمها مروان لاحقاً، وصف بالتفصيل المراحل التالية من العملية، بما في ذلك وصول صواريخ كيلت إلى مصر في أواخر عام 1972 ودخولها الخدمة عام 1973. كان مروان أيضاً أول مصدر يُخبر الإسرائيليين عن عدول السوفييت عن موقفهم بخصوص صواريخ سكود في أواخر أيار 1973، ووصولها - مع خبراء سوفييت لتشغيلها - في آب 1973.

طائرة ميغ – 23، لكن في عام 1971 لم تكن هذه الطائرة قد دخلت في طور الإنتاج الكمي. في حزيران 1972، دخل طراز اعتراضي من طائرة ميغ – 23 نطاق الخدمة في القوى الجوية السوفييتية، وبدأ إنتاج طراز مختص بالهجوم الأرضي مُعد للتصدير إلى بلدان العالم الثالث في عام 1973. أقرب موعد ممكن لكي تدخل هذه الطائرة الخدمة ضمن القوى الجوية المصرية كان عام 1974 – لكن، من وجهة نظر السادات، لم يكن الانتظار كل هذا الوقت ممكناً، خاصة بدون وجود ضمانات بأنها ستصبح جاهزة فعلاً حينذاك. وهكذا قرر مخططو المعارك المصريون أنهم بحاجة إلى خمسة أسراب هجومية بالحد الأدنى (ما بين ستين وخمس وسبعين طائرة حربية) ليتمكنوا من مهاجمة القواعد الجوية الإسرائيلية بشكل فعّال.

بعد وصول السادات إلى الحكم ببعض الوقت، قدّم مروان تقريراً عن اجتماع عقده مع كبار قادته العسكريين أعربوا فيه عن حاجتهم لطائرة حربية توازي طائرة فانتوم F–4 الإسرائيلية كشرط للذهاب إلى الحرب. ومن التقارير الواردة تباعاً، استطاعت الاستخبارات العسكرية واستخبارات القوى الجوية الإسرائيلية أن تتتبّع بدقة التطورات الحاصلة على تصوُّر المصريين للقوى الجوية اللازمة لتحييد التفوق الجوي الإسرائيلي. وفي مرحلة معينة، شملت تلك التقديرات الأسراب الخمسة من القاذفات المقاتلة كشرط أساسي لقيام مصر بأي عمل، أي بالتحديد ما أصبحنا نعرف الآن أنه، هو ذاته، ما كان يقوله مخططو الحرب المصريون.

الأكثر أهمية هو حقيقة ما بدأت تشير إليه التقديرات منذ أواخر عام 1972 عن التوقف المفاجئ في السعي للحصول على قاذفات مقاتلة بعيدة المدى كشرط للذهاب إلى الحرب. وتحديداً ما نقله مروان لدوبي في الثالث من حزيران 1973، قبل أربعة أشهر من انطلاق الحرب، عن توقف القادة المصريين عن المطالبة بالتزود بمثل تلك الطائرات كشرط ضروري لشن الحرب. فقد أصبحوا الآن يراهنون، بدلاً

المفاجأة كوسيلة رئيسية للتغلب على التفوق الجوي.

بالرغم من معرفة الإسرائيليين بالتحولات، إلا أنهم فشلوا في فهم معناها. فقد استمرت شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية واستخبارات القوى الجوية الإسرائيلية، لغاية اليوم الأول من حرب أكتوبر 1973، على قناعتهما بأن المصريين لن يهاجموا بدون القاذفات المقاتلة. وهكذا، في يوم 24 أيلول 1973، على سبيل المثال، أي قبل أقل من أسبوعين على اندلاع الحرب، أكد رئيس الاستخبارات العسكرية إيلي عيزرا أن مسألة شراء قاذفات مقاتلة قوية بما يكفي لضرب أهداف في إسرائيل لا تزال، من وجهة نظر المصريين، شرطاً ضرورياً للذهاب إلى الحرب - وهذا الشرط لا يمكن أن يتحقق قبل عام 1975 بالحد الأدنى[17]. سيظل هذا الخطأ يطارد محللي الاستخبارات الإسرائيليين الذين، وهم من وضعوا تصوُّرهم إلى حد كبير بناءً على المعلومات التي أعطاهم مروان إياها، رفضوا تعديل أفكارهم حين بدأ مروان يرسم صورة مغايرة بالكامل.

بدأت إمكانية الحصول على طائرات حربية فعّالة من الاتحاد السوفييتي في المدى المنظور تتلاشى في أعين المصريين، ما أجبرهم على البحث عن حل بديل. طائرات ميغ - 17 وسوخوي Su-7، وحتى سوخوي 17، التي وصلت بأعداد قليلة قبل الحرب بسنة تقريباً، لم تكن قادرة على إنجاز المهمة. والبلد الوحيد غير الولايات المتحدة الذي يُنتِج طائرات قريبة من المستوى المطلوب كان فرنسا. من سخرية الأقدار أن الطائرة الفرنسية المصممة للهجوم الأرضي كانت نوعاً من طراز ميراج 5J التي تم تصميمها بناءً على مواصفات طلبتها إسرائيل وكانت مخصصة لسلاح الجو الإسرائيلي. لكن مقاطعة فرنسا للدول المتنازعة أوقفت تسليم خمسين طائرة من هذا الطراز إلى إسرائيل، وكان الفرنسيون يبحثون عن شُراة لتلك الطائرات ولطرازات أخرى أيضاً مثل ميراج 5D، التي كانت تتميز بقطر هجوم على ارتفاع منخفض يصل

كانت أفضل من كل ما عرضه السوفييت.

لكن الحصول على طائرات ميراج لم يكن بالأمر البسيط، فالمقاطعة الفرنسية كانت مفروضة على مصر أيضاً وليس فقط على إسرائيل. وهكذا، في تشرين الثاني 1969، بعد أشهر فقط من الانقلاب الذي أوصل القذافي إلى السلطة، بدأت المفاوضات بين ليبيا وفرنسا لشراء طائرات الميراج، بزعم أنها لسلاح الجو الليبي بينما هي في الحقيقة لمصر. في كانون الثاني 1970، وقَّعت ليبيا وفرنسا اتفاقية لشراء 110 طائرات، نصفها كان من طراز 5D ومتجهة إلى مصر. بدأ التسليم لليبيا عام 1971، في نفس الفترة تقريباً التي كلف فيها السادات مروان بملف ليبيا. وكالعادة، كانت كل المعلومات المتعلقة بالصفقة - التسليم عن طريق ليبيا، ودمج الطائرات في سلاح الجو المصري في تموز 1971 - وكل تفصيل، مهما كان صغيراً، كان معروفاً بالكامل من قِبل الإسرائيليين. خلال حرب أكتوبر، قام السرب التاسع والستون المصري بنشر اثنتين وأربعين طائرة ميراج 5 مختلفة الأنواع من قاعدة طنطا، وكان عدد الطيارين المصريين المدربين على قيادتها أصغر - حوالى خمسة وعشرين. تلك الطائرات تولت المهام الجوية الأكثر أهمية لمصر في الأيام الأولى من الحرب. وبفضل أشرف مروان، عرفت الاستخبارات الإسرائيلية كل ما تحتاج معرفته عن السرب: من هم قادته، وأسماء طياريه، ومواقع حظائره السرية.

لم يغيِّر وصول تلك الطائرات من الإصرار على الافتراض الذي وضعه رئيس الاستخبارات العسكرية عيزرا وطاقمه الرئيسي. حمولة كل طائرة ميراج، والبالغة 850 كيلو غراماً، كانت تساوي عُشر حمولة طائرة فانتوم البالغة 8500 كيلوغرام والتي كانت لدى إسرائيل مائة طائرة منها في الخدمة حين بدأت الحرب. وحتى لو استُخدمَت لضرب القواعد الجوية المحصنة جيداً، لا يمكن لها أن تسبب ضرراً بالغاً للطائرات المركونة في الحظائر. والأهم من ذلك، كان واضحاً من المعلومات

التفوق الجوي الإسرائيلي.

منذ اندلاع حرب أكتوبر، صدر كم هائل من المعلومات، معظمه على شكل مذكرات رسمية وأبحاث وثائقية، تتناول السلسلة الطويلة من الأحداث التي قادت إلى الحرب: تصورات المصريين لما يحتاجونه للهجوم، والأسلحة التي استلموها وجعلت ذلك ممكناً، والقرارات المتعلقة بموعد الهجوم. وقد اتضح من كل ذلك، من دون أدنى شك، أن المعلومات الاستخباراتية التي أعطاها أشرف مروان للإسرائيليين أثبتت دقتها على الدوام، وتنقل بالضبط ما كان يحدث في مصر.

عند دراسة أسباب الفشل الاستخباراتي الذريع الذي منيت به إسرائيل في الأيام التي سبقت حرب أكتوبر، نجد أمراً واحداً جلياً: لم ينتج ذلك عن شح المعلومات الدقيقة، بل عن رفض الاستخبارات العسكرية التخلي عن تصورها حتى بعد أن أثبتت الوقائع خطأه بشكل واضح لا يقبل الجدل. بفضل مروان فهم الإسرائيليون بدقة كيف كان المصريون ينظرون إلى ضرورة الحرب من جهة وإلى الظروف اللازمة لشنها، وذلك على امتداد تشرين الأول 1972. لكن بحدود تلك الفترة غيَّر السادات رأيه وقرر الذهاب إلى الحرب دون انتظار الأسلحة التي كانت يعتبرها ضرورية للنصر. وكما سنرى لاحقاً، نقل أشرف مروان ذلك بدقة للإسرائيليين. لكن الاستخبارات العسكرية فشلت في تعديل التقديرات تبعاً لذلك. هذا، وفقط هذا، ما أدى لفشل إسرائيل في أن تكون جاهزة للحرب لحظة نشوبها.

لم تقتصر مساهمة مروان مع الاستخبارات الإسرائيلية فقط على وضع التصوُّر والوصول إلى صيغته النهائية، فقد ثبتت دقة معلومات مروان في كل ما يتعلق بخطط مصر للهجوم. وهنا أيضاً استفادت الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية من وفرة المصادر؛ لكن معلومات مروان بلغت مستوى عالياً من الموثوقية في التقديرات الإسرائيلية وأضافت تفاصيل غنية وحاسمة.

المصرية عن كثب، وخاصة باستخدام أنظمة المراقبة الخاصة بالوحدة 848، وحدة استخبارات الإشارة (سيغينت).

التقرير الذي أصدرته شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية بعد أحد التدريبات في مطلع عام 1969 استخلص ما يلي: «قامت مصر في تدريباتها بمحاكاة عملية اقتحام الجزء الغربي من سيناء وإنشاء خط دفاعي إلى الشرق من ممري (متلا والجدي) خلال أربعة أو خمسة أيام، بقوة خمس فرق من المشاة، وفرقة ميكانيكية أو اثنتين، وفرقتين مدرعتين»[18]. في صيف عام 1971، أعطى مروان العقيد مائير مائير تفاصيل خطة تدعى غرانيت، وقد أعطت للاستخبارات العسكرية صورة مفصلة أكثر عما ستبدو عليه الحرب من الجانب المصري. وفي بدايات عام 1972 أعطى مروان خطة أخرى تشبه الخطط السابقة، أتاحت لشعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية إصدار مسح استخباراتي خاص من أربعين صفحة في 16 نيسان، وتتضمن أيضاً خرائط تفصل الهجوم المصري. المرحلة الأولى من الحرب، والتي كان من المفترض ألاّ تستغرق أكثر من أربع وعشرين ساعة، كانت تعتمد على خمس فرق مشاة تعبر القناة من خمس نقاط مختلفة، وتقوم بتأمين نقاط العبور والمناطق الواصلة بينها، ثم الانتقال إلى الفرقتين المدرعتين، الرابعة والحادية والعشرين، بحيث تعبر إلى الضفة الشرقية وتمسك بالأرض حتى حدود التحصينات الإسرائيلية. ويمكن أن يحدث ذلك في النهار أو الليل. ونظراً لمحدودية قدرات سلاح الجو الإسرائيلي في الليل، كان التخمين الأفضل للاستخبارات العسكرية بأن المصريين سيحاولون العبور تحت جنح الظلام. ولعزل منطقة القناة عن بقية سيناء، سيقوم المصريون بإنزال جوي، بواسطة المروحيات، لما بين سبع كتائب مغاوير وعشر عند الفتحتين الشرقيتين لممري متلا والجدي. ثم يقوم كوبري يحمل دبابة وكتيبتي مشاة بالعبور إلى الشاطئ الروماني، لتلاقيها قطعة من سلاح المشاة عند ممر الشعاب الشرقي،

القناة. وكل ذلك كان مقرراً في اليوم الأول من المعركة.

في اليوم الثاني، تتقدم الفرق المدرعة نحو سيناء بعمق 13 كيلومتراً؛ وفي اليوم الثالث يستولون على الممرات، بحيث يحررون ذلك الجزء من سيناء مع كل ما يوازيه وصولاً إلى مدخله الشرقي. في المرحلة الرابعة والأخيرة يكون الجيش المصري قد أكمل تحرير سيناء وصولاً إلى الحدود مع إسرائيل[19].

الدقة الاستثنائية التي تميزت بها الوثائق التي قدَّمها مروان، إلى جانب المساحة الكبيرة التي غطتها عن الأنشطة المصرية، جعلته، كما أسماه رئيس الموساد تسفي زامير: «أعظم مصدر حظينا به يوماً»[20]. فمروان، على حد قوله، «كان مصدراً من الدرجة الأولى، لأنه تمكن من تغطية منطقة كاملة كان من الصعب جداً علينا الوصول إليها، وكان مستوى الموثوقية في كل ما قاله عالياً جداً. هناك آخرون أعطونا معلومات من هنا وهناك، أكدت أو أكملت الأمور التي قالها. لكنه كان يعرفها من الداخل وليس من الخارج. لقد استطاع وصف الأمور كما كانت تبدو عليه في الماضي، والمآل الذي آلت إليه. من هذه الناحية، لقد كان فريداً»[21].

هناك آخرون اطلعوا على إسهامات مروان ويوافقون زامير رأيه. العميد المتقاعد عاموس جلبوع، الذي ترأس شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية في فترة الثمانينات، اطلع بعناية على المواد التي قدَّمها مروان وكان استنتاجه أنه لم يظهر في تاريخ إسرائيل كله جاسوس جعل مصر شفافة بالطريقة التي فعلها مروان[22]. أما العميد المتقاعد أهرون ليفران، الذي عمل كنائب لرئيس شعبة الاستخبارات العسكرية قبل حرب أكتوبر، فقد خلص إلى نتيجة مفادها أن المواد التي أعطاها مروان لإسرائيل كانت «معلومات عالية الجودة من النوع الذي ترغب فيه وكالات الاستخبارات طوال حياتها، وقد لا ترى مثلها إلا كل عدة أجيال»[23]. واعتبر أن مروان «مصدر من النوع الذي يقف على باب عالم الاستخبارات مرة في كل جيل.

موشيه دايان عنه:

> لم يكون التصورُ من اختراع عالم مجنون في الاستخبارات العسكرية، أو رئيس الاستخبارات العسكرية أو وزير الدفاع. لقد تكونّ بشكله المتكامل بناءً على معلومات استخباراتية متينة جداً اعتقدنا أنها أفضل ما يمكن تحقيقه.
>
> ... يمكنني أن أقول بكل ثقة إن أي وكالة استخبارات في العالم، أي وزير دفاع أو قائد جيش، يستلم مثل هذه المعلومات ويعرف كيف تم الحصول عليها، سيصل إلى الخلاصة نفسها[25].

من بين جميع من تعامل مع المواد التي قدَّمها مروان، هناك اثنان فقط أثارا – بعد ما حدث – أسئلة عن التزامه بمساعدة إسرائيل. الأول كان رئيس الفرع 6 (مصر) في شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية الذي حل مكان مائير مائير ابتداءً من صيف عام 1972، الكولونيل يوناح باندمان. من وجهة نظره، كانت إحدى المشاكل الخطيرة مع مروان هي استمراره في التحذير من أن السادات على وشك شن الحرب، ثم لا يحدث ذلك. مأخذ باندمان كان أن مثل مروان مثل الراعي الكذاب، ولهذا كان من المنطقي تجاهل تحذيراته التي أفضت إلى حرب أكتوبر. والأكثر من ذلك أن مروان فشل في إعطاء أجوبة جيدة عن الأسئلة التي طلب باندمان من دوبي سؤاله عنها، تلك التي تحاول الوصول إلى فهم حقيقة الأنماط السلوكية للسادات. وبدلاً من ذلك كانت الأجوبة دائماً تقنية وتتعامل مع المسائل المتعلقة بخطط مصر للحرب. ومع أنه لم يصل إلى درجة اعتبار مروان عميلاً مزدوجاً، إلا أن باندمان كان يعتقد بوضوح، في قرارة نفسه، أن المعلومات التي كان يمررها لم تكن موثوقة وأنه «بالنسبة إلى شخص في موقعه، كانت هناك أمور من المفترض أن يعرفها» لكن مروان لم يخبر الإسرائيليين بها[26].

الشخص الثاني الذي شك جدياً بمروان كان اللواء إيلي عيزرا، رئيس

محورياً في محاولات مصر صرف انتباه الإسرائيليين قبل الحرب. وفي مسعى منه لدعم ادعاءاته، قام عيزرا بالمقارنة ما بين المواد التي كان ينقلها وبين تقييمه الشفهي:

> بعض «معلوماته» كانت مدهشة، بما فيها البيانات المؤكدة التي كانت بمثابة حلم لأي وكالة استخبارات في العالم... «المعلومات» المُقدَّمة كانت، في معظمها، نُسخاً عن مستندات ومحاضر اجتماعات على أعلى المستويات. لكن بعكس ذلك، التحذيرات المتعلقة بتوقع توقيت الحرب كانت تأتي عادة على شكل إفادات، جزء منها مكتوب والآخر شفوي، لكنها جميعاً كانت تأتي بدون وثائق داعمة. بحلول تشرين الأول 1973، اتضح أنها كلها غير دقيقة[27]. (التركيز من النص الأصلي).

مع أنه لم يقلها صراحة في كتابه، قدَّم عيزرا سلسلة من الحجج ليُبيِّن أن مروان كان رأس حربة في لعبة خداع مُحكمة كان يلعبها السادات على إسرائيل تمهيداً للحرب. ومن وجهة نظر عيزرا، أعطى مروان إنذارات وهمية بالحرب في أواخر عام 1972 وفي نيسان 1973 من أجل طمأنة إسرائيل ودفعها للتخلي عن حذرها، ثم تعمد عدم إطلاق الإنذار في الأشهر التي سبقت تشرين الأول 1973. وحين حذَّر في النهاية، كان ذلك بشكل مبهم ومتأخراً جداً في اللعبة التي، من وجهة نظر المصريين، فات الأوان فيها على الإسرائيليين للتحرك[28]. وفي مقابلة متلفزة للترويج لنسخة معدلة من كتابه، كان عيزرا متردداً في تسمية الأشياء بشكل قطعي ومبتوت فيه. لقد قال صراحة إنه لا يملك أي دليل، لكنه مع ذلك مقتنع بأن أشرف مروان خدع إسرائيل «بأمر من السادات، وأعتقد أنهما فعلاها سوية»[29].

إذا نظرنا إلى ادعاءات عيزرا، تحضرنا نقطتان رئيسيتان. أولاً، باستثناء عيزرا، وإلى حد ما باندمان، كل من كان يعرف بأمر مروان واطلع على المواد التي قدمها عبر السنين سيرفض نظرية العمالة المزدوجة بشكل قاطع. على سبيل المثال، العميد أرييه شاليف، الذي عمل مباشرة تحت إمرة عيزرا كقائد لشعبة أبحاث الاستخبارات

الذي يصنف نفسه من المعجبين بإيلي عيزرا، لا يزال مقتنعا بأن مروان كان جاسوسا صدوقاً وقد تناقش مع عيزرا حول هذا الموضوع[31]. وآخرون، ضباط أصغر من شعبة الأبحاث في ذلك الوقت، مثل رئيس المكتب السياسي في الفرع 6 (مصر) في شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية، ألبرت سوداي؛ رئيس المكتب العسكري في الفرقة نفسها، يعقوب روزينفيلد؛ وسلفه في المكتب العسكري، الذي اطلع على قدر كبير من المعلومات التي قدمها مروان، زوسيا كانيازر - كلهم مقتنعون بأن مروان كان عميلاً حقيقياً، وكذلك جميع موظفي الموساد الذين اطلعوا على المواد.

النقطة الثانية تتعلق بمدى انتشار نظرية العميل المزدوج إن كان في إسرائيل أو في أرجاء العالم. لكن السبب الذي جعله يتحول إلى أحجية هو أن معظم ما نُشِر عن مروان لغاية الآن متأثر إلى حد بعيد بالأحاديث التي أجراها إيلي عيزرا. فعيزرا كان ببساطة الإسرائيلي الوحيد المعروف بأنه مستعد للحديث مع أي أحد عن الموضوع، لأنه لغاية وفاة مروان عام 2007، لم يكن أحد ممن يعرفون الحقيقة يرغب بالتكلم عنها مخافة تعريض حياته للخطر. وبالنتيجة، كانت غالبية ما قيل في العلن صادرة إما عن أشخاص متأثرين مباشرة بعيزرا، وإما عن مصريين رسميين، أفراد من عائلة مروان وعبد الناصر، وآخرين سوف يخسرون الكثير الكثير إذا لم يقولوا إن مروان كان مصرياً وطنياً.

لن يكتمل أي تحليل يمكن إجراؤه على أحد أكثر العملاء إدهاشاً في تاريخ الجاسوسية دون مناقشة الأساليب التي اتّبعت للتعامل معه. لطالما طُرحت خلال السنين ادعاءات غريبة بخصوص المبالغ التي كان يتقاضها، وقد وصل بعضهم للقول بأنه كان يتقاضى 200 ألف دولار عن كل اجتماع، أو بحدود مليون دولار بحسب القيمة الحالية للعملة[32]. صحيح أن الموساد كان جاهزاً للمضي بعيداً في سبيل إرضاء مروان، لكن الأرقام الفعلية كانت أقل بكثير.

يجري اجتماعاً أو أكثر على مدى بضعة أيام. بعد الاجتماعات القليلة الأولى، ولم تكن مسألة الأجر قد نوقشت بعد، بدأ يحصل على 10 آلاف دولار عن كل سلسلة اجتماعات، لكن فقط حين كان هو يطلب ذلك. ثم طلب لاحقاً مضاعفة الأجر. رد الفعل الطبيعي كان تحذير بعض رجال الموساد من مثل هذه المبالغ غير المسبوقة لعميل واحد. لكن بعد تهديده بقطع التواصل، نزلوا عند رغبته. وفي حالات نادرة كان يتقاضى حتى أكثر من ذلك. كان الدفع يتم عن طريق دوبي إلى مروان نقداً، بأوراق مالية مستعملة من فئات صغيرة موضوعة في حقيبة سامسونايت صغيرة. وفي نهاية كل اجتماع كان مروان يأخذ الحقيبة معه دون أن يفتحها.

وحتى لو كانت المبالغ أصغر مما تقوله الروايات، فهي لا تزال كبيرة بحيث يمكن أن تسبب عجزاً كبيراً في ميزانية فرع عمليات الموساد في أوروبا، وكانت تغطيتها تتطلب موافقة رسمية من وزير المالية. لمَّحت غولدا مائير، مرة واحدة، لوزير المالية بنحاس سابير بأن لدى الموساد مصدراً مضموناً رفيع المستوى على اتصال مباشر مع السادات، لكنها لم توضح شيئاً أكثر من ذلك. استمر العجز بالنمو، حتى بلغ الأمر في مرحلة ما أن أرسل سابير أحد موظفيه مطالباً بتفسير من قائد عمليات الموساد في أوروبا، شمويل غورين.

تطلب الأمر من غورين زجاجات عدة من النبيذ الفرنسي وأكثر من وجبة فاخرة لضمان موافقة وزير المالية على النفقات، حتى دون أن يعطيه التفسير الذي أتى من أجله.

هناك سؤال آخر كان يقض مضجع الموساد وهو بخصوص المشرف. منذ البداية، أصر الضباط الكبار على ضرورة أن يتعامل مع مصدر كهذا خبير استخباراتي متمرس ومن الطراز الرفيع، لكن زامير أبقى على دوبي مع أنه لم يكن له سوى ثلاث سنوات مع الموساد. كان القرار مُركَّزاً على نجاح دوبي في إدارة العلاقة بطريقة قللت

دوبي الأول هو للملاك وليس للموساد. وهكذا وصل إلى قناعة بأن «أليكس» كان، بشكل ما، مختلفاً عن باقي الوكالة. لقد استطاع بكفاءة عالية التعبير عن اهتمامات مروان، مؤازراً له عند أي خلاف مع المستويات العليا حول مواضيع مثل الدفعات، ومن يعرف هويته أو ينضم للاجتماعات، بل وحتى من يجب أن يكون مشرفه.

لم تكن مهمة الإشراف على مروان بالمهمة البسيطة. فبالنسبة إلى مبتدئ، لم يكن يراعي أبسط القواعد اللازمة لضمان سلامته. وبالرغم من إعطائه أرقام هاتف بديلة، ظل في الأشهر الأولى يتصل بالسفارة الإسرائيلية في لندن للاتفاق على الاجتماعات. ولمنعه من ذلك، قام دوبي بإعداد خط هاتف خارجي يديره وسيط يُعرَف باسم «صندوق البريد المُغفَل»، وطلَب من مروان الاتصال بذلك الرقم بدلاً من رقم السفارة كلما أراد إيصال رسالة إلى دوبي. كان الوسيط امرأة لندنية في الخمسينات من عمرها ونادراً ما تغادر منزلها. في كل مرة يتصل فيها مروان، كانت تتصل فوراً بدوبي. في تلك الفترة تقريباً ظهرت ميزة مجيب الهاتف الآلي، فقام دوبي بتركيب واحد في الشقة ليتمكن مروان من الاتصال في أي وقت من الليل.

مع ذلك استمر مروان بالمخاطرة بدون مبرر. لقد قام في أكثر من مناسبة بالقدوم إلى الاجتماع بسيارة تابعة للسفارة المصرية، مع سائق من السفارة المصرية. وفي مرة أخرى، التقى دوبي ومائير مائير مع مروان في شقته في ضاحية مايفير في لندن. وطوال فترة حديثهم في غرفة المعيشة، كانت بانتظار مروان في غرفة النوم بائعة هوى محلية. ربما سمعت كل ما قيل، لكن مروان لم يكن يحفل.

كان يخاطر أيضاً بالوثائق التي يُحضرها. بل وكان الكثير منها أصلياً، وليس مصوَّراً. وحين كان دوبي يسأله عن السبب في عدم قلقه من إلقاء القبض عليه وبحوزته الوثائق، كان يبتسم قائلاً «لن يفتشوني». في بعض الحالات كان يعطيها لدوبي. وفي حالات أخرى، حين تكون بغاية الحساسية، كان دوبي يلتقط لها صوراً

دوبي.

لم يتوقف استهتار مروان عند هذا الحد. فبعد أشهر من بدئه العمل مع الموساد، لاحظ دوبي في إحدى المرات قبضة مسدس تبرز من تحت سترته. وحين سأله عنها، سحب مروان مسدس سميث أند ويسون 38 المحشو وقدَّمه لدوبي كهدية. ذُعِر دوبي، وشرح لمروان أن ما قد يكون مقبولاً في القاهرة ليس مقبولاً على الإطلاق في العاصمة البريطانية، حيث يُمنَع حتى على زعماء المافيا حمل الأسلحة النارية. لم يهتز مروان، وقال إن جواز سفره الدبلوماسي يعني أن السلطات المحلية لا يمكنها المساس به. ثم عرض عليه المسدس ثانية. كان سلاحاً جميلاً، مطرقته مخفية داخل المغلاق بحيث يمكنك إطلاق النار منه من تحت السروال أو السترة دون خشية أن يعلق النسيج داخل الآلية. كان العرض مغرياً بالنسبة إلى دوبي لكنه أعرض عنه. في الاجتماع التالي أحضر مروان مسدساً آخر، هذه المرة كهدية مقصودة صافية. لم يكن لدى دوبي الخيار، فأخذ المسدس وشكر ملاكه.

المجال الوحيد الذي كان مروان يخشى المخاطرة فيه كثيراً كان في كل ما يتعلق بالاتصالات اللاسلكية. كان الموساد يريد، نظراً لسهولة وصوله إلى أسرار مصر الأكثر أهمية، تعيينه «كعميل إنذار» يستطيع توجيه الإنذار في لحظته إذا ما أوشكت مصر على الهجوم. فأرسلوا خبيراً إلى لندن لإعطاء مروان دورة مبسطة في استخدام نوع من الأجهزة اللاسلكية. ثم أرسلوا مروان مع الجهاز، ووسائل لإخفائه، ولائحة بالترددات. لكن مروان لم يكن بارعاً في استخدام الأدوات، وقد قال عنه أحدهم في الموساد أن لديه «يدين عسراوين». في اجتماعه التالي مع مشرفيه، أخبرهم مروان أنه وجد العملية خطرة جداً وأنه ألقى بكل شيء في النيل. طوال كل السنوات التي عمل فيها مع الموساد، لم يقم أعظم جاسوس في تاريخ إسرائيل ولو مرة بتمرير معلومة عبر وسيلة اتصال لاسلكية.

المبالغة في التقمّص، وهي شائعة بين المشرفين الذين لا يتمتعون بخبرة كافية. وكانت هناك أسئلة أخرى أيضاً، منها التساؤل عما قد يحدث إذا لم يكن دوبي جاهزاً للقاء إذا ما احتاجه مروان، كما في حالة المرض، أو الإجازة، أو تغيير مهني. في الواقع، تتجنب وكالات الاستخبارات عادة الحالات التي يصبح فيها مشرف واحد مقرباً جداً من عميل معين على امتداد فترة طويلة من الزمن، لهذا يحرصون على تغيير المشرفين من وقت لآخر أو على إضافة مشرف آخر. لكن مروان رفض بشدة أي جهود لاستبدال دوبي أو إحضار أي أحد آخر، وفي كل مرة كان يُطرَح فيها الموضوع كان يُهدد بالانسحاب. زامير وجد نفسه أمام طريق مسدودة، مع طريقة واحدة فقط، غير اعتيادية بشكل أو بآخر، للمضي قدماً، ألا وهي الإشراف بنفسه على الملاك. هكذا، لم يعد بمقدور مروان الاعتراض.

إلى جانب حل المشكلة المتمثلة باتصال مروان الحصري مع دوبي، أراد زامير أيضاً إثارة حماسة الملاك أكثر. كان واضحاً من الخارج أن احتياجاته النفسية - بشكل خاص الحاجة للمعاوضة عن الإهانة التي تلقاها على يدي عبد الناصر ورجاله - قد أدّت دوراً كبيراً في قراره العمل مع الموساد. فكان من الطبيعي إذاً أن يؤدي السماح له بأن يقابل بشكل منتظم جنرالاً سابقاً في الجيش الإسرائيلي الأسطوري، يترأس الآن وكالة الاستخبارات الأشهر تاريخياً على سطح الأرض، إلى تضخيم أناه وتحفيزه للعمل بجد أكبر من أجل إسرائيل. وفعلاً، من اللحظة التي أتى به دوبي، كان مروان سعيداً في المضي معه.

الاجتماع الأول بين سيد الجاسوسية الأول في إسرائيل، «الجنرال» كما كان يحلو لمروان تسميته، وأعظم جاسوس لدى إسرائيل، كان ناجحاً. من وجهة نظر مروان، كان الاجتماع بحد ذاته يعكس تقدماً في مكانته، وتعبير عن مدى أهميته في أعين الإسرائيليين. استمتع زامير أيضاً بذلك. فإلى جانب التحدي العملاني

دعابة رائع، كان محاورا حقيقيا. قليل من الدهشة، وبعدها، تطورت علاقتهما بشكل سريع؛ فكانا يلتقيان، ومعهما دوبي، كلما سنحت الفرصة. وفي بعض الأحيان، وفق المقتضيات العملانية، كانا يمكثان في الفندق نفسه ويلتقيان أياماً عدة متعاقبة[33].

لـم يدخـل زامير في تفاصيل المعلومـات التي كان ينقلها مـروان، بل كانا بدلاً من ذلك يتحدثان بالعموم حول الشؤون العالمية، بحيث يسأل زامير بضعة أسئلة ثم يترك الكلام لمروان. بالنسبة إلى زامير، كان سماعه ما لدى مروان ليقوله حول تلك المسـائل أقـل أهمية من إعطائه الشـعور بأن رئيس الموسـاد يتتبـع كل كلمة يقولها. لكن عندما تحول الحديث إلى استراتيجية مصر الحربية، أصبحت وجهة نظر مروان أكثر أهمية. وقد تحدث منذ أول اجتماع دار بينهما عن الهوة ما بين السادات، الذي كان يرغب بإطلاق عملية عسكرية بأسرع ما يمكن بهدف الدخول في عملية سياسية لاسـتعادة سـيناء، وبين قادته المتمسكين، بما أسماه مروان، «خطة عبد الناصر»، التي كانت تهدف لاستعادة كامل سيناء بالوسائل العسكرية فقط. وبما أن القادة المصريين كانـوا يعرفـون أن خطتهم غير قابلة للتحقيق بدون اسـتلام أنظمة أسـلحة إضافية من السـوفييت، كانـوا يرفضـون الذهـاب إلى الحرب. وفـي الوقت ذاته، كان السـادات يبحث عن قادة يمكن أن يقبلوا نظرته الاسـتراتيجية ومسـتعدين لشن حرب محدودة الأهداف على مستوى الحدود[34].

سـاعد الموسـاد مروانَ بطرق أخرى أيضاً. تسلقه السريع على الهرمية المصرية وسـلوكه اللامبالي لفتا الانتباه إليه، بشـكل سلبي على الأغلب. وهنا حاول الموساد مساعدته في دحض الاتهامات الموجهة إليه، ويبدو أنه حقق قدراً جيداً من النجاح. في بعض الأحيان قد تمضي لفتة بسـيطة إلى مسـافة بعيدة. على سـبيل المثال، حين واجـه مـروان مشـاكل في زواجـه، أمر زامير رجاله بشـراء خاتم ماسـي من تل أبيب وإعطائـه لمروان، الـذي أهداه لزوجته. وهكذا كانت إعادة زهوة الهوى بين ابنة عبد

الموساد يرون أنه من الأفضل إشراك ضابط خبير ليحل محل دوبي. كان زامير مقتنعاً بأن دوبي يؤدي عملاً ممتازاً، لكن الضغط انتهى في النهاية. قبيل أحد اجتماعاتهم في لندن عام 1971، تم الاتفاق على أن يقوم البديل المُقرَّر، وهو شخص ذو خبرة متميزة من فرع مصر في شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية، بالانتظار خارج الغرفة إلى أن يشرح زامير لمروان سبب تغيير مشرفه. لكن بمجرد أن لمَّح زامير للموضوع، رفض مروان فوراً وبقوة. طلب زامير من المشرف الجديد الانضمام لهم، وبدأ الأخير يخبر مروان عن نفسه وعن خبرته، بالعربية. لم يكلف مروان نفسه عناء النظر إليه. بعد مغادرة الرجل، عاتب مروان زامير ودوبي على إحضارهما «ذاك العراقي» إلى الاجتماع. شرح له زامير أن الرجل يهودي، وضابط في الاستخبارات الإسرائيلية، خبير. لكن مروان لم يتأثر، وقال «هناك هرمية في العالم العربي. المصريون في القمة. ثم يأتي السوريون، والأردنيون، والسعوديون، وهكذا». رفّت عين مروان، ثم تابع «العراقيون في الحضيض. المصريون يدوسون عليهم حين يمشون»، أكمل توضيح تلك الكلمات الأخيرة وهو يهم بالسير.

لم يعد زامير بحاجة للاقتناع أكثر من ذلك. طلب استبدال دوبي لم يعد قابلاً للنقاش طالما بقي رئيساً للموساد.

النجاح الباهر لمروان خلق إشكالاً عملياً غير مسبوق بالنسبة إلى الموساد. من جهة، كان زامير يدرك أن المسؤولية العامة عن التقييمات الاستخباراتية المقدمة للحكومة الإسرائيلية لم تكن في يد وكالته وإنما في يد الاستخبارات العسكرية، وعلى هذا الأساس، ينبغي إعطاء كل ما يُقدمه مروان إلى شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية، بحيث يتم هناك تحليلها، ومعالجتها، ودمجها مع جميع المعلومات الأخرى التي وصلت إلى إسرائيل، ليتم بعد ذلك تجهيزها ليستخدمها كبار صانعي القرار العسكريين والدبلوماسيين في إسرائيل. لكن من جهة أخرى، ونظراً لحساسية

إلا كأجـزاء متفرقـة وصغيـرة، لكن ذلك ينطوي بدوره علـى مخاطرة كبيرة تتمثل في تراجع القيمة الفريدة لمعلوماته بعد دمجها مع المعلومات الأخرى، وستفقد قيمتها الحقيقية التي تسـتحقها لقاء مسـاعدتها للقيادة الإسـرائيلية على فهم ما كان يحدث في مصر.

ولتخطـي المشـاكل التـي ذكرناها، صارت التقاريـر التي يقدمها تُرسَـل كاملة، وبصيغتهـا الخام، مباشـرة إلى رئيسـة الـوزراء، ووزير الدفاع، وقائـد أركان الجيش، ورئيس الاسـتخبارات العسـكرية فقط. وضمن الحلقة، يوجد بشـكل سري شخص خامس هو الوزير من دون حقيبة إسـرائيل غاليلي، الذي كان محط ثقة شـخصية من قِبل رئيسـة الوزراء غولدا مائير. كان زامير بنفسـه من يوزع التقارير؛ وفي غيابه، كان رئيس مكتبه هو من يفعل ذلك. أما من أجل الدمج مع التقييمات العامة للاستخبارات العسـكرية، فقد تم تكليف عدد من ضباط الاسـتخبارات العسكرية بأخذ المعلومات وتصنيفهـا، مثـل العلاقات المصريـة السـوفييتية، والجيش المصري، وسـلاح الجو المصـري، وغيرهـا، وتوزيعها على مختلف أفرع أبحاث الاسـتخبارات العسـكرية، وتغيير الأسـماء الرمزية لإخفاء حقيقة أن كل تلك المعلومات كانت تأتي من مصدر واحد.

المسـتهلك الأكثـر نهماً لتقاريـر خوتيل (التقارير التـي كان يقدمها مروان) كان بالتأكيد موشيه دايان، الذي كثيراً ما كان يستدعي زامير إلى مكتبه من أجل الاستيضاح أو مزيـد مـن المعلومات. وغولـدا مائير لـم تكن بعيدة عنه كثيـراً، فقد كانت تفصلها بعضها عن بعض مع الوزير غاليلي وتناقشها مع زامير أثناء مشاوراتهما الأسبوعية في منزلهـا في رمات أبيب. لكن حتـى في تلك التداولات المغلقة، وخاصة المحادثات الهاتفية، كانت الإشارة إلى مروان تتم دائماً باستخدام اسم حركي مُرتجَل. على سبيل المثـال، كان دايـان يقول في أغلب الأحيان «المعلومـات الأخيرة التي تلقيتها». لكن

«زفيكا» هو اسم التحبب الخاص بزامير. هذا أيضاً كان نوعاً من الارتجال ظهر في الأيام الأولى الموجعة من الحرب، حين كانت الحاجة لفهم دوافع السادات وخططه في ذروتها من جهة، ومن جهة أخرى لكون الدائرة المشاركة في النقاشات والقرارات كانت تتضمن في أغلب الأحيان أشخاصاً من خارج الحلقة المرتبطة بمروان.

الحقيقة إن تقارير خوتيل كانت تُعطى فقط لصانعي القرار الأربعة الرئيسيين فرضت قيوداً صارمة على النقاشات التي قد تتناولها وعلى مجموعة الآراء التي يمكن الإفصاح عنها عند محاولة تفسيرها. وهذه الحقيقة كانت مثيرة للقلق بشكل خاص لرئيس الاستخبارات العسكرية آهرون ياريف. فمن موقعه المهني، كان يعتبر أن فهم المعلومات الاستخباراتية يتطلب أولاً هضمها، دمجها، وتصنيفها بحسب أهميتها ضمن الصورة الأوسع المتشكلة من جميع المصادر والأدلة المختلفة التي كانت تتدفق باستمرار إلى يدي محللي شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية؛ في حين أن إعطاء صانعي القرار المادة الخام من مصدر واحد يمكن أن يؤدي لرسم صورة غير دقيقة بالمرة عما كان يحدث حقيقة في مصر. تكلّم ياريف مع زامير حول هذه المشكلة واقترح أن يستمر بتقديمها بصيغتها الحالية، لكن لرئيسة الوزراء فقط، فهي بطبيعة الحال المشرف المباشر على رئيس الموساد. احترم زامير رأي ياريف ولم يرسل التقرير التالي إلى دايان أو قائد الأركان. لكن حين استلمته رئيسة الوزراء، قامت باستدعاء دايان لسؤاله عن رأيه «فيما أرسله زفيكا». وما هي إلا دقائق حتى قام دايان الغاضب باستدعاء زامير مطالباً معرفة سبب عدم استلامه لنسخته. حاول زامير أن يشرح وجهة نظر ياريف بأنه من الحكمة التوقف عن إرسالها له مخافة أن تؤدي إلى انحراف في التحليل الاستخباراتي لدى وزير الدفاع. فقاطعه دايان، وطلب منه إرساله إليه فوراً. وبهذا تم وأد محاولة الحد من توزيع المواد الاستخباراتية الخام التي كان يقدمها مروان، مع كل مقتضياتها المهنية، في مهدها[35].

الفصل السادس

مبعوث السادات للشؤون الخاصة

القرار الذي اتخذه السادات بتعيين أشرف مروان ممثلاً شخصياً له في مهمة في غاية الدقة والحساسية - هي تحديداً إدارة العلاقات مع ليبيا والمملكة العربية السعودية - كان متناسباً تماماً مع الطريقة التي يدير بها السادات شؤون البلاد بشكل عام. صحيح أنه كان يمسك بكل الوسائل التقليدية للحكم، مثل الجيش، ووزارة الخارجية، وأجهزة المخابرات، لكنه نادراً ما كان يعتمد عليهم في حياكة سياساته. كان لا يطيق مراجعة الأوراق السياسية أو الاجتماعات الطويلة الهادفة للوصول إلى تسوية بين وزراء متنافسين يجتهدون في سياسات متعارضة. وكان يتخذ معظم قراراته المهمة عادة بعد فترة خلوة، حيث كان يعزل نفسه عن المستشارين والتقارير ويجلس بمفرده ثم يخرج بقرار. والنتيجة كانت أنه بدلاً من القيام بخطوات مدروسة والسير على نسق مستقيم، كان السادات يفضل التحركات القوية التي غالباً ما تنطوي على شيء من المخاطرة. هكذا كان نهجه حين قدَّم مبادرة لانسحاب إسرائيل جزئياً من قناة السويس في شباط 1971، في الوقت الذي كان خصومه مكبلي الأيدي، بدلاً من أن يحاول عقد اتفاق معهم بعد ثلاثة أشهر؛ أو حين ذهب إلى الحرب في تشرين الأول 1973 ضد عدو يتمتع بتفوق واضح؛ أو حين ذهب إلى القدس في تشرين الثاني 1977 وألقى خطاباً في الكنيست قبل أن يتوصل إلى تفاهم واضح مع إسرائيل والولايات المتحدة بشأن مفاوضات السلام التي كانت على وشك البدء. كان يمكن لأي واحد من تلك القرارات أن ينهي حياته السياسية، لكن ما حال دون ذلك ليس

إن نزعة السادات لتجاوز البيروقراطية، بدلاً من العمل معها، جعلت اعتماده على مساعدين في غاية الولاء له أمراً حاسماً ليتمكن من مواصلة عمله. وفي هذا الإطار كان أشرف مروان ملائماً للسادات كما القفاز في اليد، فهو لم يكن جزءاً من أي هرمية ولم يكن يدين بالولاء لأحد آخر. كان السادات مقتنعاً بأن مروان سيظل وفياً له شخصياً، ليس فقط لكونه الرئيس، بل أيضاً لأن السادات هو من رفعه. جلب مروان معه قدراً لا محدوداً من الطموح، والذكاء، ومهارات التعامل مع الشبكات، والسحر الشخصي، وفوق كل ذلك وهجه المتقد الذي أحاط به لكونه فرداً من عائلة عبد الناصر.

أما من وجهة نظر مروان، فقد كان طموحه، وشبابه، وغياب قاعدة السلطة في المؤسسة المصرية، إلى جانب شهوته للمال وحبه للمكائد، هو ما حوَّل حياته إلى دراما مستمرة. في العقد الممتد ما بين بداية ارتقائه عام 1971 وسقوطه السياسي ومغادرته مصر عام 1981، شغل عدداً من المناصب المهمة، وصنع لنفسه أعداء شخصيين كُثُراً، وتورَّط في الفضائح، وواجه اتهامات عامة – من دون تأثير في العادة – بمختلف أشكال الفساد. أقحم نفسه في أكثر جوانب حياة السادات خصوصية، وكنَزَ لنفسه ثروة طائلة بلغت، برأي النقاد، 400 مليون جنيه إسترليني عام 1981.

ما مكَّن مروان من خلق روابط مثمرة مع رئيس مصر، من جهة، وأفراد العائلة المالكة السعودية والثوار الليبيين، من جهة أخرى، كان علاقته بشخصين محددين هما كمال أدهم وعبد السلام جلود.

وُلِد كمال أدهم عام 1929، من أب ألباني وأم تركية، ويرتبط بالعائلة المالكة السعودية بفرع واحد. انتقلت عائلة أدهم إلى المملكة العربية السعودية حين كان لا يزال بعمر سنة. أخته غير الشقيقة، عفت، أصبحت زوجة وليد العهد الأمير فيصل. في عام 1961، تواعد الأمير فيصل، وكان حينها الرجل القوي في المملكة، مع كمال

فـاز بثقـة فيصـل، على نسـبة اثنين في المائة مـن مبيعات النفط الذي تنتجه الشـركة. وزيـر النفـط فـي تلك الأثناء، عبد الله الطريقي، قـدَّر بدقة أن قيمة تلك الحصة كانت بمليـارات الـدولارات، وأبلغ الأمير فيصـل باعتراضه عليها. فكانـت النتيجة أن قام الأميـر بطرد الطريقي. وسـرعان مـا أصبح أدهم ملياردیراً وصـار معروفاً في الدوائر الاقتصادية في الشرق الأوسط باسم «السيد اثنان في المائة».

في عام 1964، بعد وفاة الملك سـعود وخلافة الأمير فيصل له، تم تعيين أدهم رسـمياً مستشـاراً للملك. ومن بين مهامه الأخرى، أنشأ أدهم مخابرات الأمة، وكالة الاسـتخبارات المركزيـة للمملكـة، وقادها لسـنوات عـدة. كان الدافع لإنشـائها هو الحاجـة لإيجـاد حل فعال لمشـكلة تغلغل الفكر الناصري في شـبه الجزيرة العربية، التـي ازدادت سـوءاً بسـبب الحرب الأهلية اليمنيـة، والتي اتخذت مصـر فيها موقفاً مناوئـاً للسـعودية. وكانـت من المسـؤوليات الأخرى للوكالة إعلاء صـورة المملكة السـعودية فـي أرجـاء العالـم، وخاصة في الولايـات المتحدة. وهو ما سـيتم إنجازه بشكل رئيسي عن طريق الرشوة.

بحسـب الطريقـة السـعودية في إنجاز الأمـور، كان إيقاف الفـورة الناصرية في المملكـة السـعودية يعنـي، من بين أمـور أخرى، بنـاء علاقات إيجابية مـع أفراد من الدائـرة المقربـة لعبد الناصر. وبالنسـبة إلى كمال أدهم كان ذلـك يعني إقامة صداقة مـع جيهـان السـادات، زوجة الرجل الذي كان في ذلك الوقت رئيسـاً لمجلس الأمة المصري. بحسـب الصحفي بوب وودورد، منذ عام 1970 صار السـادات يتلقى راتباً منتظماً من السـعوديين، مع التلميح إلى أن مشـاريع العمل المختلفة التي قامت بين جيهان وكمال كانت أكثر قليلاً من مجرد تغطية للرشوة. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار العلاقة القوية بين كمال وCIA، يصبح واضحاً أن الأمريكان كانوا على علم بالعلاقة؛ أما وقوفهم خلف بعض عمليات الرشوة فليس واضحاً.

اليمن، وبدأ السعوديون يمنحون مصر مساعدات مالية ضخمة كتعويض عن خسارتهم لمصادر دخلهم من قناة السويس وحقول النفط في سيناء والسياحة. وباستلام أنور السادات السلطة في مصر، أصبحت تلك العلاقات أقوى من قبل. الملك فيصل اختار كمال أدهم ليكون ممثله الشخصي لدى الرئيس المصري الجديد، فقام أدهم بزيارة سرية إلى القاهرة بهدف التناقش مع السادات على تفاهمات جديدة بين البلدين. عبَّر عن القلق السعودي من النفوذ السوفييتي في المنطقة وشدد على أن الوجود السوفييتي في مصر كان يجبر الأمريكان على دعم إسرائيل أكثر مما كانوا يرغبون، فأجاب السادات إنه بحاجة للوحدات السوفييتية على الأراضي المصرية طالما هناك خطر من اندلاع حرب، لكنه أكد أيضاً أنه إذا مارس الأمريكان ضغطاً على إسرائيل لإيجاد حل لمشكلة سيناء، حتى ولو كان جزئياً، سيعيد السوفييت إلى ديارهم بكل سرور. تلك الكلمات شقت طريقها إلى واشنطن، حيث تسربت هناك إلى الصحافة عبر السيناتور هنري «سكوب» جاكسون، وهو أحد أعضاء مجلس الشيوخ المعادين للاتحاد السوفييتي. تلك التسريبات أحرجت الكرملين وحدّت من تحسن الروابط بين موسكو والسادات. لكن الحوار الذي بدأ بين السادات وأدهم أصبح قناة الاتصال المركزية بين الولايات المتحدة ومصر، بعد أن كانت العلاقات الدبلوماسية قد انقطعت خلال حرب النكسة. وعبر هذه القناة قام أدهم بنقل الرسائل بين الجانبين، بما فيها ضمانات من مستشار الأمن القومي هنري كيسنجر بأن الولايات المتحدة مستعدة، في حال قيام مصر بإنهاء تحالفها الاستراتيجي مع السوفييت وإعادة الخبراء إلى ديارهم، للمساعدة في إعادة سيناء[1].

أعطت العلاقة الوثيقة بين أدهم والسادات ثمارها حتى في الجوانب الأكثر قتامة في العلاقات المصرية الأمريكية. فبحسب محمد حسنين هيكل، حين وصل السادات إلى الحكم أخبرته أجهزة المخابرات عن عملية سرية تحمل اسم الدكتور عصفور.

المصالح الأمريكية في القاهرة، الذي كان يعمل ضمن السفارة الإسبانية بعد قطع العلاقات. كانت العملية بموافقة الرئيس عبد الناصر، وكانت تصله تقارير المراقبة بشكل منتظم. حين استلم السادات السلطة، أخبر كمال أدهم فوراً عن الأجهزة. هيكل، الذي سمع عن الحوار من السادات نفسه، والذي كان له تأثير على البرنامج، شعر بالصدمة لكون الرئيس الجديد قد أخبر رجلاً على صلة وثيقة بالاستخبارات الأمريكية عن عملية على هذا القدر من الحساسية. وبغض النظر عن دوافع السادات، كانت نتيجة حديثه مع هيكل سريعة، فتم إيقاف العملية وإزالة الأجهزة[2].

كان أشرف مروان وكمال أدهم مقربين أحدهما من الآخر حتى قبل أن يختار السادات مروان لإدارة العلاقات مع المملكة السعودية. كان التعارف قد تم عبر أصدقاء مشتركين، منهم جيهان السادات، وأيضاً الشيخ عبد الله الصباح وزوجته سعاد. وأحد المصادر يقول إن كمال أدهم هو من ضغط على السادات لاختيار مروان بديلاً عن سامي شرف في أيار 1971. لكن سرعان ما وجد السادات نفسه مضطراً للحد بشدة من دور مروان. أما من الناحية العملية، فقد أدى إبقاءه مسؤولاً عن العلاقات مع السعودية بشكل عام والملك فيصل بشكل خاص، إلى تحويل علاقة مروان بأدهم لتصبح قناة الاتصال المركزية بين البلدين، في التفافة على قنوات الاتصال التقليدية المتمثلة بالدبلوماسيين والسفارات. وبغض النظر عن المصلحة التي ربما حققها ذلك لقائدي البلدين، فقد تعلّم مروان وأدهم بسرعة كبيرة كيفية تحويلها لخدمة مصلحتهما الشخصية أيضاً.

في تلك الفترة، لم يكن مفهوم تضارب المصالح قد دخل بعد إلى السياسة والثقافة السعودية، وبمقابل ذلك كانت فكرة الاستفادة من المنصب لزيادة الممتلكات أمراً مقبولاً، بل ويدعو للفخر. هذا العُرف ناسب شخصية مروان تماماً. وهكذا كان كمال أدهم، الذي رسَّخ مكانته بنسبة الاثنين بالمائة الشهيرة، وأيضاً عبر صفقات

في حكومة السادات.

كانت مغامرتهما المشتركة الأولى في مجال العقارات. اشترى مروان، باسم زوجته منى، ثلاثة وعشرين فداناً من الأرض في منطقة الكرداسة بالقرب من الأهرامات في الجيزة. دفع ثمنها 150 ألف جنيه مصري (60 ألف دولار). ولاحقاً استغل موقعه كمستشار للرئيس لرفع قيمة الأرض وحقق من بيعها ربحاً طائلاً. بعد بضعة أشهر، استخدم مروان تلك النقود لشراء قطعة أرض أخرى أكبر، وهذه المرة أيضاً باسم منى. وأيضاً حقق من بيعها ربحاً ضخماً. لكن هذه المرة كان الشاري هو كمال أدهم.

حين عرف خصوم مروان بالصفقة عملوا على نشرها إلى العلن، وقام صحفي اسمه جلال الدين الحمامصي بتوجيه اتهامات لمروان في عدد من الأنشطة الفاسدة. كيف يمكن ذلك، تساءل الحمامصي، كيف يمكن لعائلة تخدم الشعب، مهما كانت مهمة، أن تضع يدها على مثل تلك الكمية من المال؟ كيف ارتفع سعر الأرض بشكل دراماتيكي في هكذا فترة قصيرة؟ لم يجد السادات خياراً تحت وطأة الاحتجاجات الشعبية سوى الطلب من النائب العام إجراء تحقيق بشأن الصفقة العقارية الأولى. أجاب مروان بأنه حصل على المال من بيع السيارات التي كانت تتلقاها زوجته كهدايا من إحدى الحكومات العربية لكونها ابنة عبد الناصر، وأنها هي من باع الأرض. تم قبول الحجة – وأحد العوامل كان ولاء الشعب المستمر لعائلة ناصر – وتم إقفال القضية. أما المطالبات بإجراء تحقيق في الصفقة الثانية فلم تلقَ أذناً صاغية. بعد سنوات، اعترف مروان أنه كذب بشأن مصدر النقود لكنه أنكر استغلاله لمنصبه. «اقترضت المال من صديق واشترينا الأرض سوية...،» وأردف قائلاً: «كنا محظوظين، وتضاعفت القيمة خمس مرات في عامين»[3]. وعند سؤاله مرة أخرى كيف بدأ بجني المال، قال إنه من صفقة عقارية في أبو ظبي. أما سبب نجاحه، كما

الأرض الأولى كان كمال أدهم. وسواء لأنه كان يريد شراء نفوذ سياسي في نظام السادات، أو بدافع صداقة خالصة، فقد بذل كل ما في وسعه لجعل مروان ثرياً، بما في ذلك شراء الأرض بسعر مرتفع في الصفقة الثانية. لكن هناك احتمالاً آخر أيضاً وهو أن المال الذي اشترى به في المرة الأولى لم يكن من كمال أدهم بل من الموساد، وفي تلك الحالة يقتصر دور أدهم على مجرد مساعدة مروان على استثماره في شيء أكبر.

لم تقتصر الفوائد التي جناها مروان من علاقته الوثيقة بكمال أدهم على الفرص المالية فقط بل فتحت أمامه أيضاً الطريق إلى دوائر اجتماعية جديدة، من أهمها خريجو كلية فيكتوريا في الإسكندرية، التي كانت أهم كلية للتعليم العالي العلماني النخبوي في العالم العربي. منذ تأسيسها عام 1902، خرَّجت هذه الكلية عدداً كبيراً ممن وصلوا إلى مراكز السلطة والقيادة. وكما هي حال مدارس النخبة في البلدان الأخرى، يظل الطلاب محافظين على صداقاتهم لسنوات، وحتى عقود، بعد التخرج. كان كمال أدهم أيضاً من خريجي هذه الكلية، وشملت دائرته الملك حسين ملك الأردن؛ ووزير خارجية الأردن، زيد الرفاعي؛ والأخوين عدنان وعصام خاشقجي، ابنَي الطبيب الشخصي للملك السعودي، اللذين أصبحا من رموز المال في العالم. قام كمال بتقديم مروان لأصدقائه، واستغل الشاب المصري بشكل كامل تلك العلاقات في العمل (كما حصل مع عدنان خاشقجي) أو تعزيز موقعه السياسي (كما حصل مع منصور حسن، وزير الثقافة والإعلام المصري الذي كان من أقوى الرجال في مكتب الرئيس وأيضاً صديقاً لجيهان السادات). في حالات أخرى، كان أبناء كلية فيكتوريا هم من سعوا إلى توطيد علاقتهم بمروان من أجل تزكية مشاريعهم عند الرئيس. فعلى سبيل المثال، التقى في أيلول 1978 الملك حسين مع مروان في لندن، طالباً منه تمرير رسالة سرية إلى السادات يعبِّر فيها عن رغبته في الانضمام

بذلها الملك حسين، بما في ذلك اتصال هاتفي بالسادات بتشجيع من مروان، رفض السادات طلب الملك[5].

ثم كان هناك الليبيون. كانت المسألة الليبية بالغة التعقيد بسبب السلوك المتخبط، العشوائي، والمندفع للقائد الشاب للبلاد العقيد معمر القذافي، الذي قاد انقلاباً عسكرياً في أيلول 1969. كان القذافي ناصرياً أراد أن يضع بلاده على مسار التطور الاجتماعي والاقتصادي، مع التشديد في الوقت نفسه على طابعه الإسلامي، المناهض للإمبريالية والمناصر للقضايا العربية. وفي إطار هذه الرؤية، كثيراً ما سعى لإنجاز الوحدة بين ليبيا ومصر، ما شكّل صداعاً دائماً للسادات. أما السادات فقد رأى في العلاقات الجيدة مع ليبيا هدفاً مهماً، من جهة بسبب الثروة الهائلة التي تدفقت على ليبيا بعد إعادة التفاوض على عقود النفط مع الشركات الرئيسية، ومن جهة أخرى لكونها القناة الرئيسية التي تستطيع القوى الجوية المصرية عبرها شراء طائرات مقاتلة ذات مدى بعيد لمهاجمة القواعد الجوية الإسرائيلية.

في حالة السعودية، كان نظير مروان ملياردير اً، خبيراً في الجاسوسية، ومقرباً من الملك، أما مع الليبيين فلم يكن نظير مروان أقل غرابة: إنه الرائد عبد السلام جلود، الذراع اليمنى للقذافي، رئيس وزراء ليبيا ابتداءً من عام 1972. وُلِد في بداية الأربعينات (تختلف المصادر في تحديد العام بأنه 1940، 1941، 1942، 1943، أو 1944) في قبيلة المقارحة الصغيرة والفقيرة، وهو يشترك مع القذافي في كونهما من أصول فقيرة اجتماعياً واقتصادياً. لكنه بخلاف بقية أفراد قبيلته الذين في مثل عمره، ارتاد جلود الجامعة وكان يطمح في أن يصبح طبيباً. أول لقاء له مع القذافي كان في السجن بعد اعتقالهما أثناء مظاهرة عام 1959، وقرر أن يُغيِّر مسار حياته نحو الجيش، فتطوع في أكاديمية الضباط. وخلال سنواته في الجيش، انغمس جلود في الأدب الثوري الذي كان منتشراً في تلك الفترة، أغلبه قائم على تجربة الثورتين

مع النزعة القومية العربية الثورية، بخلاف أصولية وزهد القذافي، جعلت جلود مستعداً للاستمتاع «بالحياة الجيدة» أكثر من رئيسه[6].

وحتى وسط التشكيلة الواسعة من الشخصيات التي انضوت تحت قيادة الزعيم الليبي الشاب، ظل جلود مميزاً عنهم. إحدى مآثره الشهيرة كانت نزعته لإظهار نوع من عدم الاحترام لممثلي القوى الأجنبية. أحد الأمثلة على ذلك كان صباح اليوم الذي تم فيه خلع الملك، حين أرسلت سفارات الولايات المتحدة، الاتحاد السوفيتي، المملكة المتحدة، وفرنسا مبعوثين للاطلاع على أحداث الليلة الفائتة وليعرفوا ما أمكنهم عن النظام الجديد. انتظر كل واحد منهم خارج سفارته مرور سيارة جيب عسكرية عليهم لتقلّهم، وانتهى الأمر بهم أربعتهم محصورين في المقعد الخلفي. أما بجوار السائق فكان يجلس رجل بزي عسكري عرَّف عن نفسه على أنه «الرقيب محمد». أقلّهم الجيب إلى مقر الإذاعة والتلفزيون، حيث قدَّم الرقيب محمد، مع قادة آخرين، إيجازاً عن الوضع. «الرقيب»، لم يكن طبعاً سوى جلود، قائد القوات التي استولت على جميع الدوائر الحكومية في طرابلس في الليلة الفائتة.

كان عبد السلام جلود أيضاً الشخصية المركزية في المفاوضات التي جرت بين النظام الجديد وممثلي شركات النفط الأجنبية بخصوص النسبة التي ستتقاضاها الحكومة الجديدة على جميع الصادرات. لم تكن تلك التفاصيل قد تغيرت منذ قرابة العشر سنوات، ويطلب جلود الآن زيادة كبيرة. في فترة المفاوضات، كان جلود يستدعي ممثلي الشركات للاجتماع في وقت متأخر من الليل، يُسلمهم مطالبه أو مقترحاته بشكل مكتوب، ثم يرسلهم عائدين إلى فنادقهم. وبعد ذلك يتصل بهم في الفندق ويطلب أجوبة فورية، مهدداً في بعض الأحيان بتأميم الشركة إذا لم تتم تلبية مطالبه. ذات مرة، كان جلود يتجول في قاعة الاجتماع وبيده بندقية آلية، وراح يتحدث عن ضرورة أن تقوم القوى الغربية ببيع الأسلحة لليبيا. في النهاية، وافقت

الذين كان يزدريهم بسبب ما كان يعتبره سلباً لثروات بلاده الطبيعية – وأولئك الذين من المفترض أنهم أقرب أصدقاء وحلفاء ليبيا، من جهة أخرى. في آذار 1973، جاء إلى مصر للحديث عن التعاون العسكري بين البلدين. كان من بين المجتمعين وزير الدفاع المصري الفريق أحمد إسماعيل علي، بالإضافة إلى أشرف مروان. احتدم الجدال أثناء الحديث بين الشاب الليبي والوزير المصري، الذي أمضى جل حياته في الخدمة العسكرية وهو الآن في منتصف الخمسينات، بشأن مدى نوع معين من صواريخ أرض – أرض. كان رأي إسماعيل أن المدى هو 40 كيلومتراً، بينما قال جلود إنه يبلغ أربعة كيلومترات فقط. لإنهاء الخلاف، تم إحضار دليل مرجعي رسمي يتضمن لائحة بمواصفات الصاروخ. كان جلود محقاً، لكنه لم يستطع كبح جماح نفسه، فقال لإسماعيل إن شيئاً صغيراً مثل الفاصلة العشرية يمكن أن يكون له أثر كبير جداً، وأنه من المستحسن أن يبذل الضباط جهداً أكبر في كتابة التفاصيل الصغيرة كي يستطيع القادة السياسيون اتخاذ قرارات أفضل. غضب الوزير من الاتهام الصريح الصادر من فم شخص كان، قبل أقل من أربعة أعوام، مجرد ضابط بسيط. فقال: «لقد خضت ثلاثة حروب حين كنتَ أنت لا تزال صبياً صغيراً». فردَّ جلود قائلاً إن تلك الحروب كانت فاشلة جميعها، وأن أسباب فشلها ترجع إلى التفاصيل الخاطئة التي كان الضباط العسكريون يقدمونها لقادتهم. فوجد نفسه مطروداً من القاعة، ما أدى إلى أزمة في المباحثات.

هرع مروان خلفه على أمل تهدئته، لكنه اندفع إلى مكتب السادات مطالباً باحترام مقامه. وحين راح يوضّح موقفه للسادات، عاد وزير الدفاع لينفجر غاضباً وهو يشير إلى جلود ويصرخ، «هذا الولد غير المتعلم أهانني أمام ضباطي!» حين حاول جلود الرد، هدّد إسماعيل، «إذا لم يغلق هذا الصبي فمه، سألطمه بحذائي!» مشى وزير الدفاع خارجاً وصفق الباب خلفه. عاد إلى منزله ورفض العودة إلى

تبع مروان جلود إلى طرابلس وعاد حاملاً جواباً من القذافي إلى السادات: الليبيون يطلبون طرد إسماعيل. كان ذلك آخر ما يرغب السادات بسماعه، فالاستعدادات للحرب مع إسرائيل كانت جارية على قدم وساق. وفي النهاية استمر إسماعيل في منصبه، مع قبول مصر بطلب جلود إنشاء قناة دبلوماسية أخرى للعمل بعيداً عن وزير الدفاع. ومع ذلك لم يكن جلود راضياً، فطلب من محاميه الليبي إعداد ملف كامل ضد إسماعيل، ولم يتراجع عنه حتى بعد حرب أكتوبر. أما إسماعيل فلم يزر ليبيا بعد ذلك، وتوفي في أواخر عام 1974[8].

بعكس كمال أدهم الذي كان يزيد مروان في العمر بفارق كبير، كان جلود بعمر مروان. هذه الحقيقة، إلى جانب روابط مروان العائلية المميزة وسحره القادر على كل شيء، سرعان ما حوّلت علاقتهما من إطار الشكليات إلى صداقة. كان جلود يسرق نفسه من حين لآخر خارج ليبيا، بعد أن حوَّلها القذافي إلى معقل للتقشّف الإسلامي، وينطلق إلى أماكن حيث الحياة الجميلة بانتظاره. وكانت الوجهة في أغلب الأحيان هي القاهرة، حيث يقضي مع عدد من الضباط الليبيين الليالي في الشرب والتسكّع في المدينة مع مروان. في بعض الأحيان كان جلود ومروان يلتقيان في روما أو لندن. خلال إحدى تلك الفلتات في لندن، اتصل مروان بمشرفه من الموساد طالباً من الإسرائيليين ترتيب أمسية مجون وعربدة على شرف صديقه الليبي رفيع المستوى. كانت خبرة دوبي في هذا الجانب من الحياة الليلية في لندن ضعيفة، فطلب العون من أصدقائه في مركز الموساد في لندن، الذين استعانوا بخدمة مصاحبة ذات سمعة جيدة لإرضاء رغبات جلود. أما فاتورة نزوة جلود فكانت على حساب دافعي الضرائب الإسرائيليين.

كان أعداء مروان يفعلون طبعاً كل ما وسعهم لتصل تلك المغامرات إلى الرأي العام. ذات مرة، وخلال حفلة في منزل خاص يقع في أحد أحياء القاهرة الراقية، قام

الصراخ الصادر من الشقة، فجاء ضباط إلى الموقع. استلم السادات تقريراً عن الحادثة لكنه فضَّل أن يتركها تمر. فحتى لو أنها تعطي انطباعاً سيئاً عن مروان في القاهرة، إلا أن مصر لا يمكنها التخلي عن خدماته.

أصبحت العلاقة بين مروان وجلود محور العلاقات المصرية الليبية، وكان من أهم ثمارها المبادرة المشتركة في ذلك الوقت لشراء طائرات ميراج من الفرنسيين[9]. كانت قيمة الصفقة، التي تضمنت شراء 110 طائرات ميراج 5، تزيد على 200 مليون دولار. وقد تطلب إنجاز تلك الصفقة سفراً كثيراً لمروان، ليس فقط إلى طرابلس، بل إلى فرنسا، مع أنه كان من المفترض أن الليبيين هم من يقودون العملية. السادات بنفسه قال في أكثر من مناسبة إن أشرف مروان شخصياً قد ذلل العديد من العوائق التي وضعتها الحكومة الفرنسية، وأيضاً الشركة الصانعة مارسيل داسو، في طريق الصفقة خلال الأيام العصيبة التي سبقت حرب أكتوبر 1973[10]. وكالعادة، لم تكن إنجازات مروان فقط لخدمة بلده، فبعض المصادر المصرية تقول إنه تقاضى أجراً ضخماً لقاء ذلك[11]. وبحسب صحيفة الشعب فقد بلغت حصته 10 ملايين دولار[12]. وسواء كان مروان قد ربح من تلك الصفقة أم لا، يظل الأمر الواضح هو أن الإسرائيليين عرفوا مباشرة كل ما يريدونه بشأن الصفقة.

موهبة مروان وقدرته على استيعاب التقلّب الليبي، إضافة إلى علاقته الراسخة مع السعوديين، جعلته ركيزة في دائرة السادات. كما أنه استفاد كثيراً من العلاقات التي طوَّرها مع بعض المقربين من السادات، وأولهم زوجته جيهان، لضمان استمرار دعم السادات السياسي له. وقد أدرك مروان أن علاقته ببعض الصفقات المشبوهة ونزعته لخلق عداوات حادة في الديار تجعلان دعم السادات له أكثر من حاسم.

منذ البداية، تولَّدت لدى كثيرين في مكتب السادات مشاعر عدائية تجاه مروان بسبب القفزة الهائلة التي حققها. الدعم الذي أعطاه للسادات خلال الثورة التصحيحية

وابنته هدى وزوجها، وابني ناصر. كثيراً ما كان مروان يستغل مشاعرهم العدائية له لمصلحته، إذ كان يشكو للسادات الثمن الباهظ الذي توّجب عليه هو وزوجته منى دفعه مقابل دعمهم له، ويستغل ذلك لتعزيز موقعه وتغطية فساده[13].

هناك دافع آخر لمشاعر العدائية التي كان محاطاً بها وهو الغيرة مما كان مروان يمثله: شخص وسيم ومتعالٍ وفصيح، تسلق من دون أي خبرة سابقة أو إنجازات واضحة، ليصل إلى أعلى المراتب في الحياة المصرية. وقربه من الرئيس، الذي كان يقف خلفه دائماً، ومن زوجة الرئيس، التي كانت منخرطة في شؤون الدولة أكثر بكثير من زوجة الرئيس السابق، كان يؤجج مشاعر العداء نحو مروان، ويغذي الشائعات عن سلوكه السيئ. ذات مرة، شرح مروان بنفسه العداء الموجّه ضده بهذه الطريقة: «سبعون بالمائة من المصريين يكرهونني. عشرة بالمائة منهم بسبب صلتي بجمال عبد الناصر؛ أما الستون بالمائة الآخرون فبسبب عمري. فبحسب القانون، لا يمكن لأي شخص لم يبلغ الخامسة والثلاثين أن يُعيَّن وزيراً في الحكومة... وأنا لديّ الصلاحية لمراقبة جميع الوزراء منذ كنت في العشرينات. هذا غير وارد»[14]. هذه الكلمات لا تخلو من كثير من الحقيقة حتى لو أنه بالغ كثيراً في وصف مكانته وقلل كثيراً من مسؤوليته عن تلك المشاعر العدائية.

لكن في نهاية الأمر، كان سلوك مروان هو ما ألهب، أكثر من أي شيء آخر، الهجمات القوية ضده. لأنه بالفعل كان فاسداً. أحد الأمثلة يتعلق بعملية شراء سيارات مرسيدس لمكتب الرئيس عام 1971. حين وصلت التحقيقات التي أجرتها المخابرات المصرية إلى تفاصيل الاتفاق ووثائق الجهة المُصدِّرة، اكتشفت توقيع شيكات باسم أشرف مروان مجموعها مليون دولار. قام رئيس المخابرات، الجنرال أحمد إسماعيل علي، بإطلاع السادات على التفاصيل، لكن الرئيس أمر بإغلاق القضية. وقد أثار ذلك الأمر إحباطاً شديداً بين ضباط المخابرات المشاركين في التحقيقات، فقام أحدهم

بموظف آخر في المكتب، إنما من دون جدوى. لكن بسبب فشل التحريات في تقديم دليل جرمي واضح، لم تُتخذ بحق مروان أي إجراءات[15].

لم يكن مفاجئاً كثيراً أن يتم استجواب أشرف مروان ووالده أيضاً. فبعد خدمة طويلة في الجيش، دخل مروان الأب عالم الأعمال، وأصبح معروفاً في فترة السبعينات باسم «السيد خمسون بالمائة» بسبب العمولات الضخمة التي كان يتقاضاها. جلال الدين الحمامصي، الصحافي ذاته الذي كشف عن صفقات العقارات التي أبرمها مروان مع كمال أدهم، أجرى أيضاً تحقيقات حول والد مروان. وقد أكد وزير التجارة المصري، زكريا توفيق، وجود شبهات حول تقاضي أبو الوفا مروان رشى، وأضاف أنه يتعرض لضغط كبير كي يتقاعد. كما كشفت تحقيقات أعمق عن وجود شبهات كثيرة تدور حول مروان ووالده؛ فبحسب عدد من المصادر المختلفة، كان مروان نفسه، بحُكم منصبه، هو من يُدبر الرشى لوالده. وفي هذا المثال أيضاً تم إسقاط التهم الموجهة ضده بناءً على أوامر من «الأعلى»، برغم وجود أدلة معتبرة[16].

لم تقتصر فضائح مروان على الصفقات المالية. إحدى تلك الفضائح الكبيرة كانت منافسته مع أحمد المسيري، وهو ضابط في الحرس الجمهوري خدم أيضاً في مكتب الرئيس، لكن التفاصيل هنا أيضاً منقوصة، والروايات حولها متناقضة بحسب المصادر. لكن ما يبدو أن الكل متفق عليه هو أن المسيري، الشاب الموهوب والواعد، الطموح وواسع الأفق، كان أكبر غريم لمروان في المكتب الرئاسي؛ وأن مروان كان قلقاً من أن يحل المسيري محله. كلما فاز المسيري بثقة السادات، نمت سلطته. ومثله مثل مروان، كان المسيري يعرف جيداً كيف يحوم حول عائلة الرئيس – وخاصة ابنة السادات الكبرى، لبنى، التي كانت في أوائل العشرينات. بغض النظر عما إذا كان ذلك بدافع اهتمام عفوي أو طموح بارد، فقد طلب المسيري يد لبنى للزواج. أما أشرف مروان، الذي يعرف تمام المعرفة تبعات الانضمام للعائلة الرئاسية

ما تلا ذلك هو أن شكّل مروان فريقاً مع اثنين من أقوى الشخصيات هما جيهان السادات، التي لم تكن مسرورة لزواج ابنتها من موظف حكومي، حتى ولو كان واعداً مثل المسيري؛ ومن فوزي عبد الحافظ، السكرتير الخاص للسادات وصديقه المقرب. إحدى الروايات تقول إن جيهان هي فعلياً من دعت مروان للاشتراك في المؤامرة. الواضح هو أن كليهما يريدان المسيري بعيداً عن لبنى قدر المستطاع. أرسلت جيهان له رسالة تقول فيها إن ابنتها لم تكن تحبه وأن عليه التوقف عن مواعدتها. ولخوفهم من ألا يكون ذلك كافياً، ضغطت جيهان مع مروان وحافظ على السادات لنقل المسيري من المكتب الرئاسي من أجل تقليص فرص اللقاء بينهما. فوافق السادات على إرسال الشاب في مهمة دبلوماسية إلى اليمن، لكن مهمته تكللت بالنجاح وانتهت في وقت قصير. وبعودته عاد أيضاً التهديد بزواجه من لبنى، وضُغطَ على السادات ثانية لوضع حد لذلك. في الوقت نفسه تم الضغط بشكل مباشر على المسيري، وذلك على شكل سيل من الزائرين يخبرونه أن لا فرصة أمامه للفوز بيد لبنى. كما بُذلت أيضاً جهود إضافية لتخفيف تأثر السادات بالمسيري، منها مثلاً إرسال تقارير من المخابرات تقول إن سلوك الشاب كان بعيداً عن النموذجي. وهذا أيضاً كان له تأثيره.

في النهاية، وجد السادات أن لا خيار أمامه سوى نقل الشاب المغروم إلى وزارة الخارجية، ليعمل هناك في مهنة دبلوماسية. وهكذا انتهت مهمة اللجنة، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن تتزوج لبنى من شخص آخر – رجل أعمال ثري من عائلة مصرية أرستقراطية – وكانت والدتها في غاية الرضا[17].

أما بالنسبة إلى مروان فلم يأتِ النصر بنهاية سارة له. ففي أواسط السبعينات، بعد أن تراكم على مكتب السادات جبل من الشكاوى بشأن مروان، قرر الرئيس في النهاية التحقق منها. ومن اختار لإدارة التحقيق؟ لم يكن أحد آخر سوى أحمد المسيري.

وثائق تُبيِّن أن مروان اشترى عام 1972 مليوني سهم من شركة ضخمة في لندن بسعر 2 جنيه إسترليني لكل سهم. هذه المرة لم يجد مروان طريقة يفسر بها من أين حصل على 4 ملايين جنيه إسترليني، وحين رأى السادات الدليل لم يعد باستطاعته بعد ذلك غض الطرف. التحقيقات التي أجراها المسيري أطلقت عملية أدت في النهاية إلى إبعاد مروان عن الدائرة المقربة من السادات، وفي النهاية إلى تركه مصر نهائياً[18].

كل ذلك ولم نقل سوى النذر اليسير. كان مروان في بداية السبعينات منشغلاً بتكوين ثلاث مِهَن، وقد برع فيها ثلاثتها بشكل ملفت. في مهنته الرسمية المعروفة للعموم، كان مستشاراً ومبعوثاً لرئيس مصر، مع التركيز على العلاقات مع السعودية وليبيا. لقد أنجز عشرات المهام الدولية، التقى بالقادة العرب في القاهرة، وطار إلى العواصم العربية لنقل رسائل من الرئيس. في حزيران وتموز من عام 1973، نشرت الصحافة العربية تقارير عن زيارته الرسمية إلى الرياض، حيث التقى بالملك فيصل؛ وفي الشهر التالي نشروا تقريراً عن لقائه مع أمير الكويت الشيخ صباح السالم الصباح، الذي نقل إليه رسالة من السادات. وهناك اجتماعات أخرى ظلت سرية. لكن أشهر ما هو معروف منها وقع في المملكة السعودية في آب 1973، حيث رافق مروان السادات في اجتماع قمة سرية مع الملك فيصل، وفيه أخبر الرئيس المصري الملك السعودي عن نيته شن حرب في المستقبل القريب[19]. ساهم مروان أيضاً في الجهود الرامية للحصول على معدات قتالية من الدول العربية في الأيام التي سبقت الحرب، وليس من ضمن ذلك فقط ضمان وصول طائرات الميراج من ليبيا، بل أيضاً محاولة عقد صفقة أخرى للحصول على اثنتين وثلاثين طائرة ميراج أخرى من المملكة السعودية، ومروحيات سي كينغ بريطانية الصنع. هذه الصفقة، التي فشلت في النهاية، تم التفاوض عليها بين مروان والملك فيصل، من دون استشارة وزير الدفاع أو قائد أركان الجيش أو قائد القوى الجوية المصريين[20].

بسرعة هائلة. شراؤه أسهما بقيمة 4 ملايين جنيه إسترليني من بورصة لندن – وهو رقم أكبر بكثير مما دفعه الموساد يوماً له – حدث عام 1972. وسواء كان عن طريق تجارة العقارات أو عن طريق أي تحركات مشبوهة أخرى، فمن الواضح أنه في غضون ثلاث سنوات منذ عودته إلى القاهرة جارّاً أذيال الخيبة بعد أخذه المال من عائلة الصباح لتسديد ديونه، أصبح مروان ثرياً بما يكفي ليعيش الحياة المترفة في لندن، أو أي مكان آخر، دون أن يقترض فلساً. لقد تحقق حلمه في أن يصبح غنياً.

مهنته الثالثة كانت الجاسوسية. يظل السؤال الرئيسي هنا هو الدافع. أكبر سببين جعلاه يستدير نحو إسرائيل في عام 1970 – حاجته للمال ونقمته على عبد الناصر – لم يعودا مهمين. لقد أصبح الآن ثرياً ومشهوراً ويتمتع بمكانة وسلطة مرموقتين. فلماذا إذاً استمر في بيع أسرار بلاده؟

على حد علمنا حتى الآن، لم يرغمه الموساد يوماً على شيء. قبيل الحرب، لم يطلب مروان أبداً التوقف عن مساعدة الإسرائيليين. على الأرجح إذاً أن جزءاً من السبب هو العطالة الذاتية: ربما أصبح عمله مع الموساد الآن يبدو أقل خطورة وأكثر ربحاً مما كان يتوقع يوماً. ويبدو أيضاً أن هذا العمل كان يرضي حاجته العميقة للمخاطرة والتحفيز – المقامر الذي بداخله – التي جعلته لا يشعر فقط بالإثارة الناتجة عن المخاطرة فحسب بل وأيضاً بقوة الشخصية لكونه يحرك مجرى التاريخ والإحساس بأنه، بخلاف كل من حوله، كان فعلاً إلى جانب الطرف الأقوى والأكثر ذكاءً في الصراع العربي الإسرائيلي.

يمكن لهذا أن يتشابك كثيراً مع شائعات أخرى تقول إن مروان بدأ في تلك الفترة بالعمل أيضاً مع وكالات استخبارات أخرى منها CIA، MI5، والاستخبارات الإيطالية. إن كانت مثل تلك العلاقات موجودة أصلاً قبل حرب أكتوبر، فقد كانت على نار هادئة. والحقيقة أن المعلومات التي كانت تلك الدول تمتلكها عن مصر

في ذلك بعض المصادر الحساسة مثل الملك حسين ملك الأردن. وإن كان مروان قد أعطى CIA أي شيء مهم فعلاً قبل الحرب لكان الأمريكان مرروه لإسرائيل، لكنهم لـم يفعلـوا وعلى الأرجح لأنهم لا يملكون مثل تلك المعلومات. يَعتبر هاورد بلوم، الذي أجرى تحقيقاً حول العلاقة بين مروان وCIA عن طريق مصادر من الوكالة، أن مـروان ربمـا يكون قد عمل فعلاً مع الأمريكان، لكن ذلك كان في فترة متأخرة جداً، وعلى الأرجح أن تكون في فترة الثمانينات[21]. ويمكن أن ينطبق الشـيء نفسـه على الاسـتخبارات البريطانيـة والإيطالية. وقد ادّعى أحد المصـادر الإيطالية غير معروفة الهويـة أن مـروان أعطاهم «تحذيراً بوقوع الحرب قبيل سـاعات من لقائه بمسـؤولي الموساد في لندن»[10].

لكن يبدو ذلك مسـتبعداً لأن مروان – كما سـنرى – كان منشـغلاً كثيراً في لندن في ذلك اليوم.

إذاً برغـم الشـائعات، لا يوجـد سـبب قـوي للاعتقـاد بأن مروان عمـل مع أي وكالـة اسـتخبارات أجنبية أخرى غير الموسـاد قبيل الحـرب. ومن الصعب أيضاً في الوقـت نفسـه أن نصـدق أنه اسـتطاع إبقـاء أمر خيانته سـرياً بالكامـل. على الأرجح أن الاسـتخبارات البريطانيـة كانـت تعـرف بأمـره، لكونهـم يعرفون بـأن دوبي يعمل مع الموسـاد، وهذا أكثر من كافٍ بالنسـبة إلى وكالة اسـتخبارات منافسـة كي تصل إلـى الاسـتنتاجات الصحيحة. في الواقع، التقى في تلـك الفترة أحد ضباط MI5 مع مسؤول في الموساد، وبعد ورود اسم مروان، أضاف، «لكن طبعاً أنت تعرفه جيداً». إنما بغياب أي دليل على عمله فعلاً مع أي أحد آخر، يصبح الافتراض المنطقي هو أنه لم يفعل؛ وحتى لو فعل، فقد كان حتماً يعتبر الإسـرائيليين زبائنه الرئيسـيين، وهم مـن قدَّم لهم أفضل المعلومات الاسـتخباراتية. في الأشـهر التي تلـت، ولغاية انتهاء الحرب، ستتكشف القيمة اللامحدودة لمساهمته في أمان إسرائيل.

الفصل السابع

مصر تتهيأ للحرب

في تموز 1972، وبعد الفشل مراراً في تأمين «أسلحة ردع» من السوفييت، أعلن السادات فجأة بأن قوات الجيش الأحمر التي كانت متمركزة في مصر منذ أوائل عام 1970 سوف تعود إلى ديارها. كان السوفييت قد أرسلوها مع منصات سام متقدمة وأسراب من المقاتلات والطائرات السوفييتية لمساعدة مصر على تحييد دور التفوق الجوي الإسرائيلي، لكنها قوّضت استقلالية مصر في اتخاذ القرارات المصيرية المتعلقة بأمنها. وطالما أن الوحدات السوفييتية هي التي تدافع عن السماء المصرية، ستظل للكرملين السلطة لنقض أي قرار مصري بالحرب، وهي حقيقة كان السادات يعرفها جيداً. وهكذا، مع تلاشي فرص استرجاع سيناء بالوسائل الدبلوماسية، أصبحت القيود المفروضة على خيارات مصر في شن الحرب أكثر وأكثر إيلاماً.

كان الرجل الذي حقق على الأرجح أكبر فائدة من المأزق الذي وجد السادات نفسه فيه هو هنري كيسنجر. ففي اتصالاته غير المباشرة مع مصر – معظمها عبر القنوات السعودية بإشراف كمال أدهم – أوضح كيسنجر أن الولايات المتحدة لا تعتقد أن خيار الحرب يُعتَبر واقعياً بالنسبة إلى مصر، وطالما أن السوفييت موجودون على التراب المصري لن يمارس البيت الأبيض أي ضغط على إسرائيل. بالنسبة إلى هنري كيسنجر، الحرب الوحيدة المهمة بنظره هي الحرب الباردة، وقد استخدم ورقة سيناء كطُعم لحمل مصر على التحول إلى الجانب الأمريكي.

وبالفعل، لم يكن خيار الحرب واقعياً بالنسبة إلى مصر، فبدون صواريخ سكود

أرض المعركة أو على الجبهة الداخلية. ومع أن المضادات الأرضية السوفييتية ربما قدمت بعض المساعدة، لكنها لا تسمح لمصر بشن هجوم لوحدها، لأن السوفييت على الأرجح يرفضون كل ما يمكن أن يهدد قواتهم التي ستصطدم مع سلاح الجو الإسرائيلي. وهكذا طلب السادات منهم الرحيل ومع إبقاء بطاريات الصواريخ والطائرات لمصر طبعاً. ومع ازدياد التوتر في العلاقات السوفييتية المصرية، قرر الكرملين، لكونه الآن غير ملزم بالمشاركة في الدفاع عن مصر إنما ينتابه القلق بشأن التقارب المصري الأمريكي، تلطيف سياسته المتعلقة ببيع الأسلحة. ومنذ أواخر عام 1972 بدأت تتدفق على مصر أنظمة أسلحة جديدة مثل دبابات T–62، بطاريات SA–6، وتجهيزات حديثة لعبور الماء.

استجاب السادات لحيلة كيسنجر، لكن الأمريكان فشلوا في المتابعة. ولم يَرِد أي جديد من الجانب الأمريكي في الأشهر التالية، وهكذا أدرك السادات عدم صدق نوايا البيت الأبيض في مساعدة المصريين على استعادة سيناء مقابل اتفاق سلام مع إسرائيل. وهكذا وصل إلى أفق مسدود.

في الرابع والعشرين من تشرين الأول 1972، طلب السادات التئام المجلس الأعلى للقوات المسلحة في اجتماع خاص في مقر إقامته في الجيزة. أخبر قادة جيشه أنه على ضوء فشل الجهود المبذولة لإقناع الأمريكان بالمضي قدماً بالاتجاه الدبلوماسي، فقد قرر شن حرب، «باستخدام جميع الوسائل التي بحوزتنا». كانت التداعيات واضحة. إذا كانت فكرة مصر عن الحرب (وبالنتيجة، التصور الخاص بالاستخبارات الإسرائيلية) متوقفة عند مسألة عدم قدرة مصر على شن الحرب بدون حصولها على «أسلحة الردع»، فإن هذا الحاجز لم يعد موجوداً الآن. سوف تجد مصر طريقة للذهاب إلى الحرب بدون تلك الوسائل. وهنا أكد السادات على مدى أهمية عامل الوقت الآن، مطالباً جيشه بالاستعداد للهجوم مع بداية عام 1973، أي

عن هشاشة الجبهة الداخلية أمام طلعات القصف الإسرائيلية. وآخرون، وخاصة القادة المسؤولين عن عبور قناة السويس، اشتكوا من الصعوبات العملانية المتعلقة باختراق التحصينات الإسرائيلية الفائقة والعدد الهائل من السواتر الترابية التي وضعتها إسرائيل على طول القناة لمنع عبور المصريين. رئيس أركان الجيش، سعد الشاذلي، ورئيس هيئة العمليات، محمد عبد الغني الجمسي، ترجيا الرئيس لالتماس المساعدة في الحرب من الدول العربية الأخرى. وقال وزير الحربية، الفريق أول محمد أحمد صادق، إن الهدف من الحرب يجب أن يكون تحرير شبه جزيرة سيناء بالكامل، وأن الجيش المصري كان أبعد ما يكون عن أن يقدر على ذلك.

لم يحرك السادات ساكناً، لكنه عاد وقال إنه لا يرى أي بديل عن الحرب وأنه لا بد من شن هجوم في الأشهر القادمة، وأن الهدف يجب ألا يكون استعادة سيناء بالكامل بل كسر الجمود في الوضع الراهن وتحريك جهود دبلوماسية ترمي إلى استعادة كامل الأراضي المصرية. وبعد يومين فقط، اتخذ إجراءات توضّح نيته قدر الإمكان، إذ طرد وزير الحربية، ونائب الوزير، وقائد البحرية، واستبدل بهم رجالاً أقل تردداً تجاه الحرب.

في الأشهر التي تلت ذلك قام قادة الجيش المصري بتحويل توجيهات السادات إلى خطط عملانية. الهدف من الحرب كان تحدي قناعة الإسرائيليين بأن مجرد احتلالهم لسيناء سيجلب الأمان لبلدهم، وذلك عن طريق (أ) إضعاف الاقتصاد الإسرائيلي عبر صراع طويل سيتطلب منهم استنفار قوى الجيش الاحتياطية على نطاق واسع، (ب) عزل إسرائيل دبلوماسياً، و(ج) تغيير موازين القوى في المنطقة عن طريق إقناع الأمريكان بممارسة الضغط على إسرائيل للتخلي عن الأراضي التي استولت عليها عام 1967، وخاصة سيناء. عنى مفهوم مصر الجديد للحرب أيضاً تغييراً في المواقف الإقليمية. حتى صيف 1971، حين عيَّن السادات سعد الدين الشاذلي

وحين استلم الشاذلي القيادة، وُضِعت خطط محدودة أكثر، معروفة باسم العملية 41، كانت تأمل بتحرير الأرض وصولاً إلى ممري متلا والجدي اللذين يقطعان الجبال الممتدة غربي سيناء، بحدود أربعين إلى سبعين كيلومتراً شرق قناة السويس. لكن تلك الخطط كانت بحاجة «لأسلحة ردع» لمجابهة القوة الجوية الإسرائيلية. لكن حين أمر السادات بالاستعداد لشن حرب في مطلع عام 1973، اتُّخذ القرار بتقليص أهداف الحرب إلى الحد الذي يكون الجيش المصري مقتنعاً بأنه قادر على تحقيقه حتى بدون الصواريخ والطائرات بعيدة المدى.

أصبحت تلك الخطط جاهزة في كانون الثاني 1973، بحسب الأوامر. الخطة الجديدة، المعروفة باسم المآذن العالية، كانت تهدف إلى حل مشكلة هشاشة الجيش المصري أمام هجمات سلاح الجو الإسرائيلي وإلى تلبية مطلب السادات في تحقيق إنجاز يهز المنطقة ويفرض التحرك على الجبهة الدبلوماسية. كانت الخطة تركز على عبور قناة السويس – باستخدام الخطة نفسها التي كان مروان قد أعطاها للإسرائيليين عام 1970، والتي تعتمد على خمس فرق مشاة تعبر من خمس نقاط مختلفة. لكن بعكس الخطط السابقة، التي كانت تعتبر العبور بمثابة مرحلة أولى هدفها تمكين الفرق المدرعة من الانطلاق باتجاه ممري متلا والجدي، كان الهدف النهائي للحرب في عملية المآذن العالية هو عبور القناة والإمساك بضفتها الشرقية. وبهذه الطريقة تستطيع القوات المصرية أن تتجنب التحرك شرقاً خارج مظلة المضادات الأرضية التي لا تغطي أكثر من عشرة كيلومترات شرق القناة.

تم التستر على عملية المآذن العالية بسرية تامة، وليس فقط عن الإسرائيليين. فقد كان من المهم عدم معرفة السوريين بحقيقة محدودية الأهداف المصرية بخصوص المناطق التي تنوي استردادها. بالنسبة إلى السادات، كان حجر الزاوية في استراتيجيته العسكرية هو إرغام الإسرائيليين على القتال على جبهتين منفصلتين

الجولان يمكن أن تسمح للسوريين بعبور نهر الأردن ومهاجمة شمال إسرائيل، في حين أن قناة السويس بعيدة جداً عن الحدود الإسرائيلية، استوعب السادات أن تركيز الإسرائيليين سيكون منصباً على القتال على الجبهة الشمالية، ما يزيد إلى حد كبير من إمكانية نجاح المصريين في الإمساك بالضفة الشرقية لقناة السويس والاحتفاظ بها. لكن لضمان موافقة الرئيس السوري حافظ الأسد، يجب أن يصدق السوريون أن مصر تخطط لوضع كل ما لديها من أجل استعادة سيناء بالكامل، وليس فقط إبقاء قواتها تحت مظلة المضادات الأرضية في منطقة القناة. فإذا عرف الأسد بخطة المآذن العالية، سيتم إلغاء العملية بالكامل.

ومن أجل إبقاء الأسد بعيداً عن الحقيقة وفي الوقت نفسه ضمان تعاونه في الهجوم المشترك المخطط له، قامت مصر بتطوير خطة عسكرية ثانية، اكتملت في نيسان 1973، سمُيت جرانيت 2 المُعدَّلة. في تلك الخطة، التي تمت مشاركتها مع السوريين وشكَّلت أساساً لكل نقاشاتهم مع المصريين بشأن الحرب، كان مقرراً أن تقوم فرق المشاة بعبور القناة في المرحلة الأولى، وبعد ذلك تقوم الفرق المدرعة بالعبور إلى سيناء والتوجه إلى الممرات[1].

تضمنت خطة جرانيت 2 المعدَّلة أيضاً بعض التحسينات المهمة على عملية عبور القناة. للتعامل مع مشكلة الكباري، سيتم إطلاق مدافع مائية بمعدل يكفي لإفساح المجال أمام المركبات البرمائية لترسو على الضفة الشرقية. ولتقليل خسائر القوات المصرية إلى الحد الأدنى وزيادة المساحة المؤمَّنة على الضفة الشرقية إلى الحد الأقصى، ستقوم مصر بتطويق التحصينات الإسرائيلية ومحاصرتها بدلاً من محاولة تجاوزها. ولمنع أو تأخير جنود احتياط الجيش الإسرائيلي من الوصول إلى الجبهة، سيتم إنزال فرق مغاوير بواسطة المروحيات في المواقع الرئيسية في سيناء لقطع طرق الوصول الرئيسية. في اليوم الأول من المعركة، تقوم مصر بإرسال

محرر على طول القناة يمتد بعمق عشـرة كيلومترات في سـيناء. حين يتم ذلك، تقوم فرقتان مدرعتان، الرابعة والحادية والعشرون، بعبور القناة وشن هجوم باتجاه الشرق للوصول إلى ممري متلا والجدي.

تلك كانت خطة جرانيت 2 المعدلة، وتم إطلاع السوريين على الصيغة الرسمية لتلـك الخطـة. أما الخطة التي كان الشـاذلي ينوي تطبيقها حقـاً فكانت عملية المآذن العالية، وهي مماثلة لخطة جرانيت 2 المُعدَّلة، لكن بدون المرحلة النهائية الرامية إلى عبور الفرق المدرعة للقناة أو التوغل عميقاً في سيناء. وكانت سرية للغاية لدرجة أن قادة الفرق نفسهم لم يكونوا يعرفون بها[2].

بدأت مصر في تلك الأثناء بإجراء تدريبات على خطة الهجوم. كانت التدريبات في الماضي مركزة بمعظمها على مشـاريع معارك لفرق الدبابات في سـيناء، أما الآن فهي تركز على عملية العبور نفسها – وخاصة تحضير القوارب المهاجمة التي ستنقل 32 ألف جندي عبر القناة في المرحلة الأولى، وبناء جسور لحمل المعدات الثقيلة في المرحلة الثانية. وتمرنوا أيضاً على اختراق السواتر الترابية على الجانب الإسرائيلي. أما بالنسـبة إلى الدبابات، فقد أصبح كثير منها مرتبطاً الآن بفرق المشـاة لمساعدتهم على تنفيذ المرحلة الأولى، وليس التدرُّب على خطتهم الوهمية لاجتياح سيناء.

فـي ربيـع 1973 أصبحـت مصـر جاهزة. إنها المـرة الأولى منذ عـام 1976 التي يمتلك فيها المصريون خططاً عملانية قابلة للتطبيق من أجل مهاجمة إسـرائيل بدون انتظار «أسلحة الردع». وكل ما يحتاجونه الآن هو تحديد موعد.

أشرف مروان، الذي أدّى دوراً حاسماً في تطوير التصور الإسرائيلي بشأن الحد الأدنـى من المعطيات التي تعتبرها مصر ضرورية لشـن الحـرب، كان أيضاً المصدر الرئيسـي للمعلومات بشـأن تغيُر المزاج المصري، والتي كان من المفترض أن تُقنع الإسـرائيليين بـأن الصـورة لم تعد مطابقـة للواقع. لكن ما حدث بـدلاً من ذلك كان

الصلـة. وقـد اسـتمروا فـي تصلبهم لغايـة صباح السـادس من تشـرين الأول 1973، وكان ذلك السبب الوحيد، الهائل الذي جعل الأمور تمضي بشكل سيئ للغاية على الجانب الإسرائيلي.

لم يشـارك مروان في الاجتماع المصيري الذي انعقد قبل عام من الحرب، في الرابع والعشـرين من تشـرين الأول 1972، حين طرح السـادات رؤيته الجديدة. لكن أحد مسـاعديه كان حاضراً وسـجَّل الملاحظات. وبعد أسـبوع تقريبـاً، التقى مروان بزاميـر ودوبـي في لندن وسـلَّمهما وثائق تثبـت بوضوح قرار السـادات الذهاب إلى الحـرب بأسـرع مـا يمكن، وتشـرح بوضوح قرار ترحيل السـوفييت فـي تموز 1972 كخطـوة أولـى باتجـاه زيـادة حرية مصر فـي المنـاورة. الوثيقة لم تذكـر صراحة بأن السـادات لم يعد ينتظر الأسـلحة التي كان يعتقد لفترة أنه بحاجة إليها لشـن الهجوم، لكـن كل مـا كانت تنقصه الوثيقة بشـكل مكتـوب تم إكماله من خـلال رواية مروان الشـفوية عن اجتماع الرابع والعشـرين من تشـرين الأول وعن مضاعفاته، فقد أخبر الإسـرائيليين أن السـادات وصل إلى قناعة تامة بانسداد أفق الخيار الدبلوماسي، وأن السبيل الوحيد لإعادة إحيائه كان عن طريق خطوة عسـكرية؛ وأنه طرد وزير حربيته بسـبب رفض الأخير أوامر الاسـتعداد للهجوم. شـرح مروان أيضاً أن السـادات طرد أيضاً جنرالات آخرين بسبب شكوكهما بجاهزية الجيش المصري، كل ذلك في إطار الجهـود المبذولـة لبلوغ اتفاق عام حول أفضل طريق لشـن الهجوم. كما قدَّم مروان أيضـاً جدولاً زمنياً: سـيتم إكمـال التحضيرات المتعلقة بالدفاع عـن الجبهة الداخلية المصرية في نهاية تشرين الثاني 1972؛ وخلال كانون الأول سيكون الجيش قد أكمل اسـتعداداته لخوض حرب «سـاكنة» منخفضة المسـتوى. أما عبور القناة فلن يحدث قبـل نهايـة عـام 1972. وأخيـراً، أخبر الإسـرائيليين بأن سـوريا قررت المشـاركة في الخطة. هنا أصبحت لدى الاستخبارات الإسرائيلية كل المعلومات اللازمة للوصول

كان حجم الهوة الهائلة ما بين إصرار السادات على شن الهجوم وبين جاهزية مصر الفعلية للحرب. كان السوفييت لا يزالون رافضين تقديم صواريخ سكود والقاذفات المقاتلة بعيدة المدى؛ فطائرة سوخوي Su-17 التي أعطوها لمصر لا يمكنها مجابهة طائرة فانتوم الإسرائيلية. لكن كما ظل مروان يؤكد، ليس هناك ما سيثني السادات عن عزمه. وسوف يأمر الرئيس بالهجوم، ولن يرفض الجيش أمره.

لكن ماذا كانت رواية مروان بشأن إصرار السادات على خوض معركة خسارته فيها حتمية؟ قال، إن السادات كان مستعداً لدفع ثمن باهظ مقابل دفع الأمور للتحرك باتجاه الحل الدبلوماسي.

الاستنتاج الوحيد الذي لم يعد بالإمكان تجنبه بعد كل ذلك هو عدم صحة الادعاءات القائلة بأن الاستخبارات الإسرائيلية لم تكن تملك أدنى فكرة عن كون تصورها قد أصبح عتيقاً، وأنه ليس لديهم أي فكرة عن تغيير المصريين لموقفهم من الشروط اللازمة لشن الحرب، وأن مروان قد خدع الإسرائيليين بطريقة ما ليجعلهم متمسكين بطريقة تفكيرهم القديمة من أجل زيادة فعالية عنصر المفاجأة في الهجوم بعد سنة. وتلك أيضاً التي تقول إن مروان كان المصدر الوحيد الذي أعلم إسرائيل بتغيير موقف السادات أو قراره بالاستعداد للحرب، كلها بعيدة عن الواقع.

وليس صحيحاً أيضاً أن هذا الفهم كان محصوراً بالموساد فقط. في 26 تشرين الثاني 1972، أي بعد شهر على طرد السادات عدداً من قياداته العسكرية الذين لم يوافقوا على طريقته الجديدة، وبعد أيام عدة فقط من الاجتماع الثاني بمروان في لندن، أرسل موشيه دايان إلى الحكومة تقريراً يقول فيه «هناك تقارير... يجب أن نتعامل معها بغاية الجديدة، تتحدث عن ميل واضح لدى المصريين باتجاه العودة للقتال... بما في ذلك التصعيد، إن كان ذلك ممكناً بحلول نهاية العام». وبحسب التقارير، قال دايان إن الخطوة المصرية ستتم بالتعاون مع سوريا، بهدف «إنشاء جبهة

الـوزاري»، أي مجموعـة صنـاع القـرار الأهـم فـي حكومتهـا. في الأول مـن كانون الأول 1972، التقـت بموشـيه دايـان، ويغال عالون، وإسـرائيل غاليلي، بالإضافة إلى قائـد أركان الجيـش دافيـد إلعـازر، الذي كان قد حـل محل حاييم بارليـف؛ الرئيس الجديد للاستخبارات العسكرية إيلي عيزرا؛ وتسفي زامير من الموساد. البند الوحيد على الأجنـدة كان نوايـا مصر شـن حـرب فورية. بناءً على المعلومات التـي تلقتها الاسـتخبارات العسـكرية بشـأن اجتماع 24 أكتوبر، أعلن عيزرا أن «السـادات أعطى الأوامـر لإنهاء الاسـتعدادات بنهاية كانـون الأول، [لكنه] لم يحدد تاريخاً للهجوم». على هذا الأساس، قدَّر أن فرصة الهجوم «ليست كبيرة»، وأن احتمال أن تحاول مصر جدياً عبور القناة «قريب من الصفر». جوهر الخطأ الذي ارتكبه عيزرا هو إساءة فهمه لطلب السـادات انسـحاب القوات السـوفييتية قبل أشـهر، فبدلاً من أن يرى فيه أحد الاسـتعدادات للحرب، اعتبـره تراجعاً دراماتيكياً في قـدرات مصر الدفاعية، وهكذا صار احتمال هجوم السادات مستبعداً أكثر بدلاً من أن يكون العكس.

أمـا تقييـم رئيس الموسـاد فكان ينطوي على حذر أكبـر وتعامل بجدية أكبر مع آخر المعلومات الواردة من الملاك، «على ضوء ما نعرف، علينا ألا نستبعد حدوث تبادل لإطلاق النار»، قال لهم زامير. «وحين أقول 'إطلاق نار' فهذا لا يعني بالضرورة إطـلاق عمليات عسـكرية على طول القنـاة، إنما بعض التحرشـات هنا وهناك». من جهتـه، كان قائـد أركان الجيـش مشـككاً بإمكانية وقوع الحرب فـي المدى القريب، لكنه عبَّر عن قلق سليم حين أضاف: «لا يمكننا أن نعتبر أنفسنا متحررين من ضرورة أن نكـون مسـتعدين... لا يمكننا أن نقول إنـه لا 'فرصة' لحدوث تبادل لإطلاق النار وننام هانئين»[4].

فـي الواقع، الشـخص الوحيد في الاجتماع الـذي أخذ تحذيرات مروان بجدية كبيـرة كان موشـيه دايـان. «علينا أن نفترض بأن مصر ستشـن الهجـوم على القناة في

حتـى مـن القيام بهجوم محدود – وتتضمن تأكيداً بأن إسـرائيل «ليس لديها أي رغبة في الدخول في حرب استنزاف أخرى، وإن بدأوا بالقتال فسـنرد بقسوة». آخذاً بعين الاعتبار احتمال انضمام الأردن للقتال، اقترح دايان أيضاً إرسـال رسـالة مشـابهة إلى الملك حسين[5].

بالرغـم مـن تقديـرات عيزرا بأن احتمال أن تشـن مصر هجومـاً على القناة كان «قريباً من الصفر»، قررت غولدا مائير ومعها موشيه دايان تنبيه الأمريكان. وفي ذلك اليوم نفسه أرسل إسحق رابين، سفير إسرائيل في واشنطن، رسالة إلى كيسنجر يبلغه فيهـا اسـتلامهم معلومات بـأن مصر تخطط لعمل عسـكري في نهايـة كانون الأول؛ وتوجهت رسالة مشابهة من الموساد إلى CIA. ليس واضحاً، أضاف الإخطار، ما إذا كان المصريون يخططون لحرب كاملة من أجل استعادة سيناء، أم لشيء محدود أكثر مثل قصف منطقة القناة أو عمليات مغاوير بدون محاولة استرجاع الضفة الشرقية[6]. أجاب الأمريكان أنهم هم أيضاً تلقوا معلومات تؤكد أن مصر قد غيَّرت خططها فعلاً بخصوص شن الحرب. ومع ذلك كان تقييم CIA مشابهاً لعيزرا في أن السادات يدرك تماماً ضعف قدرات جيشه ولذلك فإن احتمال شن حرب جديدة يظل مستبعداً.

وجهة النظر التي اشترك في تكوينها دايان، إلعازر، وزامير أثناء الاجتماع كانت لها محاسـنها. فمن جهة، أخذت بالحسـبان التحذيرات الجديدة بشـأن تغير المزاج المصـري. ومـن جهة أخرى، تعاملـت بجدية مع حقيقة عدم تغيُّـر الموازين لصالح الجيش المصري، وعِلم السـادات بذلك، ومعارضة كثير من المسـؤولين المصريين رفيعي المسـتوى له لنفس هذا السـبب. بمعنى آخر، أصبحت فكرة الحرب مستبعدة إنما واردة، وعلى هذا الأساس يتوجب على إسرائيل أن تستعد بما يتناسب مع ذلك. دايـان، صاحـب الموقـف الأكثر عدائية في الاجتمـاع، عاد وكرر بعـد بضعة أيام أنه حتـى لـو لم يكن الهجوم المصري وارداً في الأسـابيع القادمـة، «فربما يحصل حتماً

عبور المصريين للقناة «قريب من الصفر»، وموقف قائد أركان الجيش، الذي اعتبر الاحتمال ضعيفاً لكن ليس إلى الحد الذي يجعلهم يتجاهلونه، عكس تبايناً في مقاربتهما الأساسية للمسألة. حين تولى عيزرا منصبه كان بالأساس ملتزماً بالتصور. أما وجهة إلعازر فكانت ملونة أكثر. كان قد اطلع على المواد الأصلية التي قدّمها مروان، والتي تم على أساسها بناء التصور. لكنه منذ اليوم الذي حل فيه مكان بارليف كقائد للأركان في الأول من كانون الثاني 1972، كان يعتبر الحرب واردة جداً في السنتين القادمتين. ولهذا كان منفتحاً أكثر من عيزرا باتجاه تغيير تقييمه بناءً على المعلومات الجديدة الواردة.

كان لهذا الاختلاف في الرأي نتائج دراماتيكية. ففي صيف 1972، وقبل أن يقرر السادات شن الحرب، كانت الاستخبارات العسكرية تتوقع من المصريين ألّا يصلوا إلى الاستنتاج بأنهم يمتلكون التسليح اللازم للذهاب إلى الحرب قبل نيسان 1973. وفي الوقت نفسه كانت الاستخبارات العسكرية منفتحة على احتمال أن يجد السادات ضرورة لاتخاذ خطوات عسكرية من دون الحصول أولاً على المعدات وذلك من أجل الضغط لإحراز تقدم على المسار الدبلوماسي. لكن حين بدأت تتدفق من مصادر موثوقة معلومات تؤكد فعلاً أن عامل الوقت قد أصبح ضاغطاً فعلاً على السادات، بدأت تقديرات الاستخبارات العسكرية بشأن احتمال وقوع الحرب على المدى القريب تتراجع بدلاً من أن تتقدم. في العشرين من كانون الثاني 1973، بعد ستة أسابيع تقريباً على اجتماع مطبخ غولدا مائير الوزاري، أصدر مركز أبحاث الاستخبارات العسكرية تقييمه الاستخباراتي نصف السنوي، وفيه أعلن أن احتمال وقوع الحرب كان «أبعد بكثير من أي وقت مضى»[8]. كان ذلك قائماً بغالبيته على قناعة بأن تنحية فرقة الدفاع الجوي السوفييتي في تـ وز 1972 قد أضعف مصر بدرجة كبيرة، مع أن مروان كان قد قال عكس ذلك. في الواقع، من الصعب أن نتجاهل

الإسرائيلية.

أما إلعازر فقد كان بالمقابل متأثراً أكثر بكثير بتحذيرات الملاك الأخيرة. كان قد تولى منصبه بعد قرابة عام ونصف العام من انتهاء حرب الاستنزاف وعلى خلفية هدوء نسبي على كل الجبهات. وبنتيجة ذلك كان يتعرض لضغط هائل من أجل تخفيض ميزانية الجيش. كانت الحكومة تحاول الدفع باتجاه أجندة اجتماعية جديدة، وتحويل الموارد نحو استيعاب عشرات آلاف المهاجرين الجدد الذين بدأوا يصلون من الاتحاد السوفييتي، وحل مشكلة سوء المعاملة التي أدت إلى قيام يهود السفارديم «الفهود السود»، تيمناً بالحركة الأمريكية التي تحمل الاسم نفسه، بمظاهرات احتجاجية. إن الحدود الهادئة والشعور العام بعدم وجود حرب في المستقبل القريب، ممزوجاً بقناعة مفادها أن تفوق الجيش الإسرائيلي يجعله قادراً على صد أي هجوم – جميع تلك العوامل دفعت، بحسب اعتقاد القادة الإسرائيليين، نحو تغيير أولويات الخزينة العامة. فبدأ تخفيض النفقات في العام 1970 وكان يُهدد بالتعمق أكثر.

أما إلعازر فكان يرى في الهجوم المصري في عهده احتمالاً وارداً جداً، وناقش كثيراً مسألة أن تلك التخفيضات تشكل أكبر خطر على مستقبل إسرائيل. أسوء تلك الإجراءات كان خطة تهدف لتخفيض الخدمة الإلزامية لثلاثة أشهر، ما سيقلل إلى حد كبير من عدد القوات في الخدمة الفعلية، وهو أمر خطير يصعب معه الصمود أمام أي هجوم عربي إلى حين نشر قوات الاحتياط. حارب إلعازر الخطة بكل ما أوتي من قوة، مستفيداً من تحذيرات مروان لإيقافها[9]. وبالنتيجة، فقد منعت تحذيرات مروان من الوصول إلى حالة يكون فيها الجيش الإسرائيلي أقل استعداداً مما كان عليه عند وقوع الحرب في تشرين الأول التالي.

استلمت إسرائيل في بداية عام 1973 مزيداً من التقارير عن مصر، تضمن

الجيش المصري للحرب، وعن قرار السادات بطرد وزير الحربية صادق وآخرين بسبب موقفهم «المتخاذل». وتضمن التقرير أيضاً تصحيحاً للأوامر التي تلقاها وزير الحربية الجديد، إسماعيل، بإعداد خطة لعبور القناة باستخدام فرق مشاة تتبعها لاحقاً الدبابات (خطة جرانيت 2 المعدلة)، وتفاصيل عن الموجة الجديدة من تدريبات الجيش المصري لعبور القناة.

جاءت مجموعة ثانية من التقارير من أشرف مروان. في 17 كانون الثاني، أشار إلى أوامر أعطاها السادات للجيش ليستعد للهجوم دون انتظار الأسلحة الجديدة، وأشار في الوقت نفسه إلى حقيقة أن مصر لا تخطط للعبور بطريقة عادية بل تفضل البدء بعمليات ساكنة تتضمن عمليات مغاوير وطلعات جوية في سيناء، بالإضافة إلى هجوم جوي على العمق الإسرائيلي. وبحسب ما قاله مروان بنفسه، سيبدأ التمهيد المصري في أيار 1973 وسيتم بالتنسيق مع سوريا.

كان من المفترض أن تؤدي تلك التقارير أيضاً إلى تقوية القناعة بأن السادات قد غيَّر رأيه بشأن الهجوم على إسرائيل، لكنها كالعادة كانت لا تلقى آذاناً صاغية في شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية. وفي دراسة تمت كتابتها رداً على تقرير مروان في 17 كانون الثاني، كتب رئيس الفرع 6 (مصر) في شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية، العقيد يوناح باندمان، «إنها لا تبرهن على قرار اتخذه السادات بفتح النار في الأشهر القادمة؛ والأهم من ذلك أن القرار لا يعكس أي خطة عملياتية من أي نوع». من وجهة نظر باندمان، كانت تقارير مروان مجرد انعكاس للتخيلات المصرية، في محاولة لخلق جو متأزم من أجل تحريك الجهود الدبلوماسية؛ وكذلك الأمر بالنسبة إلى التدريبات العسكرية، فقد تم تفسيرها بشكل خاطئ على أنها عدائية فقط بسبب حالة التوتر التي يعيشها النظام، وهي بحد ذاتها خطوة مدروسة للضغط على إسرائيل[10]. رد فعل باندمان الرافض لأي تقرير يتعارض مع التصور المُحدَّث

لندن أو إسرائيل، لم يلتقطها مطلقاً.

استمرت الاستعدادات المصرية للحرب على قدم وساق خلال الأشهر الأولى من عام 1972. وبالإضافة لوضع الخطط وإجراء التدريبات، بدأت مصر الآن تستلم سيلاً من الأسلحة من الاتحاد السوفييتي، منها بطاريات صواريخ SA-3 وSA-6 أرض – جو، صواريخ مضادة للطائرات محمولة على الكتف من نوع SA-7 ستريلا، طائرات مقاتلة من نوع سوخوي Su-17، دبابات T-62، صواريخ مضادة للدروع محمولة على الكتف من نوع ساغر، أسلحة مدفعية إضافية، وتجهيزات لإقامة الجسور. وفي الوقت نفسه كانت مصر قد بدأت تستلم طائرات غربية ساهمت في تحسين، إذا لم نقل بشكل دراماتيكي، قدرتها على شن هجمات في عمق الأراضي الإسرائيلية. من بينها طائرة هوكر هنتر بريطانية الصنع من العراق، وهي طائرة قديمة نسبياً لكنها أعطت مصر دفعة معنوية جيدة. كما بدأوا أيضاً يستلمون طائرات ميراج الجديدة التي اشترتها ليبيا من فرنسا، وخلال شهري آذار ونيسان استلمت مصر ثماني عشرة طائرة، معظمها من نوع IIIE الذي يتميز بمدى بعيد يكفي لمهاجمة القواعد الجوية الإسرائيلية[11]. كل ذلك لم يكن كافياً لتحييد التفوق الجوي الإسرائيلي بأكمله، لكن تزايد تلك الطائرات مع تخفيض الأهداف التي وضعتها مصر من الحرب أعطى شعوراً أفضل من أي وقت مضى تجاه هشاشة القوى الأرضية المصرية أمام الهجمات الجوية.

بالتوازي مع ذلك، كانت الاستعدادات للحرب تتصاعد. عقد السادات سلسلة من الاجتماعات مع قادة حزبه الاشتراكي ومع الوزارة، أوضح فيها أن الجمود الدبلوماسي الحالي لم يترك أمامهم سوى خيار الذهاب إلى الحرب، وذلك من أجل «كسر وقف إطلاق النار». ومع اقتراب الربيع، اقتنع المصريون، للمرة الأولى منذ انتهاء حرب الاستنزاف، أنهم جاهزون للانقضاض على الجيش الإسرائيلي.

الظروف المواتية – كأن تكون التيارات المائية في القناة في حدها الأدنى والمد والجزر في وضع مناسب، قوة ضوء القمر، والتواريخ التي ستكون الأصعب على الجيش الإسرائيلي لتنظيم استجابة فعالة وسريعة، وأقرب تلك التواريخ كان في منتصف أيار. في الخامس من نيسان، التقى السادات مع وزارته وشرح لهم الظروف الموضوعية الكامنة وراء قراره الذهاب إلى الحرب. وافقت الحكومة على القرار بالإجماع، وبعد أيام عدة أصبحت الاستعدادات علنية. بدأت إذاعة القاهرة تبث الأغاني الوطنية، وبدأت الحكومة تجتمع في المركز 10، غرفة العمليات تحت الأرض، وأصدرت نداءً للتطوع في «المقاومة الشعبية» إذا ما قام الجيش الإسرائيلي باحتلال مناطق واقعة غرب القناة.

لكن جميع تلك التحضيرات اصطدمت بالأرض بمجرد دخول السوريين إلى المشهد. في 32 نيسان، وصل الرئيس السوري حافظ الأسد إلى مصر وعقد مع السادات اجتماعاً سرياً دام يومين في برج العرب على شاطئ البحر المتوسط. طرح المصريون خطة جرانيت 2 المعدلة، التي تضمنت هجوماً مدرعاً للإمساك بممري متلا والجدي. أما عبور قناة السويس فطُرِح كخطوة أولى نحو استعادة كامل سيناء. ومن جهتهم قدَّم السوريون خططهم لتحرير مرتفعات الجولان. وبالرغم من اتفاق الجانبين على تنسيق هجومهما، لم يكن الأسد راغباً في الضغط على الزناد: إذ لم تكن مصر وسوريا مقتنعتين بأنهما جاهزتان للحرب. المشكلة المركزية، بحسب قول الأسد، كانت افتقار سوريا لبطاريات صواريخ أرض – جو لحماية قواتها الأرضية من الهجوم الأرضي. فاتفق الرئيسان على تأجيل العملية برمتها حتى أواخر الصيف. وبعد بضعة أيام سافر الأسد إلى موسكو، حيث وقَّع هناك اتفاقية تسليح ضخمة؛ وفي غضون أسابيع، بدأت الأسلحة الجديدة تتدفق على دمشق.

لم تكن التطورات لتمضي دون علم الاستخبارات الإسرائيلية. فمنذ بداية آذار،

وأن مصر كانت تنسق مع سوريا[12]. والآن، وقد أصبحت خطط الحرب جاهزة وتم تحديد مواعيد لها، أصبحت تحركات الاستخبارات حثيثة أكثر.

لم يكن أشرف مروان المصدر الوحيد الذي يزود إسرائيل بالمعلومات، لكنه كان المصدر الأهم. في الحادي عشر من نيسان، سرد لدوبي رواية مفصلة عن نوايا مصر لشن حرب في أواسط أيار، وقال إن الحركة الافتتاحية ستكون بوابل من القصف المدفعي يستمر لمدة ثمانٍ وثلاثين دقيقة من أجل إضعاف الدفاعات الإسرائيلية على الجبهة الأمامية، وبالتزامن مع ذلك تقوم 178 طائرة بمهاجمة المواقع العسكرية والمدنية (تحديداً حقول النفط) في سيناء، بينما تقوم 40 طائرة ميراج بمهاجمة أهداف في العمق الإسرائيلي. وبعد هذا التمهيد، تبدأ خمس فرق مشاة متمركزة على طول القناة بالعبور من خمس نقاط مختلفة. المصريون سيستفيدون من غطاء الليل ليصعِّبوا على سلاح الجو الإسرائيلي الرد بفعالية حين تبدأ مصر بمد الجسور عبر القناة ونقل أكبر عدد ممكن من مشاتها إلى الضفة الشرقية. قوات المشاة ستكون مزودة بمئات صواريخ ساغر المضادة للدروع من أجل التعامل مع المدرعات الإسرائيلية، وستقوم البحرية المصرية في الوقت نفسه بنشر ألغام بحرية ومدمرتين لإغلاق مضيق باب المندب، حيث يلتقي البحر الأحمر والمحيط الهندي، لمنع الحركة التجارية من الوصول إلى إسرائيل. لكن قبل الهجوم، ستقوم مصر بتخفيض ضخ النفط من حقل مورغان الواقع غرب خليج السويس، وفي النهاية توقفه بالكامل، مخافة أن تقوم إسرائيل بمهاجمة الحقل وتفجيره.

بعد ستة أشهر من ذلك، وفي السادس من تشرين الأول 1973، قامت مصر فعلاً بالهجوم. بعد ثمانٍ وثلاثين دقيقة من القصف، قامت خمس فرق مشاة بعبور القناة من النقاط المحددة تحت جنح الظلام لمد الجسور وإرسال القوات. كان المشاة يحملون صواريخ ساغر وقاموا بتدمير الدبابات الإسرائيلية، التي لم تكن قد اتخذت

باستثناء محاولة وحيدة لإطلاق صاروخي كيلت على تل أبيب من قاذفة Tu-16. هذا التغيير في الخطط نتج على الأرجح من حقيقة أنهم لم يستطيعوا تحريك سوى خمس وعشرين طائرة ميراج بدلاً من العدد أربعين الذي كان مقرراً، وهكذا تم تحويلها للهجوم على سيناء.

المقصود من ذلك هو أن جميع التفاصيل تقريباً التي أعطاها مروان للإسرائيليين في الحادي عشر من نيسان تم فعلاً تنفيذها من قبل المصريين في السادس من تشرين الأول.

لكن في غضون ذلك كانت قد وردت معلومات تؤكد تقديرات مروان بوقوع الهجوم في منتصف أيار، وبعض تلك المصادر ذكر التاسع عشر من أيار بالتحديد، مع تفسير الاعتبارات المصرية. لكن مروان أظهر تفوقه اللافت كمصدر للاستخبارات حين قال في أوائل أيار (أي بعد أسبوع من القرار المشترك الذي اتخذه السادات والأسد بتأجيل الهجوم) بأن موعد الهجوم قد تأجل وأنه أصبح الآن أقرب إلى أواخر أيار أو أوائل حزيران. وبعد ثلاثة أسابيع، أعلم دوبي بالتأجيل لمدة أطول، بحدود شهر. وبحسب تقريره، فقد ضغط السوفييت بشكل خاص على سوريا لوقف الهجوم لأنه قد يتسبب بأزمة تسبق القمة المرتقبة بين الرئيسين نيكسون وبريجنيف ما بين 18 و25 حزيران في الولايات المتحدة. وأضاف مروان أن المصريين يأملون إلى حد ما بأن تؤدي القمة إلى إحراز تقدم على الجبهة الدبلوماسية، ما يجعل الحرب غير ضرورية[13]. وهنا أيضاً كانت هناك مصادر أخرى تؤكد معلومات مروان.

علاوة على ذلك، كان مروان أيضاً أحد مصادر الإسرائيليين الرئيسة بخصوص الخطط السورية للحرب. في المركز، تستعد ثلاث فرق مشاة للتقدم، تحت جنح الظلام، مسافة عشرة كيلومترات إلى مرتفعات الجولان. في فجر اليوم التالي، ستندفع الفرقة المدرعة الثالثة السورية باتجاه الغرب إلى حدود عام 1967 بهدف

تــم فــي آخر لحظة التوصل إلى تسوية تحدد ساعة الصفر عند الثانيـة عصراً. لكن الهجـوم المـدرع في حرب تشـرين تم بواسـطة فرقتين مدرعتين عوضـاً عن واحدة، لأن السـوريين أضافوا فرقة مدرعة أخرى. وباسـتثناء هذه التعديلات، كانت الهجوم السوري في تشرين الأول مطابقاً لما وصفه مروان في نيسان.

المعلومات التي استمرت في التوارد عن المناورات المصرية والسـورية كانت تؤكـد التقاريـر التـي كانت تقول إن السـادات يخطـط فعلاً للهجوم فـي 19 أيار لكنه عدَّل المسار بعد لقائه بالأسد. الجيش المصري بدأ بحشد قواته في منطقة القناة في آذار، وفي بداية نيسان أظهرت صورة ملتقطة بواسطة طيران الاستطلاع أن عدد قطع المدفعيـة المتمركـزة عنـد الجبهة أكبر من أي وقت مضى. في أواخر نيسـان، أبلغت الاستخبارات العسكرية أن الجيش الثالث، المسؤول عن القطاع الجنوبي على جبهة القناة، كان يستعد لمشروع تدريبي مهم من 20 حتى 24 أيار؛ وفي الوقت نفسه أو قبله بقليل، سيتم إجراء تدريب عسكري لقوات مشتركة تحت إشراف البحرية. التدريبات فـي العـادة تكون غطاءً لهجوم حقيقي، وقد توقعت الاسـتخبارات العسـكرية خلال تمريـن كهـذا أن يقـوم المصريون برفع مسـتوى التأهب، ودفع قواتهـم نحو الجبهة، وإلغـاء إجـازات الضباط، واتخـاذ بقية الاحتياطات الأمنية، وهي الإجراءات نفسـها المتخذة في ظروف الحرب الفعلية. في أوائل أيار، أبلغت الاسـتخبارات العسـكرية عـن اسـتدعاء قـوات الاحتياط فـي جميع وحـدات الجيش المصـري. وأبلغ مروان في الوقت نفسـه تقريباً عن تحركات ضخمة للقوات تتضمن الفرقتين الميكانيكيتين السادسة والثالثة والعشرين باتجاه القناة. ثم، بعد قرابة أسبوع من اتخاذ القرار بتأجيل الحرب، بدأت الإشارات تنحسر. ووصلت الأخبار خلال الأسبوع الثاني من أيار أن الفرق التي كانت تسـتعد لمغادرة القاهرة والتوجه إلى القناة قد تم الاسـتبقاء عليها، ولا توجد على امتداد القناة أي إشارات تدل على انتشار القوات بالشكل الذي كانت

استعدادات ضخمة للحرب، لم يقم الجيش السوري بتعزيزاته المنتظمة التي كان يقوم بها على جبهته مع بداية الربيع، بل أنه بدأ يخفف من انتشاره.

من كل هذا، اتضح أن الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية قد حصلت خلال شهري نيسان وأيار على كل المعلومات التي تحتاجها كي تعرف تماماً ما كان يجري على الجانب العربي وما أسبابه.

برغم كل ذلك، كانت الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية تخطئ دائماً في تقييماتها، إذ كانت تستبعد على الدوام احتمال أن تكون سوريا ومصر قد أصبحتا جاهزتين للحرب. وفي 11 أيار، وزَّعت الاستخبارات العسكرية دراسة كان من المفترض فيها أن تكون لتقييم احتمال وقوع الحرب، لكنها بدلاً من ذلك تجاهلت ببساطة التحذيرات المتعددة وانساقت من دون طرفة عين وراء الاعتقاد بأن مصر لن تهاجم أبداً قبل أن تؤمِّن أولاً القاذفات المقاتلة بعيدة المدى وصواريخ سكود. ذكر التقرير أيضاً وصول ثماني عشرة طائرة ميراج، وأسماها «خطوة مهمة» يمكن أن تؤدي إلى تغيير في المقاربة المصرية، لكنه أضاف بعد ذلك أنه «يُشَك في أن تؤدي هذه الإضافة إلى إعطاء القيادة المصرية الانطباع الخاطئ بأن مصر قادرة على الصمود وحدها في أي مواجهة جوية في الصراع مع إسرائيل»[14]. ومرة أخرى، لم تكن لدى المحللين في شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية، وخاصة رئيس الفرع 6 (مصر)، المقدَّم باندمان، الذي كان متمسكاً جداً بالتصور الذي قدمه مروان أول مرة للموساد، نية للانتباه إلى العدد الكبير من المؤشرات، بما فيها تلك التي قدَّمها مروان نفسه، والتي تؤكد أن هذا التصور لم يعد واقعياً. وحين كانوا لا يجدون مفراً من التعامل مع التحذيرات التي تصل من أفضل المصادر في مصر، كان أولئك الضباط يختارون التفسير الذي يسمح لهم بالإبقاء على التصور نفسه. فكانت التدريبات التي تجريها مصر تُفسَّر على أنها دعاية داخلية «تهدف إلى إعطاء مصداقية للتصريحات

عدائياً من طرف مصر بل ويضع مواعيد محددة»، كان يتم تجاهلها باعتبارها نابعة «من جو من التحضيرات لصراع شامل» تُعدُّ مصر نفسها له. بعد سنوات، اعترف باندمان بأنه لم يكن يصدق مصادر الموساد، معتقداً أنها ببساطة قد أخطأت في تفسير الاستعدادات للتدريب على أنها استعدادات للحرب[15].

مع ذلك، لا يزال غير واضح حتى الآن حجم الانطباع الذي تركه كل ذلك على صانعي القرار الإسرائيليين. في الثامن عشر من نيسان، بعد ورود أحد تحذيرات مروان، جمعت غولدا مائير مطبخها الوزاري في مقر إقامتها، بناءً على طلب رئيس الموساد، الذي انتابه القلق من الدليل الذي تجمَّع لدى وكالته. كان الهدف من الاجتماع تقييم مدى احتمالية وقوع الحرب وكيفية الاستعداد لها. ولهذا السبب شارك زامير أيضاً، بالرغم من أن وكالته ليس لها أي دور رسمي في وضع التقييمات الاستخباراتية العامة.

كان جميع المشاركين متفقون حيال ما يرد في تقارير خوتيل. وباستثناء رئيس الاستخبارات العسكرية عيزرا، كان تقييمهم جميعاً هو أن مصر ماضية باتجاه الحرب، وربما في الأشهر المقبلة. «أعتقد أنهم ماضون إلى الحرب»، قال وزير الحربية دايان، بنبرة هادئة. من الواضح أنه لم يعد متمسكاً جداً بالتصور وأنه يركز أكثر على المعضلة السياسية التي يواجهها السادات والتي قد تجبره على الهجوم قبل أن يصبح جيشه جاهزاً. وقال قائد أركان الجيش، إلعازر، «هناك منطق داخلي يفضل الحرب... ويمكن أن يطوروا تصوراً [جديداً] تصبح الحرب بموجبه مخرجاً بالنسبة إليهم». أما زامير فقد شدد على حقيقة أن الظروف قد نضجت في أذهان المصريين باتجاه الهجوم. واعتبر أن وصول طائرات الميراج كان تطوراً مهماً، وأن المصريين يتوقعون، ربما بناءً على تقارير تصله من مروان، وصول مزيد من تلك الطائرات؛ وأنهم سيصلون في مرحلة ما إلى عددٍ حاسمٍ يتيح لهم مهاجمة القواعد

الصيغة أكثر مرونة بكثير من صيغة نظرائه في الاستخبارات العسكرية. تحدَّث زامير عن امتلاك مصر صواريخ سام أحدث، وتجهيزات جديدة لمد الجسور، وأنظمة إلكترونية جديدة، وتحسين دفاعاتهم على الجبهة الداخلية، وأن ذلك كله يمكن أن يجعل الحرب واقعية أكثر برأي السادات، وأضاف بهدوء أنه مقتنع بأن الحرب آتية.

هذا الرأي يتباين بشدة مع تقييم إيلي عيزرا. فرئيس الاستخبارات العسكرية كان يرفض احتمال أن يقوم السادات، ضمن الظروف الحالية، بشن حرب. لقد تجاهل التحذيرات وركَّز فقط على التحضيرات الفعلية للقتال. ومع أنه اعترف أن «هذه المرة توجد إشارات على تحضيرات حقيقية أكثر مما كان عليه الأمر في إحالة تشرين الثاني - كانون الأول 1972»، لكنه عاد وتراجع بسرعة قائلاً إن أي «تحليل منطقي للوضع سوف يُبيِّن أنه من الخطأ الاعتقاد بأن مصر ذاهبة إلى الحرب». كان مستعداً لقبول احتمال اقتراف خطأ من قبل المصريين، ولهذا أوضح أن الاستخبارات العسكرية ستستمر في البحث عن مؤشرات إضافية. وأنهى كلامه بالقول: «الحقيقة إننا نرى مؤشرات أكثر على أن نوايا [السادات] لا تتعدى التخطيط للذهاب إلى الحرب، لكن ما زال مبكراً جداً إثبات ذلك». لكن إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن تلك الكلمات قيلت على ضوء التحضيرات المصرية الكبيرة للحرب، حين كانت التقارير التي تتحدث عن تعزيزات في صفوف المصريين على جبهة القناة تتدفق إلى الاستخبارات العسكرية، وفي الوقت الذي كانت فيه أفضل المصادر الاستخباراتية لدى إسرائيل تُحذر من نية السادات شن الحرب خلال شهر، نجد أن تقييم عيزرا حينها كان بعيداً عن الواقع.

في النقاش الذي تلا ذلك، كانت رئيسة الوزراء، وأيضاً مستشارها غاليلي، ميالين إلى فكرة وجود احتمال حقيقي في شن هجوم مشترك من قبل المصريين والسوريين في الأشهر القادمة؛ وقد حصل إجماع على هذه الفكرة[16]. في اليوم التالي، أمر

من الآن فصاعداً انطلاقاً من فرضية أن المصريين والسوريين (لكن ليس الأردنيين) قد يقومون خلال الصيف بشن حرب على إسرائيل. «استعدوا للصيف»، قال دايان لقادة الجيش. «سوف يبدأ بعد شهر من الآن». كان ذلك بداية ما أصبح يُعرَف باسم استنفار أزرق-أبيض، الذي تضمن تعزيزاً سريعاً للقوات وتحضيرات لحرب ستقع في غضون أشهر[17].

كان استنفار أزرق - أبيض فعالاً. مع أنه، بخلاف الاعتقاد الشائع في إسرائيل، لم يتضمن استدعاءً واسعاً لقوات الاحتياط، لكنه تضمن تمركزاً على الجبهتين الشمالية والجنوبية لما مجموعه 515 دبابة، أي تأهب كامل للجيش الإسرائيلي، لكن بدون قوات الاحتياط. صحيح أنه تم خلال الأسبوعين القريبين من ذكرى إعلان قيام دولة إسرائيل استدعاء لوائي دبابات احتياطيين لإراحة الألوية المشاركة في الاستعراضات، لكن باستثناء ذلك تم صرف الجزء الأكبر من الميزانية الإضافية المخصصة لاستنفار أزرق - أبيض والبالغة حوالى 35 مليون دولار على بناء وحدات عسكرية جديدة من بينها فرقة مدرعة ومقرات لفرقة أخرى، وتدعيم كتائب الدبابات والمدفعية والاستطلاع، وإعادة تموضع مستودعات الطوارئ قريباً من خطوط الجبهة، وتطوير أنظمة الجسور لتمكين الجيش الإسرائيلي من عبور قناة السويس بسرعة، والكثير من التحسينات الأخرى. «بفضل استنفار أزرق-أبيض»، كتب قائد هيئة عمليات الجيش الإسرائيلي خلال حرب أكتوبر، اللواء إسرائيل تال، «كان الجيش الذي دخل الحرب أقوى بكثير مما كان يُخَطط له لحرب أكتوبر 1973 وفق خطط العمل الاعتيادية. بل إن هذا الجيش كان أكثر فعالية مما كان يُخَطط له لعامي 1974 و1975».

في الحقيقة، لم تكن تأثيرات الفترة ما بين نيسان وأيار 1973 واستنفار أزرق-أبيض على الجاهزية النهائية للجيش الإسرائيلي في تشرين الأول 1973 بالوضوح

انتهت رسمياً في 12 آب جعلت القادة الإسرائيليين يسترخون ويدخلون في حالة من اللامبالاة. وراح ينمو موقف إيلي عيزرا، ويوناح باندمان، وأرييه شاليف، وباقي ضباط الاستخبارات العسكرية الذين كانوا يقولون طوال الوقت إن مصر لن تهاجم. وتراجعت أمامه تقديرات قائد هيئة أركان الجيش ووزير الدفاع، التي كانت تقول إن الحرب ستندلع في الصيف. وكان لذلك كبير الأثر على دايان، الذي انتقل في الفترة ما بين حزيران وتموز من الاعتقاد بأن الحرب وشيكة إلى التفكير بأنها لن تقع خلال عقد، وحتى بدون اتفاق سلام. وباقتراب تشرين الأول، كان تأثير «الذئب الباكي» على أوساط الاستخبارات قد سقط. وربما يكون ذلك قد أدى إلى ضياع كل المكاسب التي تم تحقيقها من التحسينات على جاهزية الجيش الإسرائيلي.

لكن يظل الأمر الأكثر وضوحاً هو مساهمة أشرف مروان في جميع هذه الأحداث. فهو المصدر الرئيسي للتحذيرات بوقوع هجوم وشيك في أيار، حين كانت مصر تخطط فعلاً للهجوم، وكان أيضاً أول من أخبر إسرائيل بإلغائه. هو أيضاً من قدَّم لإسرائيل تفاصيل خطتي جرانيت 2 المعدلة والمآذن العالية، وأيضاً الخطط السورية للهجوم. كان يعطي إسرائيل تحديثات مستمرة عن طائرات الميراج الجديدة التي تصل من ليبيا، وهي عملية أشرفَ بنفسه عليها. وعلاوة على ذلك كله، كان هو من قال لإسرائيل ما هي الأمور التي يجب عليها أن تتوقعها من الهجوم المصري. ربما تكون بعض تلك الخطوات، مثل عمليات الانتشار على طول جبهة القناة وحالات الاستنفار في مختلف قطاعات الجيش، معروفة جيداً من قبل الإسرائيليين. لكنّ هناك أموراً أخرى غيرها مثل تمركز السفن في مضيق باب المندب وإيقاف حقل مورغان النفطي، وإعطاء الاستخبارات العسكرية سلسلة من المؤشرات الواضحة والجديدة عن موعد شن الحرب. ولو أن الإسرائيليين أعاروا تلك المؤشرات مزيداً من الاهتمام في الأيام التي سبقت 6 تشرين الأول، لكانوا استطاعوا أن يعرفوا متى

حرب في الربيع. في 20 أيار، أبلغ الإسرائيليين عن صواريخ أرض - أرض مصرية جديدة يبلغ مداها 320 كيلومتراً. كانت تلك الإشارة الأولى على نية السوفييت تزويد مصر بصواريخ سكود التي كانت تطالب بها منذ فترة طويلة. وبعد أسبوعين، ذكر أن القيادة المصرية توقفت عن اعتبار الحصول على قاذفات مقاتلة بعيدة المدى شرطاً ضرورياً لشن الحرب.

«السبب الرئيسي الكامن وراء الفشل في إدراك تغيير مصر لأهدافها من الحرب»، قال عيزرا بعد خمس وثلاثين عاماً من الحرب، «كان فشلاً في جمع المعلومات الاستخباراتية. إذ لم يقدم جامعو الاستخبارات أي معلومات بهذا الشأن. أنا لا أذكر ولا حتى تقريراً واحداً من أي مصدر عن هذا التحول. لا أذكر ولا حتى تقريراً واحداً يلمح ولو مجرد تلميح لإمكانية حدوث تغيير كهذا في أهداف الحرب»[18].

إنها لصورة ضبابية. فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار حقيقة أن إيلي عيزرا كان يتلقى بنفسه تقارير خوتيل التي تُفصّل جميع المعلومات التي كان مروان يقدمها، بما في ذلك تفاصيل الخطط الحربية، فهذا يعني أنه كان يعرف تمام المعرفة أن جامعي المعلومات قد رأوها كلها وأوردوها كلها في التقارير.

السبب الحقيقي للفشل الإسرائيلي إذاً كان عدم المرونة في التعامل مع التصور من جهة المختصين في تقييم الاستخبارات في إسرائيل، وعلى رأسهم عيزرا نفسه، بالرغم من كل المعلومات التي كانت بين أيديهم على امتداد عام كامل، والتي كانت تشير بشكل لا لبس فيه إلى عدم تطابقه مع الواقع. وهكذا ظلوا متمسكين بالتصور واستمروا على قناعتهم به حتى صباح السادس من تشرين الأول.

في ذلك اليوم، الذي التجأ فيه مئات آلاف الإسرائيليين الذين شكلوا نواة الجيش الاحتياطي إلى الصوم والصلاة في دور عبادتهم في بلداتهم، كان الأشخاص الذين من المفترض أنهم يعتمدون عليهم لإعلان النفير في حالة الحرب يغطّون في النوم.

الفصل الثامن

التحضيرات النهائية وفاصل في روما

أصبح استنفار أزرق - أبيض الذي أعلنه الجيش الإسرائيلي في 17 أيار ساري المفعول مباشرة مع بلوغ حركة مد وجزر المؤشرات بشأن الحرب الوشيكة ذروتها. أوجد تقرير مروان عن تأخير موعد الهجوم لما بعد شهرين على الأقل شعوراً، بين بعض صانعي القرار الإسرائيليين، بأن إسرائيل ربما تسرعت قليلاً حين راحت تتهيأ لحرب لن تحصل أبداً. وكان الرجل الذي عبر عن هذا الموقف بأوضح صورة هو وزير الدفاع موشيه دايان. في 21 أيار أصدر أوامره للجيش بالاستعداد لحرب ستبدأ على الأرجح «في النصف الثاني من هذا الصيف... بمبادرة... من مصر وسوريا»[1]. لكنه بعد شهرين، في مقابلة مع مجلة التايم، أكد أننا «في السنوات العشر القادمة... سنرى الحدود متجمدة عند الخط الحالي، لكن لن تكون هناك حرب كبيرة»[2].

لم تكن الاستدارة الكبيرة لوزير الدفاع الإسرائيلي متناسبة أبداً مع ما كان يحصل فعلاً في مصر وسوريا. مع أن السادات خفَّض من نبرته في الكلام، وكان الجو العام في مصر أقل عدائية، لكن مصر كانت مع ذلك لا تزال تتسلح، وتنشر أسلحة جديدة، وتجري تدريبات عسكرية. وفي صفقة أسلحة ضخمة تمت في آذار 1973 وسُلِّمت في الصيف، حصلت مصر على سرب من طائرات ميغ 21، وصواريخ SA-6 أرض - جو تكفي للواء كامل، وناقلات جنود مدرعة، وصواريخ مضادة للطائرات من نوع ساغر المحمولة على الكتف، وقطع مدفعية تتضمن مدافع من عيار 180 ميليمتراً قادرة على دك التحصينات على طول خط بارليف. وبعدها كانت صواريخ سكود،

للإسرائيليين، استلمت القوى الجوية المصرية طائرات الميراج من فرنسا عبر ليبيا، وكانت تلك الطائرات بالإضافة إلى صواريخ كيلت المحمولة على قاذفات Tu-16، كافية لجعل الهجوم على عمق الأراضي الإسرائيلية ممكناً جداً.

في الوقت ذاته، كانت مصر تسارع في تحضيراتها لعبور القناة. وأتاح تأخير موعد الحرب لمصر بإنهاء إعداد قوات المهام الخاصة الخمس، التي تضم كل واحدة منها 144 قارباً هجومياً، لنقل 32000 جندي إلى الضفة الشرقية، بحيث تمسك برؤوس الكباري لحين إكمال الجسور. كانت فرق المشاة الخمس قد تدربت على دفع القوارب إلى الماء، والركوب فيها، واستخدام المجاديف أو المحركات الخارجية للعبور، والتموضع بسرعة على الجانب الإسرائيلي. أما طواقم الدبابات، وناقلات الجند المدرعة، وعربات الهجوم البرمائية فتقوم بالحفر. وتتموضع فرق الدفاع الجوي عند القناة لتؤمِّن للقوات الأرضية الحماية التي ستحتاجها من الهجمات الجوية.

على جبهة إسرائيل الشمالية كانت التحضيرات قد دخلت طوراً متقدماً أيضاً، واتخذ الجيش السوري وضعية هجومية حتى قبل أن تفعل مصر. الجيش السوري، الذي قام مع بداية الربيع بنقل وحدات من خط الجبهة على مرتفعات الجولان إلى الجبهة الداخلية من أجل إجراء تدريبات على الحرب، أعادها ثانية إلى الخطوط الأمامية في أواخر الصيف. واستطاعت إسرائيل من خلال الرصد من جبل حرمون، وطلعات الاستطلاع، والتنصت على اتصالات السوريين أن تتابع تحركات القوات من نشر لبطاريات المدفعية، والاستنفار الكبير للقوى الجوية، وحركة الدبابات المرافقة لثلاث فرق مشاة مُعدَّة لاختراق الدفاعات الإسرائيلية في الجولان. واجه خبراء الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية صعوبة في تفسير التحركات السورية، لأن السوريين كانوا في الأحوال الاعتيادية يتراجعون عن انتشارهم على الجبهة مع

السوري بإجراء تعزيزات كبيرة على طول الجبهة في الوقت الذي من المفترض فيه أن يتراجع إلى الوراء.

في الوقت ذاته كان السوريون قد بدأوا يستلمون شحنات ضخمة من الأسلحة السوفييتية المتطورة، وخاصة بطاريات صواريخ SA-6 المضادة للطائرات. والطريقة التي قاموا بنشرها وفقها كانت يجب أن تثير قلق الإسرائيليين، فهم لم يكتفوا بنشر البطاريات متقاربة جداً في بعض الحالات - وخاصة على خط الجبهة - بل وأيضاً بكثافة أكبر من أي شيء وضعه المصريون عند قناة السويس؛ كما أنهم نشروا البطاريات على طول الحدود، بحيث تنشر مظلتها فوق كامل مرتفعات الجولان. وكان ذلك على حساب الدفاع بفعالية عن دمشق والأهداف الاستراتيجية الأخرى في سوريا. هذه الطريقة غير الاعتيادية في نشر الصواريخ لم تخفَ على الاستخبارات الإسرائيلية، لكن الرأي الذي طرحته شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية واستخبارات القوى الجوية الإسرائيلية استبعد احتمال أن تهاجم سوريا من دون مشاركة مصر، وبالتالي فإن هذا الانتشار لا بد أن يكون ذا طبيعة دفاعية.

مع كل يوم يمر كانت الحاجة تكبر للتنسيق بين مصر وسوريا في ما يتعلق بالتفاصيل النهائية قبل أن يبدأ الهجوم. السؤال الأول الأكثر أهمية كان عن الموعد الفعلي للهجوم. في 22 و23 آب، حين كانت التعزيزات السورية على قدم وساق، التقى قائدا جيشي البلدين سراً لإنهاء خطط الهجوم. كان المخططون الأوائل قد حصروا الخيارات في بضعة مواعيد تحقق الظروف المثالية. وحين التقى القائدان الآن، في مقر البحرية المصرية في الإسكندرية، ضيقوها أكثر لتنحصر في فترتين هما من 7 حتى 11 أيلول ومن 5 حتى 10 تشرين الأول. قدّما تقريرهما لرئيسيهما، وفي 12 أيلول، خلال زيارة قام بها الأسد إلى القاهرة، تم الاتفاق على أن يكون موعد الهجوم، الذي أصبح اسمه الآن عملية بدر، في 6 تشرين الأول. وبعد عشرة أيام من

الجولان، والمزيد في الطريق. والآن بدأ الجيش المصري أيضا بتنفيذ خططه للمعركة. كان لا يزال على القادة أن يوافقوا على التوقيت الدقيق للهجوم، أو ساعة الصفر، لكن لم يتم تقرير ذلك إلا قبل حوالى اثنتين وسبعين ساعة من الهجوم.

لم يكن الإسرائيليون مطلعين على كل تفاصيل التحالف بين سوريا ومصر، لكن بفضل أشرف مروان، تمكن محللو الاستخبارات العسكرية من تكوين صورة – ولو جزئية – عما كان يدور في مصر، وهي كانت تشير إلى أن المصريين يحضّرون لهجوم وشيك. في النصف الأول من الصيف، أبلغت مصادر عدة أن مصر ستهاجم في حزيران أو تموز. لكن تلك المعلومات لم تكن دقيقة، بغض النظر من أين حصلوا عليها. إلا أن البعض أكدوا أنه سيتم شن الحرب في نهاية تدريب عسكري مدروس، وهو ما حدث بالفعل في تشرين الأول. أحد المصادر ذكر في 12 تموز أن الحرب ستقع إما في آب وإما في أيلول.

في 12 تموز أيضاً، أعطى أشرف مروان ما كان حتى ذلك الحين التحذير الأكثر دقة بشأن موعد الهجوم، فقد ذكر أن الرئيس السادات أخبر نظيره السوري عن نية مصر شن الحرب في أواخر أيلول أو أوائل تشرين الأول. لكن حقيقة أن تقرير أشرف مروان جاء قبل ثلاثة أشهر كاملة من اختيار الرئيسين السادات والأسد 6 تشرين الأول كموعد للهجوم تطرح بعض التساؤلات عن مدى صدقية التقرير. وعلى اعتبار أن مصر كانت قد وضعت منذ زمن ثلاثة احتمالات هي أيار، أوائل أيلول، وأواخر أيلول حتى أوائل تشرين الأول، يصبح من الوارد جداً أن تعتقد شخصيات مصرية مهمة كثيرة أن الموعد الأخير هو الأكثر ترجيحاً. ويبدو أن مروان كان ينقل ما سمعه من الآخرين.

كثّف مروان أنشطته الدبلوماسية خلال شهر آب. كان السادات يسعى لزيادة الدعم الدولي له من أجل الحرب، وبدلاً من الاعتماد على وزير خارجيته في هذه

العالم العربي، أو بسبب الدعم المالي الكبير الذي كانت المملكة قد قدمته لمصر، بل أيضاً بسبب الخطط التي كانت قد بدأت تتلاقى بعضها مع بعض في ذلك الوقت والتي تسعى للجمع ما بين قوتين توأمين هما الثروة النفطية السعودية والجيش المصري على أمل تشكيل قبضة محكمة قد تستطيع تحريك العملية الدبلوماسية. لكن ذلك كان يتطلب موافقة المملكة السعودية على الحرب. بعد أيام على القمة بين الملك فيصل والسادات، بدأ السعوديون يجمعون الخيوط العملية للمبادرة، وكانت نتيجتها أول أزمة نفطية عالمية.

المواضيع التي ناقشها الزعيمان كانت، طبعاً، في غاية السرية. وحتى أحمد زكي يماني، وزير البترول السعودي وأحد المقربين جداً من الملك، لم يكن يعرف شيئاً عما دار في النقاش. وكل ما كان الملك مستعداً لقوله لليماني عن وجوب الحذر هو أنه لن يسافر إلى الخارج لأي فترة طويلة في المستقبل القريب. الشخص الوحيد الذي حضر الاجتماع إلى جانب الزعيمين كان أشرف مروان، الذي كان يرافق السادات في جميع رحلاته إلى شبه الجزيرة العربية.

بحسب رواية مروان، شرح السادات لمستضيفه أن الحرب العظيمة، الحرب التي كان الجميع يتكلم عنها ولم تقع بعد، سيتم إعلانها «قريباً، قريباً جداً». وفي استعادة لوقائع الاجتماع، تذكّر مروان أن السادات رفض تحديد موعد دقيق. «ليس لأننا كنا نخشى أن يخبر السعوديون الأمريكان بذلك فتعرف به إسرائيل. إنما، ببساطة، لم تكن هناك حاجة لإيضاح أي شيء سوى أن الحرب في طور الإعداد»[3].

التقى مروان بمشرفه الإسرائيلي في أوائل أيلول، وأخبره بكل ما يعرفه عن القمة وعن الاجتماع الذي عُقد مؤخراً في آب بين قادة الجيشين السوري والمصري في الإسكندرية. وقال له إن السادات يتكلم دائماً عن الحرب، ومن المرجح أن يكون موعد الحرب في أواخر عام 1973. وأكد في الوقت نفسه على أن السادات هذه

أيلول 1973 كانت مسألة مختلفة، ألا وهي كيفية منع وقوع ما يوشك على أن يكون أخطر هجوم داهم في تاريخ إسرائيل.

في 21 شباط 1973، بعد يوم على الهجوم المظلي الذي نفذه الجيش الإسرائيلي على قاعدة للفلسطينيين في طرابلس بشمال لبنان، دخلت طائرة بوينغ 727 ليبية، الرحلة 414 القادمة من بنغازي إلى القاهرة، المجال الجوي فوق سيناء. فانطلقت مقاتلتان إسرائيليتان لاعتراض الطائرة، وتمكنت من الاتصال معها عند الثانية عصراً تقريباً. أرسل الطيار الإسرائيلي إشارة عالمية تطلب من الطائرة اللحاق به. كانت خطتهم إجبار الطائرة الليبية على الهبوط في قاعدة ريفيديم الجوية الإسرائيلية وسط صحراء سيناء.

ظهر الأمر في البداية وكأن الطيار الليبي يتبعهم، لكن مع اقترابهم من القاعدة الجوية، انحرفت الطائرة غرباً عائدة باتجاه قناة السويس. أبلغ طيارو المقاتلتين عن السلوك غير الاعتيادي، وعن أن سواتر النوافذ في الطائرة كانت مغلقة ما يجعل من المستحيل رؤية ما بداخل الطائرة. والطائرة الليبية تتجه الآن غرباً نحو المنطقة من قناة السويس التي تغطيها مظلة صواريخ سام المصرية، التي لا يصل مداها إلى مستوى حركة الخطوط التجارية، لكن مع ذلك، لم تطلق صواريخ سام النار. كانت منطقة سيناء بالكامل تخضع لحظر جوي على الطيران المدني منذ أن احتلتها إسرائيل عام 1967. كانت هناك تحذيرات صريحة من عمل إرهابي قد يحاول تفجير طائرة فوق تل أبيب أو هدف إسرائيلي آخر، من ضمنه المفاعل النووي في ديمونا، ولهذا لم يكن قرار قائد سلاح الجو الإسرائيلي اللواء موتي هود طلب الإذن بإسقاط الطائرة أمراً مفاجئاً. تم إيقاظ رئيس هيئة الأركان الإسرائيلي، الذي لم يكن قد نام في الليلة الفائتة بسبب العملية التي قاموا بها في لبنان، فوافق فوراً على الطلب. وبعد بضع دقائق، كان الرماد المتبقي من الطائرة يتناثر مع رمال الصحراء. قُتل 105 ركاب من

اتضح فيما بعد وجود عطل في أنظمة الاتصال في الطائرة. وظن الطيار الليبي الذي انحرف عن مساره في البداية أن المقاتلة التي تتبعه مصرية، وأن المطار الذي سيرافقه إليه هو مطار القاهرة الدولي. وحين عرف الحقيقة، أصيب بالذعر وقرر عدم اللحاق به. ونتيجة القلق من التحذيرات الإرهابية وضغط عامل الوقت عليهم، ارتكب الطيارون الإسرائيليون خطأً مأساوياً[4].

تمت إدانة إسرائيل في كل أنحاء العالم، لكن إحدى أهم العواقب المصيرية لم تكن قد وقعت بعد، وهي الانعكاس السلبي على قدرة مروان على إعطاء التحذير المسبق المناسب قبل حرب أكتوبر.

لم يستطع القائد الليبي، العقيد معمر القذافي، تجاهل الحادثة التي اعتبرها هو ومواطنوه اعتداءً غير مبَرر على طائرة ليبية مدنية مسالمة. كان اتصاله الهاتفي الأول مع الرئيس السادات، للحديث عن الانتقام. وتضمن اقتراح القذافي مهاجمة مدينة حيفا الساحلية بواسطة قاذفات ليبية، لكن السادات كان حريصاً على عدم إفساد هجومه المفاجئ على إسرائيل فحثه على التحلّي بالصبر، دون أن يكون قادراً على إعطاء مبرر. لكن القذافي لم يكن من الرجال الذين يتحلون بطول الصبر. كان محبطاً، وكان شعبه يطالب بالثأر. وصلت الاحتجاجات الشعبية ذروتها خلال جنازة الضحايا، حين أحاطت الجموع بالقنصلية المصرية في بنغازي وأطلقت غضبها على فشل السادات في حماية الطائرة وعلى رده الضعيف على الجريمة.

قرر القذافي التصرف من دون تعاون مصر. وفي 17 نيسان، استدعى قائد غواصة مصرية راسية في ليبيا تعمل ضمن البحرية الليبية بحسب معاهدة كان القذافي قد وقعها مع عبد الناصر، وأعطاه أمراً بالإبحار شرقاً في البحر المتوسط وإطلاق طوربيدات على السفينة السياحية البريطانية الملكة إيليزابيت، التي كانت في طريقها إلى ميناء أشدود وعلى متنها شخصيات مهمة متجهة إلى إسرائيل للمشاركة في

الكابتن عبر الراديو بقائده في البحرية المصرية، مطلعاً إياه على المهمة. سرعان ما وصل التقرير إلى السادات، الذي أصدر أوامره بعودة الغواصة مباشرة إلى ميناء الإسكندرية. بعد مغادرة الملكة إيليزابيت إسرائيل وعودتها إلى المياه الدولية، أخبر السادات القذافي بأن القائد لم يتمكن من تحديد موقع السفينة البريطانية.

لم يقتنع القذافي بذلك. كان إسقاط الطائرة، مصحوباً بعدم قدرته على الثأر، قد عززا داخل الديكتاتور إحساساً عميقاً بالضعف والإحباط - ودخل في حالة اكتئاب شديد، بل وحتى في أزمة شخصية. ترك العاصمة لينشد العزلة في خيمة في الصحراء. وأخبر أعضاء المجلس الثوري عن نيته بالاستقالة. ثم انقطع عنهم جميعاً. لكن المجلس الثوري رفض استقالته، وبعدها سافر القذافي إلى مصر للقاء السادات، وألح خلال الزيارة وبعدها على ضرورة توحيد البلدين. في الفترة نفسها، انطلقت مظاهرة ضخمة من طرابلس والمدن الليبية الأخرى باتجاه الحدود المصرية، ولم تُجدِ نفعاً كل المناشدات المصرية لإيقاف المظاهرة. وفي النهاية، اضطر الجيش المصري لاحتجاز 40 ألف ليبي كانوا يحاولون اجتياز الحدود، باستخدام الحواجز المتحركة وحتى الألغام الأرضية المزروعة حديثاً.

رد القذافي على ذلك كان باستنكار الموقف المصري والدعوة إلى ثورة شعبية لاستئصال الفساد والبيروقراطية في نظام السادات. فلم يجد السادات، الذي لم يكن يركز على شيء سوى الاستعداد للحرب مع إسرائيل، مفراً من التجاوب. وفي 29 آب 1973، وبعد مفاوضات مطولة، أعلن البلدان أنه سيتم في الأول من أيلول - الذكرى السنوية للثورة الليبية - توقيع وثائق لبدء عملية الاتحاد[5] كان ذلك كافياً لإعادة المياه إلى مجاريها على مستوى العلاقات المصرية الليبية في الوقت الحاضر. لكنه لم يكن كافياً ليروي ظمأ القذافي للانتقام.

في سياسات الشرق الأوسط الغربية بشكل عام، كانت أكبر مخاوف الرئيس

ولهذا فقد شدد السادات مراراً في اتصالاته مع القذافي على ضرورة أن تقوم ليبيا بالتنسيق الكامل مع مصر في أي عمل تود القيام به، سواء في التخطيط أو في التنفيذ، ووافق القذافي على مضض.

كان الرجل الذي عينه السادات لمعالجة المسألة نيابة عن الطرف المصري هو مبعوثه الخاص للشؤون الليبية، أشرف مروان.

بحسب الرؤية الأخلاقية لمعمر القذافي، فإن أنسب استجابة وفق مبدأ العين بالعين ستكون تدمير طائرة ركاب إسرائيلية في الجو، وقد قال شيئاً من هذا القبيل للسادات عند زيارته ليبيا في نيسان. حين بدأ الليبيون والمصريون يحيكون خطة الانتقام، في شهر حزيران، كان السؤال الأول هو عن المكان والطريقة المناسبين لإسقاط طائرة كهذه. وسرعان ما اتفق المخططون على مطار فيوميتشينو (ليوناردو دافنشي) الدولي في روما. كان الليبيون يعرفون روما جيداً لأنهم كانوا مستعمرين من قبل إيطاليا، وكان مطار فيوميتشينو معروفاً بضعف حمايته الأمنية، والإيطاليون كانوا معروفين بتسامحهم مع الفصائل العربية. بناءً على أوامر من مروان، سافر مسؤولان أمنيان مصريان رفيعان إلى روما لدراسة مخطط المطار، مسارات الطيران، وأفضل المواقع لمهاجمة الطائرات أثناء الإقلاع أو الهبوط. فعادوا ومعهم مخططات وخرائط، ووضعت الخطة لإسقاط طائرة ركاب من نوع بوينغ EI AI 747 بعد إقلاعها مباشرة، باستخدام صواريخ مضادة للطائرات من نوع ستيرلا SA-7 المحمولة على الكتف التي استلمها المصريون للتو من الاتحاد السوفييتي. تم الاتفاق على أن تكون مسؤولية نقل الصاروخين إلى روما على عاتق المصريين، ثم يستلمهما فلسطينيون ينتمون لمجموعة أيلول الأسود، وهي المنظمة نفسها التي اغتالت أحد عشر رياضياً إسرائيلياً في أولمبياد ميونخ في الصيف الفائت.

مضى الجزء الأول من العملية دون أي عقبات. وفي 29 آب، وصل أمين

الجيش المصري، نقل صاروخين مع قاذفيهما من مستودعات الجيش إلى مكتب السادات. وهناك تم وضعهما في حقيبة دبلوماسية تحمل اسم منى زوجة مروان، التي كانت تنوي الطيران إلى لندن لمسألة لا علاقة لها بالأمر، لكنها وافقت، نزولاً عند رغبة زوجها، على ملاقاته في روما. لم تكن منى تعرف شيئاً لا عن الخطة ولا عن محتويات الحقائب.

وكما هو متوقع، لم تقم السلطات الإيطالية بفتح الحقائب. ولكونها تحمل اسم ابنة عبد الناصر، تم أخذ الحقائب مباشرة من الطائرة إلى شاحنة نقل كانت بانتظارها، لتنقلها بدورها إلى أكاديمية الفن المصري في روما.

وصل مروان إلى المدينة في اليوم التالي. وضع الحقائب في سيارته الخاصة وانطلق بها نحو متجر أحذية رافاييل سالاتو في 149 فيا فينيتو، في ضاحية التسوق الرئيسية. كان الهندي بانتظاره في المتجر. تعرَّف إلى مروان من صورة أعطيت له، فاقترب منه وقال له كلمة السر، عدة مرات.

هنا بدأت الأمور تنحرف قليلاً عن مسارها. قال مروان للهندي أن عليه ورجاله أن يأخذوا الصاروخين من السيارة، وينقلوهما إلى عربتهم، ويأخذوهما إلى الشقة التي استأجرها الهندي في ضاحية أوستيا، بالقرب من المطار، حيث سيتم إطلاقهما من هناك.

كانت المشكلة أنهم لا يملكون سيارة. لم يقل لهم أحد أنهم سيحتاجون واحدة.

لكن ذلك لم يقف حائلاً أمام الهندي واسع الحيلة، الذي وجد تاجر سجاد في الشارع نفسه، اشترى بضع سجادات، وقام بلف الصاروخين وقاذفيهما فيها. بعد ذلك حملوها على الأكتاف إلى أقرب محطة أنفاق. لقد استخدموا المواصلات العامة لنقل الصاروخين إلى أوستيا. بقي الهندي في الشقة، بينما توجه الآخرون إلى فندق أطلس، المعروف بسمعته السيئة.

إسـرائيل، لـم يكن هذه المرة ماضياً بعكس المصالـح المصرية. بل على العكس من ذلك، إذ كان السادات لا يريد للمخطط أن ينجح فعلاً، وتحديداً قبل شهر من هجومه المفاجئ. فإسقاط طائرة مدنية سيشعل أزمة إقليمية ضخمة، واكتشاف شظايا صاروخ SA-7 بين الحطام سيورِّط مصر. وسيرتفع منسوب التوتر بشكل دراماتيكي، وستفقد مصـر عنصـر المفاجـأة. بمعنى آخـر، يمكن لعمليـة كهذه أن تحبط خطط السـادات للهجوم على إسرائيل.

كان مروان يعرف ما يفكر به السادات. كان السادات يُقدِّر كثيراً مواهب مروان وعلاقاتـه ومهاراتـه المذهلـة، وأنه يعرف كيف يمكن ضمان فشـل المهمة، ربما عن طريق رشوة الإيطاليين. لكنه لم يشك مطلقاً بتعامل مروان مع الإسرائيليين.

كان تسفي زامير قد وصل قبيل العملية إلى روما لتحذير السلطات المحلية من المكيدة والإشراف على العمليات في حال فشل الطليان بإيقافها. ربما كان جزء من القصة هو رد فعل رئيس الموسـاد تجاه مأسـاة الصيف الفائت، حين فشـلت الشرطة الألمانية في إنقاذ الرياضيين الأولمبيين الإسرائيليين. كان زامير واقفاً في برج المراقبة في مطار ميونخ، يراقب عاجزاً. وحين عاد إلى إسـرائيل والألـم يعتصره، أدرك أنه لا يجب على إسرائيل أن تعتمد فقط على القوات المحلية لحماية مواطنيها في الخارج.

وفي الحقيقة، لم تعتمد إسرائيل هذه المرة على قوات الأمن المحلية بمفردها. فحيـن علمـت بشـأن العمليـة المزمـع تنفيذها، قبـل الموعـد المحدد لهـا بأكثر من أسبوعين، وصل فريق من الموساد برئاسة مايك هراري، ضابط عمليات قديم وكبير، إلـى رومـا. قـام الفريق بتفتيش دقيـق للمنطقة المحيطـة بمطار فيوميتشـينو بحثاً عن مخابـئ يمكن اسـتخدامها لإطلاق الصواريخ. والأهم مـن ذلك أنهم لحقوا بمروان حيـن نقـل الصاروخيـن إلى الفلسـطينيين في فيا فينتـو، ثم لحقوا بمـن أخذهما إلى مخبئهم. أراد هراري اقتحام الشقة، لكن زامير، الذي وصل لتوه إلى روما، قرر بدلاً

سلاح الجو الإسرائيلي أي معلومات عنه بعد.

من وجهة نظر زامير، كان أكبر برهان على عدم تعامل مروان مع الإيطاليين هو المفاجأة التي أبداها نظيره الإيطالي حين أخبره زامير أنه في روما لإحباط هجوم إرهابي ضخم. هذه المرة قامت القوى المحلية بعملها جيداً، إذ قاموا على الفور، في الساعات الأولى من صباح السادس من أيلول، بتنظيم قوة كبيرة من الشرطة اقتحمت الشقة في أوستيا واعتقلت الهندي. أما بقية أفراد المجموعة فقد تم اعتقالهم في وسط المدينة في فندق أطلس. عبَّر الهندي لاحقاً في شهادته عن مفاجأته بحجم القَوة، معتقداً في البداية أنهم من الموساد. وفي الحقيقة، كان فريق الموساد بقيادة هراري جاهزاً للتدخل في حال واجهت القوات المحلية أي مشاكل، لكن لم يستدعِ الأمر ذلك.

تم اعتقال الأشخاص الخمسة، ومصادرة الصاروخين، ومضت الطائرة التي كانت تُقل أربعمائة راكب، والتي كانت الهدف المقصود من الهجوم، في طريقها دون أن يعرف الركاب شيئاً عما حدث. وعاد زامير ورجاله إلى إسرائيل. قامت مجموعة أيلول الأسود بمحاولات أخرى لاحقاً، لكن خشية الإيطاليين من انتقامهم جعلتهم يطلقون سراح الرجال ويسمحون لهم بمغادرة البلاد.

حين علِم مروان باعتقال الهندي ورجاله توجه فوراً إلى المطار. أما زامير فلم يُخبر الإيطاليين عن مصدر معلوماته. وعلنياً، ظل السؤال عن كيفية معرفة الإيطاليين بأمر الهجوم غير معروف، ولو أن إحدى الصحف أوردت العنوان التالي: «مصادر إيطالية: القبض على إرهابيين يحملون صواريخ تُطلق من على الكتف جاء بعد تلميحات من الاستخبارات الإسرائيلية».

بعد أن هدأت الأوضاع، حصل مروان من مشغّليه الإسرائيليين على مكافأة قيِّمة لأنه أثبت، مجدداً، وفاءه لأمن إسرائيل[6].

أثر على قدرته على إعطاء تحذيرات واضحة وفي الوقت المناسب عن الحرب التي وقعت بعد شهر من ذلك. لكن برغم بُعده عن السادات، فقد كان يعرف أن التحضيرات للحرب قد دخلت طورها النهائي. وعلاوة على ذلك، حين أخبر مروان مشرفه في بداية أيلول أن مصر قررت الهجوم في نهاية العام، لم يعد الرابع من تشرين الأول - قبل يومين فقط من الهجوم الفعلي - يعني شيئاً للإسرائيليين.

لماذا؟ يمكن تفسير صمته بثلاثة أسباب: الأول هو أن مروان كان، في تلك الأسابيع الحاسمة، خارج الحلقة إلى حد كبير. لقد أخذته المفاجأة حين عرف في الخامس من تشرين الأول أن الهجوم سيبدأ في اليوم التالي. كان في تقريره الأخير في أيلول قد أخبر الإسرائيليين إن السادات صار متكتماً أكثر من أي وقت مضى. حتى أن السادات لم يُطلع الليبيين أو السعوديين على التوقيت السري للهجوم، وبالتالي لم يتمكن مروان، الذي كان عمله إدارة العلاقة مع هذين البلدين، من معرفة ذلك. على الأرجح أن السادات صار حذراً أكثر مع مروان بعد هجوم روما الفاشل؛ كانت علاقة مروان بالاستخبارات الأجنبية واضحة جداً، ولم يكن السادات يرغب بأي تسريبات.

السبب الثاني هو أن أعظم جاسوس في تاريخ إسرائيل، الذي سلَّم تفاصيل خطط الحرب الخاصة ببلده إلى الأعداء، ربما تردد حين وصل الأمر إلى هذا السر بالتحديد المتعلق بموعد الهجوم. قد يبدو ذلك مستبعداً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار كل ما نعرفه عن شخصيته. ومع ذلك، يُصرّ عدد من ضباط الاستخبارات الذين يعرفونه على ضرورة عدم استبعاد ذلك[7].

السبب الثالث ربما يكون اعتقاد مروان بعدم الحاجة لأي تحذيرات أخرى، لأنه أعطى مسبقاً للإسرائيليين كل ما يحتاجونه للوصول إلى الاستنتاجات الصحيحة. لقد أخبرهم ما هي الإشارات التي عليهم النظر إليها كدلالات على انتهاء التحضيرات النهائية للحرب، إشارات تظهر بالأبيض والأسود في خطط الحرب التي سلَّمها

كان يعتقد بأنه يخبر الإسرائيليين أمراً يعرفونه مسبقاً.

هذه التفسيرات لا تتناقض بعضها مع بعض ويمكن أن تكون كلها صحيحة. لقد ساعدتنا على فهم الأسابيع والأيام الأخيرة التي سبقت الحرب، وخاصة حقيقة أن الإسرائيليين، برغم كل تحضيراتهم وجهودهم الاستخباراتية المكثفة، لم يكونوا مستعدين. ومن المهم التأكيد على مسألة وهي أنه حتى دون تحذيرات مروان في الرابع والخامس من تشرين الأول، كانت إسرائيل خلال شهر أيلول قد راكمت الكثير من المؤشرات الحاسمة التي تؤكد أن مصر وسوريا على وشك الهجوم. من المفترض في الظروف الاعتيادية أن تكون الاستخبارات العسكرية قد أعلنت الاستنفار قبل الثاني من تشرين الأول، لإعطاء قيادات الجيش وقتاً أكثر من كافٍ لاستدعاء قوات الاحتياط والقيام بانتشار كامل من أجل الحرب. لكن في تلك اللحظة التاريخية، كانت الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية تحت قيادة مجموعة من الضباط المتمسكين بنموذج استخباراتي محدد – التصور –راسخ، وشبه مقدس، بالرغم من الأحداث التي أكدت بطلانه قبل عام تقريباً. وكانت النتيجة أنهم مروا مرور الكرام على كمية هائلة من المعلومات كان لها تفسير معقول واحد وهو أن مصر وسوريا متجهتان إلى الحرب.

من بين جميع الإشارات، ربما كان الأكثر إثارة للقلق بينها هو تعزيزات القوات السورية على الجبهة الشمالية لإسرائيل. بعد جولة تحليق استطلاعي أظهرت الجيش السوري في حالة انتشار طارئ كامل على طول الحدود، مع مضاعفة المدفعية والمدرعات المساندة لثلاث فرق مشاة تتقدم خلفها، شعر قادة المنطقة الشمالية في الجيش الإسرائيلي بالقلق. وفي اجتماع لكبار قادة الجيش الإسرائيلي في 24 أيلول، عبَّر اللواء إسحاق هوفي عن خشيته من هجوم سوري مباغت. لكن دايان لم يرَ في ذلك هجوماً سورياً كاملاً في المدى المنظور لكن ربما شيئاً محدوداً أكثر،

بالمعنى الحقيقي.

حتى التحذير الذي أعطاه الملك حسين لغولدا مائير في اجتماعهما السري في 25 أيلول لم يغير كثيراً في التقديرات الإسرائيلية. كان الأردن قد تلقى تلميحاً من جنرال سوري كان يعمل سراً لدى المملكة الهاشمية. قال الملك حسين لمائير إن السوريين كانوا في غرف العمليات وعلى الأرجح أن يشنوا هجوماً مع مصر. وفي الوقت نفسه، استلم رئيس الموساد، مع العقيد أهرون ليفران، تفاصيل من الأردنيين عن انتشار السوريين وخططهم، بنيّة شن هجوم كامل بالاتفاق مع مصر. لكن لم يتم في أي من الاجتماعين تحديد موعد الهجوم. لم تكن رئيسة الوزراء مرتاحة على الإطلاق من جرّاء اجتماعها مع الملك حسين وطلبت رداً من الاستخبارات العسكرية، فأجاب عيزرا إن المعلومات التي استلمتها مائير غير واقعية. إذاً، بالرغم من حصولهم من استخبارات الملك على معلومات عن انتشار السوريين - بما في ذلك حالة الاستنفار القصوى، وإلغاء الإجازات، واستدعاء الاحتياطي، وحجز المركبات المدنية - ظل عيزرا مصراً على أن السوريين لن يشنوا حرباً دون مصر، وأن مصر ليس لديها نية كهذه.

لكن مع ذلك، أمر رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي بالقيام بتعزيزات جزئية على مرتفعات الجولان. فقامت كتيبتا دبابات من اللواء المدرع السابع وبطارية مدفعية واحدة بتسلق الجرف المؤدي إلى الجولان في 26 أيلول، ليلة رأس السنة العبرية.

استلمت إسرائيل في الأيام التالية معلومات عن ارتفاع درجة الاستنفار بين القوى الجوية المصرية، وعن تحريك وحدات مدرعة من القاهرة باتجاه القناة. في 26 أيلول، مرر مصدر سمّته رئيسة الوزراء الإسرائيلية في السابق «جيداً»[8]، تحذيراً بأن مصر قررت الهجوم، في القريب العاجل، وأن هذا الهجوم يتضمن عبور القناة.

السوريين كانوا يخططون للهجوم، بهدف استعادة مرتفعات الجولان، وقد تضمن التقرير خطة صريحة للهجوم. الضباط في شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية، الذين كانوا يعرفون بأن معلومات CIA تأتي بشكل رئيسي من الملك حسين، نشروا تقريراً يتضمن التحذيرات والنقاط الرئيسية في خطة الهجوم، ومعه أيضاً انطباعهم الخاص بأن عمليات الانتشار السورية لم تكن عدائية بطبيعتها. وهذا الانطباع لم يتغير حين استلمت الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية تقارير من مصادرها الخاصة في الوحدة 848 تفيد بأن طائرات سوخوي الهجومية السورية قد تمت إعادة تموضعها بحيث تواجه القواعد الجوية، وأن اللواء المدرع 47 الذي كان مسؤولاً عن القطاع الجنوبي في جبهة الجولان خلال الحرب، قد غادر حمص في الشمال وهو يشق طريقه الآن نحو الحدود الإسرائيلية في الجنوب. في بداية تشرين الأول، كان الجيش السوري قد أكمل تحضيراته وأصبح الآن، بالتوافق مع عقيدة الجيش السوفييتي، في موقع يؤهله للهجوم دون الحاجة لأي تحركات أخرى.

في 1 تشرين الأول، بدأت مصر بإجراء تدريبات عسكرية متوقعة جداً تحمل اسم تحرير 41. وفي عشية التدريبات، استلمت إسرائيل تحذيراً آخر أيضاً يفيد بأن تدريبات تحرير 41 ستنتهي بهجوم حقيقي على قناة السويس، وسيكون الهدف هو دخول سيناء والإمساك بالحدود وصولاً إلى ممري متلا والجدي. كما كانت هناك إشارات أخرى تُؤكد هذا التحذير. لكن تم تفسير التحذير في الاستخبارات العسكرية وكأنه يقول إن الهجوم سيحصل في اليوم التالي تماماً، وحين مر ذلك اليوم من دون وقوع أي حادثة، تعامل معه ضباط الاستخبارات على أنه إنذار كاذب. وكان تفاؤلهم بعدم شن أي هجوم مصري السبب الذي جعلهم يتجاهلون مؤشرات الحرب على الجبهة السورية، والتي أصروا على أنها لن تحدث دون مصر. ومع ذلك، ظلت المؤشرات على وقوع حرب حقيقية، وليس مجرد تدريبات، تتراكم. أصبح حجم

عددها أي شيء في الماضي؛ وكذلك كمية الذخيرة المنقولة التي تم رصدها تتجه نحو خليج السويس من دون أي مبرر؛ وبناء عشرات المنحدرات عند القناة لتسهيل الدخول السريع في الماء، وهي منحدرات لم يُرَ مثلها في تدريبات التحرير السابقة.

في مواجهة كل هذا، أكد رئيس شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية، في اجتماع طارئ في مكتب غولدا مائير في 3 تشرين الأول أن «مصر لا تزال غير مقتنعة بعدم قدرتها على شن حرب [ولهذا]... لا أجد فكرة الحرب المشتركة المصرية - السورية مقنعة بالنسبة إليّ». يبدو أن تلال المعلومات الاستخباراتية التي قدَّمها مروان لإسرائيل على مدى قرابة عام لا تزال غير مسجلة في تفكيره.

يوم الخميس، الرابع من تشرين الأول، بدأت الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية تُغير نظرتها. إذ بدأت الوحدة 848 في عصر ذلك اليوم - قبل ثمان وأربعين ساعة فقط على الهجوم - تستلم مؤشرات واضحة على عمليات إخلاء طارئ لجميع الأفراد السوفييت، في سوريا أولاً ثم في مصر. وأثناء مراقبتهم لعمليات النقل المكوكية للمستشارين السوفييت وعائلاتهم باتجاه ديارهم، التقطت وحدات التنصت محادثات صاخبة باللغة الروسية تتحدث عن أوامر موجهة إلى عائلات الخبراء السوفييت لتوضيب أمتعتهم في غضون عشرين دقيقة والتوجه إلى النقاط المتفق عليها ليتم أخذهم وإعادتهم إلى الاتحاد السوفييتي. واستمرت التفاصيل التي تتحدث عن عمليات الإخلاء تتوالى طوال الليل وفي الصباح التالي. وفي الوقت نفسه تقريباً وصلت نتائج آخر عمليات الرصد التي جرت في منتصف اليوم فوق قناة السويس. «الجيش المصري»، كما يقول التقرير، «يصطف في انتشار طارئ لم نرَ مثيلاً له من قبل».

ولكون التفسير النهائي لصور الاستطلاع استغرق وقتاً أطول، ولم يصل إلى صانعي القرار الإسرائيليين إلا صباح الجمعة، فقد بدأ التوتر يتزايد بحدة في مكاتب

الإجمالية على أنها فقط جزء من عمليات تدريب في الجنوب واستعدادات دفاعية في الشمال. وأمضى كبار قادة الاستخبارات العسكرية، مع رؤساء الأفرع 3 (القوى العظمى)، 5 (سوريا)، و6 (مصر) في شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية، الليل بطوله على مكاتبهم، محاولين جمع السيل الهائل من المعلومات التي تتدفق في كل لحظة. ثم اتصل قائد الوحدة 848، العميد يوئيل بن بورات، برئيس الاستخبارات العسكرية وأخبره بأن الحرب قادمة. كان قد وضع وحدته مسبقاً في أعلى درجات التأهب. أما إيلي عيزرا فقد بدأ يشك في قناعته بعدم احتمالية وقوع الحرب، لأنه لم يعد يستطيع تجاهل الإشارات في هذه الساعة المتأخرة.

في الثانية والنصف من صباح يوم الجمعة، رن الهاتف في منزل رئيس الموساد. أجاب زامير. كان رئيس مكتبه، فريدي عيني، على الخط يحمل رسالة عاجلة. لقد اتصل الملاك. كان يتكلم عن الحرب.



الفصل التاسع

التوقيع عند غروب شمس السبت

غادر أشرف مروان مصر قبل أربعة أيام من اندلاع الحرب. ذهب إلى ليبيا، حيث أخبر القذافي هناك عن نية الذهاب للحرب في القريب العاجل ثم تابع إلى فرنسا[1]. في يوم الخميس 4 تشرين الأول، كان في باريس مع وفد مصري، مما صعب عليه العمل بحرية، إن كان عبر الهاتف أو بترتيب لقاء مع مرشده الإسرائيلي. كانت مثل تلك الصعوبات أمراً عادياً بالنسبة إلى مروان الذي كان يجد دائماً طريقة للتغلب عليها. وفي عشية الخميس اتصل بشقة المرأة في لندن التي كانت تعمل كوسيط بين مروان ومرشده من الموساد. قال لها إنه يرغب بالحديث مع «أليكس»، وإنه سوف يتصل لاحقاً. فقامت المرأة بإخبار دوبي، الذي وجد طريقه سريعاً إلى شقتها وجلس منتظراً. وسرعان ما رن الهاتف ثانية. كان الملاك.

استطاع دوبي تمييز أصوات تتحدث العربية في الخلفية. كان واضحاً أن مروان ليس بمفرده وأنه لا يستطيع التكلم بحرية، وأنه متوتر. بدأ كلامه بقوله إنه لا يستطيع التحدث طويلاً، وفهم دوبي ذلك. ثم دخل الملاك في صلب الموضوع؛ كان يريد التحدث عن «كثير من المواد الكيميائية»، وأنه يجب أن يرى «الجنرال» على عجل. سيكون غداً في لندن، وسوف يلتقيا.

اعتقد دوبي أنه سمع الرسالة بشكل عالٍ وواضح. وكجزء من البروتوكول الذي تم وضعه لتمكين مروان من إعطاء تحذيرات مسبقة عن أي هجوم، اختاروا كلمات رمزية يستخدمها لتوضيح الطبيعة الخاصة للتهديد. وبما أن مروان كان قد

تشير للحرب كانت «مواد كيميائية»، لكن كان لدى مروان مزيد من المصطلحات الخاصة. لو أراد إخبارهم عن تهديد بوقوع هجوم وشيك، لكان ذكر»البوتاسيوم»؛ ولو أراد التحذير من هجوم أبعد قليلاً، لكان استخدم عنصر «اليود»؛ أما الهجوم الجوي على سيناء بدون عبور قناة السويس فيقابله «الصوديوم».

يرى بعض المعلقين إن دوبي اقترف خطأ جسيماً. كان بإمكانه الطلب من مروان تسمية عنصر محدد، بدلاً من مجرد «مواد كيميائية»، ليتم على أساس ذلك إحضار رئيس الموساد - «المدير» - إلى لندن، لكنه بدلاً من ذلك اختار عدم استيضاح القضية. لم يكن مدركاً مدى خطورة تطور الموقف، من ساعة لأخرى، في إسرائيل. كل ما يعرفه كان من الصحافة، ولم تكن فيها أي تقارير علنية عن حرب محتملة. أضف إلى ذلك أن دوبي لم يكن يملك خيارات كثيرة. كان يعرف بالضغط الواقع على مروان وبوجود أشخاص آخرين بجواره، وربما اعتقد أنه لو كانت لدى مروان معلومات دقيقة أكثر لكان استخدم كلمة رمزية أخرى. وبما أنه لم يفعل، استنتج دوبي أن التحذير لم يكن على تلك الدرجة من الخطورة. وأخيراً، اعتبر دوبي أنه في كل الأحوال، سيكون حديث مروان مفصلاً أكثر في اليوم التالي حين يلتقي بتسفي زامير.

كان دوبي يتبع البروتوكول في كل الحالات. حين انتهى من مكالمته الهاتفية مع مروان، اتصل بسرعة برئيس فرع الموساد في لندن وقدَّم له بياناً رسمياً. صحيح أن السبب المباشر لإرسال التقرير كان التحذير الذي تلقاه للتو من الملاك، لكن المقطع الأول منه كان بخصوص مسائل أخرى، ومن ثم كتب دوبي أن المصدر يرغب برؤية رئيس الموساد بشكل عاجل بخصوص «المواد الكيميائية»، وذكر توقيت اللقاء في لندن.

أُرسل التقرير إلى مقر قيادة الموساد في تل أبيب، حيث وصل إلى هناك بحدود

المـرأة المناوبـة فـي مكتـب زامير اسـتلمت الرسـالة واتصلت بقائـد الأركان، فريـدي عينـي، في منزله. فركب عيني سـيارته منطلقاً إلى مقر القيادة لقراءة الرسـالة بنفسـه. ووفقاً للشـهادة التي أدلى بها أمام لجنة أغرانات – لجنة التحقيق الإسـرائيلية التي قامت بالتحقيق في أسـباب الهزيمة في حرب أكتوبر – فقد أخذها عيني بجدية بالغة. لقد كانت «تحذيراً لبدء الحرب. لم يحدث شيء كهذا من قبل». تلك الكلمات الأخيـرة، التـي تذكرهـا لاحقاً، لم تكن تشـير إلـى التحذير بل إلى طلـب مروان لقاء رئيس الموساد. لم يكن ذلك أمراً عادياً لأن مروان كان يبقى دائماً في الظل، إلا حين ينضـم زاميـر لاجتماعاتهم، وذلك لمنع المصريين، أو أي جهات معادية، من الإيقاع به. آخذاً بعين الاعتبار تلك الظروف الاستثنائية، شعر عيني الآن أن عليه إخبار زامير، الذي كان في منزله، بشأن الاتصال.

كانـت السـاعة الثانيـة والنصف صباحـاً، بتوقيت إسـرائيل، من يـوم الجمعة 5 تشرين الأول.

حصل في حوارهما أكثر من سـوء فهم واحد. كان عيني يعتقد أنه يتصل بزامير لمشـاركته في تحذير من حرب وشـيكة يرسله مصدر استخباراتي رفيع. لكن زامير، من جهة أخرى، اعتبر الاتصال أمراً ثانوياً. أخبره عيني إن الملاك يريد لقاءه في لندن لمناقشة «المواد الكيميائية». لكن لكون مروان لـم يستخدم الكلمة الرمزية التي تشير إلـى هجوم وشـيك، لـم يتعامل زامير معه كتحذير حقيقي لحرب وشـيكة. وروى ما تذكره عما حدث في نيسـان، حين اسـتخدم المصدر الكلمة الرمزية المرادفة لهجوم وشـيك؛ وكان إنـذاراً كاذباً، وسـرعان ما سـحب مـروان التحذير. هـذه المرة كانت المؤشـرات علـى وقـوع الحرب جدية أكثر بكثيـر، ومع ذلك فقـد أدى التأثير الأقل إلحاحاً لكلمة «المواد الكيميائية» إلى ميل زامير للاستنتاج بأن الحرب على الأرجح ليست وشيكة بالدرجة التي كان يخشاها.

لكن اتخاذ قرار بلقاء مروان سيعني تغييراً سريعا في الخطط من أجل اللحاق برحلة الصباح، وهي رحلة EI AI الوحيدة إلى المملكة المتحدة عشية عيد يوم الغفران، فكان عليه إخبار عيني مباشرة إن كان عليه إجراء الترتيبات. كان رئيس الموساد قلقاً جداً منذ أيام من سيل التقارير التي تتحدث عن الحرب، ومن إصرار الاستخبارات العسكرية على التقليل منها. أخيراً، قال نعم، «سوف أذهب إلى لندن». طلب من عيني اتخاذ الترتيبات اللازمة من أجل الرحلة ومن أجل الاجتماع السري، وإخطار طاقم الموساد المحلي لتأمين الحماية والتغطية على الأرض في لندن. وبهذا، انتهى الاتصال.

ما هي إلا دقائق قليلة حتى عاد هاتف زامير يرن. هذه المرة كان المتصل رئيس الاستخبارات العسكرية إيلي عيزرا. كانت تلك المرة الأولى على الإطلاق التي يتصل به عيزرا فيها بعد منتصف الليل، وكان ذلك لوحده سبباً كافياً لإقناع زامير بأن المسألة لا بد أن تكون خطيرة. أخبره رئيس الاستخبارات العسكرية عن عمليات الإجلاء التي تقوم بها القوات السوفييتية في سوريا وسأل زامير إن كان قد سمع أي جديد. لكن زامير، الذي لم يكن قد تقبَّل بعد مدى خطورة رسالة مروان عن «المواد الكيميائية»، لم يذكر المحادثة التي أجراها للتو مع فريدي عيني، فاعتقد عيزرا بعدم وجود أي أخبار من الموساد.

في حوالى الثالثة صباحاً، اتصل عيني ثانية. أطلع زامير على تفاصيل رحلة الصباح، وأطلعه زامير على اتصال رئيس الاستخبارات العسكرية وعمليات الإجلاء السوفييتية؛ فاقترح عيني احتمال وجود ترابط بين هذا وبين رغبة مروان المفاجئة في الاجتماع. وعندها فقط أدرك زامير أن عيني، الذي اطلع على رسالة دوبي، يدرك بأن مروان بصدد نقل تحذيرات من حرب وشيكة. فأخبر عيني أنه سيتصل في الحال بعيزرا ليخبره بذلك، وأمره بتحذير السكرتير العسكري لرئيسة الوزراء،

اتصل زامير بعيزرا ثانية. كانت حينها قد مرت ثلاث ساعات منذ وصول بيان دوبي إلى مقر الموساد. وفقاً لتقرير لجنة أغرانات، قال زامير الآن لرئيس الاستخبارات العسكرية «إنها الحرب. لم نعرف الموعد الدقيق بعد... لكنها وشيكة»[2]. وبحسب شهادة زامير، وافق عيزرا قائلاً: «نعم إنها الحرب».

أما رئيس الاستخبارات العسكرية فيتذكر المحادثة بشكل مختلف. ففي شهادته أمام اللجنة، قال إن زامير أخبره بأنه سيحصل على مزيد من المعلومات في غضون الأربع وعشرين ساعة القادمة وأن عيزرا طلب بالمقابل من رئيس الموساد أن يمررها إليه بأسرع وقت ممكن إذا كانت تتعلق فعلاً بالحرب. مخالفاً ادعاء زامير بأن الاتصال الهاتفي كان في الأصل بشأن هجوم وشيك، ادعى عيزرا أنه لم يفهم رسالة دوبي على أن لها علاقة بالحرب إطلاقاً. فقال للجنة، «أنا أسمع هذا للمرة الأولى». وكرر لاحقاً ادعاءه بالقول، «إشارة تحذير واضحة، كما أفهمها الآن؟ إني أسمع بهذا للمرة الأولى».

فضَّلت اللجنة شهادة رئيس الموساد على شهادة عيزرا. وواجه أعضاؤها عيزرا بكلماته هو نفسه كما هي مسجلة في الدقائق التي أمضاها في اجتماعه مع رئيسة الوزراء صباح الجمعة 5 تشرين الأول. هناك كان واضحاً أنه عرف بأن زامير كان ينتظر بفارغ الصبر توضيحات بخصوص تحذيرات الحرب. وعند مواجهته بذلك، لان موقف عيزرا. «قد يكون زفيكا [زامير] قد قال شيئاً بهذا الخصوص». ثم أضاف: «لقد فهمتها، لنقُل بشكل عام، على أنها تحذيرات. لا شيء مؤكد، لا شيء وشيك، ولا شيء واضح. وأشعر بأن فهم الموساد كان على ذلك النحو أيضاً»[3].

أقلَّ عيني زامير صباح الجمعة، 5 تشرين الأول، من منزله في ضاحية تزاهالا في تل أبيب، وانطلقا إلى المطار في اللد. اتفقا أثناء الطريق على أن يقوم زامير بإطلاع عيني على التفاصيل عبر الهاتف مباشرة بعد اجتماع تلك الليلة. واتفقا أيضاً على

واضحة جداً، وعيني، الذي يلتزم بها دائماً، كان قد أدرك أهميتها.

أقلع زامير باتجاه لندن، وانطلق عيني بسيارته إلى مقر القيادة في تل أبيب. حاول الاتصال بإسرائيل ليور، السكرتير العسكري لرئيسة الوزراء، في مكتبه لكن تم إخباره بأن ليور في اجتماع مع رئيسة الوزراء ولا يمكنه التحدث. فترك عيني رسالة كي يتصل به.

استلمت رئيسة الوزراء غولدا مائير المعلومات أثناء اجتماع حصل في مكتبها الخاص في مقر قيادة الجيش في تل أبيب دام من العاشرة وحتى الحادية عشر صباحاً. شارك في هذا الاجتماع وزير الدفاع موشيه دايان، رئيس هيئة أركان الجيش دافيد إلعازر، عيزرا، والعديد من المساعدين المقربين. أطلع عيزرا رئيسة الوزراء على التحضيرات العسكرية العربية وعمليات الإجلاء السوفييتية. وذكر أيضاً رحلة رئيس الموساد إلى لندن، ناقلاً رسالة مروان التي تقول «هناك شيء ما على وشك أن يحدث»، وأن زامير ذهب للتحقق من الأمر. كان وزير الدفاع قد عرف بشأن التحذير، فقبل ساعة تقريباً كان قد عرف من خلال اجتماع أحادي مع عيزرا بأن زامير «استلم في الليلة الفائتة تحذيراً من الملاك. نبهه فيه من وشوك حدوث شيء ما، وطلب من زفيكا [زامير] الحضور فوراً لعقد اجتماع. وسوف يراه الليلة عند العاشرة مساءً»[4].

طريقة الأمر الواقع في تصوير نقل عيزرا لما سمعه من زامير في محادثتهما الهاتفية في الليلة الماضية لم تكن منصفة بالنسبة إلى درجة الإلحاح الفعلية للتحذير. لو كان عيني قد اتصل بليور مباشرة خلال الليل (وليس في الصباح التالي)، وتكلم معه مباشرة (بدلاً من ترك رسالة له)، وأخبره بطريقة واضحة عن محتويات التقرير الذي أرسله دوبي قبل عدة ساعات، لكانت رئيسة الوزراء قد سمعت على الأرجح بتلك المعلومات وتعاملت معها بطريقة مختلفة. لكن بدلاً من ذلك، كانت النتيجة، من حيث الأثر، لعبة اتصالات هاتفية: وبنتيجتها تضاءلت حدة تحذيرات مروان

مروان من الحرب؛ لم يتم فهمه على أنه تحذير من الحرب في اليوم الحاسم الذي مر ما بين سماع زامير بها لأول مرة من عيني في الثانية والنصف من فجر الجمعة، وبين التقرير الذي أعده زامير بعد اجتماعه بمروان في لندن في الليلة التالية. لو كان مروان، الذي أعطى بالأساس مثل هذه المعلومات الدقيقة، يعرف في يوم الخميس بأن الهجوم سيكون بعد يومين لقال ذلك لدوبي حتماً، بأكبر قدر ممكن من الدقة وبأسرع ما يمكن. أما أن يكون مروان غير مُحدَّد في اتصاله الهاتفي ليلة الخمس، فهذا على الأرجح لأنه لم يعرف بالموعد الدقيق للهجوم إلا بعد اتصاله بدوبي، وعلى الأرجح بالصدفة.

البعثة التي جاء معها مروان إلى فرنسا عادت إلى القاهرة صباح الجمعة. أما مروان فذهب إلى لندن، حيث حجز جناحاً في الطابق السابع في فندق تشرشل، الراقي والجديد نسبياً والمميز بطوبه الأحمر في مكان غير بعيد عن شارع أكسفورد. في ذلك الصباح، استلقى على الأريكة وراح يقرأ.

ثم سمع نقراً على الباب. إنه محمد نصير، صديق يعرفه مروان من القاهرة. كان نصير، ذو الستة وأربعين عاماً، واحداً من أوائل مهندسي الكمبيوتر في مصر. انضم عام 1967، بناءً على رغبة محمد حسنين هيكل، إلى فريق عمل جريدة الأهرام، أسس مركز بيانات الصحيفة ودار نشر، وحوَّله في غضون خمسة أعوام إلى واحد من أهم المراكز التكنولوجية في البلد. في عام 1972 غادر المركز وهو الآن في مرحلة انتقالية؛ وقريباً سيُطلق عملاً في مجال الكمبيوتر والاتصالات سيجعله من أغنى الرجال في مصر. كان متزوجاً من ابنة عبد اللطيف البغدادي، أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة ونائب الرئيس في عهد عبد الناصر. وقد التقى بمنى، ابنة عبد الناصر، عن طريق زوجته، وقامت منى بتقديمه لمروان.

كانت لدى نصير قصة غريبة يرويها. كان في ذلك الصباح قد تكلَّم مع مدير

الموجودة في لندن وباريس إلى طرابلس في ليبيا. وجاءت الأوامر بدون أي شرح.

لم يكن لا مروان ولا نصير يعرفان به، لكن الأمر الذي صدر إلى لندن وباريس كان نتيجة قرار اتخذه وزير الطيران المدني المصري، الذي أصدر أمراً للمدير التنفيذي للخطوط المصرية، دون استشارة أحد، بنقل جميع الطائرات التابعة له إلى بلدان صديقة. لقد اكتشف الوزير موعد الهجوم المرتقب وقرر اتخاذ إجراءات لحماية الطائرات. لكن حين وصلت أخبار تلك الأوامر إلى مركز القيادة في الجيش المصري (المركز 10)، أصيب وزير الدفاع وقائد هيئة أركان الجيش بالذهول. وخوفاً من أن يؤدي التغيير المفاجئ في مواعيد رحلات الخطوط الجوية المصرية إلى لفت انتباه الإسرائيليين، طلبوا من المدير التنفيذي للشركة تجاهل الأوامر والعودة إلى جدول الرحلات المقررة صباح الجمعة 5 تشرين الأول[5]. وهنا اتصل رئيس مكتب الخطوط الجوية في لندن، الذي كان يعرف نصير، به ليعرف إن كانت لديه أي معلومات عن السبب في الأوامر المفاجئة ومن ثم إلغاءها. أجاب نصير أنه ليست لديه أدنى فكرة، لكنه فكَّر بأنه يعرف أحداً يمكن أن يعرف: إنه صديقه أشرف مروان، المقرب من الرئيس، الذي أرسله السادات في العديد من المهام الدبلوماسية الحساسة، والذي من المفترض أن يصل إلى لندن في ذلك الصباح بالذات وينزل في فندق تشرشل.

وفقاً لمقابلة أجراها نصير لاحقاً مع محطة تلفزة مصرية، حين سمع مروان بالقصة قفز عن الأريكة وهو يقول، «سوف تندلع الحرب. تقول خطط الحرب إن علينا القلق بشأن تعرض طائراتنا للأذى على الأرض. وجزء من الخطة يقضي بتغيير مسارات طائراتنا إلى بلدان أخرى». ثم دخل مروان إلى غرفة النوم، أجرى بضعة اتصالات هاتفية، وعاد فوراً وهو يقول إن الحرب ستُشَن في اليوم التالي. أخبر نصير أن عليه العودة إلى مصر في الحال وطلب منه الذهاب إلى صديقهما المشترك، كمال

التي كان يحتفظ بها عادة في لندن قد أقلعت للتو. غادر نصير جناح مروان وعاد إلى عائلته. وبحسب ما ذكر، ما كان واضحاً بالنسبة إليه هو أن «مروان كان على علم بكل تفاصيل خطط الحرب لأنه كان يعمل في مكتب الرئيس، لكنه لم يكن يعرف متى ستقع... والبرهان على ذلك هو المفاجأة الهائلة التي بدت عليه حين سمع بالقصة. كان واضحاً أنه لم يكن يعرف متى ستبدأ الحرب»[6].

معظم الإسرائيليين الذين كانوا مطلعين على التحذيرات التي أعطاها مروان عن وقوع الحرب يفترضون بأنه كان على علم كامل، حين غادر مصر قبل أيام، بأن الحرب ستندلع في 6 تشرين الأول. لكن ما اتضح من رواية نصير هو أن هذا الافتراض قد يكون ببساطة خاطئاً. في الحقيقة، لم يعرف أن الحرب ستندلع في 6 تشرين الأول إلا في منتصف يوم 5 تشرين الأول، وبمحض الصدفة.

في الجدل الدائر حول ما إذا كان مروان فعلاً عميلاً مزدوجاً محنكاً وليس أهم جاسوس عرفته إسرائيل يوماً، لن تجد سؤالاً حاسماً أكثر من «التأخير» المزعوم في التحذير من الحرب. إذا افترضنا أنه عميل مزدوج، فهذا يعني أنه كان على علم طوال الوقت بأن الهجوم سيكون في 6 تشرين الأول؛ وأنه أعطى التحذير للمحافظة على مصداقيته مع الإسرائيليين مع الاحتفاظ بالمعلومات إلى أن يصبح متأخراً جداً القيام بأي شيء مفيد لهم. لكن اتضح أن هذا ينطوي على خطأين: فمن شبه المؤكد أن مروان لم يعلم بالتوقيت إلا قبل يوم من الهجوم؛ وكما سنرى لاحقاً، فقط أعطى الإسرائيليين وقتاً كافياً لنشر الجيش النظامي استعداداً للحرب، واستدعاء القوات الاحتياطية، وشن ضربة استباقية. أما كونهم لم يقوموا بتلك الخطوات فهذا عائد لدرجة كبيرة إلى ارتباكهم، ولعدم رغبة رئيس هيئة أركان الجيش إيلي عيزرا والخاضعين لنفوذه، بأخذ تحذيرات مروان على محمل الجد.

توجد أسباب كثيرة للفشل الذريع الذي مُنيت به الاستخبارات الإسرائيلية، وهو

إسرائيل أيضاً. لو أن وزير الطيران المدني المصري لم يعطِ أوامر بتغيير مواعيد الرحلات وتوجيه الطائرات إلى ليبيا؛ لو أن محمد نصير لم يسمع بذلك الأمر من المدير التنفيذي لفرع الخطوط الجوية المصرية في لندن؛ ولو أنه لم يكن على علم بوجود مروان في المدينة ولحق به إلى الفندق ليطلع على ما يعرفه عن الموضوع، لربما كانت نتيجة الحرب مختلفة كلياً. فقط من خلال تسلسل كل تلك الأحداث أصبح بإمكان مروان إخبار زامير في تلك الليلة بأن الحرب ليست في طريقها فقط بل إنها ستقع في اليوم التالي. لو بقي تحذيره من دون تحديد موعد دقيق، لكان من الصعب أن نصدق أن تقرير زامير في تلك الليلة قد أطلق عملية آلت بنتيجتها الأمور إلى استدعاء قوات الاحتياط الإسرائيلية، بالإضافة للقرارات المصيرية الأخرى التي اتُخذت في الساعات الأخيرة قبل الهجوم.

الجهود المصرية المبذولة لإبقاء موعد الهجوم سراً كانت شاملة وفعالة بشكل ملحوظ، إذ التزموا بشدة بمبدأ «الحاجة للمعرفة». وأحد الأمثلة على ذلك، وزير الخارجية محمد حسن الزيات، الذي لم تكن لديه أدنى فكرة بأن الحرب ستندلع في 6 تشرين الأول لأنه كان في الأمم المتحدة في نيويورك وخارج إطار الحلقة المسؤولة عن تحركات الجيش[7]. كان السادات حريصاً أيضاً على إبقاء موعد الحرب سراً عن بقية القادة العرب، ومنهم الملك فيصل المقرَّب جداً منه، وأيضاً معمر القذافي الذي كان مصدر إزعاج كبير له. فإذا كان قائدا المملكة السعودية وليبيا لا يحتاجان للمعرفة، فكذلك إذاً حال الرجل في المكتب الرئاسي المسؤول عن العلاقات مع هذين البلدين. صحيح أن لمروان مصادر خاصة ممتازة يمكن أن تزوده بالمعلومات، لكن حتى هم ربما انقطعوا عنه أو احتفظوا بالمعلومات لأنفسهم. وبالرغم من وجود مزيد من الأشخاص في مكتب السادات قد يعرفون أن موعد الهجوم قد اقترب أكثر، إلا أن مروان كان قد غادر البلاد في 3 تشرين الأول، حين

وهذا أحد الأمثلة.

المصادر الأخرى التي أبلغت إسرائيل في أواخر 1972 ثم في ربيع 1973 بأن الحرب باتت وشيكة، والتي حدد بعضها مواعيد دقيقة، لم تعطِ تحذيرات مشابهة في خريف 1973. السبب الأرجح لذلك هو أن السادات بذل جهداً أكبر هذه المرة لإبقاء الأمر سراً. كان اطلاع مروان أكبر من أي مصدر آخر لإسرائيل في مصر في تلك الفترة، لكن حتى ذلك لم يكن كافياً لضمان معرفته بجميع الأسرار. والأكثر من ذلك أنه هو نفسه ارتكب أخطاءً في الماضي. على سبيل المثال، عند أبلاغه في أواسط كانون الثاني 1973 عن الهجوم المفترض حدوثه في أيار المقبل، قال إن مصر لا تنوي أبداً عبور قناة السويس؛ وأيضاً حين أبلغ في بداية أيلول 1973 بتأجيل الحرب حتى نهاية العام.

هكذا يصبح مستبعداً عدم علم مروان لغاية الجمعة، 5 تشرين الأول، بأن الحرب ستندلع في اليوم التالي، وفقط بنتيجة تغيير مواعيد رحلات الخطوط الجوية المصرية. كانت الاستخبارات الإسرائيلية قد عرفت بالأمر غير الاعتيادي الموجه إلى شركة الخطوط الجوية، لكن لم يتم ذكر ذلك في أي تقرير استخباراتي ورد يوم الجمعة. لقد كانت إسرائيل محظوظة بوصول الأخبار إلى الملاك أيضاً، لأنه كان يعرف ماذا يمكن أن تعني، وبمن سيتصل لإطلاعه على التفاصيل. وكانت النتيجة عند لقائه بزامير في تلك الليلة أنه كان يمتلك معلومات استخباراتية دقيقة – معلومات ستؤدي، لمرة واحدة وأخيرة، لتحطيم النموذج الذي أبقى على الاستخبارات الإسرائيلية، لأشهر طويلة، أسيرة قناعة بأن الحرب مستبعدة الحدوث.

في تمام الساعة 5:45 من صباح الجمعة، 5 تشرين الأول، أرسلت الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية تقريراً، بناءً على تقرير صور استطلاع جوي مأخوذة في اليوم السابق، عن الانتشار المصري الحالي على طول قناة السويس. الجملة الأخيرة

وزير الدفاع دايان شاهد التقرير مباشرة بعد صدوره. فقال: «قد يصاب المرء بصدمة، فقط من مجرد النظر إلى الأعداد». هذا التقرير، إضافة إلى سيل من الاستخبارات الأخرى تتحدث عن الإجلاء غير المفهوم للقوات السوفييتية من سوريا ومصر، شكّلت الموضوع الرئيسي في الاجتماعات التي عُقدت عشية عيد يوم الغفران.

في ساعات الصباح الباكر أجرى رئيس الاستخبارات العسكرية عيزرا اجتماعاً في مكتبه. كان واضحاً أن قلق عيزرا الأكبر ينصب على الانسحاب السوفييتي أكثر من عمليات الانتشار على الجبهة الجنوبية – التي تتضمن تجهيزات لإقامة جسور على القناة. السؤال الذي برز خلال هذا الاجتماع كان عن ضرورة تفعيل «الوسائل الخاصة لجمع الاستخبارات» التي كانت تحت القيادة والمسؤولية المباشرة لرئيس الاستخبارات العسكرية. كانت طبيعتها الخاصة سراً، لكن بحسب هاورد بلوم في كتابه «حرب يوم الغفران»، كانت عبارة عن «سلسلة من الأجهزة تعمل على البطاريات تتصل بالهواتف وأكبال الاتصالات المطمورة عميقاً في الرمل خارج القاهرة». وهي قادرة على التقاط ليس فقط إشارات الهاتف والتلغراف بل وأيضاً الأحاديث التي تجري في الغرف التي تم فيها وضع أجهزة الهاتف والتلكس. المشكلة كانت في أن الاستخدام المستمر لهذه الأجهزة يتطلب استبدال البطاريات من حين لآخر، وهي عملية خطيرة في عمق أراضي العدو لا تريد الاستخبارات العسكرية المغامرة بها[8]. وبحسب أحد المصادر الإسرائيلية، تمت زراعة تلك الأجهزة في 16–17 شباط، 1973، في جبل عتاقة، غرب مدينة السويس، بالقرب من مقر قيادة الجيش الثالث المصري، على يد فريق مغاوير وصل إلى الموقع بواسطة أربع مروحيات CH–53 أمريكية الصنع..[9]. في الاجتماع المنعقد صباح 5 تشرين الأول، رفض عيزرا، الذي كان لا يزال يعتقد بعدم احتمال وقوع الحرب، الطلبات بشأن تشغيل الأجهزة.

ثم، في الساعة 8:25 صباحاً، عُقد اجتماع موجز في مكتب رئيس هيئة أركان

الاستنفار 3، وهو أعلى مستوى استنفار منذ حرب النكسة. ووضع القوى الجوية أيضاً في حالة الاستنفار القصوى، بنقل بقية اللواء المدرع السابع إلى مرتفعات الجولان، وإرسال لواء دبابات آخر إلى سيناء. أما استدعاء قوات الاحتياط فكان يتطلب موافقة الوزارة، ولم يكن ذلك ممكناً بعد. لكن الاستنفار من المستوى 3 كان يعني اتخاذ كل التحضيرات استعداداً للتعبئة العامة. من الواضح أن عيزرا لم يذكر حتى تلك اللحظة التحذير الذي استلمه زامير من مروان، ومن غير الواضح ما إذا كان عيزرا يعرف به أصلاً حين اتخذ قراراته.

في التاسعة صباحاً، عُقدت جلسة الإحاطة الأمنية الأسبوعية في مكتب وزير الدفاع موشيه دايان. قدَّم عيزرا لمحة عن الاستخبارات، مُركزاً مرة أخرى على الانسحاب السوفييتي أكثر من الوضعية الهجومية التي يتخذها الجيش المصري على طول القناة، والتي اعتبرها انعكاساً للقلق المصري من احتمال قيام إسرائيل بضربة استباقية كتلك التي مُنيت بها القوى الجوية المصرية في الدقائق الأولى من حرب النكسة. في ذلك الاجتماع قام عيزرا بإخبارْ الآخرين عن رحلة زامير الطارئة إلى لندن، وقال إنهم بانتظار ورود تقريره في تلك الليلة، وعندها «سنصبح متعقلين أكثر».

خلال الاجتماع، سأل دايان عيزرا إن كانت الوسائل الخاصة لجمع الاستخبارات قد قدَّمت أي شيء مفيد، لكن عيزرا لم يكتف فقط بعدم إخباره بعدم تشغيلها بعد، بل جعل دايان يُصدِّق أنها فشلت ببساطة في إعطاء أي مؤشر على الحرب. وكان من شأن عبارة عيزرا المضللة أن تهدئ من مخاوف دايان من وقوع هجوم وشيك. ولكونه اقتنع بأن الأجهزة تعمل لكنها لم تعطِ أي تحذيرات، أصبح منطقياً بالنسبة إليه الاستنتاج بأن مصر ليست على أهبة الهجوم. أما بالنسبة إلى رئيس هيئة الأركان إلعازر، الذي كان موجوداً ويعرف كل شيء عن الأجهزة الخاصة، فاقتصر في كلامه على تأكيد ما كان قد سمعه قبل ثلاثة أيام، أي الثلاثاء. علماً بأن إلعازر كان قد سأل

لـم يكن سـوء الفهـم هذا بسـيطاً. كان عيزرا تحت ضغط من كبـار الضباط في الاستخبارات العسكرية لتشغيل الأجهزة، وقد رفض ذلك لكونه لم يشعر أن الظروف تسـتدعي تشـغيلها، لأنه لا توجد، بحسب قناعته، أي تهديدات بحرب وشيكة. لكن بكذبـه علـى رؤسـائه فقد أسـهم بشـكل مباشـر وكبير في اسـتخفاف دايـان وإلعازر بخطورة التهديد الحالي[10].

خـلال الاجتمـاع، أعطى دايـان موافقته على القـرارات المختلفـة التي اتخذها إلعازر، وقرر أيضاً أنه ينبغي إرسال رسالة عبر واشنطن إلى كل من موسكو والقاهرة ودمشق يوضح فيها عدم وجود أي نوايا عدائية من طرف إسرائيل لكنها واعية تماماً للتحـركات الجاريـة على الجانب العربي، وأنه في حال إقدام العرب على أي هجوم فسيجدون إسرائيل جاهزة للمعركة.

طُرحَت مسـألة استدعاء قـوات الاحتياط أيضاً فـي هذا الاجتمـاع، وأيضاً في الاجتماع التالي، في العاشرة صباحاً في مكتب رئيسة الوزراء ضمن مقر قيادة الجيش في تل أبيب. هنا تولى إلعازر القيادة، فأطلع رئيسة الوزراء غولدا مائير عن الإجراءات التـي تـم اتخاذها استعداداً للحـرب، وقال إنه لا توجـد حالياً حاجـة للتعبئة العامة، فحين يصبح الهجوم المصري والسوري وشيكاً ستتمكن وسائل جمع الاستخبارات وعمـلاء الموسـاد مـن معرفة ذلك وإعطاء إشـارة واضحة عليه. وختـم كلامه قائلاً: «سوف نستعد للحرب، ونأمل أن تصل المؤشرات قبل وقت كافٍ». عبَّرت مائير عن قلقها لكنها أيدت موقفه ووافقت على الرسالة التي يريد دايان إرسالها إلى السوفييت والمصريين والسوريين عن طريق كيسنجر.

الاجتماع الخامس في ذلك اليوم كان على نطاق أوسـع بكثير، إذ ضم الوزارة كاملة. بدأ هذا الاجتماع غير المُدرَج على جدول المواعيد قرابة الساعة 11:30 صباحاً، وضـم كل مـن أمكنه الحضور من وزراء الحكومة. بعد أن قدَّم رئيس الاسـتخبارات

التـي تتخذها القوات المصرية والسـورية، مصحوبة بغيـاب كل ما يمكنه بوضوح أن يمنعهم من الهجوم، يفرض على الجيش الإسـرائيلي اتخاذ إجراءات مقابلة، بما في ذلك وضع الجيش على مسـتوى الاسـتنفار 3 ودفع التعزيزات إلى سيناء ومرتفعات الجـولان. «أمـا بالنسبة إلى اسـتدعاء قوات الاحتيـاط والإجراءات الأخـرى»، قال مضيفاً، «فنحن ننتظر مؤشرات أكثر» على اقتراب الحرب.

كان تطـور موقـف إلعـازر واضحاً من كلماته. فبينمـا كان في أول ذلك الصباح مقتنعاً بأن وضع الجيش في حالة الاستنفار الكامل ونشر مزيد من القوات على طول الجبهتيـن يكفـي للتعامـل مع التهديـد الحالي، بدأ مع مضي السـاعات يتحدث أكثر فأكثـر عن اسـتدعاء قوات الاحتيـاط. وعلى ضوء إمكانية القيام باسـتدعاء الاحتياط خـلال عطلة يـوم الغفران، منحت الوزارة رسـمياً الصلاحية الكاملة لرئيسـة الوزراء ووزير الدفاع لاتخاذ مثل هذا القرار بأنفسهم، وهو قرار كان يتطلب في العادة موافقة كامل الحكومة.

الاجتمـاع الأخيـر في ذلك اليوم كان اجتماعاً طارئاً لقادة الجيش الإسـرائيلي، وقد جاء مباشرة بعد الاجتماع الوزاري. في هذا الاجتماع، أخبر عيزرا كبار جنرالات الجيش أن «احتمال قيام سـوريا ومصر بشـن الحرب ضعيف جداً». والأكثر ترجيحاً برأيـه هـو هجـوم سـوري محـدود على مرتفعـات الجـولان، أو إطلاق نـار محدود مـن الجانـب المصـري، يمكن أن يكون على شـكل هجوم بالمروحيـات على طول قناة السـويس. الاحتمال الأضعف كان القيام بهجوم واسـع مشـترك بين المصريين والسوريين معاً يتضمن عبور قناة السويس بهدف الوصول إلى ممري متلا والجدي. هـذا التقييـم، المشـابه لمـا قدَّمه للـوزارة قبل نصف سـاعة، يتناقض تمامـاً مع تقييم شـعبة أبحاث الاسـتخبارات العسـكرية التي يعمـل فيها أفضل محللي اسـتخبارات الجيش. فشـعبة أبحاث الاسـتخبارات العسكرية كانت قد توصلت إلى قناعة مفادها

هذا الهجوم، وهذا ما يتفق مع الخطط المصرية والسورية التي كانت الاستخبارات العسكرية تعرف بها منذ مدة.

لكن إلعازر كان أكثر قلقاً بكثير من عيزرا. كان لا يزال يشعر أن احتمال وقوع الحرب ليس مرتفعاً، لكنه بالتأكيد ليس «ضعيفاً جداً» أيضاً. كان تفاؤله النسبي نابعاً من قناعته بأنهم «إذا كانوا ينوون حقاً الهجوم في وقت واحد من سوريا ومصر، فسوف تصلنا التحذيرات». هذه القناعة، كما تبدو الآن، كانت مبنية على درايته بالمصدرين الاستراتيجيين اللذين تستمد منهما إسرائيل معلوماتها الاستخباراتية وهما الوسائل الخاصة لجمع الاستخبارات، تحت إشراف رئيس الاستخبارات العسكرية، وملاك الموساد. لكن إلعازر لم يكن يعرف أن الوسائل الخاصة لم تكن تعمل، ومع أنه سمع عيزرا يذكر رحلة زامير إلى لندن، لكنه لم يوردها بالطريقة الملحَّة التي تناسبها. كما أن عيزرا لم يُخبر إلعازر بفحوى مكالمته الهاتفية مع زامير في الليلة السابقة. وبالنتيجة، لم ينتبه رئيس هيئة أركان الجيش طوال يوم الجمعة، بسبب الشهادة التي أدلى بها نائبه، إلى ذهاب زامير لمقابلة الملاك على خلفية تحذيرات بحرب وشيكة. ومن أجل نوعية التحذيرات التي تبرر استدعاء الاحتياط، كانت أنظار إلعازر مركزة على «الوسائل الخاصة لجمع الاستخبارات» التابعة للاستخبارات العسكرية.

المعلومة الاستخباراتية التي استطاعت تغيير مجرى الأحداث في ذلك اليوم تم التقاطها بواسطة جهاز مراقبة، لكن ليس من النوعية «الخاصة». في الساعة الخامسة من مساء الجمعة، اعترض أفراد من وحدة الاستخبارات 848 رسالة من السفير العراقي في موسكو إلى وزير خارجيته في بغداد. قال السفير إنه بحث مع وزير الخارجية السوفييتي سبب الإجلاء الطارئ الذي بدأ في اليوم الفائت فأخبره إن مصر وسوريا قد نبهتا السوفييت بأنهما بصدد شن حرب على إسرائيل. في الظروف العادية، كان سيستغرق إرسال مثل هذه الرسالة نصف ساعة من لحظة وصولها إلى

بمناسبة عيد الغفران. تردد الضابط المناوب، لأنه كان يخشى إرسال رسالة تؤدي إلى تعبئة عامة في يوم العيد. فبدأ التشاور مع ضباط وقادة آخرين، وبعد ست ساعات كاملة، أمر عيزرا بالاحتفاظ بها لأنه كان ينتظر معلومات إضافية[11].

تلك «المعلومات الإضافية» كانت، بالطبع، تقرير رئيس الموساد عن اجتماعه مع الملاك. في تلك الساعة بالضبط – 11:00 مساءً بتوقيت إسرائيل، 10:00 مساءً بتوقيت لندن – كان زامير ودوبي في طريقهما إلى مكان اللقاء. لم يكن زامير على علم بالتطورات الأخيرة التي حدثت في إسرائيل، ولم يكن يعرف بشأن صور الاستطلاع الملتقطة في اليوم السابق والتي تُظهر كامل الجيش المصري على أهبة الاستعداد للحرب. كما أنه لم يكن يعرف بسلسلة الاجتماعات التي تمت في ذلك اليوم في تل أبيب، والتي توضَّحت فيها أكثر حاجة إسرائيل الملحة لدليل واحد قوي يُؤكد أن مصر وسوريا ماضيتان للحرب، لكي يقوم قائد هيئة أركان الجيش بالتماس موافقة الحكومة على التعبئة العامة في يوم العيد. وعلاوة على ذلك، لم يكن زامير يعرف بأن تلك المعلومة قد وصلت إلى الاستخبارات العسكرية قبل ست ساعات لكنها لم تُوجَّه إلى رئيس هيئة الأركان؛ أو أن الأخير كان متوهماً بأن أجهزة المراقبة الخاصة كانت تعمل وهي ليست كذلك، وأنه بنتيجة ذلك قد رسم صورة مضلّلة بالكامل عن الاستخبارات برمتها.

أما ما كان يعرفه فهو وجود قلق عارم في إسرائيل من احتمال وقوع الحرب وأنهم بانتظار كلمته. لكن زامير لم يكن مستعداً تماماً للأخبار الدراماتيكية التي جلبها مروان.

كانت الساعة بحدود العاشرة مساءً بتوقيت لندن حين وصل دوبي وزامير إلى الشقة التي سيتم فيها اللقاء. كان عملاء الموساد، الذين اتخذوا مواقعهم قبل ساعات عدة، قد قاموا بتفقد سريع للمنطقة المحيطة بالمبنى. دخل دوبي وزامير وانتظرا. كان

بعد تبادل المصافحة والشكليات، جلس دوبي بجوار طاولة الطعام الكبيرة وبيده مفكرة وقلم. أما مروان فجلس في كرسي بجوار طاولة القهوة، مقابل زامير.

كان ذلك أول لقاء بين مروان ومشرفه منذ الهجوم الفاشل على الطائرة المدنية في روما الشهر الفائت. أراد الإسرائيليان التأكد من أن مصدرهما لم يكن يساوم، وأراداه أن يعرف أنهما في غاية القلق. لهذا كان السؤال الأول الذي طرحه زامير هو إن كانت قد أثيرت أي شكوك بعد أن داهمت القوات الإيطالية الشقة في أوستيا - مداهمة كان واضحاً أنها مبنية على تحذير مسبق - وإن كان السادات قد أبدى أي اهتمام بالسؤال عن كيفية معرفة الإيطاليين بالهجوم. أكد لهم مروان أن الحادثة لم تتسبب له بأي مشكلة، لكن على الأرجح أن السادات اكتشف أن مروان هو من أبلغ الإيطاليين؛ وبما أن مصر لم تكن مقتنعة بالعملية، فعلى الأرجح أن ذلك لم يزعج الرئيس. إلا أن أحداً لم يشك في أنه أخبر الإسرائيليين شيئاً.

لكن من الطريقة غير المترابطة التي كان مروان يرد بها على أسئلة زامير، كان واضحاً أن لدى مروان شيئاً ما يضغط عليه أكثر.

كان مروان متوتراً. «لقد أتيت إلى هنا»، كما قال: «لأتحدث عن الحرب، ولا شيء آخر. لقد تأخرت لأني أمضيت المساء بأكمله في قنصليتنا في كنسينغتون. كنت على اتصال مع القاهرة، محاولاً الحصول على أحدث المعلومات. إنه [السادات] ينوي شن الحرب غداً». من الطريقة التي عبَّر بها مروان عن نفسه فيما بعد، يمكن للمرء أن يشعر إنه كان يعتقد بأن الإسرائيليين كانوا على علم بذلك. كانت القناعة السائدة لدى المصريين هي أن الإسرائيليين سيعرفون بأمر الهجوم قبل يومين كاملين منه. لكن من الوارد أيضاً أنه كان يحاول أن يتحاشى حقيقة أنه - بالرغم من تقديمه نفسه كمصدر إلهام لكل المعلومات التي تستحق معرفتها عن مصر - هنا الآن، قبل أقل من أربع وعشرين ساعة على الهجوم، ولم يعرف بأمره إلا قبل بضع ساعات.

للحـرب. لكنـه لـم يكن يتخيـل أبداً أن الهجوم سـيكون بعد أقل من أربع وعشـرين ساعة. كما كان قلقاً أيضاً من احتمال أن يكون هذا التحذير، كما غيره من التحذيرات السابقة، مجرد إنذار كاذب. لذلك كان رده الفوري هو، «على ماذا تبني تأكيدك؟»

بالنسـبة إلى مروان، الذي كان قد أعطى سـابقاً إنذارات خاطئة بقرب الحرب، كان واضحـاً أنـه يهتـم بمصداقيته في أعين الإسـرائيليين وبصورتـه كلاعب مركزي فـي القاهـرة. لكـن لم يكـن واضحاً من أين حصـل على معلوماتـه؛ بمعنى آخر، مع مـن أجـرى تلك المكالمـات الهاتفية طوال المسـاء. ولأن معلوماته كانت مبنية على مكالمـات هاتفيـة وليس على مقابلات شـخصية، يصبح من المنطقي جداً الافتراض بأن ما سمعه قد تمت صياغته بعناية أو حتى بشكل ملتبس. هو لم يقضِ الأيام الثمينة السـابقة للحـرب فـي حضرة السـادات، وبالتالي لا يمكنه أن يعـرف كيف كان الجو في مكاتب الرئاسـة، حيث يوجد أشـخاص يعرفون مسـبقاً بالسـر. التعارض ما بين المعلومات التي وصلته، والتي لا يشك بمصداقيتها، ومعرفته الوثيقة بنفسية السادات – كان الرئيـس قـد غيَّـر رأيه مرات عدة بخصوص موعد الهجوم – ترك أثره الواضح عليه. وكلما ضغط زامير عليه ليعطي رأيه الخاص المسـتقل إن كانت الحرب سـتقع فعلاً في اليوم التالي، بدا الاضطراب أكثر على مروان، وراح يرفع صوته في أكثر من مناسـبة. «كيف لي أن أعرف؟» وهو يصيح. «إنه [السـادات] مجنون. من الممكن أن يسير للأمام، ويقول للجميع إنه يسير للأمام، ثم فجأة يسير للخلف». لم يكن مروان يرفع صوته فقط بسـبب شـعوره بالإحباط من عدم قدرته على إعطاء جواب مباشـر على أهم سؤال يُطرَح عليه في كل حياته كجاسوس، بل أيضاً ليعبِّر عن اشمئزازه من السادات وميله لعدم احترامه واعتباره ليس أهلاً للثقة.

كان قلق زامير من الصراع الداخلي الذي يعيشه مروان أقل من قلقه بخصوص مـا إذا كانـت الحرب سـتندلع في اليوم التالي. كان ضابطـاً رفيعاً في الجيش في عام

سـوريا ومصـر بتعبئـة عامـة رداً على تلك الخطـوات، ما أدى إلى تصعيـد التوتر في كامل المنطقة. تلك الحادثة، المعروفة باسـم ليلة البط، وضعت نهاية للحياة المهنية لقائد عملية الجيش الإسرائيلي، اللواء مائير زوري، ورئيس الاستخبارات العسكرية، اللواء ياهوشـافط هاركابي. أثناء حديث زامير مع مروان، كانت تمر في ذاكرته صورٌ عن تلك الحادثة. وأدرك أن ليلة البط ستبدو مثل مسرحية بسيطة بالمقارنة مع تحرك طـارئ خاطـئ بقصد الحـرب في يوم عيد الغفران نفسـه. كان باسـتطاعته أن يتخيل رد الفعل العالمي على قيام الجيش الإسـرائيلي بسـحب عشـرات الآلاف من جنود الاحتياط خارج دور العبادة وإرسالهم إلى الجبهة في انتظار هجوم عربي لن يحدث أبداً. سـيكون الثمن باهظاً جداً. أدرك زامير أن الوقت قد حان للضغط على مصدره قدر المستطاع للتأكد من أن التحذير يستند إلى أرضية صلبة.

عدم الارتياح الذي كان يشعر به مروان لم يساعد على تهدئة روع زامير، وأدرك بسرعة أن عليه الاعتماد على خبرته الشخصية، مع أنه لم يكن معتاداً على إعطاء رأيه الشـخصي. أمـا زاميـر الذي لم يكـن يعرف ماذا حدث في إسـرائيل منذ مغادرته إلى لندن، لكن ليس لديه ما يدفعه للاعتقاد بأنه قد تم بالفعل اسـتدعاء قوات الاحتياط، أدرك أن تحذيـراً واضحـاً مـن اندلاع الحرب فـي اليوم التالي لن يتـرك أمام صانعي القـرار أي بديل سـوى التعبئة العامـة الطارئة. وهكذا، مع أنه رئيس الموسـاد وليس رئيسة الوزراء وحكومتها، شعر أن مسؤولية قرار الحكومة بأكملها ملقى على عاتقه. لكن زامير كان أيضاً جنرالاً سابقاً وخدم كقائد للمنطقة الجنوبية في الجيش، ويعرف تماماً ماذا يعني صد هجوم عربي من دون استدعاء قوات الاحتياط.

قريباً من نهاية الاجتماع، كان قد اتخذ قراره. سوف يرسل إلى إسرائيل تحذيراً صريحاً بأن مصر وسورياً تنويان شن هجوم كامل في اليوم التالي.

هذا القرار كان كفيلاً بتغيير مجرى أحداث حرب أكتوبر.

الحرب كانت محفورة في ذاكرته وقد تأكد منها للتو من وسيطه في القاهرة. لم يتغير شيء منذ آخر مرة أعطى فيها أحدث نسخة عن خطط الحرب لمشرفه قبل أسابيع عدة. ستقوم فرق المشاة المصرية بعبور قناة السويس والتقدم شرقاً قرابة عشرة كيلومترات. استفاض قليلاً في الحديث عن غارات المغاوير الجوية الهادفة إلى قطع التعزيزات الإسرائيلية القادمة إلى الجبهة، كما أكد أيضاً أن سلاح الجو المصري سيرسل قواذف توبوليف Tu–16 مزودة بصواريخ كيلت لضرب مقرات قيادة الجيش في تل أبيب. وهي معلومات كانت قد ظهرت في الخطط التي سلّمها سابقاً.

سأل زامير أيضاً عن ساعة الهجوم بالضبط (ساعة الصفر)، لكنه لم يتعامل معها كسؤال ضاغط. في جميع خطط الحرب المصرية التي رأتها إسرائيل منذ سنين، كانت ساعة الصفر دائماً عند غروب الشمس، وهو توقيت فيه شيء بسيط من ضوء النهار يسمح بالقيام بهجوم جوي على سيناء قبل أن يحل الظلام الذي سيمنع سلاح الجو الإسرائيلي من القيام برد فعال. وبحسب تقرير مروان، هذه المرة ستكون الخطة هكذا أيضاً. في 6 تشرين الأول 1973 كان موعد غروب الشمس هو 5:20 مساءً بتوقيت إسرائيل.

لكن ما لم يكن يعرفه لا مروان ولا مشرفه هو الاجتماع الذي عقده قبل يومين وزير الدفاع المصري مع الرئيس السوري واتفاقهما على شن الهجوم في الساعة الثانية عصراً، كحل وسط بين المتطلبات الميدانية السورية والمصرية.

دام اللقاء لأكثر من ساعتين. عاد مروان إلى فندقه، وظلت أعين عملاء الموساد عليه. وفي اليوم التالي، السبت، عاد إلى مصر. أما زامير ودوبي، اللذان أمضيا طيلة فترة الاجتماع وهما يكتبان كل كلمة، فتوجها مباشرة إلى منزل مدير فرع الموساد في لندن، على بُعد عشر دقائق سيراً على الأقدام. أثناء الطريق، تساءل زامير بصوت

وصلا إلى شقة رافي، مدير الفرع، الذي كان بانتظارهما. استغرق زامير بضع دقائق ليصوغ بعناية، وبخط اليد، الرسالة المشفرة التي سيرسلها إلى قائد أركانه، فريدي عيني، الذي ينتظر في منزله بإسرائيل. كان حاضراً أيضاً تسفي ملحين، المسؤول عن تأمين الاجتماع مع مروان. حين رأى ملحين الرسالة التي كتبها زامير، ذكَّره بليلة البط عام 1959، وكأن زامير كان بحاجة للتذكير، وما حدث للمسؤولين عنها. لكن ملحين أيضاً كان مقتنعاً بأن الحرب قادمة، وقد اتصل قبل ساعات من الحرب بزوجته في تل أبيب وطلب منها أن تبحث عن منزل مجاور فيه ملجأ مضاد للقذائف لتحتمي فيه، لأنه لا يوجد في منزلهما واحد كهذا.

اتصل زامير بفريدي عيني. بحلول عام1973 تم تفعيل الاتصال المباشر بين لندن وإسرائيل، ولم تعد هناك حاجة لمُشغِّل دولي. كانت الساعة الآن بحدود الثالثة فجراً، أي بعد أربع وعشرين ساعة تماماً على اتصال عيني بزامير لإخباره بأن الملاك يطلب مقابلة عاجلة في لندن للحديث عن المواد الكيميائية. كان مهماً جداً بالنسبة إلى زامير أن يفهم عيني الآن كل كلمة يقولها، وأن يتحرك بأسرع ما يمكن لتنفيذ ما ورد في الرسالة. حين أجاب عيني، قال له زامير أولاً، «ضع قدميك في ماء بارد»، أي كن في أقصى درجات اليقظة الآن. وحين أكد له عيني أنه متنبه تماماً أملى عليه زامير الرسالة كما كتبها بالضبط. وهذا نصها الكامل:

اتضح أن الشركة تنوي توقيع العقد اليوم قبل حلول الليل.
إنه نفس العقد، بنفس الشروط التي نعرفها.
هم يعرفون أن غداً عطلة عيد.
يظنون أن بإمكانهم الهبوط غداً قبل حلول الظلام.
تكلمت مع المدير، لكنه لا يستطيع تأجيله بسبب التزامه مع بقية المدراء،
وهو حريص على الوفاء بالتزامه.
سأوافيك بجميع شروط العقد

برأي الملاك، احتمال التوقيع هو 99.9 بالمائة، لكن من ناحية أخرى، هو ما بين بين[12].

في تلك الأثناء أعد دوبي تقريراً عن الاجتماع. وحين انتهى منه، ذهب إلى السفارة الإسرائيلية في بالاس غرين وسط لندن ليقوم بإرساله عبر غرفة التشفير. بحسب بعض الروايات، لم يكن هناك أحد مناوب في غرفة التشفير بسبب عيد الغفران، وكان عليهم الانتظار حتى يظهر أحدهم. لكن في الحقيقة، كان مدير المحطة هناك في انتظارهم، وتم إرسال التقرير إلى مقر الموساد في تل أبيب خلال ساعات الصباح الباكر. تضمن التقرير تكراراً لتحذير زامير بأن الحرب ستندلع لاحقاً في ذلك اليوم، وأضاف أن المصدر قال إن السادات قد يغير رأيه في آخر دقيقة. وغير ذلك، كانت الرسالة الرئيسية هي أن هدف مصر من الحرب كان مقتصراً على استعادة منطقة بعرض عشرة كيلومترات شرق قناة السويس، وأنه لا توجد في هذه المرحلة أي نية للتقدم إلى ممري متلا والجدي.

عاد دوبي إلى شقته. كانت زوجته رونيت في انتظاره. كانت معتادة على مواعيده غير المتوقعة، لكن غيابه لفترة طويلة في منتصف ليلة العيد كان غير اعتيادي حتى بالنسبة إليه، ولا بد أن ذلك لسبب خطير. لم تكن بحاجة لطرح أسئلة كثيرة، فقد كان معتاداً على الصراحة معها. «إنها الحرب. لا احتفالات دينية».

كان ابنه عوفر قد بلغ في السن، والاحتفال الشعائري الخاص بتلك المناسبة، الذي كان من المفترض أن يتم في ذلك اليوم، كان أحد أوائل الضحايا، ولو أنه الأقل إيلاماً، في الصراع الذي سيبدأ في غضون بضع ساعات. لاحقاً في ذلك الصباح، منهكاً حدّ الإعياء، أوى دوبي أخيراً إلى الفراش.

أيقظته رونيت بعد الظهر بقليل. كانت الحرب قد بدأت.

الهجوم في الساعة الثانية ظهرا بتوقيت إسرائيل، «قفز إلى السقف»، كما تذكر لاحقا. من ناحية، كان ارتياحه بسبب ثقته بأن إسرائيل ستحقق نصراً مريحاً. لكن بالدرجة الأولى لأنه يستطيع الآن تنفس الصعداء لكون تحذيراته لم تكن مخطئة. بقي في لندن حتى يوم الأحد، حين سافر إلى قبرص، ومنها عائداً إلى إسرائيل على متن طائرة تم إرسالها خصيصاً له. لم يكن يعرف شيئاً عن مجريات الحرب وظل مقتنعاً بأن رسالته أتاحت لإسرائيل اتخاذ الرد المناسب. فقط حين قابل ناحوم أدموني، وهو ضابط رفيع في الموساد جاء للقائه في المطار، اكتشف كم كان مخطئاً.



الفصل العاشر

برج الحمام: التحذير والحرب

لم يحتجْ فريدي عيني للقهوة كي ينطلق بعد إنهاء مكالمته مع زامير. بدأ بسرعة باستعراض لائحة الاتصالات التي عليه إجراؤها. وكما وعد في الليلة السابقة، كان الاتصال الأول برئيس الاستخبارات العسكرية، إيلي عيزرا. فبما أن الاستخبارات العسكرية تُشكِّل مركز تبادل المعلومات لجميع الاستخبارات التي تجمعها الأفرع الإسرائيلية المختلفة، كان منطقياً أن يكون رئيسها أول من يستلم الرسالة. أصغى عيزرا بعناية وطلب منه أن يتصل في الحال برئيس شعبة الأبحاث، العميد أرييه شاليف، وأن يقرأها له كلمة كلمة. لكن قبل أن يفعل ذلك، تابع عيني بحسب اللائحة. فاتصل بالسكرتير العسكري لغولدا مائير، إسرائيل ليور، وأيضاً بمعاون وزير الدفاع، أرييه أرييه براون. ثم اتصل بأرييه شاليف، كما طلب منه عيزرا. يتذكر عيني بعد سنوات كيف أن شاليف، الذي لم يكن مسروراً أبداً لإيقاظه، طلب منه إحالة الرسالة إلى مركز التقارير والنشر في الاستخبارات العسكرية، وهم سيتكفلون بها. من الواضح أن رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية كان لا يزال غير مدرك لحجم الأزمة. بعد برهة، ونوع من العدائية في الكلام من طرف عيني، وصلت الفكرة لشاليف فدوَّن لديه الرسالة التي أملاها عيني عليه.

لم يكن رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي على قائمة عيني، لكنه استلم الرسالة من مساعده الخاص أفنير شاليف الذي سمعها من العميد يهوشع رفيف، السكرتير العسكري لوزير الدفاع. اتصل كل من دايان وليور بعيني ثانية لسماع

لهجوم توقعوا وقوعه في المساء التالي[1].

إلى أي مدى نجح فعلاً تحذير أشرف مروان، وهو أوضح تحذير مُسبَق بوقوع الحرب تتلقاه إسرائيل يوماً، في تبديد التصور بأن مصر لن تشن حرباً أبداً طالما أنها لم تمتلك الطائرات بعيدة المدى وصواريخ سكود؟ إنه ليس مجرد سؤال أكاديمي. فبعد أن تكشّفت أحداث ذلك اليوم، اتضح أن كل لاعب رئيسي قد تصرَّف تبعاً لرؤيته الخاصة لمدى الجدية التي عليه أن يأخذ بها تحذيرات مروان، وفي بعض الأحيان لدرجة تجاهل الأوامر المباشرة.

ابتداءً من الصباح الباكر ليوم 6 تشرين الأول، عقد صانعو القرار الرئيسيون في إسرائيل مع معاونيهم اجتماعات مكثفة في المقرات الخاصة برئيس هيئة أركان الجيش، ووزير الدفاع، ورئيسة الوزراء – ثلاثة أبنية لا تبعد بعضها عن بعض سوى بضعة أمتار ضمن مجمَّع الدفاع في تل أبيب المعروف بين الإسرائيليين باسم «الحرَم». من بين الأسئلة المطروحة، هيمن اثنان منها على النقاشات. الأول بخصوص الاستدعاء الطارئ لقوات الاحتياط؛ أما الثاني فكان بشأن قيام سلاح الجو الإسرائيلي بضربة استباقية بهدف إبقاء المبادرة العسكرية بيد الإسرائيليين، تماماً كما حدث بنجاح كبير مع بداية حرب النكسة عام 1967.

المسألة المهمة بالنسبة إلى رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي كانت تحذيرات مروان التي أزالت جميع الشكوك بشأن الحرب. من اللحظة التي أيقظه فيها مساعده عند الرابعة والنصف من هذا الصَباح، حضَّر إلعازر نفسه لحريق سوف ينشب لاحقاً في ذلك اليوم. وفي غضون ساعة ونصف، أصدر أوامره بشأن استعداد قائد سلاح الجو لضربة استباقية تُشَن عند الساعة الحادية عشرة صباحاً، الموافقة على استدعاء احتياطي سلاح الجو، وإجراء التحضيرات اللازمة من أجل استدعاءٍ أوسع لاحتياطي الجيش. كما أمر أيضاً باستعدادات أكثر للحرب، إن كان على خطوط الجبهة الأمامية

خطوتيـن فـي غاية الحساسـية، بناء على المعطيـات الحالية، هما الضربة الاسـتباقية والتعبئة العامة للاحتياطي.

إلا أن إلعازر بالـغ قليلاً في اندفاعه مقابل شـكوك دايان بخصوص صحة تحذيـرات مـروان وأرجحيـة وقـوع الحـرب. فبعكـس اندفـاع إلعـازر لاتخاذ الإجـراءات، أصـر دايـان علـى التـروي قليـلاً. فـي بدايـة اجتماعهمـا، تناول دايـان قضايـا أقل إلحاحـاً، مثل إجلاء الأطفال (على شـكل «نزهة حقلية») من المسـتوطنات المدنيـة علـى مرتفعـات الجولان، واسـتعدادات قـوات الدفاع المدنـي لاحتمـال هجمات مصرية بصواريخ سـكود. وبعدهـا فقط التفت إلى الطلبيـن اللذيـن طلبهما إلعازر. تعامل مع الضربة الاسـتباقية بسـطحية ووافق فقط على استدعاء محدود للواء احتياطي واحد من أجل تعزيز الجبهة الشمالية. وبعـد كثيـر من الأخذ والرد بينه وبين إلعازر، الذي طالب باسـتدعاء أربع فرق على الأقل.

لكـن لمـاذا رفض دايان طلبات إلعازر؟ الأسباب التي قدمها تشـرح ذلك. لقد رفض طلب الضربة الاستباقية، كما قال، لأنه «بناءً على المعلومات التي لدينا حالياً، لا يمكننا القيام بذلك». بمعنى آخر، ما ميز دايان عن إلعازر لم يكن السـؤال عما إذا كانت مثل تلك الضربة ضرورية لإحباط الهجوم العربي بل إن كان ذلك الهجوم آتياً فعـلاً أم لا. إلعـازر كان مقتنعـاً بـأن الحرب باتت حتمية، ولذلـك لا مفر من الضربة الاسـتباقية. أمـا دايان فرأى أنها واحدة من احتمـالات عدة، ولذلك عارض الضربة. والشيء نفسه بالنسبة إلى استدعاء الاحتياطي. كان دايان رجلاً حذراً جداً، ولـم يكن مقتنعاً بقدرة إسرائيل على الفوز بالحرب بجيشها المتأهب حالياً لوحده. لكن رفضه لطلـب إلعـازر جـاء من تقديره بأن احتمال وقوع الحـرب كان أقل من أن يبرر التعبئة العامـة. «لا يمكنـك اسـتدعاء كامـل النظام»، قال له، «فقط بسـبب بضع رسـائل من

إيلي عيزرا. انضم عيزرا إلى الاجتماع في الساعة السابعة صباحاً وأوضح أنه، برغم ظهور مؤشرات أكثر على توجه سوريا ومصر نحو عملية عسكرية، فهو لا يزال غير مستعد لقبول فكرة أن الحرب وشيكة. وأضاف إن السادات، من وجهة نظر سياسية استراتيجية، ليس بحاجة لها. بعد خمس عشرة دقيقة، وفي بداية اجتماع تشكّل على عجل لقادة الجيش، أعاد عيزرا طرح نظريته بأن شن حرب من طرف السوريين والمصريين سيكون عملاً لاعقلانياً، لكن من واجب الجيش أن يتخذ بعض التدابير الخاصة به مقابل عمليات الانتشار التي يقومون بها. وفي الاجتماع مع رئيسة الوزراء، الذي بدأ بعد الثامنة صباحاً، كرر عيزرا قناعته بأنه حتى لو كانت سوريا ومصر مستعدتين للحرب من الناحيتين التقنية والعملانية، فإن السادات غير ملزَم بها وهو يعرف أنه سيخسر إن هاجم.

من جميع تلك العبارات يتضح أن رئيس الاستخبارات العسكرية، برغم حقيقة أن تحذيرات مروان (والتطورات الأخيرة) قد ساهمت في رفع تقديره لاحتمال وقوع الحرب بدرجة ما، فهو لا يزال متمسكاً بمجموعة القناعات نفسها التي كانت لديه منذ أن تولى منصبه قبل عام، وأنه لا يزال على شكه بأن حرباً ستقع في ذلك اليوم. هو كان يعتمد في ذلك، إلى حد ما، على مساهمة رئيس الفرع 6 (مصر) في شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية، المقدم يوناح باندمان، الذي استمر عيزرا في الاستناد إلى خبرته وحكمه بخصوص نوايا مصر حتى الدقيقة الأخيرة. أما باندمان فقد ظل، حتى وقت متأخر من صباح ذلك اليوم، على قناعته بأن مصر لا ترى أي سبب يدفعها إلى الحرب، بل ورفض أمراً من رئيس أبحاث الاستخبارات العسكرية بتحضير تقرير يقول إن احتمال وقوع الحرب مرتفع جداً. في النهاية، تم إعداد ذلك التقرير من قِبل ضابط آخر، بينما كتب باندمان تقريراً مخالفاً خاصاً به يشرح فيه السبب في

برغم كل شيء، كان لا يزال يعتقد أن الحرب في ذلك اليوم كانت مستبعدة جداً[3].

أما إلعازر، بالمقابل، فقد أخذ تحذيرات رئيس الموساد على محمل الجد. وكان رأيه أنه ما من وقت لإضاعته. حوالى الساعة 7:45 صباحاً، وبعد حضور اجتماع قادة الجيش، تحدث لدقائق عدة، على انفراد، مع قائدي المنطقتين الجنوبية والشمالية، اللواء شمويل غورين واللواء إسحاق هوفي، بالترتيب. وأمرهما بأن يُحضِّرا ضباطهما لحرب ستبدأ لاحقاً في ذلك اليوم نفسه.

أما رئيسة الوزراء غولدا مائير فلم تكن من جهتها مع تردد عيزرا ودايان. وقد عبَّرت، مثل إلعازر، عن ثقتها الكاملة برسالة زامير حول اجتماعه مع مروان، وكانت ترى أن الجواب عن السؤال عما إذا كانت الحرب قادمة في ذلك اليوم هو أنها متوقعة جداً. بعد وصولها إلى مكتبها في مقر قيادة الجيش في تل أبيب، طلبت رؤية وزير الدفاع في الحال. في البداية رفضَ لقاءها قبل الساعة العاشرة أو الحادية عشرة صباحاً، ثم وافق على لقائها في وقت أبكر بعد إلحاحها.

بدأ الاجتماع في مكتب غولدا مائير بعد الثامنة صباحاً بقليل، وهناك عرض كل من إلعازر ودايان موقفهما. كان دايان مراوغاً هذه المرة أيضاً، فبدأ بطرح مسائل تتعلق بإخلاء المدنيين والاستعدادات على الجبهة الداخلية. أما إلعازر، بالمقابل، فلم ينتَقِ الكلمات بخصوص احتمال وقوع الحرب، وقال: «قرأت الرسالة الواردة من رجُل زفيكا [زامير]. الرسالة واقعية. بالنسبة إلينا، هذا إخطار مختصر جداً»[4]. وطالب باتخاذ إجراءات فورية وحاسمة.

كانت مائير سريعة في اتخاذ قرارها. لقد قبِلَت موقف دايان الرافض للضربة الاستباقية المقترحة، مخافة أن ينظر العالم، وخاصة الولايات المتحدة، على أنها هي المعتدية. فهذا، بحسب قناعتها، سيُصعِّب كثيراً على الولايات المتحدة مساعدة

محضَر ذلك الاجتماع، هي لم تذكر أشرف مروان بشكل صريح، لكن في الأيام التي تلت ذلك قالت مرات عدة إنها بنت تقييمها على رسالة «صديق زفيكا»[5].

بحلول التاسعة صباحاً تم إصدار الأمر الأول، وبحلول العاشرة بدأت أجهزة الهاتف ترن في منازل الآلاف من قوات الاحتياط. وفي الساعات القليلة التالية أصبح الاستدعاء أكثر زخماً.

قد يعتقد المرء أن رأي عيزرا أصبح غير ذي أهمية بمجرد أن بدأ استدعاء قوات الاحتياط، لكن عند التدقيق جيداً في سجلات جلسات استماع لجنة أغرانات، بالإضافة إلى المصادر الأخرى، ستلاحظ أنه في مسألة في غاية الأهمية - هي نشر قوات الجيش النظامي على قناة السويس - كان للخطأ الذي اقترفه عواقب مميتة وحاسمة.

فرقة الدبابات المسؤولة عن قطاع سيناء في الجيش الإسرائيلي، الفرقة المدرعة 252، ضُبطت غير مستعدة حين بدأ الهجوم في الساعة الثانية عصراً. فقط كتيبة واحدة، كانت متمركزة بشكل اعتيادي عند حصن أوراكل في الطرف الشمالي من القناة شاركت في القتال. أما بقية دبابات اللواء الرابع عشر، التي من المفترض أن تكون على الجبهة الأمامية، فكانت في أطوار مختلفة من انتشار المعركة. ولواءا الدبابات الآخران، اللواءان 401 و406، كانا يتجهان إلى نقاط التقائهما الأمامية.

كانت الفرقة في حالة تأهب كامل منذ اليوم السابق، وكان قائدها، اللواء ألبرت ماندلر، يعتقد بناءً على الاستخبارات التي لديه، أن الحرب محتملة جداً. ولو أنه تلقى أمراً بالاستعداد فوراً للحرب حين أعطى عيزرا أوامره لقائد المنطقة الجنوبية اللواء غونين، لحرَّك ماندلر دباباته إلى مواقعها قبالة نقاط العبور المصرية في الوقت المناسب. أما السؤال عن مدى تأثير ذلك على مردود جبهة سيناء فهو أمر آخر، لكن ما من شك في أن ذلك كان أفضل بكثير، من وجهة نظر الإسرائيليين، مقارنة بما

العبور والتمركز على الضفة الشرقية.

في المرحلة الأولى من العبور تم نقل 32000 جندي مشاة بواسطة 720 زورقاً، قام كل واحد منها باثنتي عشرة جولة دائرية عبر القناة دامت أكثر من ست ساعات. ونتيجة عدم تواجد دبابات الفرقة المدرعة 252 في مواقعها، لم يتعرض المصريون أثناء عبورهم لأي نيران من الدبابات الإسرائيلية أو لأي هجوم معاكس مركَّز.

أعطى إلعازر أوامر للواء غونين بالاستعداد للحرب في ذلك اليوم، مع الافتراض بأن ساعة الصفر ستكون عند السادسة مساءً. تم إصدار الأمر في الساعة 7:45 صباحاً، وبعد حوالى العشرين دقيقة، اتصل غورين بماندلر، قائد الفرقة 252، وأمره بتنفيذ خطة اسمها برج الحمام، كان من المفترض أن تمكنه من الدفاع عن الخط الممتد على طول القناة باستخدام قوات الجيش النظامي، دون تحريك القوات من مواقعها. ثم تكلم مع ماندلر مرة ثانية بعد الساعة العاشرة صباحاً. وفي خرق مباشر لأوامر إلعازر، التي كان من المفترض بغونين بناءً عليها أن يجهز قواته لمعركة ستبدأ عند السادسة عصراً، قال غونين لماندر «ماذا تعني [ساعة الصفر]؟ هل هي نهاية تدريباتهم الضخمة؟ فتح النار؟ الدخول في حرب استنزاف جديدة؟ أو ربما غزو كامل؟ لكن يبدو ذلك مستبعداً». بمعنى آخر، لقد انتهك غونين أوامر إلعازر، تاركاً القوات في الميدان مع رسالة مختلطة بخصوص ما يتوجب عليها الاستعداد له بالضبط. الأسوأ من ذلك أن أوامر إلعازر كانت تتحدث عن استعداد كامل قيادة المنطقة الجنوبية للحرب في ذلك اليوم، بينما أمر غونين ألوية الجبهة الأمامية «عدم كسر الروتين قبل 1600 ساعة». وكانت النتيجة أنه حين وقع الهجوم عند الثانية عصراً، لم تكن هناك من بين الثلاثمائة دبابة في الفرقة سوى ثلاث، عند حصن أوراكل، في موقعها[6].

وهكذا عبرت القوات المصرية القناة دون خدش، إذا جاز التعبير. لكن كان

من تدمير الدبابات المصرية والعربات المدرعة التي كانت تتأهب لاقتحام الحصن، وتشتيت القوات التي تحاول اتخاذ أنساق الهجوم، ومنع سقوط الحصن[7].

بسبب الفشل في تطبيق خطة برج الحمام، تمكن المصريون من تنفيذ أخطر جزء من هجومهم، أي عبور القناة، من دون أي مقاومة أو خسائر تُذكر. حين وصلت الدبابات الإسرائيلية إلى المرابض التي كانت مُعدَّة لها من أجل شن الهجوم باتجاه الشمال أو الجنوب على طول القناة والإيقاع بالقوت المصرية التي تمكنت من العبور وتلك التي لا تزال على الضفة الغربية، اكتشفت أن كثيراً من تلك المواقع قد وقعت بيد قوات المغاوير المصرية التي راحت تطلق عليها الصواريخ المضادة للدبابات. خلال الليل، سقطت أعداد كبيرة من الدبابات الإسرائيلية وهي تحاول الدفاع عن الحصون التي كانت القوات المصرية قد طوقتها مسبقاً. النتيجة النهائية للمعارك الأولى مع حلول فجر السبت كانت أن تمكنت القوات المصرية من عبور القناة والتمركز على ضفتها الشرقية من دون خسائر تقريباً، بينما خسرت الفرقة المدرعة 252 من الجيش الإسرائيلي مائتي دبابة من أصل الثلاثمائة التي لديها دون أن تحقق أياً من أهدافها العملانية.

كانت تلك أسوأ خسارة للجيش الإسرائيلي منذ المحاولات الفاشلة للسيطرة على مخفر شرطة اللطرون أثناء المعارك في حرب 1948. لكن الفرق هنا هو أن الجيش الإسرائيلي كان يتفوق على أعدائه بالأسلحة والتدريب، وحتماً لم تكن أخلاقيات الجيش الإسرائيلي أدنى مما كانت عليه في حرب 1948. أما في حرب 1973 فترجع أسباب خسائر الجيش الإسرائيلي بأكملها إلى الفشل في فهم المعلومات الاستخباراتية، ما منعه من تقدير الخطر والاستعداد له قبل أيام من الهجوم، وخاصة الأوامر المرتبكة والخاطئة التي أصدرها اللواء غونين قبل ساعات من المعركة.

كيف يمكن أن نفهم ما فعله اللواء غونين؟ كيف يمكن لضابط معروف بأنه

أعطاه إياه رئيس الاستخبارات العسكرية إيلي عيزرا في الرواق قبل اجتماع قيادة الأركان في ذلك الصباح، أي قبل أن يعطيه إلعازر أمر الاستعداد للحرب. إذ قال إن عيزرا «أوضح له أنه لا يزال غير مقتنع بوقوع الحرب، وأن تحريك قوات الجيش الإسرائيلي هو ما قد يؤدي في الواقع إلى نشوبها»[8]. هذه الكلمات التي قالها غونين لماندلر عند العاشرة صباحاً، تنسجم مع آراء عيزرا التي عبَّر عنها في اجتماع هيئة الأركان يوم الجمعة، حين قال إن كان المصريون سيقومون بشيء ما فإما أن يكون «تبادلاً [بسيطاً] لإطلاق النار، أو نوعاً من الهجوم بالمروحيات... والأكثر ترجيحاً أن يكون تدريباً على العبور للإمساك بضفتي القناة».

باجتماع هذه الأدلة، يبدو واضحاً أن الوضع الكارثي الذي تطور عند قناة السويس خلال اليوم الأول من حرب أكتوبر، والذي كانت له عواقب بعيدة المدى سواء على المعركة في مرتفعات الجولان أو على مسار جهود سلاح الجو الإسرائيلي في إخراج مواقع الدفاعات الجوية من كلتا الجبهتين، كان نتيجة مباشرة لإصرار عيزرا على التمسك بالتصور القديم حتى بعد أن أكدت كل الأدلة على ضرورة التخلي عنه. وعلى اعتبار أن غونين اختار التصرف على ضوء تقييمات رئيس الاستخبارات العسكرية بدلاً من مجرد اتباع أوامر قائد الأركان، ضاعت تلك الساعات السبع، التي كانت ستسمح له، بفضل تحذيرات أشرف مروان، بنشر دبابات الفرقة المدرعة 252 بالشكل المناسب.

بالرغم من إضاعة تلك الساعات الثمينة من ناحية إحباط الهجوم الأول على قناة السويس، ليس لدينا شك اليوم في أن تحذيرات مروان التي جاءت في الوقت المناسب، والاستدعاء الطارئ لقوات الاحتياط، قد جنَّبت إسرائيل مواجهة وضع أسوأ بكثير على أرض الميدان. ويمكن رؤية ذلك بوضوح أكثر على الجبهة السورية.

بحلول منتصف يوم الأحد السابع من تشرين الأول، أي بعد أقل من أربع

اللواء المدرع 188، كان قد انهار في الليلة الفائتة، وخلال الليل استولت فرقتا المشاة الخامسة والتاسعة السوريتان بكامل قواتهما على كامل جنوب الجولان. في الصباح، أعطى العقيد توفيق جيهاني، قائد الفرقة المدرعة الأولى السورية، أوامره بالتقدم إلى تقاطع نفح، حيث كانت تتمركز الفرقة المدرعة 36 الإسرائيلية. إذا تمكَّن السوريون من الاستيلاء على نفح، سيتمتعون بالسيطرة على كامل الجولان الأوسط ويصبحون قادرين على تدمير اللواء المدرع السابع الإسرائيلي، الذي كان يدافع عن الجبهة الشمالية الشرقية من الجولان. والأكثر من ذلك أن الإمساك بنفح يعني أن الدبابات السورية ستصبح قادرة على التقدم غرباً، باتجاه جسر بنات يعقوب، حيث سيصبح بإمكانهم الإمساك بمصادر نهر الأردن ومنع الاحتياطي الإسرائيلي من الوصول إلى الجولان.

بمعنى آخر، كانت السيطرة على نفح تعني السيطرة على كامل مرتفعات الجولان. وبمجرد أخذها، يصبح صعباً، إن لم يكن مستحيلاً، على الإسرائيليين استعادتها.

في الساعة الحادية عشرة صباحاً، وبناءً على أوامر الجيهاني، شقت 250 دبابة سورية من نوع T-55 وT-62 طريقها في رتلين باتجاه نفح. لم تكن لدى القادة الإسرائيليين حتى تلك اللحظة أدنى فكرة عما يحدث على الأرض. الفوضى التي كانت تحدث على أرض المعركة منعت المتواجدين في مركز قيادة الجيش الإسرائيلي على جبل كنعان، والمسؤولين عن إدارة العمليات في الشمال، من معرفة حقيقة أن الخط الدفاعي في الجولان الجنوبي قد انكسر. لكن برغم معرفتهم الآن، كانوا لا يزالون يعتقدون خطأً أن السوريين سيستغلون نجاحهم للتقدم مباشرة إلى الغرب، باتجاه بحيرة الجليل (بحيرة طبريا)، لكنهم في الحقيقة كانوا يتقدمون شمالاً باتجاه تقاطع نفح. وجاءت حقيقة أن بعض وحدات الاحتياط الأولية استطاعت

الشمالية، الذي لم يكن قد نام منذ أكثر من ثمانٍ وأربعين ساعة، لنفسه بالاعتقاد أن الأسوأ قد مضى. والآن وقد دخلت قوات الاحتياط تلك في الحرب، سينقلب اتجاه المعركة لصالح الجيش الإسرائيلي.

بعد ساعتين، حين أدرك أخيراً ما كان يحدث، حل مكان تفاؤل القائد شعور بالتشاؤم والفشل. في الساعة 1:10 من ظهر الأحد، تم تدوين الملاحظة التالية في سجلات القيادة الشمالية: «الدبابات السورية على مشارف قاعدة نفح».

في الساعة الواحدة والنصف ظهراً، غادر العميد رافاييل إيتان، قائد الفرقة المدرعة 36 المدافعة عن مرتفعات الجولان، ملجأه في قاعدة نفح، آخذاً معه طاقمه. وتحت النيران السورية، توجهوا شمالاً إلى تل شيبان. في غضون عشرين دقيقة، صدر الأمر لبقية الجنود المدافعين عن القاعدة بالانسحاب أيضاً. فتوجهوا، محشورين في شاحنتي نقل صغيرتين، غرباً إلى جسر بنات يعقوب. تم إخلاء القاعدة ولم يتبقَّ في المنطقة سوى بضع دبابات إسرائيلية تحاول الحؤول دون سقوطها الكامل. وقد أصيبت غالبيتها في غضون نصف ساعة.

في «القصر»، وهو الاسم الحركي لمركز القيادة الإسرائيلي في جبل كنعان، أصبح واضحاً الآن أن تقاطع نفح لا يمكن أن ينجو إلا بمعجزة. واتجهت كل الأنظار إلى اللواء المدرع 679، وهو عبارة عن وحدة من قوات الاحتياط تعمل تحت إمرة الفرقة 36. كان مصير مرتفعات الجولان بين يديه.

كان قد تم استدعاء احتياطي اللواء 679 عند الساعة العاشرة صباحاً في اليوم السابق، بأوامر من قائده العقيد يوري أور. دباباته القديمة من نوع سينشريز بريطانية الصنع كانت محركاتها تعمل بالبنزين سريع الاشتعال، وكان ذلك كفيلاً بأن يحول أي دبابة إلى كرة لهب، كما كان تصميم آلية نقل الحركة فيها سيئاً وتتعطل باستمرار. من أصل المائة دبابة أو أكثر بقليل المخزنة للطوارئ في قاعدة يفتاح بالقرب من

القاعدة والبقية كانت قد دُمرت بفعل النيران السورية. وتلك التي وصلت إلى أرض المعركة لم تكن أبداً جاهزة للقتال. ونظراً لضغط عامل الزمن، تكفل بتشغيلها أفراد غير الطاقم الأصلي المخصص لكل دبابة، تم تجميعهم بحسب الترتيب الذي وصلوا فيه تلبية لنداء الواجب. كانت ذخيرتهم قليلة نظراً لعدم توفر وقت كافٍ لتذخيرها بالقذائف التي كانت بحاجة للإحضار من معسكر آخر. أجهزة اتصالهم أيضاً، بعضها لم يعمل على الإطلاق وبعضها الآخر لم يتم ضبطه على التردد الصحيح، كما أن الكثير من الدبابات لم يكن لديها الوقت حتى لتصحيح مجال رمايتها، وأفضل تحضير ممكن كان الرماية إلى الأمام مباشرة. لكن بعد ثلاث عشرة ساعة من بدء الحرب، أي قرابة الساعة الثالثة صباحاً، بدأت قوة مؤلفة من خمس وعشرين دبابة من اللواء 679 بشق طريقها نحو الجولان تحت جنح الظلام. أخذت مواقعها قرابة الساعة العاشرة صباحاً في منطقة القنيطرة، على طول الحدود الشرقية للجولان الشمالي. كان ذلك خطأً، على اعتبار أن المدرعات السورية كانت تقبض على وسط الجولان، باتجاه نفح في الجنوب.

في الساعة العاشرة والنصف صباحاً، نظمت اثنتان وعشرون دبابة أخرى نفسها ووصلت إلى الجبهة. وعند الساعة الثانية عشرة ظهراً، حين كانت على بعد كيلومتر ونصف من تقاطع نفح، تلقت أمراً بالاستدارة جنوباً نحو Hushniya. وبعد نصف ساعة، واجهت عشرات الدبابات السورية من طراز T–62 من اللواء 91 كانت تخطط للالتفاف على نفح ومهاجمتها من الشمال. أُخذت الدبابات الإسرائيلية بعنصر المباغتة، لكنها بدأت في غضون دقائق ترد النار. وهكذا بدأت إحدى أهم المعارك في الحرب.

رغم تعرضها لخسائر فادحة، استطاعت الدبابات الإسرائيلية إبطاء تقدم السوريين باتجاه الشمال. ومع ذلك التف السوريون على نفح من جهة الشرق. وفي

في هذه اللحظة المصيرية، وصلت ثلاث دبابات من اللواء المدرع 679 الإسرائيلي، هي آخر الدبابات التي غادرت يفتاح، إلى المحيط الخارجي لنفح. هناك شاهدوا عشر دبابات سورية على بُعد ثمانمائة متر تقريباً، فبدؤوا بإطلاق النار عليها. وفي وقت قصير لاحق، وصلت أخيراً إلى نفح ثلاث عشرة دبابة احتياطية إسرائيلية كانت قد أرسلت بالخطأ إلى القنيطرة، وبدأت بمهاجمة بعض دبابات اللواء 91 السوري. وفي الوقت ذاته بدأت وحدات احتياطية إضافية صغيرة بالضغط على اللواء 51 السوري. صار عدد الدبابات السورية المعطوبة ينمو باطراد، وكذلك الأمر مع نظيراتها الإسرائيلية. لكن عند حوالى الرابعة عصراً، كان الإسرائيليون قد كسبوا زخماً قوياً استمر حتى دنت المعركة من نهايتها عند حلول الليل. استطاع جنود الاحتياط الإسرائيليون المنهكون، وغالبيتهم من طواقم دبابات اللواء 679 الذين كانوا قبل أربع وعشرين ساعة صائمين ويصلون في دور عبادتهم، أن يقلبوا موازين المعركة. خسر السوريون حوالى أربعين دبابة وأجبروا على الانسحاب من قاعدة نفح ومحيطها، بما في ذلك الطريق الحساس الذي يربط جسر بنات يعقوب بالقنيطرة. حاول السوريون في اليوم التالي السيطرة على مرتفعات الجولان الأوسط مرة ثانية، وفشلوا ثانية، وشن الجيش الإسرائيلي هجوماً معاكساً ضخماً.

لقد حُسمت المعركة على مرتفعات الجولان لصالح الإسرائيليين.

برغم الجهود الكثيرة التي بذلها المؤرخون والضباط المتقاعدون لإعادة تصوير معارك الأيام الأولى من حرب أكتوبر، يبقى سؤال لم يُطرَح إلا نادراً وهو: ماذا كان سيحدث لو لم يصدر أمر استدعاء قوات الاحتياط عند العاشرة صباحاً من يوم السبت وتأجيله لحين اندلاع الحرب بعد أربع ساعات، أي عند الثانية ظهراً؟ بمعنى آخر، ماذا لو لم يُحذِّر أشرف مروان زامير من الحرب، ولم يوقظ زامير فريدي عيني من النوم، لم يستيقظ صُناع القرار الإسرائيليون عند الرابعة والنصف فجراً ويبدؤوا

الجيش الإسرائيلي؟

قائد اللواء المدرع 679، يوري أور، تلقى أوامره من قائد الفرقة المدرعة 36 عند العاشرة صباحاً. أصبح أور فيما بعد قائد المنطقة الشمالية في الجيش الإسرائيلي، وبعد تركه الجيش أصبح نائب وزير الدفاع الإسرائيلي. بحسب تقديراته، لولا تحذيرات مروان لما استطاع الإسرائيليون استدعاء وحدات الاحتياط إلا بعد أربع أو ست ساعات في الحد الأدنى. ولكان سقط تقاطع نفح، وأيضاً معسكر قيادة الوحدة المدرعة 36 من دون قتال. والاحتمال الأكبر أيضاً أن السوريين كانوا سيتمكنون عصر يوم السبت من تطويق وقطع الإمداد بالكامل عن اللواء المدرع السابع الذي كان متمركزاً شمال شرق الجولان. وقد وصل دارسون آخرون للخلاصة نفسها.

بالعودة بالزمن إلى الوراء يتضح أن أشرف مروان كان المسؤول الوحيد عن تمكين الإسرائيليين من منع السوريين من السيطرة على مرتفعات الجولان في حرب أكتوبر. واستعادة الجولان بعد ذلك كان سيتطلب ليس فقط معركة طويلة مريعة إنما أيضاً توجيه قوات كبيرة من الجبهة المصرية، ما سيزيد من احتمال ضغط مصري هجومي في الجنوب. ولم تكن خسارة الإسرائيليين ستقتصر على عدد أكبر بكثير من الضحايا، بل كانت خسارتها ستكون كبيرة أيضاً على مستوى الحدود عندما طُلب وقف إطلاق النار. وعلى الجبهة الشمالية، كان «التعادل»، في الحد الأدنى، في نهاية الحرب سيبدو أقرب بكثير إلى هزيمة إسرائيلية.

لكن إلى جانب الأثر الكبير لتحذيرات مروان على سير المعركة في مرتفعات الجولان، كانت هناك أيضاً لحظتان حاسمتان استفادت منهما إسرائيل كثيراً من مساعدة الملاك.

في الدقائق الأولى من الحرب، قامت قاذفات توبولف Tu-16 «الغرير» المصرية المنطلقة من الجنوب الغربي بإطلاق صاروخي جو - أرض من نوع كيلت باتجاه

الأراضي المصرية، كما فعلت في حرب الاستنزاف. انطلقت من قاعدة حاصور الجوية الإسرائيلية مقاتلتا ميراج، فيما بدا ظاهرياً كأول طلعة جوية في الحرب، لاستطلاع البحر المتوسط بالقرب من عسقلان، جنوب غرب تل أبيب. لكن في لحظة معينة تلقتا تعليمات بالاستدارة غرباً، مباشرة نحو القاذفتين المصريتين. وحين اقتربتا رأتا لهيب الصاروخين المنطلقين. تلقى الرائد إيتان الكرمي، قائد الطائرة الأمامية، أمراً بضرب الصاروخين وليس القاذفتين. على ما يبدو، سقط أحد الصاروخين في البحر، بينما استهدف رشاش الكرمي الصاروخ الآخر وهوى في الماء مباشرة عند شاطئ تل أبيب. كانت دوامة الماء التي ارتفعت للأعلى هائلة[9].

كشفت خطط الحرب التي نقلها مروان صراحة عن نية إطلاق مثل هذه الصواريخ على تل أبيب. وبدون تلك المعلومات لكان الصاروخ الثاني، المزود بطن من المتفجرات، قد سقط على الأرجح وسط تل أبيب. ولكان تأثير ضربة كهذه ذا وقع هائل، سواء على الروح المعنوية للجمهور الإسرائيلي أو على منحى تطور الصراع.

الأحداث الأخرى تتعلق بالقتال على طول الجبهة الجنوبية في الأيام التي تلت أول أيام الحرب. بالرغم من فشل الإسرائيليين في الاستفادة من تحذيرات مروان في الساعات الأولى من القتال في سيناء، ستتضح عما قريب أهمية معلوماته.

كانت الاستخبارات العسكرية قد أرسلت، قبل دقائق فقط من بدء الحرب، تقريراً يوضِّح، بناءً على تقرير مروان في الليلة السابقة، أن مصر لا تنوي في المرحلة الأولى تحريك وحداتها المدرعة عبر القناة أو الوصول إلى ممري متلا والجدي. وكان ذلك تأكيداً للمعلومات الاستخباراتية التي كان قد مررها قبل بضعة أسابيع.

لكن من اللحظة التي بدأ فيها الهجوم، تجاهل ضباط شعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية تلك المعلومة المهمة وعادوا إلى افتراض خطط الحرب التي كانوا يعرفونها

والجـدي. وعندمـا أصابتهـم الصدمة من الهجوم ومن النتائـج الأولية على الأرض، أصبحت تقييماتهم الاسـتخباراتية متعجلة ومشوشـة. وحل مكان الثقة الزائدة شيء أقـرب إلـى الذعر. وهكـذا، وعلى أسـاس معلومـة أو اثنتين، أبلغت الاسـتخبارات العسكرية بالخطأ إلى قائد أركان الجيش الإسرائيلي بعد بضع ساعات من القتال أن الفرقتين المدرعتين 21 و4 «قد عبرتا وهما تعبران» قناة السـويس. إحدى الإحاطات التـي صدرت عن الاسـتخبارات العسـكرية عنـد الواحدة والنصـف صباحاً، أي بعد مرور اثنتي عشرة ساعة على انطلاقة الحرب، تضمنت بالإضافة إلى إنجازات العدو معلومـات عـن تقـدم الوحدتين المدرعتين عبر الجسـور[10]. وعنـد صباح الأحد، 7 تشـرين الأول، صححت الاسـتخبارات العسـكرية تقييمها بأن الوحدتيـن قد عبرتا، لكنها استمرت تتجاهل بإصرار خطة الحرب المُحدَّثة التي مررها مروان وظلت تقيِّم تحركات العدو بحسب الخطة القديمة المتخلفة.

قـدَّرت وحدة الاسـتخبارات التابعـة للقيادة الجنوبية عنـد حوالى منتصف يوم الأحـد أن نيـة المصرييـن هي تحريك الفرقـة المدرعة الرابعة، وأيضـاً قوات مدرعة إضافية، نحو الشـرق، من أجل شـن الهجوم بشـكل أعمق ضمن سيناء. كان الخوف من هكذا هجوم السبب الرئيسي وراء اقتراح وزير الدفاع الانسحاب من الخط الذي كان الجيش الإسـرائيلي ممسكاً به صباح السابع من تشرين، وتحريكه للخلف أكثر. وفقاً لشـهادة غونين، فقد أخبره دايان حين التقيا في غرفة الحرب في أم هاشـيبا في وقت متأخر من صباح ذلك اليوم: «هذه ليست معركة محلية، إنها حرب تطال أرض إسـرائيل. غـادروا الحصـون، انسـحبوا إلى الجبال»[11]. من حسـن حظ إسـرائيل أن اقتـراح دايان الانسـحاب لمسـافة 40 حتى 50 كيلومتراً شـرقاً لاقـى الرفض من قبل رئيس هيئة الأركان ورئيسة الوزراء.

مـع الوصول السـلس لقوات الاحتياط طيلة بعد ظهـر اليوم الثاني من الحرب،

العوامل الرئيسية في حسم القرار بشأن شن هجوم معاكس سريع كان الخوف من كون مصر على وشك إرسال وحداتها المدرعة شرقاً، وإن عبروا القناة سيصبح من الصعب جداً على الجيش الإسرائيلي استعادة الأراضي التي خسرها. وحتماً كانت هناك اعتبارات أخرى أيضاً، مثل الرغبة في إنقاذ الجنود الذين كانوا لا يزالون عالقين في الحصون على طول القناة. لكن لو كانت الاستخبارات العسكرية قد أدركت أن خطة المصريين هي الاحتفاظ بالأراضي الواقعة شرقي القناة دون شن هجوم مدرع على سيناء، لتسنى الوقت لفرقة نظامية وفرقتي احتياط من الجيش الإسرائيلي لتنظيم أنفسهم جيداً من أجل هجوم معاكس أكثر فعالية. من الصعب الحكم على النتيجة التي كانت قد تحصل، لكن من الواضح أن التخطيط لها كان أفضل، ولحظيت القوات بوقت كافٍ لدراسة خطط المعركة والاستعداد للهجوم، ولكانت فرص النجاح أكبر.

على كلٍّ، لم يحدث ذلك، والهجوم المعاكس في الثامن من أكتوبر كان فشلاً ذريعاً أكثر من أي معركة أرضية في كامل الحرب.

في الساعات الأخيرة من السابع من أكتوبر، وصل زامير إلى إسرائيل على متن رحلة خاصة من قبرص. وانضم ثانية إلى مجموعة صناع القرار في مكتب غولدا مائير بتل أبيب. بعد اطلاعه الكامل على خطط الحرب التي أعطاه إياها مروان، رأى زامير أن مصر تتبعها فعلاً. وقد أوضح ذلك في الاجتماع الذي انعقد في تلك الليلة في مكتب رئيسة الوزراء. عند سؤاله عن رأيه بخصوص الهجوم المعاكس المزمع شنه في اليوم التالي، قال إن «المصريين ينتظرون منا هذا النوع بالضبط من الانتقام». وفي اجتماع آخر عقده الفريق نفسه في اليوم التالي، حين توضّحت درجة فشل الهجوم المعاكس، كرر زامير قوله «إننا نعرف الخطة المصرية»، وأن المصريين كانوا ينتظرون هجوماً مضاداً من الجيش الإسرائيلي، ليهزموه بواسطة المشاة المسلحين بالأسلحة المضادة للدبابات. ولذلك، أضاف، «إذا بقينا مصرين على القتال من أجل

جديد لجبهة السويس، التقى زامير به وشرح له كل تفصيل في خطة المعركة المصرية. كما أعطى بارليف أيضاً رسالة تلكس مطبوعة عن الخطة، وبذلك يمكنه قراءتها في جولة المروحية التي سيقوم بها إلى مقر القيادة في أم هاشيبا. طلب زامير من بارليف أن يُقسِم على إتلاف الوثيقة حرصاً على سلامة مصدرها[13]. قرأ بارليف الخطة بعناية. ومن تلك اللحظة، بدأت القيادة الجنوبية بالاستعانة بها كثيراً. وكان ذلك أحد الأسباب التي جعلت إسرائيل ابتداءً من تلك النقطة تشهد تحسناً ملحوظاً على جبهتها الجنوبية.

أي تحليل منصف للمعلومات التي قدمها مروان سيصل إلى الاستنتاج بأن مساهمة مروان في الحرب كانت، في النهاية، حاسمة. باستثناء الفوضى العارمة التي تجلت في الأيام الأولى من الحرب، على كل مستويات صناعة القرار وصولاً إلى كل جبهات المعارك، فقد استفادت إسرائيل من تلك المعلومات إلى أقصى درجة وصارت حظوظ الجيش الإسرائيلي أفضل بكثير في ساحة المعركة. لكن الأمر الأكثر أهمية كان التحذير الذي ورَد بخصوص موعد بدء الحرب. لقد كانت المعلومة التي أدت إلى استدعاء قوات الاحتياط قبل أربع ساعات من المعركة، الذي لولاه لكانت مرتفعات الجولان قد سقطت حتماً.

بعد أن انتهت الحرب، أعطى رئيس الموساد أمراً بدفع مبلغ قدره 100 ألف دولار للملاك مكافأة على ذلك التحذير. وقد استحق كل قرش منه.

الفصل الحادي عشر

صعود أشرف مروان وهبوطه

لو كانت لدى المخابرات المصرية أدنى فكرة عن أن الجواسيس الإسرائيليين قد اخترقوا أعمق أسرارها قبل الحرب، لما هدأ لهم بال خلال الأيام الأولى من الحرب. لكن لم يكن أحد يتوقع أن إسرائيل قد اطلعت على خطط الحرب مسبقاً. ومن وجهة إسرائيل، كان الأمر الوحيد الجيد في هزيمتها في الحرب هو أن الموساد لن يخشى على السلامة المباشرة لعملائه في مصر.

عاد أشرف مروان إلى مصر في السادس من تشرن الأول، أي في اليوم الذي بدأت فيه الحرب. السادات، الذي أدار المراحل الأولى من الحرب من غرفة العمليات في المركز 10، كان منشغلاً جداً في إدارة الحرب ومتابعة العلاقات الجارية مع سوريا، الاتحاد السوفييتي، والولايات المتحدة ولم يكن لديه وقت لإمضائه مع مبعوثه الخاص المسؤول عن العلاقات مع ليبيا والمملكة السعودية. وكان نادراً ما يلتقي الاثنان.

هذه الحقيقة لا تناسب بالطبع أشخاصاً معينين، وخاصة أفراد عائلة مروان الذين لا يزالون مصرين لغاية اليوم على أنه لم يكن فقط عميلاً مزدوجاً بل أنه تعاون مع السادات على وضع كامل الخطة لخداع إسرائيل. وبحسب روايتهم، أمضى السادات معظم أيام الحرب في منزل مروان، لأنه كان المكان الوحيد الذي سيكون آمناً من القصف الإسرائيلي.

أما الحقيقة فهي أكثر مأساوية بكثير.

فبدأ مروان يتنقل بين العواصم العربية بعد عودته إلى القاهرة مباشرة، حاملاً رسائل مكتوبة وشفوية من الرئيس المصري - الذي ارتقت مكانته فجأة بشكل دراماتيكي، في العالم العربي وفي كل مكان، بسبب نجاحاته غير المتوقعة على أرض المعركة. التقى مروان أيضاً مع قادة عرب آخرين: في الثالث عشر والرابع عشر، خلال المراحل الحاسمة من الحرب، حين كان السادات تحت ضغط كبير لشن هجوم أرضي على سيناء لتخفيف الضغط عن السوريين على الجبهة الشمالية، ذهب مروان إلى يوغوسلافيا، حيث سلّم رسالة إلى الرئيس اليوغوسلافي جوزيب بروز تيتو والتقى مع نائب رئيس البلاد ووزير الخارجية[1].

آخذين بعين الاعتبار كل ما نعرفه عن خط سير مروان في ذلك الوقت وطريقته في العمل، لم يكن بمقدوره أن يكون مصدر المعلومات الاستخباراتية التي تصل إلى الموساد بعد انطلاقة الحرب. في الثاني عشر من تشرين الأول تم وضع هوائي فوق مقر قيادة الموساد في تل أبيب لالتقاط إشارة من مصدر في مصر يقول إلى الجيش المصري كان يستعد لهجوم أرضي على سيناء. وقد أرسلها فريدي عيني، رئيس مكتب زامير، إلى زامير، الذي كان في تلك اللحظة جالساً مع رئيسة الوزراء في أحد الاجتماعات الوزارية الأكثر حساسية طوال الحرب.

منذ فشل الهجوم المضاد الإسرائيلي قبل بضعة أيام، لم تحصل أي محاولات لإخراج الجيش المصري خارج الشريط الممتد بعرض عشرة كيلومترات على طول القناة، الذي سيطرت عليه في بداية الحرب. كانت جهود الجيش الإسرائيلي منصبة على الجبهة الشمالية، حيث استعادت السيطرة على معظم مرتفعات الجولان وبدأت بالتقدم نحو دمشق. في الحادي عشر من تشرين الأول، أصبح محيط دمشق، بما فيه المطار الدولي، ضمن مدى المدفعية الإسرائيلية. وعندها حوّل القادة الإسرائيليون انتباههم إلى مصر. بدأ النقاش في صباح الثاني عشر من تشرين الأول.

بالأسلحة منذ اليوم الثاني للحرب، بينما لا يزال الأمريكان يتمنعون عن شحن الأسلحة إلى إسرائيل؛ وهكذا استمر ميزان القوى في الميل لصالح العرب. التطور الوحيد الذي يمكن أن يغير حالة الحرب كان شن مصر هجوماً ثانياً على سيناء. أكد رئيس هيئة الأركان لمستمعيه أنه في حال حدوث ذلك، سيقوم الجيش الإسرائيلي بصد الهجوم، يسبب خسائر جسيمة للجيش المصري، ويستغل تلك اللحظة لعبور قناة السويس وقطع القوة المصرية المكونة من 10 آلاف جندي في سيناء عن قواعدها اللوجستية غرب القناة. لكن إذا لم تجدد مصر هجومها فإن إسرائيل ستطالب بوقف إطلاق النار، أي أن تعترف بهزيمتها في الحرب مع مصر. في تلك اللحظة الحرجة، حين قامت غولدا مائير مع موشيه دايان، وجنرالات الحرب المهمين بمناقشة الوضع، تم استدعاء زامير من داخل الاجتماع لاستلام الرسالة من عيني.

حين عاد زامير، أعلن الأخبار، وفجأة تغير المزاج. قال رئيس هيئة أركان الجيش، إلعازر، إنه لم يعد يُفضل وقف إطلاق النار. الآن، كما قال، يجب على إسرائيل أن تنتظر الهجوم الجديد، تصده، ثم تستغل الفرصة لشن هجوم معاكس سيغير كامل مجريات الحرب. فتمت الموافقة على اقتراحه.

بدأ الهجوم المصري في 14 تشرين الأول. هذه المرة كان الجيش الإسرائيلي مستعداً تماماً، فدمر القوات المهاجمة، ووضع السادات في أصعب موقف في الحرب. إذ تم تدمير أكثر من مائتي دبابة مصرية، بينما خسر الإسرائيليون خمس عشرة فقط. كما توقع إلعازر، فقد فُتح الباب لإحداث تغيير في الموازين. وخلال أسبوع، عبر الجيش الإسرائيلي قناة السويس وتقدم غرباً إلى القاهرة، تاركاً كامل الجيش الثالث المصري تائهاً في صحراء سيناء[2].

لكن، عند تلك المرحلة، لم يُبد السادات أي استعداد لإنهاء الحرب. بل بالعكس. في 16 تشرين الأول ألقى خطاباً جريئاً أمام البرلمان المصري ووصف

المصرية المكشوفة. بناءً على هذه الكلمة، بالإضافة إلى الاستخبارات التي جمعتها إسرائيل، أخبر زامير غولدا مائير في 18 تشرين الأول إن مصر وسوريا تنويان الاستمرار في القتال. تلك التقارير كانت أخباراً سيئة لغولدا مائير وزملائها. فبالرغم من أن الجيش الإسرائيلي قد أمسك بزمام المبادرة، فآلة الحرب منهكة وتحتاج لإيقاف إطلاق النار بأقرب وقت ممكن. تمت الموافقة على ضرورة الحصول على معلومات عن نوايا السادات. وليس هناك سوى مصدر واحد يمكنه تأمينها. فصدرت الأوامر لدوبي بترتيب اجتماع مع الملاك وغادر زامير إسرائيل للقائه.

حصل الاجتماع في اليوم التالي في باريس. كان على زامير في القسم الأول منه أن يهدئ من روع مروان، الذي كان محبطاً للغاية من حقيقة أن تحذيره عشية الحرب لم يلقَ في الحال آذاناً صاغية من الإسرائيليين. ثم وصف الطريقة التي رأى فيها السادات ومستشاروه الوضع حين غادر مصر في 17 تشرين الأول. من وجهة نظر مروان، لا يزالون مقتنعين بأن مصر تفوز. فبما أن الاتحاد السوفييتي بدأ بشحن الأسلحة إلى مصر بعد وقت قصير من بدء القتال، ولكون الخسائر المصرية كانت في الحد الأدنى، فهم يملكون الآن دبابات أكثر من بداية الحرب. وبحسب روايته، لم يخسر الجيش المصري سوى 130 دبابة في معركة 14 تشرين الأول، وهذا أقل بكثير من التقديرات الإسرائيلية. وعلى هذا الأساس، قال لزامير إن السادات ينوي إطالة أجل الحرب لأشهر عدة على الأقل وسوف يرفض أي وقف لإطلاق النار في هذه المرحلة. إنه يهدف إلى استنزاف إسرائيل قدر المستطاع، ولأطول فترة ممكنة. ولهذا، حتى لو وصل الجيش الإسرائيلي إلى القاهرة والإسكندرية، سيستمر المصريون في القتال. وسيكون بانتظار الدبابات الإسرائيلية خلف كل شجرة جنود مزودون بصواريخ ساغر المضادة للدبابات.

ذكر مروان أيضاً التهديد الصاروخي للسادات، وهو ما أقلق كلاً من غولدا

سكود مصريا. في أواخر الاجتماع، سأل زامير جاسوسه عن رأيه في الطريقة التي يمكن بواسطتها جعل السادات يوافق على إطلاق النار[3].

أرسل زامير تقريره إلى غولدا في اليوم التالي. وفي تلك الأثناء كانت الأوضاع قد بدأت تتغير بشكل جذري على مستوى التهديدات العسكرية والدبلوماسية. ومن دوافع قلقه بخصوص عبور إسرائيل لقناة السويس والأوضاع الصعبة للسوريين، صار الكرملين الآن يضغط على السادات لقبول وقف إطلاق النار. هبط رئيس الوزراء أليكسي كوسيغين في القاهرة وأطلع السادات على الوضع المتدهور على جبهة القناة. ومع ذلك، بعد عودته إلى موسكو في 19 تشرين الأول، ظل السادات رافضاً قبول وقف إطلاق النار[4]. المعلومات التي أعطاها مروان لزامير في هذه المرحلة عكست بصدق المنحى الذي يفكر وفقه السادات. لكن مع استمرار تقدم الجيش الإسرائيلي داخل الأراضي المصرية وعقد اجتماعات طارئة بين وزير الخارجية هنري كيسنجر والقادة السوفييت في الكرملين، اتفقت القوتان العظميان على وقف فوري لإطلاق النار. لم يكن أمام السادات خيار سوى القبول به رسمياً في 21 تشرين الأول. وكانت تلك النقلة الأخيرة الإسرائيلية التي أنهت الحرب. في الجنوب، احتفظ الجيش المصري بمعظم المناطق التي سيطر عليها في بداية الحرب، لكن نصفه، أي الجيش الثالث في القطاع الجنوبي من الجبهة، فقد تمت محاصرته من قِبل الجيش الإسرائيلي، الذي يقف الآن على بُعد مائة كيلومتر من القاهرة. في الشمال، استعادت إسرائيل كل المناطق التي خسرتها في بداية الحرب واحتلت أراضي سورية جديدة سمحت للجيش الإسرائيلي بتهديد دمشق. لكن دفعت إسرائيل ثمناً باهظاً مقابل تلك الإنجازات، إذ قُتل أكثر من 2500 جندي إسرائيلي وأصيب أكثر من 5600. وكان الاقتصاد الإسرائيلي بحاجة للتعافي من الصدمة بعد الحرب غير المتوقعة، وهو أمر كان من الصعب أن يبدأ ما دام آلاف

تؤدي إلى استقرار الوضع بما يسمح بعودة عجلة الحياة إلى طبيعتها.

النتائج على الصعيدين الدبلوماسي والحدودي للحرب خلقت برميل بارود دبلوماسياً تطلّب مفاوضات مكوكية خلاقة ومضنية للتمكن من الوصول بنجاح إلى فصل القوات وإغماد السيوف، وهي عملية استمرت لحين الوصول إلى اتفاق فصل القوات على الجبهة السورية في أيار 1974. الرجل الذي قاد هذه الجهود كان هنري كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة، وأحد المشاركين الرئيسيين عن الجانب العربي كان أشرف مروان.

كانت الأولوية الأولى بالنسبة إلى هنري كيسنجر هي التعامل مع مشكلة الجيش الثالث المصري المحاصر. بمقابل الموافقة الإسرائيلية على النقل المنظم للتجهيزات غير العسكرية، قبلت مصر بشرط انسحاب إسرائيل إلى خطوط المعركة في 22 تشرين الأول – التاريخ الذي دعا فيه الأمين العام للأمم المتحدة لوقف إطلاق النار – وكان ذلك تعزيزاً للمكاسب المصرية. لم يلقَ استسلام السادات ترحيباً في العالم العربي، فأرسل أشرف مروان لمقابلة القادة في محاولة لتوضيح موقفه وتهدئة قلقهم. لكن من بين الأشخاص الذين التقاهم كان هناك واحد غير مدرج على جدول السادات. في 28 تشرين الأول، التقى الملاك بزامير، للمرة الثانية في أقل من عشرة أيام. هذه المرة تم الاجتماع في لندن. أخبر مروان رئيس الموساد أن السادات ليس قلقاً كثيراً بشأن الوضع العسكري وأنه واثق من أن السوفييت لن يسمحوا لإسرائيل بتدمير الجيش الثالث. وأخبر زامير أيضاً أن الكرملين وعد السادات أنهم سوف يطلقون مبادرة دبلوماسية ستؤدي في النهاية إلى إعادة إسرائيل إلى الحدود الدولية لعام 1967. وقال مروان إن الكرملين يحظى بدعم الأمريكان لهذه المبادرة.

وصل إيجاز زامير إلى غولدا في اليوم التالي، وفي 30 تشرين الأول غادرت للتحدث مع الرئيس نيكسون. وقد أبدت في تلك المحادثات تشبثاً قوياً بموقفها

بعد ثلاثة أسابيع، في أواسط تشرين الثاني، وجد السادات نفسه في خضم مشاحنة مع القائد الليبي القذافي. كان القذافي غاضباً من قرار السادات الذهاب إلى الحرب من دون استشارته، فأرسل السادات مروان إلى طرابلس لتهدئة روع القائد. نجح ذلك، وتراجع القذافي عن تهديده بطرد 100 ألف مصري يعملون على الأراضي الليبية. هذه المهمة وغيرها من المهام الدبلوماسية الأخرى كان مروان يتولاها دون أي مراعاة للقنوات المناسبة أو حتى إخبار وزير الخارجية المصري. وفي معظم الحالات لم يكن السفير المصري المحلي يعرف شيئاً عن مضامين رسائل مروان، أو حتى بوصوله إلى البلد[6].

بوصول الحرب إلى النتائج التي وصلت إليها، ومع طلب السادات من الولايات المتحدة التوصل إلى نوع من الاتفاق بين الأطراف، بدأت الجهود السورية - المصرية المشتركة التي بدأت كعملية عسكرية تتحول الآن إلى المضمار الدبلوماسي. وبدأ وزراء الحرب والقادة العسكريون يُفسحون الطريق الآن أمام المفاوضات. هنا، سُلطت الأضواء على أشرف مروان؛ فإضافة للتنسيق مع ليبيا والمملكة السعودية، سلَّمه السادات الآن الحقيبة السورية أيضاً. وهكذا، حين أرادت مصر، التي دعمت عقد مؤتمر سلام دولي في جنيف في نهاية كانون الأول 1973، الضغط على سوريا للمشاركة، ذهب مروان إلى دمشق للقاء كبار المسؤولين السوريين؛ ولم يلتحق به وزير الخارجية المصري إلا فيما بعد[7]. لكن الجهود المصرية ذهبت أدراج الريح، وغاب السوريون عن المؤتمر.

بعد ستة أشهر، مع ارتفاع وتيرة المفاوضات بين إسرائيل وسوريا، عمل السادات على الاستفادة بشكل مثمر أكثر من قدرات مروان في الإقناع. فانطلق مروان في سلسلة من المهام السرية إلى المملكة السعودية والجزائر، يرافقه مساعد كيسنجر هارولد سوندرز، في مساعٍ لإقناع القادة بدعم مسودة اتفاق

مسؤولين من المرتبة الثانية بل ايضا باستعدادهم للمشاركة في خطوة تقودها مصر والولايات المتحدة للضغط على سوريا. كان هو وهواري بومدين، رئيس الجزائر، يرفضان دعم الاتفاق بشكل علني، لكنهما أوضحا أنهما لن يعارضاه[8].

بعد بضعة أيام، على خلفية تصاعد الأعمال القتالية بين إسرائيل وسوريا والخوف من تجدد الحرب على نطاق واسع، وصل مروان إلى دمشق. كان هدفه إفهام السوريين بأنهم إذا ما جددوا الحرب مع إسرائيل فسيكونون هذه المرة بمفردهم[9]. لكنه كان يحمل في جعبته أمراً آخر، تعرفه قلة قليلة. كان الموساد قد طلب من مروان أن يكتشف ما الذي يفكر فيه الأسد حقاً بشأن تجدّد القتال. وكان مروان قد اقترح بعد عودته من الرياض إلى القاهرة على السادات - الذي لم يكن هو الآخر يعرف بماذا يفكر الأسد - أن يذهب هو إلى دمشق، فوافق السادات. استقبل الأسد مروان وتكلم معه بصراحة، ظناً منه بأن كلماته لن تذهب خارجهما هما والسادات. لكن سرعان ما وصل تقرير مروان إلى إسرائيل.

لاقى التقرير في تلك أبيب ترحيباً واسعاً، خاصة وأنه يقدم رؤية صادقة وواضحة وموثوقة عن أفكار الرئيس السوري بخصوص الحرب مع إسرائيل، وهي أفكار كانت أقل عدائية بكثير مما كان يتوقع الإسرائيليون. وصلت المناوشات مع سوريا إلى نهايتها، ووقعت الحكومتان في 31 أيار معاهدة فصل القوات على مرتفعات الجولان، لتصل بذلك حرب أكتوبر إلى نهايتها الرسمية.

عَكَسَ الدور الذي لعبه مروان في المفاوضات تقدم منصبه في القيادة المصرية. وحين لم يكن في مهمة يرسله فيها السادات، كان يبقى بجانب الرئيس. أحد الأمثلة التي لا تُنسى حدث في 18 كانون الثاني 1974، حين التقى كيسنجر بالسادات في مقر إقامته في أسوان، حاملاً رسالة شخصية من غولدا مائير، تُعبِّر فيها عن توقها

الكيلومتر 101 على طريق القاهرة – السويس. نهض السادات من مكانه، قبّل وزير الدولة على كلا الوجنتين، وقال: «اليوم سأخلع البذة العسكرية. ولا أتوقع أن أرتديها ثانية إلا في المناسبات الرسمية. أخبِرها أن هذا جوابي على رسالتها»[10]. أرسل كيسنجر تقريره إلى الإسرائيليين، وكذلك فعل مروان. ومع أن تقرير مروان كان مجرد تأكيد لتقرير كيسنجر، لكن ذلك بحد ذاته لم يكن بالأمر البسيط. «الحكومات، مثل أي أحد آخر»، يقول جون لو كارييه على لسان شخصيته الشهيرة جورج سمايلي وهو يتحدث إلى طلابه، «يثقون بما يدفعون مقابله، لكنهم مشككون فيما لا يدفعون ثمنه»[11]. في الحد الأدنى، أدى تقرير مروان إلى زيادة مصداقية كيسنجر في أعين القادة الإسرائيليين.

ارتقى مروان في منصبه على المستوى الرسمي أيضاً، ففي 14 شباط 1974 تم تعيينه سكرتيراً لرئيس الجمهورية لشؤون العلاقات الخارجية، وهو منصب جديد وضعه في منافسة مباشرة مع وزير الخارجية إسماعيل فهمي. ازدادت العلاقات المتوترة أصلاً بين الاثنين سوءاً في الأشهر التالية، وخاصة على ضوء التقارير التي تقول إن السادات كان محبطاً من فشل فهمي في تحسين العلاقات المعقدة بين مصر من جهة والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية من جهة أخرى. وهناك تقارير من «مصادر دبلوماسية في بيروت» – على الأرجح أنه اسم رمزي لشخصية رفيعة أو أخرى في الشرق الأوسط – قالت إنه كان محبطاً أيضاً من فشل فهمي في إيجاد توازن مثمر لمصر بين القوتين العظميين، ما أدى لإثارة مشاعر عدم الرضا بين اليساريين في مصر الذي يريدون رؤية دور أكبر للسوفييت في البلاد. لكن بالنظر إلى حقيقة أن السادات ومروان كانا معارضين للسوفييت بشدة، تصبح فكرة ترقية مروان على حساب فهمي من أجل تحسين العلاقات مع موسكو أمراً مستبعداً. لكن ها هو ذا، الذراع اليمنى للسادات، النجم الصاعد في المضمار السياسي المصري،

مكتب الرئيس يختص بالعلاقات العربية. على إثر هذه النقلة، التي انتزعت رسمياً بعض مهام وزير الخارجية ونقلتها إلى مكتب مروان، أبلغت «مصادر دبلوماسية في بيروت» أن السادات كان يخطط لطرد فهمي في المستقبل القريب وتعيين مروان مكانه[12]. صحيح أن ذلك لم يحدث أبداً، لكن ما من شك في أن مركز مروان بين النخبة المصرية كان في تصاعد، على حساب فهمي.

انعكست مركزية مروان في الدبلوماسية المصرية في سلسلة من المهام الحساسة التي أنجزها للسادات للدفع باتجاه الوصول إلى اتفاق الفصل مع إسرائيل. بعكس فهمي، الذي كان متحمساً أكثر لمصلحة العالم العربي أكثر من السعي وراء السياسات الخاصة لرئيسه، وبالتالي ظل يعارض أي اتفاق مع إسرائيل، كان مروان مستقلاً أكثر بالمقارنة معه وميالاً بوضوح باتجاه العلاقات مع الأمريكان، ما جعل السادات مرتاحاً في العمل معه أكثر. كان أصدقاء مروان المقربون في العالم العربي، مثل كمال أدهم، مهتمين مثله في تخليص المنطقة من نفوذ الكرملين، فصنعوا معاً كرة كاملة يمكن ضمنها التعبير بشكل واضح عن المعارضة للسوفييت ووضعها حيز التنفيذ.

وهكذا وجد مروان نفسه يؤدي دوراً قيادياً في التحركات الدبلوماسية الأكثر حساسية ودقة ومراوغة التي ميّزت الشرق الأوسط في فترة السبعينيات. ولعل أكثرها أهمية من ناحية تعقيد العلاقات كان الصراع العربي الإسرائيلي والصراع الإيراني العراقي. في عام 1974، في ذروة الجهود الأمريكية المصرية للوصول إلى اتفاق فصل جديد مع إسرائيل، حاول كيسنجر والسادات كسب تأييد العراقيين، نظراً للدور الحاسم الذي يمكن أن يلعبوه مقابل المعارضة السورية الشديدة للاتفاق. كبقية الدول العربية، كان الموقف الرسمي العراقي مناهضاً بشدة لإسرائيل. لكن تحت السطح، كان لدى العراقيين مصالح أخرى، وباللعب على تلك المصالح يصبح بالإمكان

وكبّد الجيش العراقي خسائر كبيرة. كان الكرد يتلقون الدعم المالي واللوجستي من إيران والولايات المتحدة، وكان للموساد فريق أمضى سنوات في تدريب المقاتلين الكرد لمواجهة الجيش العراقي. وبعد العديد من المحاولات الفاشلة لإخماد التمرد بالوسائل العسكرية، التفت الزعيم العراقي صدام حسين سراً إلى شاه إيران وقادة آخرين في محاولة لإنهاء التمرد عبر الوسائل الدبلوماسية. ففكر كيسنجر والسادات أنه إذا اتفقت مصر والولايات المتحدة على إقناع الإيرانيين بالتوقف عن دعم الكرد، قد يقتنع العراق بالمقابل بدعم اتفاق فصل مع إسرائيل.

سافر أشرف مروان، الذي كان مثالياً لمثل هذا النوع من المفاوضات الحساسة، إلى طهران وبغداد في أيلول 1974 لعرض مثل هذا الاتفاق على الزعيمين. في واحدة على الأقل من تلك المحادثات، كالتي حصلت مع شاه إيران في 2 أيلول، كانت هناك مشاركة لمسؤولين سعوديين رفيعين، ومنهم ولي العهد الأمير سعود، وأيضاً كمال أدهم. عبَّر ثلاثتهم عن شعورهم بأن صدام يرغب في الحد من النفوذ السوفييتي في العراق، وهذا يعني أن الفرصة سانحة للحصول على موافقته على الصفقة إذا كانت تتضمن استبدال السوفييت بالأمريكان في مساعدة الجيش العراقي.

تمت المهمة بنجاح. وفي نهايتها، أعلنت إيران عن نيتها التوقف عن مساعدة الكرد مقابل الامتيازات الإقليمية للعراق في الخليج العربي. ومن جانبه، أوضح العراق أنه سيخفف من نبرته المعادية للسياسات الإيرانية ويقدِّم دعمه الضمني لاتفاق الفصل بين مصر وإسرائيل، وبذلك يتم عزل سوريا لتصبح المعارض الوحيد. وبالفعل، وضعت إيران حداً للتمرد الكردي في العراق في عام 1974[13].

أدّى مروان في حالات أخرى دوراً في مبادرات استراتيجية ساهمت، حتى ولو لم تُثمر عن شيء، في تأكيد مكانته المتقدمة. في 13 آب 1974، التقى هو وفهمي مع كيسنجر في وزارة الخارجية، وتناولوا مجموعة من المواضيع من بينها المساعدات

التوتر القائم بين مصر وليبيا. تساءل كيسنجر عن السبب الذي جعل مصر، برغم عدائية القذافي تجاه استراتيجية مصر بشأن السلام والتي أدت إلى توتر على الحدود الليبية، لا تتخذ قراراً بشن حرب على ليبيا - بل ووعد بأن أمريكا ستدعم خطوة كهذه. مروان، الذي كان معروفاً بأنه صديق للقائد الليبي، لم يعترض أبداً على فكرة كيسنجر بل ومضى بعيداً إلى حد اعتباره الجيش الليبي نمراً ورقياً، ليس لديه، برغم امتلاكه آلاف الدبابات السوفييتية، من القوة البشرية سوى ما يكفي لتشكيل لواء دبابات واحد. لكنه مع ذلك كرر ثانية أنه ما من جدوى في مناقشة مثل هذه الخطوة قبل توقيع اتفاق فصل جديد مع إسرائيل، الأمر الذي سيؤدي إلى خلق استقرار في المنطقة وإنهاء التورط السوفييتي في مصر[14].

أما السوفييت فلم يكونوا ليمضوا بهدوء. التزامن بين صعود مروان وتنامي السياسة المعادية للسوفييت في مصر أوصل الكرملين إلى قناعة بضرورة تحييد مساعد الرئيس. وبحسب فاسيلي ميتروخين، وهو مسؤول رفيع عن الأرشيف في قسم العلاقات الخارجية في KGB انشق لصالح بريطانيا عام 1992 آخذاً معه جزءاً كبيراً من أرشيفه، كان أكثر ما يزعج السوفييت هو التقارير عن زيارة سرية إلى القاهرة قام بها رئيس CIA ويليام كولبي. بحيث أن القيادة المركزية في KGB قررت اتخاذ «إجراءات جادة» بحق مروان، الذي تعتقد موسكو أنه يتحمل كامل المسؤولية عن المخابرات المصرية، بما في ذلك العلاقات مع CIA. فحضّر القسم A في KGB حملة نفسية تهدف إلى تصوير مروان كجاسوس أمريكي. حظيت تلك العملية باهتمام كبير لدرجة أن الوكالة أرسلت رئيس دائرة شمال أفريقيا، فلاديمير كازاكوف، إلى القاهرة في أيار 1975 للإشراف على التحضيرات النهائية.

حضّر ضباط KGB في هذه العملية سلسلة من المقالات تزرعها في الصحف في لبنان وسوريا وليبيا وتصوِّر مروان ليس فقط كشخص يعمل لصالح CIA بل

السادات، وأن الرئيس على علم بها.

حقيقة أن أشرف مروان، الشاب الوسيم والناجح، كان مقرباً من السيدة الأولى للجمهورية المصرية كانت معروفة جيداً؛ ففي بعض الأحيان كان يرافقها في رحلاتها الخارجية مع ابنتيها. وفي إحدى المرات، حين نزلت في فندق «جورج الخامس» في باريس، طلب مروان من الموساد زرع جهاز تنصت في حقيبتها كي يعرف ماذا ستقول عنه. وافق الموساد، لكن جيهان بالكاد ذكرت اسمه.

كانت حساسية مروان تجاه علاقته بالسيدة الأولى مرتبطة بحياتها الزوجية. كان الكثيرون يعرفون أن علاقة السادات الزوجية كانت بعيدة كل البعد عن المثالية. لم يكن السادات يثق بزوجته التي، كما رأينا، كانت تحب التدخل في شؤون البلاد حتى ضد رغبته. ونادراً ما كان السادات يمكث في مقر إقامته الرسمي في الجيزة، وهكذا كان الزوجان يعيشان متباعدين معظم الوقت[15]. إذاً حتى لو كنا لا نملك دليلاً على علاقة فعلية بين أشرف وجيهان، لا شك أن هناك أرضية خصبة لنمو تلك الشائعات. وحتماً أنها أحرجت السادات وبدأت تدق إسفيناً بينه وبين الرجل الذي أصبح مؤخراً فقط مساعده الأكثر ثقة.

حتى بعد استبعاد مروان من منصبه في المكتب الرئاسي في آذار 1976 وتعيينه في رئاسة الهيئة العربية للتصنيع بعيداً عن الدائرة المقربة من السادات (تطوُّر لم ينل السوفييت تقديراً كبيراً مقابله)، استمر KGB في رؤيته كمصدر تهديد رئيسي. ذكر أوليغ غورديفسكي، وهو ضابط في KGB فرّ فيما بعد إلى الغرب وكتب مذكراته، أنه سمع أحاديث في الأروقة عن احتمال اغتيال السادات. وبالرغم من عدم وجود أي دليل على أن KGB قد خطط يوماً لأمر كهذا، فقد كان هناك عدد من المنظمات المرتبطة بالسوفييت قد فعلت. في كانون الأول 1977، علم غورديفسكي أنه تمت في اجتماع سري، عُقد في دمشق بين قادة المخابرات السورية وأعضاء من الجبهة

يفعل شيئاً لإيقافها[16].

وبغض النظر عن موقف مروان المؤيد للأمريكان وعلاقاته الممتازة مع المسؤولين الأمريكان رفيعي المستوى - وخاصة كيسنجر - ربما كان لدى السوفييت سبب آخر لرؤيته كتهديد جدي لهم. كان اسم مروان مرتبطاً بمشروع متعدد الأطراف يهدف إلى الحد من انتشار النفوذ السوفييتي في الشرق الأوسط وخاصة أفريقيا. كان هذا المشروع معروفاً باسم نادي السفاري، تيمناً باسم نادٍ ليلي في باريس، حيث كان أعضاؤه يلتقون هناك في أغلب الأحيان. بحسب أفضل الروايات التي لدينا عن آلية عمل المجموعة، بما في ذلك المقابلات مع كمال أدهم وخلفه في رئاسة الاستخبارات السعودية، تم تأسيس نادي السفاري على يد الكونت ألكسندر دي مارنش، الذي كان حينها رئيس وكالة الاستخبارات المركزية الفرنسية (SDECE)، والمعروف بمعاداته الشديدة للسوفييت. وقد جاءت المبادرة في أعقاب تطورين محددين. الأول كان انتشار النفوذ السوفييتي في أفريقيا، وخاصة في موزمبيق، وأنغولا، وأثيوبيا، والصومال؛ أما الثاني فكان سلسلة من الفضائح في واشنطن، وخاصة فضيحة ووترغيت التي دفعت الرئيس نيكسون للاستقالة في صيف 1974، بالإضافة إلى جلسات الاستماع في الكونغرس حول نشاطات CIA في عام 1975، التي تسببت إلى حد كبير في إضعاف قدرة الوكالة على التعامل مع التمدد السوفييتي. على هذه الخلفية، توجه مارنش، بدعم من الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان، إلى القادة في إيران، والعربية السعودية، ومصر، والمغرب، طالباً منهم أن يتحمل كل واحد منهم قسطاً من المسؤولية عن الحد من انتشار الشيوعية في أفريقيا والشرق الأوسط. وافق الزعماء الأربعة، وتم رسمياً إطلاق نادي السفاري في الأول من أيلول 1976.

كان مركز قيادة المنظمة في القاهرة، وكان يتضمن فرعين للتخطيط والعمليات.

يتم فيها تنسيق العمليات الرئيسية على ثلاثة محاور أساسية هي التمويل والمساعدة العسكرية للقوى المناهضة للسوفييت في أفريقيا؛ والتعاون الاستخباراتي؛ والعمليات السرية أو «السوداء»، مثل الحرب النفسية أو الاغتيالات. وكجزء من عمليات نادي السفاري، التي استمرت لغاية الثورة الإيرانية عام 1979، أرسلت المغرب ومصر، مع دعم لوجستي من فرنسا، حملة إلى زائير في جهود لمساعدة زعيمها المؤيد للأمريكان، موبوتو سيسي سيكو، في صد التهديدات الخارجية على كاتانغا، المقاطعة الأغنى بالمناجم. وفي الوقت ذاته، قام أعضاء في النادي بمساعدة المتمردين في أنغولا وموزمبيق الذين يقاتلون أنظمتهم المؤيدة للسوفييت، ودعموا جيبوتي في جهودها لمنع أثيوبيا من اجتياحها والعمل على استقرار القرن الأفريقي. كان النادي يعمل تحت إشراف دائم، وموافقة، من واشنطن[16]. وبحسب أحد المصادر، الإشراف الوثيق على CIA الذي بدأه الكونغرس في أواسط السبعينيات دفع السعودية إلى تمويل العمليات السرية لمنظمة أنشأها عملاء سابقون في CIA خارج الأراضي الأمريكية، وهكذا تكون خارج إشراف الكونغرس. وقد نفذت هذه المنظمة أنشطة لم توافق عليها CIA من قبل، وبعضها بتعاون مباشرة مع CIA[17].

اختار السادات مروان لتمثيله في نادي السفاري[18]. وبخلاف ذلك لا نعلم الكثير عن تورطه في أنشطته. لكن الأمر المؤكد هو أنه عند تأسيس نادي السفاري في أيلول 1976، كان مروان أصلاً خارج الدائرة المقربة من السادات، ولم يعد يعمل في المكتب الرئاسي أو يتولى مهامه «الخاصة». من الوارد تماماً إذاً ألاّ تكون له أي علاقة بالمجموعة على الإطلاق، وأن كل الشائعات المخالفة لهذا الرأي كانت دعاية من KGB. برغم العدد الهائل من مثل هذه الشائعات التي تربط مروان بأحداث معادية للسوفييت على مستوى العالم، يظل صعباً جداً أن نعرف كم يمكن أخذها على محمل الجد. لكن يظل منطقياً الافتراض بأن KGB كان يرى فيه شخصاً يجب تحييده

القـوى بين أثيوبيا وجيبوتي، بل انطلاقاً من رغبتهم في إضعاف المعسـكر المناهض للسوفييت في مصر نفسها.

لـم يكـن تصويـر KGB لمروان على أنه جاسـوس لــ CIA دقيقاً في الأسـاس؛ فبالرغم من علاقته الممتازة مع الأمريكان، وخاصة هنري كيسنجر، فهو لم يكن فعلاً يعمـل معهم قبل أواسـط الثمانينيـات. أما تصويرهم له، من ناحية أخرى، كشـخص فاسـد فكان قريباً جداً من الحقيقة. بدأ مروان يراكم ثروته عن طريق اسـتغلال نفوذه بعـد ارتقائـه فـي المناصب فـي أعقاب الثـورة التصحيحيـة عام 1971. وفي أواسـط السـبعينيات، حين بدأ السـوفييت بإذاعة تقارير عن فسـاده، كان قد أصبح ثرياً جداً. جاءت بعض أمواله من الموساد، لكن السوفييت لم يكونوا يعرفون ذلك. ومعظمها جـاءت مـن مصادر غير مشـروعة، وخاصة النسـب المئويـة التـي كان يتقاضها على الصفقات التي يحوكها، مسـتغلاً مركزه السياسـي إلى أقصى درجة. وكان مروان في حالات أخرى يسـتفيد من منصبه للحصول على أسـعار أفضل في صفقاته الخاصة. أحد الأمثلة على ذلك كان في حزيران 1974 حين اشترى قطعة أرض، باسم زوجته، في بلدة الكرداسـة، على الطريق الصحراوي بين القاهرة والإسـكندرية، وأرسل طلباً إلـى وزيـر الزراعـة المصـري يدعي فيـه أن الخطوة تعكـس رغبة الرئيـس. لكن في تحقيقات لاحقة، اتضح أن السـادات لم يكن يعرف شـيئاً عنها. السـؤال الآخر الذي طُرح كان عن مصدر الأموال التي اشـترى بها مروان الأرض[19]. في حالات أخرى لم يكن مروان بحاجة لأي رأس مال ليكسب نقوده، فقربه من السادات كان أكثر نفعاً بكثير، وأفضل شاهد على ذلك القضية المرتبطة بشركة كوكا كولا.

منذ عام 1968، حين بدأت شـركة كوكا كولا بأعمال التعبئة في إسـرائيل نتيجة الضغـط فـي الولايات المتحدة، أصبحـت هدفاً للمقاطعة العربيـة، في جهود منظَّمة داخل الدول العربية، بدأت عام 1948، لرفض التعامل المباشر ليس فقط مع إسرائيل

في العالم العربي والحليف الناشئ للولايات المتحدة، والبلد الذي يتكلم زعيمه علانية عن إنهاء الصراع مع إسرائيل، الهدف الطبيعي لجهود الشركة. قاد الحملة سام أيوب، وهو مسؤول كبير في كوكا كولا من أصل مصري من الإسكندرية ويعرف طبيعة العالم العربي. وحين فكَّر في السؤال عن كيفية التأثير على الرئيس السادات لإقناعه بشطب كوكا كولا من لائحة المقاطعة، كان الشخص الذي تبادر إلى ذهنه هو أشرف مروان. توجَّه مروان إلى السادات، ففتح السادات أبواب الأسواق المصرية. كان جزء من عملية التسديد على شكل استثمارات ساهمت فيها الشركة في الاقتصاد المصري؛ لكن بحسب أيوب، كسب مروان مبلغاً طائلاً مقابل التسهيلات التي قدمها[20].

تبقى أسئلة أخرى بخصوص إنجازات مروان الأكاديمية. فإلى جانب جهود الدبلوماسية الحثيثة، وجهوده لتكوين ثروته، وعمله في الجاسوسية، ادّعى مروان أنه وجد الوقت أيضاً للحصول على شهادة الدكتوراه، وهو مجهود بدأه، بحسب أصدقائه، مباشرة بعد حصوله على شهادة الماجستير. ويدعي أنه قدَّم عام 1974 أطروحته إلى رئيس قسمه، الدكتور أحمد مصطفى، الذي أصبح فيما بعد وزير الدولة للبحث العلمي[21]. لكن هذا يبدو مستبعداً جداً، فمن الفترة التي يزعم أنه أنهى فيها دراسة الماجستير، بين عامي 1970 و1971، ولغاية عام 1974، كان منهمكاً جداً في شؤون الدولة، والأعمال، والخيانة. لا شك أن الرجل كان موهوباً جداً؛ لكن من الصعب جداً أن تتخيل أن باستطاعته، إلى جانب كل تلك الانشغالات، أن يجد مجالاً للاهتمام بالدراسة. وبالرغم من أنه ظل لبقية حياته يحمل لقب «الدكتور»، فقلة قليلة فقط تسأل عن شهادته العلمية. على سبيل المثال، كتب محمد ثروت في السيرة الذاتية لمروان أنه فشل في إكمال دراسته بسبب انشغاله الشديد في السياسات المصرية. وبحسب مصدر آخر، دفع مروان لرئيس قسمه، ولم يكتفِ

ونـال الشـهادة فقـط لأن والده كان رئيس جامعة القاهرة. لكـن الفايد، الذي كان من أفضل من يحوك القصص، كان مخطئاً بشأن والد مروان فهو كان ضابطاً في الجيش ولم يستلم هذا المنصب. لكنه قد يكون محقاً في حديثه عن شرعية الشهادة.

في الأول من آذار 1976، أصدر الرئيس مرسوماً بإنهاء خدمة أشرف مروان في المكتب الرئاسـي وتعيينه في منصب رئيس الهيئة العربية للتصنيع، وهي اتحاد دولي جديد كان يهدف إلى تأسيس صناعة عسكرية عربية مستقلة. كان ذلك في ظاهره ترقيـة، فقد أصبح مسـؤولاً عن ميزانية بمئات ملاييـن الدولارت ومصانع يعمل فيها آلاف العمال. أما من الناحية العملية، فقد تم إقصاء مروان، وكان ذلك بشكل أو بآخر نهاية حياته السياسية.

العوامـل الكامنـة وراء المحـاولات السـابقة لإبعـاد مـروان قبل أربع سـنوات أصبحت السـبب في سـقوطه الآن، وأحدها كان الغيرة. لقد نجح مروان، في غضون عشر سنوات، في أن يصبح من أقرب المقربين إلى السادات، لاعباً رئيسياً في القيادة، ومرشـحاً واقعيـاً لـوزارة الخارجية. وفي مجتمـع مثل مصر يعير أهميـة كبيرة للعمر والخبرة، كان شـبابه (بلغ الثلاثين عام 1974) وصعوده السـريع سببين كافيين ليجمع حوله أعداء كثراً. وكان سلوكه المتبلد وتعاليه الواضح على زملائه مثل صب الزيت علـى النـار. أضف إلى ذلك أن طريقة إنجازه للمهام الأكثر حساسـية لدى السـادات دون أن يكلف نفسـه عناء إخبار الدبلوماسـيين، ولَّدت شـعوراً بالنفور منه في وزارة الخارجية أيضاً. وأصبح وزير الخارجية شـخصياً من أهم خصومه. كانا في الأسـاس قريبيـن أحدهمـا مـن الآخـر حين كان مروان لا يزال يشـق طريقه، ودعـاه فهمي إلى مآدب عشـاء خاصة مع مسـؤولين أمريكان ومنهم كيسـنجر. لكن مع تولي مسـاعد السـادات الصاعد مسـؤوليات أكبر في العلاقات الخارجية المصرية، بدأ يُبعِد فهمي شيئاً فشيئاً عن الدائرة، وهكذا بدأ قلق وزير الخارجية ينمو أكثر فأكثر[22].

«مراكز السلطة» عام 1971، بالإضافة إلى مواقفه المعارضة للسوفييت وتأثيره على سياسة السادات الخارجية الجديدة، كل ذلك حوله إلى راية حمراء في أعين كل من لا يزالون يحترمون إرث عبد الناصر، وخاصة عائلة عبد الناصر. ويمكن أن نضيف إلى هذه المجموعة، على مدى الزمن، الشخصيات المختلفة في المكتب الرئاسي، وفي الجيش، وفي وسائل الإعلام. بعضهم تعرض لإهانات مباشرة من مروان؛ وآخرون كانوا قلقين من صعوده على سلم السلطة بسبب فجوره ورائحة الفساد التي يبدو أنها تلازمه في كل تحركاته. كان شاباً، لديه روابط عائلية، جسوراً، ويجمع وينفق ثروته بسرعة تحبس الأنفاس. ويبدو أنه لم يكن يستطيع إبقاء فمه مغلقاً. وفوق ذلك كله، شن KGB حملة تشنيع واسعة ضده.

وكما يقول المثل القديم، «الأصدقاء يأتون ويذهبون، لكن الأعداء يتراكمون». مع مرور الزمن، صارت هناك دائرة تزداد اتساعاً من المصريين النافذين الذين يرون في إبعاد مروان عن الحياة العامة حاجة ماسة.

وهكذا، بعد فترة تُقارب السنتين، ظهرت سلسلة من المقالات تتحدث عن فساده، ما ولَّد رغبة ملحة في التحقيق. ذكرنا سابقاً أن السادات رضخ في النهاية، وعيَّن أحد أعداء مروان في المكتب الرئاسي، هو محمد المصري، لمتابعة التحقيقات. كان المصري مخلصاً لمهمته، وقد كشفت التحقيقات من بين أمور أخرى عديدة بأن مروان يستثمر ملايين عدة من الدولارات في لندن. لم يستطع مروان ولا زوجته تقديم تفسير مقنع لمصدر تلك الأموال، ووصلت التحقيقات إلى السادات الذي لم يجد مساحة للمناورة. وهكذا أعلن السادات عن استبعاد مروان. ومن الآن فصاعداً سوف يتولى المساعد السابق للرئيس ويده اليمنى مسؤولية هيئة جديدة، وهكذا أقصي تماماً عن السلطة السياسية[23].

أُحدثت الهيئة العربية للتصنيع في نيسان من عام 1975 كتعبير نموذجي عن

المنتجة للنفط، وخاصة المملكة العربية السعودية ودول الخليج. وساعد ذلك على تمويل صندوق تعاوني في العالم العربي يهدف إلى جعل العرب لاعباً مؤثراً ليس فقط في سوق الطاقة العالمية بل أيضاً في المجالات الحساسة الأخرى، بما فيها صناعة الأسلحة. وهكذا كان الهدف من إنشاء الهيئة العربية للتصنيع وضع الأساسات اللازمة لإنشاء مجمع صناعات عسكرية عربية يوفر الحصة الأكبر من الأسلحة للمنطقة من خلال إنتاجها المستقل الخاص بها من الأسلحة والذخيرة. من أهم المساهمين في الهيئة العربية للتصنيع كانت المملكة السعودية، الإمارات العربية المتحدة، وقطر، وكانت مسؤولة عن التمويل؛ ومصر، التي وفَّرت اليد العاملة والإمكانات الصناعية اللازمة لإنتاج الأسلحة، وهي البنية التحتية التي كانت مصر تعمل على تطويرها منذ الستينيات. وبميزانية مفتوحة تفوق المليار دولار، وظَّفت الهيئة أكثر من 18 ألف عامل. المشرف على المشروع كان أشرف مروان بصفة رئيس ووزراء دفاع الدول الأربع الأعضاء.

بالنظر إلى عمره وافتقاره للخبرة المناسبة، لم يكن مروان خياراً طبيعياً لرئاسة شركة على هذه الدرجة من الضخامة والطموح. ولو أن المجال بحد ذاته لم يكن غريباً تماماً عليه، فهو يحمل شهادة في الكيمياء ولديه بعض الخبرة العملية في صناعة المتفجرات؛ والأهم من ذلك الخبرة التي كسبها في توفير الأسلحة، ليس فقط قبل الحرب – حين أدّى دوراً رئيسياً في مساعدة مصر على الحصول على الطائرات المقاتلة عبر ليبيا، بل بعدها أيضاً. في خريف عام 1975 مثلاً، أجرى محادثات في فرنسا حول بناء مصنع في مصر لتجميع طائرات ميراج F1 من شركة مارسيل داسو، وتوفير أعمال صيانة تلك الطائرات لدى سلاحي الجو السعودي والكويتي، وهي مفاوضات نتجت عن حديث بدأ مع جيسكار ديستان، وتم خلاله إطلاعه على آخر الجهود المبذولة للتوصل إلى اتفاق دبلوماسي بين مصر وإسرائيل[24].

في مجال الصناعات الثقيلة. من الواضح إذاً أن الخيار كان سياسياً، وهو نتيجة ضغط أصدقاء مروان في الدول الغنية بالنفط التي كانت تريد ضمان إدارة المشروع من قبل شخص يتفهم احتياجاتها؛ وطبعاً بسبب رغبة السادات الخاصة في إيجاد عمل جديد لمساعده السابق يحقق انتقالاً سلساً له بعيداً عن المكتب الرئاسي ويجعل غيابه أقل إحراجاً للسادات. وقد عمل الرئيس على تجميل الموقف بمنحه مروان، بعد عام، ميدالية على «إنجازاته الباهرة لمصر في المراحل الأكثر حساسية في حرب أكتوبر»[25]. وهكذا تم حفظ مكانة مروان العامة، إن لم نقل عمله السياسي.

أما النتيجة فكانت أنه بمقابل سعادة خصومه بإبعاده عن الدائرة المقربة من السادات، تولَّد لدى آخرين قلق من أن هذه الخطوة سترفع مروان درجة على السلم وليس العكس. «زواج أشرف مروان من منى عبد الناصر كان الخطوة الأولى في نجاح [مروان]»، قال أحد السياسيين المصريين، «ورغبة السادات في أن تنتج الدول العربية أسلحتها الخاصة كانت الثانية»[26].

تم تخصيص مقر للهيئة في بناء مكاتب عصري في إحدى ضواحي القاهرة. لم يكن المبنى يظهر على أي خريطة، ونوافذه الضخمة القاتمة، وأنظمة التكييف الحديثة، وكاميرات المراقبة الخاصة، وحراس بلباس موحد يحملون مسدسات مطلية بالكروم، جعلته يبرز بشكل واضح مقابل مشهد القاهرة. لقد تم تصميمه، بشكل متعمّد ومقصود، ليحاكي مقرات الشركات الصناعية في الأماكن الأغنى بكثير في العالم. كما تم اعتماد المناهج الإدارية نفسها المتبعة في الشركات الرأسمالية الغربية. وفي تباين حاد مع الأعراف المصرية، كانت تتمتع الهيئة العربية للتصنيع بدرجة لا بأس بها من الحرية، بعيداً عن بيروقراطية الحكومة والقيود الخارجية الأخرى. من أولى الخطوات التي اتخذها مروان لدى استلامه المنصب، وهو قرار شعر بالفخر لاتخاذه، أنه سرَّح 1600 عامل غير أساسي، وهو أمر غير وارد في المناخ

إنشاء البنية التحتية والاتصال مع الشركات الغربية المصنعة للأسلحة للحصول على التراخيص ومعرفة كيفية بناء أنظمة الأسلحة في المصانع المصرية. وبحسب أحد العقود الموقعة مع مروحيات ويستلاند (Westland Helicopters) ورولزرويس (Rolls–Royce) من بريطانيا، كان من المفترض أن تبدأ الهيئة بإنتاج مروحيات لينكس (Lynx) في مصنع بمنطقة حلوان. وفي عقد آخر مع شركة الصناعات الفضائية البريطانية تم الترتيب لإنتاج صواريخ مضادة للدبابات من طراز سوينغفاير (Swingfire)؛ وآخر، مع شركات فرنسية مختلفة، يهدف لإنتاج صواريخ جو – جو وأرض – أرض في مصانع في مجمع عسكري سعودي سيتم بناؤه بالقرب من الرياض. عقد آخر، بقيمة ملياري دولار، تم توقيعه مع شركة داسو وشركة دورنيير الألمانية لتجميع طائرات تدريبية من نوع ألفا جت (Alpha Jet) في مصر. وتم وضع خطط بعيدة المدى لتجميع الطائرة الفرنسية الأكثر تطوراً، ميراج 2000، التي كان يُقدَّر لها أن تنافس الطائرة الأمريكية F–16. وقَّعت الهيئة عقداً مع شركة American Motors لإنتاج 12 ألف سيارة جيب في السنة في القاهرة. في مقابلة أجراها أشرف مروان مع مجلة Business Week قبل وقت قصير من إعلان السادات عن نيته زيارة القدس وبحث اتفاق سلام مع إسرائيل، قدَّر مروان قيمة العقود التي وقعتها الهيئة بأربعة أو خمسة مليارات دولار مع مصانع الأسلحة الغربية من أجل إنتاج الأسلحة في مصر[27].

لكن القيمة الحقيقية لمعظم تلك العقود لم تكن في النهاية لتساوي الورق الذي كُتبت عليه. في أواخر عام 1977، بعد إنفاق مئات ملايين الدولارات، بلغ إجمالي إيرادات الهيئة 41 مليون دولار. والشيء الوحيد الذي أنتجته فعلياً كان ناقلة جنود مدرعة مرخصة من ألمانيا الغربية قادرة على حمل عشرة جنود لمسافة ستمائة متر. أما العدد الذي تم إنتاجه منها فهو غير معروف بدقة، وغير معروف أيضاً إن كان قد تم وضعها في الخدمة الفعلية.

التي وضعتها الهيئة. وقد فشل مروان في إثبات عكس ذلك. لكن ما أدى في النهاية إلى سقوط الهيئة كان معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل. وعلى إثر مبادرة السادات في تشرين الأول 1977، وجدت مصر نفسها فجأة معزولة عن العالم العربي – وزادت الأمور حدة بعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد عام 1979. وفي آذار 1979، أعلن شركاء مصر في الهيئة عن رغبتهم في إيقاف تمويل كل المشاريع، ما نتج عنه فوراً تسريح ستة عشر ألف موظف في مصر.

لم يكن مروان واحداً منهم، فقد كان قد استقال مسبقاً في تشرين الأول 1978. ليس بسبب فشل الهيئة أو ضعف أدائها طبعاً، بل بالعكس، فقد أثبتت قدرته على الإدارة وكان يحظى بدعم السعودية والآخرين. بل كان السبب، كالعادة، هو الجهود الحثيثة لخصومه في داخل مصر وخارجها للحط من شأنه. وكالعادة أيضاً، كانت نزعته للفساد هي ما يعطيهم الدافع الذي يحتاجونه.

الرجلان اللذان قادا المعركة الحاسمة ضد أشرف مروان كانا وزير الخارجية إسماعيل فهمي وموسى صبري، المحرر في جريدة الأخبار وأحد أقدم أصدقاء السادات وأهم الداعمين له. وانضم لهما عدد من اللاعبين المهمين في مصر، منهم صحفيون نشروا تقارير عن إساءات مروان وكانوا يشعرون بقلق بالغ من استمراره في أداء دور رئيسي في الدولة، أو حتى عودته إلى مضمار السياسة.

لم يكن لبعض التهم أي مبرر. كمثال عليها، اتصل في أحد الأيام محرر صحيفة الأخبار اليوم بوزير الخارجية بشأن موضوع معين. لكن فهمي قال له إن عليه بدل التركيز على ذلك أن يُركّز على سرقة كمية من الألماس تساوي عشرات آلاف الدولارات من فندق محدد في لندن حيث كان مروان، بالصدفة، نزيلاً فيه. كان هدف فهمي هو إثارة فضيحة من خلال جعل الأمر يبدو وكأن مروان، الموظف الحكومي، ثري لدرجة أنه يحمل معه مجوهرات في غرفته في الفندق. طلب من المحرر نشر

بشكل صريح، كان هناك من التلميحات ما يكفي لإيضاح من هو المقصود. هذه القضية، التي أصبحت تُعرَف بالفضيحة وصلت إلى مسامع السادات الذي أصر على معرفة الشخص المتورط بها. وحين سمّى موسى صبري مروان، أمر السادات بإجراء تحقيق موسَّع.

تبيَّن هذه المرة أن التهم مفبركة بالكامل[28]، لكن ذلك لم يمنع دوامة الشائعات من الضغط أكثر فأكثر على مروان. كان أحد المكاتب الرئيسية للهيئة العربية للتصنيع في لندن، وكان مروان يسافر كثيراً إلى هناك. وسرعان ما وصلت إلى القاهرة شائعات عن صفقات أسلحة يحوكها مروان وصديقه القديم، كمال أدهم. وكان اسم جيهان السادات يرد في بعض الأحيان أيضاً. قيل إن مروان كان يملك شقة في لندن وأنه خسر ثروة هائلة في ألعاب القمار في أحد النوادي. وقيل أيضاً إن مروان كان يعمل جاهداً لإغلاق صفقة ضخمة اشترت بموجبها شركة الخطوط الجوية المصرية طائرات من شركة بوينغ، لعلمه بأن أدهم سيتقاضى أجراً كبيراً على كل طائرة يتم بيعها. وفي الوقت نفسه كانت هناك تقارير منشورة تتحدث عن تقديم مروان هدايا ثمينة، منها أجهزة تلفاز ملونة، لشخصيات بارزة في الحكومة والصناعة العسكرية المصرية مقابل إسقاط التهم عنه[29].

هذه السلسلة من التشهيرات، التي يرجع كثير منها إلى مجموعة من أكثر الناس ولاء للسادات، زادت الضغط على الرئيس لإبعاد مروان عن منصبه كرئيس للهيئة العربية للتصنيع. لكن السادات قاوم مبدياً عدداً من الأعذار: لم يكن لمروان بديل في إنجاز المهام الحساسة في الخارج نيابة عن الرئيس؛ علاقته الخاصة مع قادة النظام الليبي مكّنته من حل الأزمات الأكثر تعقيداً بين ليبيا ومصر؛ وفي المملكة السعودية يعتبرونه صلة وصل ممتازة مع مصر، وخاصة في الأعمال الدقيقة، وذلك ما كان يسمح للسادات بإجراء الحوارات المثمرة مع الملك. ثم كان هناك الدَين الذي

مـع ذلـك استمر الضغط بالازدياد على السـادات. ففي حيـن كان في الماضي قادراً إلى حد ما على تحمل الإزعاجات وقبول إنكار مروان وادعاءاته بأن الناصريين كانـوا يريـدون النيل منه، تأتي المطالبة هذه المرة برأس مروان من أصدقاء السـادات المقربيـن، ومنهم صبري وقطبي الإعلام، الأخوين مصطفى وعلي أمين. حين ترافق الضغط الإعلامي مع تقارير اسـتخباراتية تتحدث عن سـلوك مروان، أدرك السادات أن عليـه أن يتصـرف. لكن الأمر الـذي على الأرجح جعل الكفة ترجح لم يكن فقط الدليل القاطع على فساد مروان، إنما تسجيلات لمحادثات أجراها مع عدد من أمراء الخليـج وأبـدى فيها امتعاضه من السـادات، وحتى مناهضته له. بمجرد أن ظهر عدم ولاء مروان، أصبح هدفاً سـهلاً. بعد ذلك بوقت قصير، اشـتكى للسـادات من وجود أجهـزة تنصـت فـي مكتبه، لكن السـادات تجاهل الشـكوى. وهكذا وصلت رسـالة السـادات إلى أذن مروان واضحة وعالية النبرة. لقد قرر السـادات إزالة الحصانة التي أبقت مروان آمناً لفترة طويلة، وهو يريد أن يعرف مروان ذلك[31].

كما حدث في مناسـبات كثيرة في حياة أشـرف مروان، ترافق الإعلان عن تركه لمنصبه في الهيئة العربية للتصنيع، في 12 تشرين الأول 1978، مع كثير من التهويل. كان السادات يريد أن تمضي القصة بهدوء، لكن القرار وصل إلى مسامع موسى صبري، فخرجت القصة على صحيفة الأخبار بالعنوان العريض «نهاية أسطورة أشرف مروان: قرار رئاسي بطرده من الهيئة العربية للتصنيع ونقله إلى وزارة الخارجية»[32]. أغضب ذلك السـادات، ليس فقط لأنه وجد نفسـه بعد ساعات عدة واقفاً أمام زوجة مروان، منـى، والدمـوع فـي عينيها، لأن المقالـة تدعي أن ابنة عبد الناصـر متزوجة من لص. فاسـتدعى السـادات صبري وأصر على طمس القصة. وبالفعـل، تم في الإصدارات اللاحقـة التـي صـدرت عـن الصحيفة في اليوم نفسـه الحديث عن «اسـتقالة» مروان وتعيينه في منصب رفيع في وزارة الخارجية. وبعد فترة غير بعيدة، أرسـله السـادات

شعور لا شك أنه ازداد حين اتضح أن السادات، صديق عمره، قد توقف عن استقبال اتصالاته وصار يرفض مقابلته. فأعلن صبري، رداً على ذلك، استقالته من رئاسة تحرير صحيفة الخبر، ولم تَعُد العلاقة بين الاثنين، بالرغم من إقناعه بسحب استقالته، لتتعافى بالكامل[33].

وكما حصل في المرة السابقة حين وجد السادات نفسه يُبعد مروان، قام هذه المرة أيضاً بردِّ الاعتبار لمساعده السابق وكرَّمه كبطل قومي. وفي حفل رسمي غطته وسائل الإعلام بإسهاب، منح السادات مروان أرفع وسام في جمهورية مصر وأكد على إنجازات الرجُل في حرب أكتوبر. وأعلن السادات في كلمته أنه بفضل جهود مروان «استطاع سلاح الجو المصري إكمال مهامه القتالية بالشكل المطلوب»[34]. استفاد مروان لاحقاً من الوسامين اللذين حصل عليهما لإثبات ولائه لمصر ولتدعيم ادعاءاته، أمام الصحافيين، بأنه كان عميلاً مزدوجاً يعمل لصالح مصر ضد إسرائيل.

أما خارج مصر فاعتُبر استبعاد مروان تطوراً مهماً في القيادة السياسية المصرية. وقبل الاستعراض العسكري بمناسبة ذكرى حرب أكتوبر بأيام عدة، تم الإعلان عن استقالة شخصية مهمة أخرى أيضاً هي قائد هيئة أركان الجيش عبد الغني الجمسي. وهكذا اعتُبر رحيل مروان مؤشراً على جهود يبذلها السادات في إطار عملية تطهير للبيت الداخلي بطريقة تحقق توازناً بين المعسكرين المتنافسين داخل النظام.

الرجل الذي حقق أكبر فائدة من تلك العملية كان نائب السادات، حسني مبارك، الذي وجد فجأة أهم منافسَين له يُستبعدان[35].

كانت منزلة مروان لدى الموساد قد بدأت تتراجع حتى قبل إبعاده عن الحياة السياسية المصرية، لكن لم تحصل قطيعة في العلاقة، وظل يمرر المعلومات إلى المشرفين عليه كلما سافر إلى أوروبا. وخلال المفاوضات مع إسرائيل بشأن فصل القوات بعد حرب أكتوبر، على سبيل المثال، قدَّم مروان معلومات حساسة أدت إلى

صورة قيمة عن الرئيس السوري.

لكن الحرب تسببت أيضاً بحدوث انحراف في العلاقة، ويرجع ذلك في جزء منه لعوامل شخصية. النجاح الكبير الذي حققته مصر في الأيام الأولى من الحرب، وخاصة رفع العلم المصري فوق خط بارليف، أعاد للعرب قدراً كبيراً من كرامتهم المهدورة في نكسة حزيران 1967. كان الدافع الأصلي لعمل مروان جاسوساً لإسرائيل، في جزء منه نابعاً من رغبته في أن يكون إلى جانب الطرف الرابح في الصراع. وقد عبَّر في الاجتماعات التي أجراها مع مشرفيه مباشرة بعد الحرب عن انزعاجه من مفاجأة إسرائيل بالرغم من تحذيراته، ومن الخسائر الكبيرة التي مُنِي بها الجيش الإسرائيلي لعدم استفادته من الخطط التفصيلية التي كان قد أعطاهم إياها. فجأة، لم يعد الإسرائيليون القوة الكاملة التي لا تُقهَر التي كانوا عليها ذات يوم، ولم يَعُد المصريون هم تلك الشرذمة الذليلة التي كان يشعر بالاشمئزاز من الانتماء إليها.

راح تأثير الجوانب الأخرى في دافعه الأصلي يتراجع أيضاً. هو الآن رجل ثري، والدفعات التي يتقاضاها من الموساد لم تعد تعني له ما كانت تعنيه فيما مضى. وقد حصل على تكريم كبير من الحكومة المصرية ولا يزال مرحَّباً به في مختلف عواصم العالم، الأمر الذي ضمَّد كثيراً من جراح أناه التي كان عمه والد زوجته قد تسبب له بها، وهي جراح لا شك أنها أسهمت في قراره الأساسي بخيانة بلده.

هناك عامل آخر هو التحول الذي طرأ على العلاقات بين مصر وإسرائيل. فانتهاء الحرب، واتفاقات الهدنة، وانتقال مصر من المعسكر السوفييتي إلى المعسكر الأمريكي، كلها عوامل فتحت الباب أمام عملية سلام حقيقي، وتضاءل إلى حد كبير احتمال شن مصر حرباً جديدة على إسرائيل. بالنتيجة، لم يعد الموساد يرى في الدور الأكثر أهمية الذي كان يلعبه الملاك – وهو التحذير من خطر هجوم مصري مباغت – الدرجة نفسها من الأهمية.

على مسامع مشرفيه الإسرائيليين وهي أن السادات يتطلع لإنهاء الصراع مع إسرائيل والتركيز بدلاً من ذلك على «بناء مصر». لكن أفكار الرئيس بشأن السلام لم تكن بالنسبة إلى الموساد وبقية أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية بأهمية أفكاره بشأن الحرب، ولهذا لم تحظَ المعلومات التي صار مروان ينقلها بالاهتمام الذي كانت تحظى به في الماضي. وبعد أن أطلق السادات عملية السلام، وخاصة بعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد، أصبحت مصر في مرتبة متأخرة على سلم أولويات الاستخبارات الإسرائيلية، وكذلك أصبح أشرف مروان.

انعكس تراجُع مكانة مروان في إسرائيل أيضاً على الحذر الذي كان الإسرائيليون يحرصون عليه في التعامل مع معلوماته. وذات يوم، حذّره صديق له في CIA بأن معلومات لا يعرفها إلا هو كانت تصل بطريقة ما إلى الإسرائيليين – ملمّحاً إلى تخلي إسرائيل عن أسلوبها الذي اعتمدته لفترة طويلة في «إعادة صياغة» معلومات مروان بطريقة تجعل من المستحيل معرفة من يكون المصدر قبل تمرير المعلومات إلى الأمريكان. اشتكى مروان بمرارة إلى دوبي، فتم إجراء تحقيق بهذا الشأن، والكشف عن أسباب الخطأ، واتخاذ إجراءات لضمان عدم تكرار حدوث ذلك. لكن كان واضحاً أن الحفاظ على موضوع مروان سرياً لم يعد بالنسبة إلى الإسرائيليين على الدرجة نفسها من الإلحاح التي كان عليها في الماضي.

كانت هناك مؤشرات أخرى بالإضافة إلى ذلك. في صيف 1974، أنهى زامير عمله في رئاسة الموساد. وبديله، اللواء المتقاعد إسحاق هوفي لم يرَ ضرورة للمشاركة في الإشراف على مروان، وأصبح دوبي الرابط الوحيد بينه وبين الموساد. كما أن لقاءاتهما أصبحت متباعدة أكثر، ففي حين كانا قبيل الحرب يلتقيان مرتين في الشهر بالحد الأدنى، وأحياناً أكثر من ذلك، صارا يلتقيان الآن مرة كل شهر أو اثنين. وفي أواسط السبعينات، ترك دوبي لندن وعاد ليستقر في إسرائيل. فلم يعد بالإمكان

حتى أجور مروان تراجعت كثيرا. في فترة حرب أكتوبر وصلت دفعاته إلى 50 ألف دولار في المرة الواحدة. أما بعد الحرب فصار يتقاضى 100 ألف دولار كأجر سنوي ثابت، وهو أقل بكثير من السابق. لم تكن القضية أنه بحاجة للمال، ففي فترة من الفترات أخبر مرشديه أنه في الحقيقة لم يعد يريد مقابلاً على الإطلاق، وظل لسنوات عدّة يُقدِّم المعلومات من دون مقابل. لكن في أواخر السبعينيات، مر بظروف مالية صعبة فطلب المساعدة من الموساد. وافق هوفي على إعطائه مبلغاً تجاوز نصف مليون دولار كدفعة لمرة واحدة مقابل كل السنوات التي استمر فيها بتقديم المعلومات مجاناً. كانت تلك آخر مرة يتقاضى فيها الملاك أي أموال من دافعي الضرائب الإسرائيليين.

كل هذا يعيد إلى السطح مجدداً السؤال عن دافع مروان. لماذا استمر في العمل مع إسرائيل لسنوات، في ظروف تشكِّل خطراً واضحاً على مهنته وحياته، حتى بعد عام 1981، حين ترك مصر لمصلحته؟ من الواضح أن الدافع لم يكن المال، ولم يكن مكانته الشخصية في مصر؛ إذ استمر في مساعدة إسرائيل حتى حين كان في قمة مجده. كما أنه لم يكن مرغماً، فليس لدينا أي سبب يدفعنا للاعتقاد أن الموساد قد حاول يوماً أن يفرض على مروان القيام بشيء ضد إرادته.

هناك استنتاج واحد يبدو منطقياً. كان دوره كجاسوس يحقق له حاجة ما، وكان يأبى هو التخلي عنها. ربما كانت هي الإثارة والمخاطرة التي تنطوي عليها الجاسوسية. وبمجرد أن ذاق طعمها، لم تعُد العودة إلى الحياة «الطبيعية» خياراً بالنسبة إليه. في مكان ما من ثنايا نفسه كان لديه شغف هوليودي تجاه حياة الجاسوسية. وفي مرحلة معينة صار يعتقد أنه إذا توقف عن العمل لصالح إسرائيل فإن الموساد سيحاول قتله. أما ما دفعه للاعتقاد بذلك فهو أمر غير واضح البتة، لكنه ظل خائفاً من انتقامهم لسنوات طويلة لاحقة. وأخيراً، ربما يكون جزء من دافعه له صلة بعلاقته

شخص يمكن الاتكاء عليه. ودوبي كان الشخص الوحيد على الأرض الذي يمكنه ذلك، وأصبحت اجتماعاتهما نوعاً من جلسات الاعتراف بالنسبة إلى مروان. كل شخص، وحتى أشد المجرمين، يحتاج لمن يعترف له. وهذا هو السبب في رفضه الدائم للجهود التي كان يبذلها الموساد باتجاه استبدال دوبي بمشرف آخر أو حتى إضافة شخص ثانٍ.

المناسبة الوحيدة التي وافق فيها خليفة زامير على لقاء مروان كانت بهدف إقناعه بالموافقة على وجود مشرفٍ ثانٍ. شرح هوفي أن المشرف الجديد سيحل مكان «أليكس» فقط حين يكون الأخير مريضاً أو غير متوفر لأسباب شخصية. لكن مروان كان متعنتاً جداً وأكد أن أي جهود لإضافة أحد آخر إلى عمليته سوف يجعل إسرائيل لا ترى وجهه ثانية. رضخ هوفي، واستمر دوبي ليكون مشرف مروان الوحيد في السنوات التي تلت ذلك.

حتى بعد أن غادر مروان الحياة العامة، ظل لا يفارق أعين العامة. ومن شعورها بأنه لم يعد يحظى بدعم الرئيس، راحت الصحافة المصرية تطارده كما يطارد القرش فريسته، ناشرة كماً لا نهائياً من التقارير، بغض النظر عن صحتها أو زيفها، تتحدث عن صفقاته الفاسدة في مجال العقارات أو تبالغ كثيراً بشأن ثروته. وبلغت الأمور ذروتها عام 1981، حين نشر رجل الأعمال عثمان أحمد عثمان مذكراته في مصر. كان مقرباً من السادات، بل وزوّج ابنه الأكبر لابنة السادات. هاجم عثمان في كتابه سياسات عبد الناصر، لكنه ادّعى أيضاً أن أشرف مروان وزوجته منى جمعا 400 مليون جنيه مصري من خلال استغلالهما غير المشروع لمكانتهما كأفراد من عائلة القائد المبجّل. فانبرى مروان من موقع المدافع عن عائلة عبد الناصر وأنكر بشكل قاطع اتهامات عثمان قائلاً: «فقط لو يمنحني الله بضع مئات من السنين لأعيشها، عندها يمكن أن أكافح لأكسب واحد بالمائة من ذلك المبلغ». لكن جهود مروان

لم تَنشَر مطلقا، بالرغم من رجاء مروان المتكرر لصبري بأن ينشرها[36].

في الوقت نفسه، وبالرغم من كل شيء، استمر مروان في علاقة غير رسمية مع أنور وجيهان السادات. وقد شوهد أكثر من مرة في منزلهما، وهو يُطلِع الرئيس على مختلف اللقاءات التي عقدها في العالم العربي. وفي مناسبات أخرى رافق السادات في رحلات إلى الخارج. لعل ذلك في جزء منه بسبب المودة التي كان يكنها السادات بوضوح لمنى؛ وبرأي البعض، كان يرى أنه بمثابة الأب لها، وربما بسبب الجفاء بينها وبين بقية أفراد عائلة عبد الناصر. استفاد أشرف بالتأكيد من استمرار الصلات، حتى لو لم يكن سوى لسبب واحد وهو أن يرى العالم أنه لا يزال لم يفقد نفوذه بالكامل. لكن عدم انقطاع العلاقات بين السادات ومروان بالكامل، جعل أعداء مروان يخشون احتمال عودته ذات يوم إلى الساحة السياسية. ولهذا استقر رأيهم على ضرورة استمرار ظهور المقالات التي تهاجم مروان في الصحافة[37].

سواء كانت مخاوفهم مشروعة أم لا، فقد تبخَّرت إمكانية عودة مروان بالكامل في 6 أكتوبر 1981، حين تم اغتيال السادات أثناء استعراض عسكري بمناسبة الذكرى السنوية الثامنة لحرب أكتوبر. السادات، الذي حمى مروان، ورقّاه، واحتاجه، ولم يفقد يوماً الثقة الكاملة فيه، قد رحل. وحل مكانه حسني مبارك، الذي لم يكن لا عدواً ولا صديقاً. بالنسبة إلى رجل مثل أشرف مروان لا يمكن أن يرتوي تعطشه للثروة والاحترام والنجاح، لم تكن القاهرة لتقدم له الكثير. لكنه استمر في المكوث هناك وإمضاء الكثير من الوقت هناك، مع العائلة عادة. وهو لم يهمل مشاريعه العملية في القاهرة، وخاصة في مجال العقارات. لكن رحيل السادات كان بالنسبة إليه إشارة للبدء من جديد، ولبدء فصل جديد في قصته. وبعد أداء حسني مبارك اليمين الدستورية بوقت قصير، انتقل أشرف مروان إلى لندن، التي أصبحت المركز لحياته الجديدة.

الفصل الثاني عشر

ملاك في المدينة، الكشف عن الصهر

لـم تكـن إنكلتـرا بلـداً غريباً على أشـرف مـروان حين انتقـل إليها عـام 1981. كانت لندن بمثابة منزل ثانٍ له منذ زيارته الأولى إليها لمتابعة دراسـة الماجسـتير في أواخر السـتينيات. كانت بالنسـبة إليه المأوى الذي يلتجئ إليه، المتنزه الذي يقضي إجازتـه فيـه، وقاعدة العمليات لعدد من أعمالـه. وبالطبع، كانت أيضاً المركز لحياته كجاسوس.

لكنه بالرغم من محبته للندن، لم يُحضر معه عائلته فوراً حين انتقل إليها. كانت منى والأولاد، الذين أصبحوا في بداية سـن المراهقة، قد انتقلوا إلى شـقة فاخرة في باريس اشتراها لهم مروان في جادة فوش، أحد أغلى الأحياء في العالم، والذي تقيم فيه عائلتا روتشـيلد وأوناسـيس. في السـنوات القليلة الأولى، كان مروان يرى عائلته في عُطل نهاية الأسبوع في أقصى حد.

ربـع القـرن التالـي في حياة مـروان كان مكرسـاً لبناء ثروته. لكـن هذا الجانب أيضاً من حياته ظل محاطاً بالغموض والروايات المتناقضة. وحتى الأشخاص الذي كانـوا علـى درايـة قوية بأجـواء العمل في لندن لم يسـتطيعوا الإجابـة بدقة عن كيفية حصـول مـروان علـى المـال أو المبالغ التي جمعهـا، ويرجع ذلك في جـزء منه إلى شـخصية الرجل وصفقاته، لكنه مرتبط أيضاً بثقافة «المدينة»، وهو ما تُعرَف به النواة الماليـة فـي لندن، وهـي ثقافة ظلت لغايـة الثمانينيات تتبع قواعـد صارمة تقوم على الزمالـة، والتقدير، والانضباط، والتقاليد، بعكس عالم الأعمال الأمريكي الذي يقوم

في جوهرها، وتذكرنا في نواحٍ عديدة بلعبة الكريكيت، وهي لعبة لا تقِل فيها الفنيات أهمية عن القوانين. لكن هذا كان يعني، حتى مؤخراً، قدراً ضئيلاً فقط مما يُسمى اليوم «الشفافية». كانت نسبة بسيطة من الأعمال في لندن تخضع لإشراف الحكومة، ولا يُعرَف سوى القليل عما كان يجري فعلاً، بسبب وجود اتفاق ضمني على الالتزام بضوابط خاصة تتبع مجموعة من القواعد غير المكتوبة لا تقل صرامة عن القانون.

لم يكن مروان جزءاً من نادي السادة هذا. وعلى الرغم من امتلاكه شقة في أكثر أحياء المدينة ثراءً، وبالرغم من تجوُّله في سيارة ليموزين طويلة، فقد ظل غريباً عن «المدينة». ومع أنه لم يرتَد في حياته المدارس الداخلية، لكنه كان يعرف تمام المعرفة كم كانت عالماً منغلقاً، بل وكم هي عنصرية أيضاً. ولهذا، حين بدأ يؤسس علاقاته في «المدينة»، كانت مع غرباء آخرين مثله؛ أشخاص لا يشعرون، لكونهم من المنبوذين، أنهم ملزمون باتباع القواعد غير المكتوبة للعبة. هذه الحقيقة، التي أتاحت لهم هامشاً من القيود والفرص لم يكن متاحاً للآخرين، شكَّلت هي نفسها عائقاً كبيراً أمام تطوير تحركاتهم بعد عقود من الزمن.

الخطوة الأولى الواضحة لمروان في عالم الأعمال في لندن كانت قبل مغادرته مصر، حين اشترى أربعين في المائة من أسهم شركة شحن جوي صغيرة اسمها تريدويندز (Tradwinds). تأسست هذه الشركة عام 1969، وبيعَت عام 1978 لإحدى أضخم الشركات البريطانية حينها، شركة لونرو London and Rhodesian Mining and Land Company (Lonrho)، التي كان يترأسها المليونير البريطاني رولاند – الذي تعرَّف مروان إليه عام 1971 عن طريق صديقيه المقربَين الشيخ عبد الله الصباح وزوجته سعاد. كما تعرَّف أيضاً إلى رشدي صبحي، مدير بنك Allied Arab Bank. لكن علاقته مع رولاند أصبحت نواة عملياته الاقتصادية في لندن لغاية وفاة رولاند عام 1998.

المصـري فـي جميـع أنحاء العالم العربي، وتولّد لديه شعور بأن مروان يعرف كيف يوصله إلى كل ما يحتاجه للتقدم في مصالحه. وسرعان ما انسجم الاثنان، وكان أحد أسباب ذلك تشابه طريقتيهما في العمل الذي يعكس تشابهاً في قصتي حياتهما. كانا يشتركان في تعطشهما اللامحدود للمال والنفوذ، والأنانية الشديدة، والرغبة بالشعور بالتكريم وحب المغامرة. كلاهما يتميزان بقدرتهما على كشف نقاط ضعف الآخرين واستغلالها لمصلحتهما. وهما مولودان خارج المملكة المتحدة (رولاند في معسكر اعتقـال فـي الهند حيث تم اعتقال والديه، وهمـا من أصل هولندي وألماني، على يد الإنكليـز فـي الحرب العالمية الأولى)، وكلاهما كان غريباً عن «المدينة» وغير ملتزم بقواعدها. فرولاند، مثلاً، عرض على السير أنغوس أوغيلفي، الذي كان يملك سابقاً شركة لونرو ومتزوجاً من ابنة عم الملكة، الانضمام إلى مجلس إدارة الشركة. واتفقا علـى أن يتـم تحويل بعـض المكافآت التي يتلقاها أوغيلفي إلى حسـاب مصرفي في سويسـرا، عبـر كنـدا، وبذلك يتجنب أوغيلفي دفع الضرائـب. كان هدف رولاند من هذا الإجراء غير الشـرعي ضمان تمثيل أوغيلفي لمصالحه في مجلس الإدارة. لكن حيـن ظهر للعلن أن الشـركة خرقت المقاطعة التي فرضتهـا بريطانيا على نظام حكم البيض في روديسـيا، صوَّت كامل مجلس الإدارة، بمن فيهم أوغيلفي، ضد رولاند. وكردٍّ على ذلك قام رولاند بتسريب تهرُّب أوغيلفي من الضرائب إلى الصحافة، في خرق صارخ لأصول المعاملة المُتفَق عليها في «المدينة»، الأمر الذي تسبب بإحراج ليـس أوغيلفـي فقـط بل العائلة الملَكية أيضاً، وهو ما تسـبب بـدوره بنبذ رولاند من بيـن الطبقة الأرسـتقراطية البريطانية[1]. في الواقـع، لم يكن لا رولاند ولا مروان من المعجبين جداً بدور القانون، فهما كانا لا يجدان مشكلة في قبول الرشى، والتهديد، والقيـام بعمليـات فيها خرق فاضح للقانون. وهكذا، حين انتقل مروان إلى لندن بعد أن أصبح منبوذاً في القاهرة، وجد كل واحد منهما في الآخر شريكاً ملائماً له.

مثيرة للجدل في التاريخ المعاصر للمدينة. كانت المسألة تتمحور حول مساعي رولاند للسيطرة على سلسلة مخازن هاوس أوف فريزر، وكادت على الأرجح أن تمضي دون أن تُشكّل فضيحة لولا أن هاوس أوف فريزر هي الشركة الأم لمخزن هارودز، الذي كان المتجر المُفضّل لدى النخبة البريطانية، بمن فيهم العائلة الملَكية.

كانت محاولة رولاند الأولى للسيطرة على سلسلة هاوس أوف فريزر عام 1977، حين استغل الضائقة المالية الصعبة التي يمر بها مالكها ومديرها، هيو فريزر، نتيجة الديون المترتبة عليه من المقامرة، وقام بشراء 29.9 بالمائة من أسهم الشركة عبر عدد من القنوات. كانت السلسلة تضم في تلك الفترة اثنين وستين مخزناً، معظمها كان في وضع سيئ. وبعد أن قامت شركة لونرو بخطوات عديدة كشفت عن نيتها السيطرة على السلسلة، تدخلت السلطات البريطانية، وخاصة لجنة الدمج والاحتكارات، التي قررت فتح تحقيق لمعرفة إن كان هذا الأمر سيشكل خطورة على المصلحة العامة. وفي آذار 1981، توصلت اللجنة لنتيجة مفادها أن الدمج بين الشركتين لا يشكل خطورة من هذا النوع، لكن سيطرة لونرو على فريزر لها هذا الأثر[2].

لم يمضِ وقت طويل قبل أن ينجح رولاند في تدبير طرد هيو فريزر من منصبه كمدير للشركة ومتابعة عملية السيطرة. وهذه المرة قدّم في الوقت ذاته عرضاً لشراء صحيفة الأوبزيرفر. وافقت حكومة تاتشر على شراء الصحيفة دون السيطرة على شركة فريزر، ولكونها أصبحت الآن معتادة على أساليب رولاند، أصدر وزير التجارة حكماً يمنع فيه شراء أي حصص إضافية في شركة هاوس أوف فريزر. كان المبرر الرسمي هو أن شركة لونرو تملك بالأصل مصنع نسيج وأن شراءها سلسلة هاوس أوف فريزر قد يجعلها تتفوق بشكل غير عادل على بقية المصانع، لكن الجميع كان يعرف أن السبب الحقيقي هو معارضة النخبة البريطانية لفكرة سقوط أضخم سلسلة متاجر في البلاد، والتي تحظى برعاية الأمراء، في يد شخص سيئ السمعة

كوَّنت لدى رئيس الوزراء إدوارد هيث قبل سنوات شعوراً تفاقم مع الزمن حين قال عن رولاند ولونرو أنهما «الوجه القبيح والمرفوض للرأسمالية».

لم يكن هناك شيء يمكن أن يردع رولاند. مع أنه وافق على عدم شراء أي حصص في شركة فريزر، بل وصرَّح علانية بذلك في أيلول 1982، لكن لم يكن ذلك سوى تمويه. كانت خطوته التالية هي إيجاد طريقة للاستفادة بشكل أكثر ذكاءً من حصته التي تقارب الثلاثين في المائة لإقناع المساهمين ببيع فرع هارودز، وبذلك يتمكن من شراء السيطرة على باقي الشركة. وحين باءت جهوده لإقناع بقية المساهمين بالفشل، قرر أن يبذل كل ما في وسعه لشراء حصة غالبة قبل الاجتماع التالي لمجلس إدارة الشركة، في خرق صريح لقرار وزير التجارة. ولتحقيق ذلك، كان بحاجة لمساعدة أشرف مروان.

بعد بضعة أيام على غدائهما في فندق ريتز، اشترى مروان مليوني سهم في شركة هاوس أوف فريزر، ثم 1.2 مليون سهم أخرى. وساعد رولاند مروان على دفع ثمن الأسهم. بحلول أواسط حزيران 1983، كان مروان يمتلك اثنين بالمائة من أسهم الشركة. وفي الوقت نفسه، قام أشخاص آخرون على صلة برولاند بعمليات شراء مشابهة. بحلول موعد اجتماع مجلس الإدارة، كان لدى رولاند في قبضته ما يكفي من الأسهم لتمرير التصويت لمصلحة قرار بيع المتاجر. ومع ذلك، تم إحباط العملية عن طريق القرارات التنفيذية التقنية التي استطاع تمريرها المعارضون لتلك الخطوة.

لكن رولاند، الأذكى دائماً، وجد طريقة للالتفاف على ذلك عبر خدعة تُعرَف في «المدينة» باسم «كونسيرت بارتيز» (Concert Parties)؛ وهي مجموعة من الأشخاص تُنسق فيما بينها بشكل غير شرعي تحركاتها العملية وذلك من دون مناقشة الأمر فيما بينها، أو على الأقل من دون أن تترك أي دليل ملموس على ذلك، لكي يصبح من

أولاً قام بصرف الانتباه عنه من خلال الإيحاء بأن الصعوبات المالية التي يواجهها جعلته يفقد اهتمامه بالشركة. ثم بدأ بالبحث عن رجل أعمال مهم يشتري كامل حصة رولاند، مع التفاهم ضمنياً على أن عملية الشراء صوريَّة إلى حد ما. حين يبيع حصته يصبح قادراً على شراء مزيد من الأسهم من السوق المفتوحة، فيشتري ما يكفي ليشكِّل مع حصته القديمة أغلبية في الشركة. الرجل الذي يحتاجه يجب أن يكون ثرياً بما يكفي ليستطيع شراء حصته بمفرده، وفي الوقت نفسه ليس ثرياً إلى حد أن ينقلب عليه ويشتري لنفسه العشرين بالمائة الأخرى اللازمة للسيطرة على الشركة. الشخص الذي ساعد رولاند على إيجاد رجل الأعمال المناسب كان أشرف مروان.

ورجل الأعمال الذي وجده مروان له كان محمد الفايد.

وُلد محمد الفايد عام1933 لعائلة مصرية من الطبقة الوسطى. زوجته الأولى، سميرة خاشقجي، والتي دام زواجه بها من عام 1954 حتى عام 1956، كانت شقيقة الثريين عدنان وعصام خاشقجي، وهما من خريجي كلية فيكتوريا وصديقين شخصيين لأشرف مروان. أنجبت سميرة الابن البكر لمحمد الفايد، دودي، الذي توفي عام 1977 في حادث السيارة نفسه الذي أودى بحياة الأميرة ديانا.

كان محمد الفايد رجل أعمال ناجحاً. أطلَق في فترة الخمسينيات شركة شحن بالاشتراك مع أخيه، وانتقل في فترة الستينيات إلى دبي حيث جمع ثروته. في عام 1974، عاد ليستقر في إنكلترا ونقل معظم صفقاته إلى هناك، وإلى فرنسا. اشترى في باريس فندق الريتز الشهير، وقام بتحديثه بتكلفة باهظة، وهو استثمار لاقى عليه تكريماً كبيراً من محافظ باريس آنذاك، جاك شيراك. في عام 1975، تعرَّف إلى رولاند، وبعد فترة وجيزة انضم إلى مجلس إدارة لونرو. ومع أنهما اصطدما بحائط مسدود، بسبب المشكلة المزمنة لدى رولاند في التعامل المثمر مع رجال الأعمال العرب،

الفرصة التي ستتاح له لشراء العشرين بالمائة الأخرى من الأسهم ويسيطر هو على الشركة، بدلاً من الاكتفاء بالاحتفاظ لرولاند بحصته البالغة ثلاثين بالمائة. ولهذا طلب، قبل الاقتراب من الفايد، من مروان أن يتحقق بدقة من ميزانيته للتأكد من عدم قدرته على القيام بمثل تلك الخطوة. كان مروان خياراً طبيعياً، فمن جهة هو شريك في المكيدة، ومن جهة أخرى لكونه والفايد من بلد واحد، وهو مرتبط بالمخابرات المصرية ومقرب من الشقيقين الخاشقجي، وبالتالي يستطيع الوصول إلى كل ما يريد معرفته عن حياة الفايد. لم تُضِر مروان السمعة المعروفة عنه كرجل غامض ويحظى بمطلق النفوذ والشهرة في مصر، فهذه السمعة، التي بذل مروان كل ما في وسعه لتعزيزها، منحته من النفوذ أكثر بكثير مما كان يتمتع به فعلاً. وقد عبَّر نائب في البرلمان البريطاني عن التضخيم في مؤهلات مروان حين وصفه بأنه «صهر الرئيس الراحل عبد الناصر، [الذي] كان يترأس أجهزة الأمن، والمخابرات والمعلومات في مصر. تم تدريبه على يد KGB. ولهذا كان يتمتع بمهارات مميزة في المخابرات، والمخابرات المضادة وتقنيات التضليل، ويحظى بأقصى درجات النفوذ والسلطة...».

كان محمد الفايد وشقيقه علي قد عملا جاهدين لخلق انطباع بأنهما على درجة عالية من الثراء، في حين أن ممتلكاتهما البالغة 100 مليون جنيه إسترليني كانت عملياً مرهونة بمعظمها للبنوك المحلية. في أواخر حزيران 1984، تكلم رولاند مع الفايد بشأن بيعه حصته في شركة هاوس أوف فريزر، وأكد له أن الأرباح ستكون كبيرة. أحب الفايد الفكرة وأراد إبرام الصفقة في الحال، لكن رولاند تريث. بعد ذلك دعا الفايد مروان لجلسة نقاش، وطلب منه إيصال اهتمامه البالغ بالصفقة. قال مروان لرولاند إن ثروة الفايد لا تزيد بتقديره عن 50 مليون جنيه إسترليني. وكان ذلك يعني أنه قد يكون قادراً على سحب النقود المطلوبة لشراء حصة رولاند،

الأخوان الفايد رسالة لرولاند من مصرفهما تؤكد إيداع 132 مليون جنيه إسترليني في حسابهما من أجل شراء حصة لونرو في فريزر، افترض هو ومروان أن ذلك هو كل ما باستطاعتهما تحمله.

لكنهما كانا مخطئين. لأن محمد الفايد، في تلك الفترة بالذات، كان يحظى بثقة سلطان جزيرة بروناي، أغنى رجل على الأرض آنذاك. وبمساعدته، وضع رصيداً في البنوك الإنكليزية والسويسرية يبلغ 350 مليون جنيه إسترليني إضافية. وهي تتيح له إمكانية شراء الأسهم المتبقية التي يحتاجها للسيطرة على شركة هاوس أوف فريزر.

في 29 تشرين الأول 1984، التقى رولاند والفايد ومعهما مروان، واتفقا على أن تبيع شركة لونرو كامل حصتها في شركة فريزر للفايد. تم الاتفاق لاحقاً على أن تبقى الصفقة سرية لغاية إتمامها، وأن يتم الدفع نقداً، مع احتفاظ رولاند بمقعده في مجلس إدارة شركة فريزر.

بعد ثلاثة أيام فقط، تم الإعلان رسمياً عن الصفقة. ولأول مرة يدخل الأخوان الفايد دائرة الضوء، ويخلقان انطباعاً رائعاً لدى الصحافة البريطانية. ففي النهاية، لقد أنقذا هارودز من «الوجه القبيح والمرفوض للرأسمالية».

كان ذلك كافياً ليحظيا بدعوة عشاء بضيافة رئيسة الوزراء، ومعهم سلطان بروناي، في المنزل رقم 10 في داوننغ ستريت، وهو مكان ظلّ رولاند شخصاً غير مرغوب فيه لسنوات.

وفي خرق لبنود الاتفاق، طالب الأخوان فايد رولاند بالتخلي عن مقعده في مجلس إدارة فريزر. شعر رولاند بوجود خطب ما وأن عليه التحرك بسرعة إذا ما أراد الإمساك بفريزر، فعاد واشترى الكثير من الأسهم التي كان قد باعها لصغار المشترين، بما في ذلك حصة مروان. استمرت المعركة بينه وبين الأخوين الفايد، وأصبحت علنية. لكن رولاند كان لا يزال يجهل مقدار المال المتوفر حقيقة بين

رجل أعمال إلى آخر لكن أيضاً كتحرٍ رئيسي لصالح رولاند. فقد اكتشف، على سبيل المثال، أن مصدر النقود التي اشترى بها الأخوان الفايد حصة لونرو في فريزر هو سلطان بروناي وليس من رأسمالهما الخاص. والأكثر من ذلك أنه أثبت، عن طريق وسطائه في المخابرات المصرية، أن الأخوين الفايد ينحدران من عائلة من الطبقة الوسطى وأن جميع القصص عن ثروتهما زائفة. وجدت اكتشافات مروان طريقها إلى الصحافة، التي أسهبت في البناء عليها. لكن بعكس رولاند، الذي يجابه خصومه – وخاصة إدارة فريزر – بالتهديد والوعيد، لجأ الأخوان الفايد للإقناع السلس، وحصلا على الدعم في فريزر مع وعود بالتعاون عن طريق استثمارات مهمة في شركة هارودز، وبأجور أعلى. خلال عطلة عيد الميلاد، حين سافر رولاند ومروان سوية إلى أكابولكو، أقام الأخوان الفايد استقبالاً للمدراء التنفيذيين في فريزر في شقتهما الفاخرة في لندن، وبالغا في استعراض ثروتهما لدرجة أقنعت موظفي الحكومة بمنح مباركتهم لسيطرتهما الكاملة على الشركة.

وبالفعل، صرَّح محمد الفايد، في 4 آذار 1985، بشكل علني عن نيته شراء شركة هاوس أوف فريزر. المفاجأة بالنسبة إلى رولاند ومروان كانت حين اكتشفا أن لديه في رصيده 435 مليون جنيه إسترليني. سافر الاثنان إلى بلدة ماربيا على الساحل الإسباني، حيث التقيا بعدنان خاشقجي، الذي أكد أن جميع القصص عن ثروة عائلة الفايد من القطن المصري زائفة وأن والدهما كان مفتشاً متوسطاً في وزارة التعليم. لكن حين حاول مروان تقديم دليل إلى السلطات البريطانية على أن الفايد كذب بشأن مصدر تمويله، وأن المال يعود بالفعل لسلطان بروناي، تم تجاهله كلياً. فسمعة مروان كمتلاعب غير جدير بالثقة جعلت مناشداته لا تلقى آذاناً صاغية.

هنا توجه رولاند إلى الصحافة، مطلِقاً حملة علنية لتشويه سمعة الفايد استمرت لسبع سنوات وكلفته أكثر من 20 مليون جنيه إسترليني. مستعيناً بخدمات محامين،

فرنسا، إنكلترا، وطبعاً، مصر. ومن ضمن التكتيكات التي استخدمها التنصت غير المشروع على المكالمات، والرشوة، والتهديدات. الرجل الذي أدار الحملة وأشرف عليها كان أشرف مروان. وكم كانت مؤثرة الصورة التي رسمها مروان من الغموض والأصدقاء المريبين التي أخافت عائلة الفايد لدرجة جعلتهم ينفقون مزيداً من الأموال للدفاع عن أنفسهم ضد الخطر المحدق بهم، بما في ذلك استئجار حراس شخصيين.

في المرحلة الأولى، قام مروان باستخراج نُسخ عن شهادات ميلاد عائلة الفايد، التي أثبتت عودة أصولهم لطبقة متوسطة وبالتالي قوّضت ادعاءهم بأن الشراء تم بأموال العائلة. وبالرغم من نشر ترجمة لشهادات الميلاد في الصحافة البريطانية، لم يظهر أن هناك من يبالي كثيراً. فتحولت الجهود نحو إثبات أن الفايد قد استغل بشكل غير قانوني التفويض الممنوح له على حسابات سلطان بروناي، ودفع رولاند مليوني جنيه إسترليني لمرشد روحي هندي يتردد عليه الأثرياء، وذلك مقابل الحصول منه على تسجيل رديء لمحادثة جرت بينه وبين الفايد - ويُزَعم فيه بأنه تم الإمساك بالأخير متلبساً أثناء اعترافه بأن النقود تعود لسلطان بروناي. لكن من أصل ثماني عشرة ساعة من التسجيل، لم يظهر أي شيء مفيد حقاً. هنا استأجر مروان محققاً خاصاً للتنصت على هواتف منزل الفايد. كما عرض على سفير هايتي في لندن مليوني جنيه إسترليني مقابل معلومات محرجة عن صفقاته هناك، لكون الفايد قد فر من هايتي بعد أن تورط في جدال مع الرجل القوي هناك، فرانسوا دوفالييه «بابا دوك». لكن هذه الجهود أيضاً ضاعت سُدىً[3].

سلّط كريس بلاكهورست، وهو صحفي مخضرم ومحرر سابق في صحيفة الإندبندنت، بعض الضوء على طريقة مروان في العمل. بحسب إحدى الروايات، سمعها من مساعد الفايد، قام في أواخر عام 1986 شخص بالقرع على باب مكاتب

لكنه أصيب بالذعر حين عَلِم بمصير شخص آخر كان مروان قد استأجره للتنصت على هواتفه وهو جيرارد هوارو، الزعيم المنفي للمعارضة في جزر سيشيل الذي أُردي قتيلاً، قبل بضعة أيام، أمام مدخل منزله في لندن. ويطلب المحقق الآن من الفايد حمايته من تهديدات محتملة من مروان. وافق الفايد على مقابلته، بشرط أن يطلعه على جميع التفاصيل المتعلقة بالشخص الذي استأجره. وافق المحقق. لكنه، قبل موعد الاجتماع المرتقب، تعرض لضرب مبرِّح في ضاحية بريمروز هيل في لندن. فتم إلغاء الاجتماع[4].

خاض بلاكهورست نفسه تجارب مخيفة مع مروان أيضاً. في إحدى المرات وافق مروان على منحه مقابلة معه، طالباً منه الظهور في مطار هيثرو وبيده جواز سفره. ومن دون حتى المرور على أمن الحدود، وجد نفسه على متن طائرة خاصة متجهاً إلى جزيرة مايوركا الصغيرة، هو ومروان - الذي يملك فندقاً فخماً هناك - وبرفقتهما رجلا أعمال أمضيا كامل الرحلة وهما يتحدثان بالعربية متجاهلين بلاكهورست تماماً. عند وصولهم أخيراً إلى مايوركا، تجاهله مروان طوال عطلة نهاية الأسبوع، وحين سمح له أخيراً بمقابلته، كانت المقابلة مختصرة وسطحية. اللافت في الأمر كان استغلال مروان الفرصة لتمرير أسماء شخصيات عنيفة ومريبة في العالم العربي تربطه بهم صلات جيدة، ومنهم القذافي. الانطباع الذي تولَّد لدى بلاكهورست هو أنه أمام رجل يريد أن يُظهر أنه ليس مجرد أي رجل أعمال في «المدينة» بل وأنه غامض وخطير، شخص يمكنه أن ينتزعك من عالمك ويمارس أقصى درجات التحكم بحياتك. بعد فترة، فكَّر بلاكهورست أنه لو اختفى في تلك العطلة، لما وجد أحد أي دليل للبحث عنه. هكذا بدأ بلاكهورست مقالته:

> أشرف مروان يخيف الناس. الثري المصري الذي جنى ثروة من تجارة الأسهم في هاوس أوف فريزر، وفليبيت وإكستيل يسعى الآن خلف شركة وادعة

لأنه متقدم دائماً بخطوة؛ في الصفقة التالية، مليون تالية. وحين يقوم بخطوة، هو لا يُخبِر «المدينة». إنه يكره قيودها، وقواعدها غير المكتوبة...

الغامض، والخفي، والشرير هي الأوصاف المُفضلة لمروان الشائعة عنه في «المدينة». اختياره لأصدقائه سيئ. إنه مُقرَّب من العقيد الليبي القذافي وابن عمه، مستشار الأمن أحمد قذاف الدم. «مجرد كوني صديقهما لا يعني أني إرهابي»[5].

مروان كان أيضاً من بين القلائل في «المدينة» المعروفين علناً بالكذابين. جون غريفيث، الذي تم تعيينه للإشراف على التحقيق الرسمي المتعلق بجهود رولاند للسيطرة على هاوس أوف فريزر، استخلص في تقرير وضعه في آذار 1984 أن «دليل الدكتور مروان لم يحمل خاتم الحقيقة. لقد شعرتُ أني لا أستطيع حتماً الاعتماد عليه على أنه الحقيقة الكاملة... هو لم يكن صادقاً...». توم بور، الذي كتب عن سيرة حياة الفايد ورولاند، يؤكد أن تلك هي طريقة غريفيث للقول إن شهادة مروان كانت كذبة من دون تحفظ[6]. وقد تم التعامل معها على هذا النحو حينها. ولم يوصَف أي شاهد آخر من بين الكثيرين الذين وقفوا أمام غريفيث بتلك الطريقة. من الواضح أن مروان كان يحاول إخفاء حقيقة أنه كان قد اشترى أسهم فريزر من أجل مساعدة رولاند في السيطرة على الشركة. بينما قال لغريفيث إنه اشترى الأسهم بعد أن قرأ مقالة عن الشركة في صحيفة صندي تيليغراف، وقد أحضر معه نسخة من المقالة كبرهان. لكن سكرتيرة رولاند قالت في شهادتها إنها أرسلت المقالة لمروان بناءً على طلبه، واستنتج غريفيث أن النسخة التي يحملها كانت صورة عن القصاصة التي كانت لدى رولاند[7]. ومن الجدير ذكره بهذا الخصوص أن رولاند نفسه، في محاولة لإنكار طلبه من مروان شراء الأسهم لمصلحته، قال إنه «لم تكن لديه رغبة في إنجاز أعمال مع أشرف مروان... فهو غير أهل للثقة إطلاقاً من ناحية الأعمال... الدكتور أشرف مروان ليس أهلاً للثقة إطلاقاً في مجال الأعمال»[8].

عالـم الأعمـال في لندن ولـم يكن لديه أصدقاء إنكليـز. وبعكس بقية رجال الأعمال في لندن، الذين يتخذون لأنفسـهم مكاتب مترفة في المقاطعة المالية، احتفظ مروان لنفسه بمكتب متوسط نسبياً في شارع هيل في مقاطعة مايفير الأرستقراطية. وباستثناء بضعة قطع فنية من شرق آسيا، لم يكن مكتبه يحتوي سوى طاولة عليها شاشة كمبيوتر تتنقـل عليهـا البيانـات المالية من جهة لأخرى، وأغلبها عن أسـهم في بورصة لندن. وحتى عند استقباله ضيوفاً في مكتبه، كانت الأرقام على تلك الشاشة تجذب الأنظار إليهـا. كان يُصـر على أن تلك هي طريقته في العمل: هـو يجمع المعلومات، وينتظر الفرص، ويتخذ قرارات سـريعة. بتلك الطريقة اشـترى الفندق في مايوركا. وبحسب روايتـه، كان يتناول العشـاء في إسـبانيا، وكان مالك الفنـدق يتحدث عن فندقه وذكر أنه يفكر في بيعه. سأله مروان عن المبلغ الذي يريده وتأكد من أن السعر نهائي. في الصباح التالي، اتصل به وتم إبرام الصفقة. في حادثة أخرى، في أواخر الثمانينيات، اشترى 3.2 بالمائة من أسهم نادي تشيلسي لكرة القدم بعد أن وصله تلميح عن وجود رجـل أعمـال ثـري يفكر في شـراء النادي. ومنذ ذلـك الحين وهـو يواكب تطورات الفريـق، حتـى عـام 2003 حين باع حصته للثري الروسـي رومـان أبراهيموفيتش في صفقة ستلفت لاحقاً انتباه السلطات إليها. استثمار مروان في نادي تشيلسي كان غير اعتيادي من ناحية المدة التي استمر عليها. كان في العادة يميل إلى بيع ممتلكاته في الشـركات أو العقارات، وأغلبها في الفنادق، ليس بطريقة الاسـتثمار التي تقوم على مبدأ الشراء والاحتفاظ، بل في سعي لتحقيق ربح مهم في فترة وجيزة[9].

مـا من شـك في أن مـروان أصبح رجلاً ثريـاً في لندن، لكـن المعلومات حول كيفية قيامه بذلك أو حجم الثروة التي جمعها غير واضحة أبداً. في المقابلات القليلة التي أجراها، كان يدعي أنه أصبح ثرياً من صفقات العمل الناجحة، وأغلبها في مجال العقـارات، ويعـزو نجاحه لمزيج من الحنكة والحـظ. كان مصدر جزء من ثروته هو

التي كان دوره فيها مجرد وسيط وليس مستثمراً. مع ذلك، يظل إجمالي ثروته غير معروف بدقة. بحسب تقارير غير واضحة المصدر، كان في الفترة التي غادر فيها مصدر قد جمع أكثر من 300 مليون جنيه إسترليني، معظمها من الأبنية والفنادق التي اشتراها في لندن[10]. لكن حتى لو افترضنا أن تلك التقارير مبالغ فيها جداً، فهو لم يصل إلى المملكة المتحدة مفلساً. وثانية، بحسب أحد التحقيقات، كان مروان منذ عام 1972 يملك أسهماً في بورصة لندن تُقدَّر بمليوني جنيه إسترليني، ويمكننا الافتراض أن ثروته قد نمت بعد ذلك فقط. المبالغ التي تقاضاها من الموساد، على مر السنين، مجملها بحدود مليون دولار، ويبدو واضحاً أنه استخدم تلك الأموال منذ البداية كقاعدة لكسب مزيد من النقود عبر الصفقات المختلفة. في صيف 1983، قدَّر مروان، في الشهادة التي أدلى بها في سياق قضية فريزر، أن ثروته الصافية كانت بحدود 20 مليون جنيه إسترليني. بعد وفاته، ظهر واضحاً الإصرار في عناوين الصحف على الإشارة إليه باسم «الملياردير أشرف مروان»، مع أنه ما من سبب يوجب التعامل مع ذلك بحرفيته.

إلى جانب جهوده الكبيرة في مجال الأعمال، استمر مروان، ولو كان على مستوى شخصي أدنى، في عمله السري كمصدر رئيسي للاستخبارات الإسرائيلية. علاقاته مع الشخصيات الرسمية المصرية العليا لم تكن قد تأثرت، وكان يحرص على إمضاء بعض الوقت في القاهرة من أجل الاستمرار في تغذية علاقاته مع النخبة المصرية، وبقيت زوجته وابنيه يعيشون هناك لفترة من الوقت أيضاً. كما أن مروان لم يتوقف أيضاً عن زيارة المملكة السعودية ودول الخليج وسوريا أيضاً، وكان في تلك الزيارات يلتقي شخصيات بارزة في الحكومات ويسعى جاهداً لجمع معلومات جديدة قد تثير اهتمام الإسرائيليين.

وبالرغم من تراجع الأولوية التي كانت الاستخبارات الإسرائيلية توليها لمصر

غير عسكرية. أضف إلى ذلك افتقار الإسرائيليين لمصادر رفيعة على مستوى السياسة العربية وهو ما جعله، حتى بعد مضي عشرين عاماً على أول اتصال أجراه مع السفارة الإسرائيلية في لندن، أحد العملاء الأكثر تقديراً لدى الموساد.

استمر دوبي في عمله كمشرف على مروان طوال فترة الثمانينيات وبعض التسعينيات. وكما كانت الحال في الماضي، كانت اتصالاتهما تجري في لندن، أو روما، أو باريس. وحين اشترى مروان الفندق في مايوركا، حيث كان يملك منزلاً أيضاً، أصبحت بعض الاجتماعات تتم هناك. في أحدها، حين التقى «أليكس» و«الملاك» عند الشاطئ، ظهرت منى فجأة، وتقدمت نحوهما. قام مروان، بهدوئه المعتاد، بالتعريف عن أليكس كأحد أصدقائه القدامى، وتبادل الاثنان المزاح. استمرت العلاقة بين المشرف والعميل في حالة من التوازن على امتداد تلك السنوات الطويلة. ويمكن تشبيهها، في بعض جوانبها، بالعلاقة بين زوج وزوجة على امتداد عقود، من ناحية اعتياد كل طرف على عثرات الطرف الآخر. لكن هذه العلاقة لم تكن معزولة، ووصلت في الآخر إلى نهاية لها لأسباب خارجية بحتة.

ثمة حدثان، على وجه التحديد، أوصلا العلاقة إلى نهايتها. الأول كان قضية يهودا جيل، أما الثاني فكان كشف الحياة السرية لمروان في الصحافة الإسرائيلية.

في أواخر عام 1997، وبعد تحقيقات مطوّلة، اعترف واحد من أهم ضباط الاستخبارات الإسرائيلية في الموساد أنه ظل لسنوات يُقدِّم معلومات خاطئة مصدرها ضابط سوري من المفترض أنه يعمل كمشرف عليه. افتضاح أمر يهودا جيل، الذي تجاوز غراهام غرين وجون لو كاريه في إطلاق العنان لمخيلته، كان وقعه كالصاعقة على الوكالة، وأحدث زوبعة من التحقيقات في كامل الموساد للتأكد من عدم وجود حالات مشابهة.

حين انتشرت القصة، كان دوبي مشرفاً على مروان لسبعة وعشرين عاماً. وكان

الذي اتصل بمروان. فكان هذا النوع من العلاقة، في الأجواء الجديدة المتوترة التي سادت على خلفية الفضيحة، يستدعي تمحيصاً دقيقاً. يتذكر كثيرون مدى إصرار مروان على رفضه التعامل مع أي بديل لدوبي أو حتى إضافة مشرف آخر. وفجأة أصبح الضغط كله على كاهل دوبي، الذي كان مشهوداً له باستقامته، وحرصه الشديد، ومصداقيته. صحيح أنه لم تكن هناك شكوك بوجود مروان أو بنوعية الاستخبارات التي قدمها، لكن الخوف من انهيارات مستقبلية كالذي حصل أدى إلى بذل جهود حثيثة لمنع حدوث شيء مشابه مرة أخرى.

وهكذا، اتُّخذ مرة أخرى القرار بوجوب تعيين مشرف ثانٍ على مروان.

أوضح دوبي وجهة نظره المتمثلة في احتمال تفضيل مروان قطع العلاقة بالكامل إذا ما دفع الموساد كثيراً بذلك الاتجاه، لكن الضباط البارزين في الموساد ظلوا غير مقتنعين، فقام دوبي بناءً على أوامرهم بتحضير مشرف جديد لمقابلة مروان. كان من المفترض أن يجري الاجتماع في أحد الفنادق الفخمة في فيا فينيتو في روما. انتظر دوبي مروان في غرفة الفندق بحسب الخطة، وطلب من الضابط الانتظار في مكان آخر حتى يعطي دوبي الضوء الأخضر كإشارة على استعداد مروان لانضمامه إليهما. لكن مروان لم يظهر. لم تكن تلك المرة الأولى التي يخذل فيها دوبي. كان برنامجه الكثيف والضغوط الخارجية المحتومة تجعل إمكانية قدومه، أو حتى تبليغه، مستحيلة أحياناً. انتظر دوبي في الغرفة. وفجأة سمع نقراً على الباب، ثم دخل الضابط الآخر من دون انتظار إشارة دوبي. كان ذلك دليلاً على مستوى انعدام الثقة الذي استشرى في الموساد على إثر قضية يهودا جيل.

بعد الفشل في إضافة مشرف ثانٍ، أصدر رئيس الموساد الجديد، داني ياتوم، أوامره بإعلام مروان بأن العلاقة قد بلغت حدَّها. كانت تلك المرة الأولى، في ثلاثين عاماً تقريباً من الارتباط، التي يقرر أحد الطرفين قطع الروابط.

جـرت محاولـة لتجديد العلاقة. اقترح هاليفي، الذي كان مقرباً من تسـفي زامير، أن ينضـم زاميـر إلى دوبي في الاجتماع المقبل مع مروان. ووافق زامير، لكن مروان لم يفعل، لسبب أو لآخر. فتم عوضاً عن ذلك إعطاء دوبي مسجِّل أشرطة مصغَّر ليحمله فـي الجيب الأمامي لسـرواله الجينز. ظل جهاز التسـجيل يعمل جيـداً إلى أن وصل لنهايـة الشـريط، عندها راح فجأة، وبشـكل غيـر متوقع، يعيد تشـغيل المحادثة التي جـرت بينهمـا بصوت مرتفع. جلس دوبي ومـروان في حالة من عدم الارتياح لبضع لحظات، دون أن ينبسا ببنت شفة.

ربمـا فهـم مـروان ما حصـل للتو، لكنه لـم يُظهِر ذلك. كان قد أصرَّ على عدم تسـجيل محادثاتهما إطلاقاً لخشـيته أن يستخدم الموساد لاحقاً التسجيلات للضغط عليه من أجل استمرار تعاونه إذا ما رغب في عدم الاسـتمرار، وكان دوبي قد وعده بعدم تسجيلها، وقد وفى بوعده، باستثناء حادثة واحدة قديمة. الآن اكتشف مروان أن الرجل الذي كان يوليه كامل ثقته طوال تلك السـنوات قد نصب له نوعاً من الشـرَك، وشـعر دوبي أنه أحدث للتو فجوة في نسيج الثقة التي كانت تجمعهما معاً. في تلك اللحظة المشـينة، آخذَ دوبي نفسـه، فذهب إلى الحمَّام وأطفأ جهاز التسـجيل. حين عاد، تصرَّف مروان وكأن شيئاً لم يحدث، وأنهيا الحوار مباشرة.

كان ذلك الاجتماع الأخير لمروان مع الموساد.

بتلـك الطريقـة وصلـت إحدى أنجح عمليات التجسـس في التاريـخ إلى نهاية مباغتـة، ولـو أنها في المحصلـة كانت نهاية مقبولة للطرفين. فمـروان، وهو الآن في أواسـط الخمسـينيات، لم يعد حقاً بحاجة للحافز الذي كانت تعطيه إياه الجاسوسية، ولم يكن بحاجة للمال منذ قرابة العقدين. لم يعد بحاجة للشعور بأناه بتلك الطريقة، وأصبح واضحاً أن أهميته لدى الموساد قد تراجعت كثيراً. فكان قرار داني ياتوم قطع العلاقة مع مروان، ومحاولة هاليفي تجديدها، مؤشرات كافية له كي يعرف أنه لم يعد

لم يشعر الموساد بأسف شديد على خسارة مروان في تلك المرحلة. وإذا ما وضعنا جانباً مشكلة الاستمرار مع مرشد واحد بالرغم من قضية يهودا جيل، نجد أن هناك أسباباً أخرى تبرر إنهاء العلاقة. كان أفرايم هاليفي منزعجاً من فكرة التجسس على مصر على مستوى عالٍ كهذا، فالآن وقد أصبح البلدان في حالة سلام، سيؤدي الكشف عن ذلك إلى تدهور خطير في العلاقات. ومع تراجع قدرة مروان على تقديم استخبارات عالية القيمة، أصبح ميزان المنفعة مقابل التكلفة راجحاً باتجاه قطع الروابط. كان هاليفي بنفسه على علاقة طيبة مع عدد من القادة العرب، ومنهم مبارك، الذي التقى به في اجتماعات سرية في مقر إقامة مبارك. وفضيحة من نوع كهذا يمكن أن تدمر مسيرة هاليفي. لذلك لم يجد صعوبة في قراره بقطع العلاقة مع مروان.

في السنوات التي تلت، حاول دوبي البقاء على اتصال مع مروان عبر الهاتف؛ لكن من الناحية العملية، كانت معظم الاتصالات تتم مع سكرتيرة مروان، عزّة. كانت تعرفه فقط باسم «الدكتور لورد»، صديق مروان الذي أظهر التزاماً بحرصه على صحة رئيسها وحالته الجيدة، والذي كان يمازحها بشأن عاداته السيئة مثل تأخره المعتاد. كانت عزّة تعبر عن امتنانها للدكتور لورد، مخبرة إياه أن صحة مروان ليست جيدة، عن الجراحة الوقائية التي خضع لها وعن السرطان الذي يعاني منه والمعالجة المرهقة التي كان يخضع لها. فهم دوبي أنها تخبره بكل ذلك بموافقة كاملة من مروان، وأن مروان كان يفضل أن يتم الأمر بتلك الطريقة. لكن حتى هذا الاتصال المحدود وصل إلى طريق مسدود. في أواخر عام 2002، حين بدأت وسائل الإعلام الإسرائيلية تتحدث أكثر فأكثر عن الجاسوس المصري الغامض الذي حذّر إسرائيل قبل حرب أكتوبر، وبدأت تتوضح هويته أكثر فأكثر، اتصل دوبي بمكتب مروان. ظهر على عزّة برود شديد وأصبحت فجأة غير راغبة بالتكلم مع «الدكتور لورد» عن

القـرار الذي اتخـذه مروان بقطع الروابط مع دوبي لم يعكس فقط رغبة طبيعية لرجـل بدأ يتقدم في السـن ويريد وضـع حد للتحالف السـري والخطير الذي صنعه مع الموسـاد، بل أيضاً شـعوراً بخيبة الأمل من المشـرف الذي كان يثق به لسـنوات طويلة جداً. وإذا كانت الإشـكالية التي حدثت بسـبب جهاز التسجيل لم تشكل دليلاً كافياً بالنسبة إليه، فقد بدأت تلوح في الأفق قضية أخرى أهم بكثير ألا وهي الكشف التدريجـي عـن هويتـه فـي الصحافة الإسـرائيلية. لم يكن هو يحفـل، أو حتى يعرف بالضـرورة، مـن يمكن أن يكون قد سـرَّب اسـمه أو ما هي تفاصيـل المعركة الدائرة بين الموساد والاستخبارات العسكرية. ما كان يهمه هو أن ذلك أصبح يشكّل خطراً حقيقياً على حياته، وربما يكون تسلسـل الأحداث قد أوصله إلى قناعة أن الموسـاد اتخـذ قـراراً باغتيالـه. على الأرجح أن ذلك كان السـبب في رفضـه محاولات دوبي وزاميـر المتكـررة للاتصال بـه، وهي محـاولات كان الهدف الحقيقـي منها محاولة حمايته من التهديدات الحقيقية لحياته، والتي اتضح أنها من مصدر مختلف تماماً.

كان أشرف مروان يعيش في شقة في الطابق الخامس في شارع كارلتون هاوس تيراس رقم 24، الحي الرائع في ويستمينستر بلندن. حركة المرور الخفيفة في الشارع، وموقعه المتوسـط بين شـارع بول مول ومتنزه سانت جيمس بارك، وبعده عن سيرك البيكاديللي مسـافة سـير لا تتجاوز خمس دقائق، جعلته مكاناً مثالياً للتقاعد من حياة ناجحة في «المدينة». حين يكون الطقس صافياً، كان باسـتطاعة أشـرف مروان السير لخمس عشرة دقيقة لغاية مكتبه في شارع هيل. لكن صحته تراجعت، وضعف قلبه، ولـم يعد باستطاعته المشي، فأصبح يعتمد على سيارته الليموزين لنقله أينما أراد.

الشقة كانت تتضمن غرفة معيشة كبيرة وثلاث غرف نوم، إحداها – المخصصة له – تتميز بشرفة عريضة. وكان لديه أيضاً غرفة مطالعة وحمامين. كان ديكور الشقة مليئاً بعدد لا يحصى من القطع والأعمال الفنية، من ضمنها رسـم لوالد منى، القائد

كانت تُطِل على حديقة خاصة واسعة فيها مرج أخضر فسيح وأشجار باسقة؛ وكانت تُزهر فيها في أواخر الربيع الأزهار الصفر. كانت الحديقة حصرية لسكان البناء فقط، ويصعُب أن تتخيل مكاناً أفضل في لندن لإراحة رأس المرء. وقد وجد مروان، الذي أجبرته صحته المتدهورة على تخفيض ساعات عمله، ملاذاً ممتازاً فيها. في عام 2004، حين بلغ الستين من عمره، بدأ يُفكِّر في التقاعد. وبحسب منى، بدأ يُمضي وقتاً أطول مع أحفاده وفي الأمور غير الروتينية الأخرى. وبعد بضع سنوات على إنهاء عمله في الجاسوسية، وصلت مهنته العملية إلى نهايتها أيضاً.

لكن التاريخ لم يترك مروان ليتعافى بسلام.

في الحادي والعشرين من كانون الأول 2002، نشرت صحيفة الأهرام المصرية حواراً مع المؤرخ الإسرائيلي المقيم في لندن أهارون بريغمان سُئل فيه بشكل صريح عما إذا كان «الصهر» الذي ألَّف عنه كتابه الجديد، والمعروف أيضاً بالاسم الحركي «بابل»، كان فعلاً هو أشرف مروان. فأجاب بريغمان بالإيجاب. تلك كانت المرة الأولى التي يُكشف فيها عن هوية أعظم جاسوس لدى الموساد بشكل علني.

كان ذلك الكشف مدمراً تماماً لمروان، ومن المرجح جداً أن يكون السبب في موته. لكن الضرر الذي لحق بالموساد كان كاسحاً أيضاً. على سبيل المثال، بدأت الأسئلة تدور حول قدرة الوكالة على المحافظة على سرية وسلامة عملائها. وإذا لم يستطع الإسرائيليون حماية رجل خاطر بحياته وحياة عائلته لخدمتهم، يصبح باستطاعة المرء أن يتخيل مدى الصعوبة التي سيواجهونها الآن عند تجنيد عملاء جدد. لذلك كان الكشف عن مروان، بالنسبة إلى بلد صغير ومهدد مثل إسرائيل، ليس أقل من كارثة أمنية وطنية.

لهذا يصبح من المدهش أن تكتشف أنه، في أعقاب عملية التسريب، لم يجرِ

فجميع المؤشرات كانت تُشير، في آخر الأمر، إلى إيلي عيزرا.

الرجل الذي تلوث كامل إرثه بتهمة فشله، كرئيس للاستخبارات العسكرية في فترة حرب أكتوبر، في التخلي عن التصور وإعارة الانتباه لسيل المعلومات الاستخباراتية التي كانت تتوقع هجوماً مباغتاً في تشرين الأول 1973، ولكون الرجل الذي كان دفاعه الوحيد هو أن أشرف مروان، أعظم مصدر للاستخبارات الإسرائيلية، كان في الواقع «عميلاً مزدوجاً». لقد كان بلا ريب الرجل الذي سعى منذ بداية التسعينيات إلى كشف هوية العميل أمام الناس.

يمكننا أن نضع احتمالات عدة للسبب الذي جعل ضابطاً رفيعاً في الاستخبارات مثل عيزرا يُقدِم عمداً على «إخراج» أعظم جاسوس في نصف القرن الماضي. لكن الدليل على أنه هو من قام بذلك مؤثر جداً.

بدأ المؤرخون في أوائل التسعينيات بنشر تلميحات تُشير إلى أن تسفي زامير استلم، قبل أربع وعشرين ساعة من الهجوم في 6 أكتوبر 1973، تحذيراً مما هو قادم. وقد ظهرت ثلاثة كتب تصف تاريخ الاستخبارات الإسرائيلية، وأجمعت ثلاثتها على ذكر مصدر رفيع كان لدى الإسرائيليين. قال يوسي ميلمان ودان رافيف أن «عميلاً للموساد في القاهرة» قام بتحذير زامير، دون إعطاء أي تفاصيل أكثر[11]. بينما توسَّع بيني موريس وإيان بلاك قليلاً أكثر حين وصفاه، نقلاً عن ضابط رفيع في الاستخبارات الإسرائيلية، بأنه «أفضل عميل يمكن أن يحظى بلد به في زمن الحرب، إنه مصدر خارق»[12]. وفي تأريخه للاستخبارات العسكرية للجيش الإسرائيلي، وصف شمويل كاتز المصدر بأنه «واحد من أكثر العملاء قيمة وسرية لدى الموساد». وقام كاتز بنوع من الالتفاف على الرقابة العسكرية حين كتب في إحدى الحواشي، برغم من منعه من الكشف عن جنسية العميل، «أشار يوسي ميلمان ودان رافيف أن مصدر الموساد «القيِّم» نشأ في القاهرة، ويعتقدان أن العميل كان فرداً رفيع المنصب

الكتاب الذي أصدره عيزرا عام 1993[14]. وحتى قبل إصداره، كان بضعة أشخاص قد رأوا اسم أشرف مروان على الصفحة 114 للمسودة الأولى المقدَّمة للرقابة، حيث ظهر صراحة بأنه الشخص الوحيد الذي ظهر في اجتماع القمة في آب 1973 إلى جانب السادات والملك السعودي. الصحفي أمنون دانكنير، الذي أجرى في أوائل التسعينيات بحثاً حول حرب أكتوبر، وضع يده على تلك المسودة الأولى عبر عضو في اللجنة الحكومية التي ستقوم بالموافقة على النشر. وبحسب دانكنير، من السياق الذي ورد اسمه فيه، كان واضحاً أن مروان كان «المصدر الخارق» للموساد. عرض دانكنير ذلك على العميد المتقاعد يوئيل بن بورات، قائد وحدة الإشارة في الاستخبارات العسكرية خلال الحرب والذي كان قد نشر لتوه نسخته الخاصة عن الأحداث، فثار جنونه[15]. ما كان واضحاً بالنسبة إلى دانكنير كان يمكن أن يستنتجه ببساطة نسبية كل من وقعت عينه على تلك المخطوطة، من منضّدين، ومحرّرين، وغيرهم.

حذَّر المسؤولون البارزون في الموساد من نشر كتاب عيزرا لأنه يمكن أن يهدد بفضح هوية الملاك، لكن الرقابة العسكرية اختارت عوضاً عن ذلك السماح بنشره مع تعديل واحد ثانوي، لم يظهر اسم مروان الحقيقي. لكن كان باستطاعة أي شخص مطلع على الشخصيات أن يكتشفه. وفي مناقشة كتاب لجيفري روبنسون يتمحور حول وزير النفط السعودي الشيخ اليماني، كتب عيزرا أن «مؤلف الكتاب، روبنسون، أجرى مقابلة مع الشخص الوحيد الذي كان حاضراً في الاجتماع بين الرئيس المصري والملك السعودي. وبحسب شهادة ذلك الشخص، كان الهدف من زيارة أنور السادات إلى المملكة السعودية هو إطلاع الملك على السر وإخباره أن مصر وسوريا على وشك شن حرب على إسرائيل في المستقبل القريب جداً»[16]. كان باستطاعة أي شخص لديه اهتمام بسيط أن يحصل على نسخة من كتاب روبنسون

وهو الشخص الوحيد الذي ظهر في ذلك الاجتماع بين السادات وفيصل»[17]. فإذا أخذنا بعين الاعتبار أن عيزرا، بعد صفحتين في كتابه، ألقى اللوم على «المُخبِر» لإبقائه الموساد في الظلمة بشأن الغرض من القمة السعودية – المصرية – التي كانت، بحسب ادعائه، الإنجاز المتوَّج للحيلة المصرية[18] – يصبح واضحاً أن «المُخبر» الذي كان من المفترَض به إعلام الموساد بتفاصيل الاجتماع، والشخص الذي نوَّه إليه روبنسون على أنه الشخص الوحيد الذي حضر الاجتماع إلى جانب القائدين، هما نفس الشخص. هذا هو تماماً الاستنتاج الذي توصل إليه ثيودور أور رئيس محكمة العدل العليا الإسرائيلية الذي قام لاحقاً بمعاينة المواد[19]. ادعاء عيزرا أن مروان تجاهل إخبار الموساد عن اجتماع القمة، وهو ما بنى عليه عيزرا كامل فرضية «العميل المزدوج»، كان ببساطة خاطئاً؛ إذ كان مروان قد أعطى تقريراً كاملاً عن الاجتماع. كان كتاب عيزرا أيضاً أول رواية رسمية منشورة تشير إلى النوعية الممتازة للمواد التي قدَّمها المصدر، وإلى الضرر الذي ألحقته بمصر وبقية الدول العربية[20].

من المنشورات الأخرى التي كشفت عن هوية مروان بطرق أخرى مقالة بقلم رونين بيرغمان نُشرت في ملحق نهاية الأسبوع في صحيفة هآرتز في 17 أيلول 1999 بعنوان «غداً ستندلع الحرب». توضّح المقالة، لأول مرة، كيف تم الاتصال بالعميل كما لو كان ذلك في عام 1969، حين وقف في سفارة إسرائيلية في أوروبا عارضاً خدماته. ويتحدث بيرغمان أيضاً بالتفصيل عن نشاطات المصدر والنوعية الممتازة للمواد التي كان يُقدِّمها، ويُثير التساؤل عن احتمال كونه فعلاً عميلاً مزدوجاً. ومن دون أي صلة واضحة بالموضوع الذي يتحدث عنه، ينتقل بيرغمان بعد ذلك للحديث عن الهجوم الإرهابي الفاشل في أيلول 1973، منوهاً فقط أن التفاصيل لم ترد إلا في مذكرات الملحق العسكري المصري في ليبيا آنذاك. لكن يمكن لكل من

توجيه البحث بشكل غير مباشر إلى هوية مروان، وذلك من خلال تمرير إشارة إلى مادة تبدو خارجية وليست ذات صلة ضمن سياق القصة، ويتركوا لأخصائيي التحليل مسألة ربط المواد ببعضها.

السؤال عمن يكون المصدر الرئيسي في مقالة بيرغمان لم يُجب عليه إلا تسفي زامير، الذي قال إن بيرغمان أراه مسودة المقالة قبيل نشرها، وأن اسم مروان ورد فيها بشكل صريح. وعندها سأل زامير، الذي تفاجأ كثيراً، من أين جاءته لبيرغمان فكرة أن المصدر هو مروان، فردَّ بيرغمان إنه حصل عليها «من إيلي». وكان كلا الرجلين يعرفان من يقصد.

يبدو أن بيرغمان لم يكن الكاتب الوحيد الذي كشف له عيزرا عن هوية مروان. فبعد قرابة تسعة أشهر على ظهور المقالة في صحيفة هآرتز، قال عيزرا لباحث اسمه أفرايم كاهانا إن مصدر الموساد كان عميلاً مزدوجاً. وأعطى عيزرا أيضاً لكاهانا «تفاصيل تعريفية، من ضمنها العمر التقريبي للمصدر، وتفاصيل عن حياته»[21]. في مقالته، التي ظهرت في صيف 2002 في مجلة \الاستخبارات والأمن القومي، مُنِعَ كاهانا من نشر التفاصيل الرئيسية المتعلقة بهوية المصدر، وأضاف في إحدى الحواشي أنه لم يكن مسموحاً له الكشف عنها. لكن برغم ذلك، سمح لنفسه أن يكتب إن «المصدر الرفيع كان شاباً مصرياً، كان في عام 1969 في أواخر العشرينيات أو أوائل الثلاثينيات. كان الذراع اليمنى للرئيس عبد الناصر، واستمر بعد وفاته بالمنصب نفسه تحت قيادة الرئيس السادات». وبالنسبة إلى مصدر معلوماته، استشهد كاهانا بمقابلة أجراها مع إيلي عيزرا في كانون الثاني 1999[22]. لم يكن كاهانا محظوظاً، لأكثر من سبب، حين نشر مقالته في مجلة أكاديمية لها تاريخ طويل جداً في الطليعة. ولو أنها ظهرت قبل عامين فقط لالتصقت باسمه تهمة الكشف عن أهم جاسوس لدى إسرائيل.

حصل عليها من عيزرا. وعلى صعيد شخصي، اتصل بلوم بي بعد نشر كتابي الخاص عن حرب أكتوبر، حين كان في زيارة لإسرائيل. كان ذلك في 6 أيار 2002. التقينا على العشاء في تل أبيب، وكان قد خرج لتوه من اجتماع مع عيزرا في منزله. وبحسب بلوم، كان عيزرا مهتماً بأمر واحد فقط على وجه التحديد هو «العميل المزدوج» الذي خدع الموساد. وحين سأل بلوم عيزرا من يكون ذلك المصدر، قال إنه لا يستطيع الكشف عن الاسم، لكن من المفترض به أن يعرف أن المصدر أدّى دوراً في القمة بين السادات والملك فيصل في آب 1973 ولم يبلغ الموساد عن ذلك. وأضاف عيزرا أن بلوم لو نظر إلى الصفحة 148 من النسخة الإنكليزية لمذكرات قائد الجيش المصري الشاذلي، فسوف يجد اسم العميل.

حين عاد بلوم إلى الولايات المتحدة، تحقق من كتاب الشاذلي ووجد اسمين مختلفين على الصفحة التي يمكن أن تكون على صلة بالموضوع. فاتصل بعيزرا في إسرائيل. قال له عيزرا ثانية إنه لا يستطيع البوح بالاسم، لكنه اقترح أن يتصل بالمؤرخ أهرون بريغمان في لندن، الذي يعرف التفاصيل ذات الصلة. وفعلاً اتصل بلوم ببريغمان، وقال له إن عيزرا نصحه بالاتصال به، وإنه يعرف أن المصدر هو أحد الاسمين اللذين عثر عليهما في كتاب الشاذلي. كان يريد من بريغمان أن يشير إلى أحد الاسمين. فقام بريغمان، في حركة سخاء نادر في هذا المضمار، بالمخاطرة بخسارة سبقه الصحفي وأخبره أي واحد منهما هو. هكذا أصبح بلوم يعرف اسم المصدر، وقام بنشره في كتابه الذي صدر عام 2003.

لكن كان اسم مروان حينها قد ظهر بشكل علني على أنه أعظم جاسوس قامت إسرائيل يوماً بتجنيده. كان أهرون بريغمان قد فضح القصة.

بالعودة إلى عام 1998، كان أهرون بريغمان قد نشر كتاباً، بالمشاركة مع جيهان الطاهري، وهي باحثة عربية ومخرجة أفلام وثائقية، قاما فيه بتغطية الأعوام الخمسين

الحرب كما عايشها هو شخصياً. وقد ناقش الكتاب بشكل مسهب الفشل الذي منيت به الاستخبارات الإسرائيلية قبيل الحرب، دون أن يذكر، صراحة أو ضمنياً، أشرف مروان. بعد ذلك بعامين نشر بريغمان كتاباً جديداً بعنوان حروب إسرائيل، 93-1947. وهذه المرة لعبت قصة العميل المزدوج دوراً محورياً في المؤامرة. إذ تحدث الكتاب بشيء من التفصيل عن الحادثة وكشف لأول مرة أن عملية تجنيد العميل تمت في لندن. لامس بريغمان أيضاً بعض المواد الاستخباراتية التي كان المصدر قد نقلها، دقائق الاجتماع الذي جمع عبد الناصر مع القادة السوفييت في موسكو في كانون الثاني 1970، ورسالة السادات إلى ليونيد بريجنيف في آب 1972. وكشف لأول مرة أن مصدر الموساد كان حاضراً في القمة التي جمعت السادات وفيصل لكنه لم يُخبِر الموساد عنها. وفي النهاية، كشف أن اجتماع زامير مع المصدر عشية حرب أكتوبر حدث ليس في أي عاصمة أوروبية، بل في لندن[24].

بعد عامين على ذلك، نشر بريغمان مقالة في صحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية كانت تستند إلى أحد فصول كتابه القادم، تاريخ إسرائيل، الذي كان على وشك النشر في إنكلترا. مع أن المقالة لم تجذب انتباهاً كثيراً، فقد لفَّت الحبل بالكامل حول عنق مروان. إذ تضمنت القصة لأول مرة تفصيلين يرتبطان بوضوح بقصة مروان، الأول هو أن المصدر فرد من عائلة عبد الناصر، والثاني هو أنه كان يُلَقب «بالدكتور». مع أنه في الحقيقة لم يكن يُعرَف في إسرائيل بهذا اللقب. لكن كان ذلك كافياً كي يجعل عزَّة، سكرتيرة مروان، تتوقف عن الرد على مكالمات دوبي.

حين ظهر كتابه في تشرين الأول من ذلك العام، كشف بريغمان تفاصيل إضافية، منها طبيعة قرابته بعبد الناصر، وعمله المُحدَّد مع السادات، ورواية مُفصَّلة عن دوره في الهجوم الإرهابي الفاشل في روما في أيلول من عام 1973[25]. وهكذا لم يترك

صحيفة مصرية بمروان وسألته إن كان قد تجسس لمصلحة إسرائيل. فأجاب مروان إنها كانت «قصة تحرٍّ غبي». بعد ذلك التقى بريغمان مع مراسل في صحيفة الأهرام وأكد له إن مروان كان جاسوساً. كما أصرَّ على أن مروان كان عميلاً مزدوجاً استطاع خداع إسرائيل. وبعد بضعة أيام، في 22 كانون الأول، نُشرِت المقابلة.

في 2004، نشر إيلي عيزرا إصداراً جديداً من كتابه. ومع أنه لم يتضمن تعديلات جوهرية على إصداره الأول، برغم مرور قرابة العقد، لكن عيزرا خرج عن مساره وصار يُسمي صراحة مصدر المعلومات بأنه أشرف مروان.

كان نشر إصدار جديد عن رواية عيزرا حول الفشل الاستخباراتي في عام 1973 مناسبة ممتازة لإجراء مقابلة تلفزيونية مع أحد أشهر المذيعين الإسرائيليين، دان مرغليت. أفسح مرغليت المجال واسعاً لعيزرا كي يبرِّئ نفسه من الفشل الاستخباراتي. ثم، في النصف الثاني من المقابلة، شرح عيزرا نظريته بخصوص كون مروان عميلاً مزدوجاً، ذاكراً إياه بالاسم أكثر من مرة.

في الأسبوع التالي، استضاف مرغليت تسفي زامير في برنامجه لسماع روايته عن القصة. وحين تطرق إلى موضوع كشف عيزرا عن اسم مروان، كان زامير صريحاً في انتقاده، مُشعلاً شرارة معركة قضائية حادة في الأعوام التي تلت. عيزرا، كما قال: «يجب أن يُحاكَم على كشفه عن المصادر... الرجل الذي كان في منصب يمكّنه من المعرفة هو رئيس الاستخبارات العسكرية، وحين يكشف هو عن مصدر ما، فهو يخرق أولى الوصايا العشر في سلك الاستخبارات»[26].

في رد على ما قاله في المقابلة، طالب عيزرا برفع دعوى قذف على زامير. وافق الاثنان على نقل الدعوى لينظر فيها رئيس محكمة العدل العليا المتقاعد ثيودور أور، الذي وقف في النهاية في صف زامير بالكامل، في أن عيزرا قام فعلاً بتسريب هوية أشرف مروان:

على أساسها الباحثون والمطلعون، ومن ضمنهم الصحفيون والكتّاب، إلى هوية العميل. في عام 1999 كشفَ عن الاسم لكاهانا ورونين [بيرغمان]. في أيار من عام 2002 كشف عن هوية العميل لهاورد بلوم كما هو موضّح في المقاطع على الصفحات 28-23 السابقة. الدكتور [أهارون] بريغمان كشف عن اسم العميل صراحة في مقابلة أجراها مع صحيفة مصرية في كانون الأول 2002. وفي الكتاب الذي نشره [بريغمان] في تشرين الأول 2002، نشر تلميحات واضحة بخصوص هوية العميل. في كشفه هذا، اعتمد الدكتور بريغمان، من بين أمور أخرى، على الإصدار الأول من كتاب المدعي، بالإضافة إلى رد رامي التل على محادثة أجراها معه، وتم فيها مناقشة اسم العميل. ولا بد أن نذكر أن رامي التل هو محرر كلا الإصدارين من كتاب المدعي. في عام 2004، في مقابلة تلفزيونية، وفي الإصدار الثاني من كتابه، أورد المدعي اسم العميل بشكل صريح[27].

الحُكم الذي برّأ زامير صدر في 27 آذار، 2007، وتم نشره للعلن في 7 حزيران. بعد أقل من ثلاثة أسابيع، تم العثور على جثة أشرف مروان أسفل بناء شقته في لندن.



الفصل الثالث عشر

سقوط الملاك

كان 27 حزيران 2007 يوماً غائماً آخر في لندن. الصيف كان قد بدأ لتوه، إلا أن رذاذاً خفيفاً متواصلاً بلل المدينة على مدار الأسبوع السابق، ودرجات الحرارة لم تتعدَّ العشرينات. في ذلك اليوم، كانت جميع الأنظار متجهة إلى رئيس الوزراء طوني بلير الذي كان مزمعاً تقديم استقالته للملكة إليزابيت عند الظُهر.

لكن لا الطقس ولا حتى استقالة رئيس الوزراء كانا يشغلان بال أربعة رجال جالسين في غرفة في الطابق الثالث من مبنى مؤسسة المدراء الفخم بشارع 116 بول مول في حي سانت جيمس.

كان بإمكانهم، من حيث هم جالسون، أن يروى بوضوح المبنى السكني الذي كان يعيش فيه مروان.

كانوا يناقشون مستقبل يوبيكيم، وهي شركة مواد كيميائية صغيرة مركزها ساوثمبتون. لم يكن اجتماعهم بجوار منزل مروان محض صدفة؛ إذ كان مروان يمتلك الشركة منذ بداية التسعينيات ويستحوذ على أكثر من 80٪ من أسهمها. وتم اختيار الموقع بحيث يكون سهلاً على مروان المشاركة في الاجتماع. امتلاك مروان للشركة لم يكن محض صدفة أيضاً. فالمدير التنفيذي ليوبيكيم، عزام الشويكي، كان مصرياً في منتصف الخمسينيات من عمره ومتزوجاً من عزّة ابنة فوزي عبد الحافظ السكرتير الخاص للسادات، وأحد الذين عملوا بشكل وثيق مع مروان حين كان الأخير يعمل في مكتب الرئيس. وهي عزّة نفسها التي عملت لسنوات في مكتب

يكتفِ بالتهديد بطرد زوجته، بل بدأ أيضا يضغط على الشويكي نفسه ليتم استبداله بمدير فرع بودابست، جوزف ريباسي. وهذا الضغط الذي بدأ متوسط الشدة، ازداد الآن إلى حد يمكن معه تسميته بالوحشي. وبعض من رأوا المعاملة وصفوها بالهوس. رأى موظفو يوبيكيم أكثر من مرة سيارة مروان الليموزين السوداء الطويلة تصل إلى مقر الشركة في ساوثمبتون، الذي يبعد ساعتين تقريباً بالسيارة عن منزله وسط لندن، ورأوا مروان الذي أصبحت صحته المتدهورة بادية عليه، يمشي ببطيء، أحياناً بمساعدة عصاً ودائماً مع كيس من الأدوية، متجهاً إلى اجتماع مجلس الإدارة الذي كان يترأسه. قام أثناء الاجتماع بتوبيخ عزام الشويكي بشكل متكرر ليُظهر كم كان غير مناسب للمنصب ولماذا هو مضطر لطرده. عَلِمَ الشويكي أن وظيفته مهددة بالخطر وأن استبداله بريباسي لن يطول.

كلٌ من كان على علم بالقصة قال إن الانتقادات لم تكن مهنية. الشركة كانت جزءاً صغيراً من إمبراطورية مروان، لكن مروان لم يكن يميل للتدخل في إدارة شركاته حتى عندما كانت استثماراته أضخم بكثير. كان واضحاً أن المسألة شخصية، لكن حقيقة الأمر الذي تنطوي عليه بقيت لغزاً. كانت زوجته، منى، قد ادعت لسنوات أن مروان اكتشف اختلاس الشويكي ملايين من الشركة. لكن ذلك يبدو مستبعداً، ليس فقط لأن نكران الشويكي كان قاطعاً، ولا لأن سكوتلاند يارد كانت غير مقتنعة بالتهمة لدرجة أنهم رفضوا حتى فتح تحقيق بالموضوع، بل لأن أكبر دليل على أن التهمة لا أساس لها من الصحة هو حقيقة أن جريدة الأهرام الأسبوعية المصرية، التي نشرت اتهامات منى مروان في أيلول 2007، قامت بعد شهر بنشر اعتذار عن ذلك.

مهما تكن الأسباب التي جعلت مروان يبغض الشويكي، يبقى أمر واحد واضحاً. تدخُل مروان الشديد في شؤون الشركة، مصحوباً بنيّته المغادرة في الليلة ذاتها إلى الولايات المتحدة، خلقا جواً تم على إثره اتخاذ قرار بعقد اجتماع لمجلس

الشـركة في سـاوثمبتون أو في مطار هيثرو لتسـهيل سفر ريباسي من وإلى بودابست. لكـن المـكان غيـر المعتاد للاجتمـاع أتاح لعدد من المشـاركين مشـاهدة اللحظات الأخيرة من حياة أشرف مروان.

الرجال الأربعة في الغرفة هم: الشويكي، ريباسي، جون روبرتس مؤسس يوبيكيم، ومايـكل بارخورسـت، ممثل عائلـة مروان في المجلس والذي لـم يكن يحظى بتقدير خـاص مـن بقيـة المـدراء. كان الوقت قد تجـاوز منتصف النهار، وأعلَم بارخورسـت الآخريـن بأنـه تحـدث مـع مروان في الصبـاح وأن الرئيس أرسـل كلمة يقـول فيها إنه سـيتأخر حوالى السـاعة بسبب مهام عدة. وطلب مروان أيضاً ألا يباشروا الاجتماع من دونه. مرت الساعة، وبدأ التوتر يظهر على المدراء التنفيذيين الحائرين في الغرفة.

من النافذة الدائرية في غرفة الاجتماع يمكن للمرء رؤية شـرفة شـقة مروان في الطابق الخامس، التي لا تبعد أكثر من عشرين متراً. كان الشويكي وبارخورست يقفان عند النافذة عندما شـاهدا مروان وهو يخرج إلى الشـرفة. وفقاً للشويكي، قاما بمناداته والتلويـح لـه. وردَّ مـروان التلويح. بعد ذلك اتصلا به هاتفياً ليسـألاه إذا ما كان ينوي الحضـور. فـي البداية أجاب بأنه لن يحضر لكنه غير رأيه فوراً وقال إنه سـيكون هناك في غضون نصف ساعة، حالما يغيِّر ثيابه. شاهداه وهو يستدير بطريقة بدت لكليهما، وهمـا يعرفانـه جيداً، غير طبيعية. تمايل إلى اليسـار وإلى اليميـن، وهو ينظر مِراراً من فوق الدرابزين إلى الأرض في الأسفل. وبعدها عاد إلى داخل الشقة للمرة الأخيرة.

نـاداه الشـويكي ثانيـة ليحثّـه علـى المجـيء، وأجابه مـروان وهـو متضايق من إلحاحه، واعداً إيّاه بالقدوم. لكنه عاد بعدها للشرفة ونظر ثانية إلى الأسفل. وعندما ناداه الشويكي مرة أخرى، أجاب مروان صارخاً بأنه غيِّر رأيه وسوف لن يأتي إطلاقاً. بحسب الشهود، نظر وراءه إلى داخل غرفة النوم وبعدها تسلق الدرابزين ورمى بنفسه من فوقه، ما أصاب الشويكي وبارخورست بذعر مطلق.

بالقرب منه. ركض الشويكي وبارخورست مسرعين إلى الموقع. بحسب الشويكي، وُجد مروان ممدداً على الأرض من دون نبض. وبعد دقائق وصلت سيارة الإسعاف.

أربعة شهود فقط - الرجال في الغرفة ضمن مؤسسة المدراء - شاهدوا مروان وهو يسقط. الشويكي، الذي حظيت شهادته بالتغطية الأكبر، قال إن مروان الذي ظل يتجول على شرفته لدقائق عديدة، نظر وراءه ثم صعد على أغراض موجودة على الشرفة، تسلق حافة الدرابزين، نظر أمامه، ورمى نفسه في الهواء. وسقط إلى حتفه. وقال أيضاً إنه لم يرَ أحداً آخر على الشرفة. شهد بارخورست بأنه كان يقف إلى جانب الشويكي عندما سقط مروان. وفي شهادته الأولية، أيَّد رواية الشويكي بقوله إنه رأى مروان يتسلّق الدرابزين. لكنه قال في شهادة لاحقة إن كل ما شاهده هو شخص يسقط من الشرفة. وبارخورست ادعى مثل الشويكي أنه لم يشاهد أحداً آخر على الشرفة.

المشاركان الآخران في الاجتماع، ريباسي وروبرتس، لم يشاهدا أي شيء سبق سقوط مروان. وبمجرد أن سمع ريباسي صراخ الشويكي وبارخورست، ركض نحو النافذة ووصل في اللحظة المناسبة ليشاهد مروان يسقط. بعد ذلك مباشرة، عندما ركض الاثنان الآخران باتجاه ساحة المبنى، شاهد بشكل خاطف ما بدا وكأنه شخص يتحرك داخل شقة مروان. وقال في شهادة لاحقة «شاهدت رجلين يقفان على الشرفة. لم يفعلا شيئاً، فقط نظرا للأسفل. كان هدوؤهما غير اعتيادي البتة. صرخت امرأة في الساحة، وهرع الناس محاولين تقديم المساعدة، أو لطلب المساعدة. بينما ظل ذانك الشخصان واقفين هناك بلا حراك». أضاف أيضا أن الرجلين «كانا يلبسان بزتين رسميتين وتبدو ملامحهما شرق أوسطية». ألقيا نظرة على جثة مروان من الشرفة، واختفيا، ثم ظهرا ثانية على شرفة أخرى، وهما ينظران ثانية للأسفل. قال روبرتس إنه رآهما أيضاً، لكن ريباسي لم يستطع أن يجزم إن كانا في الحقيقة واقفين على شرفة مروان، لأنه لم يبدأ بالمشاهدة إلا بعد أن سقط مروان ولم يعلم أي شرفة

يقفان عليها. وحين أخذوا إفادته أخيراً، بعد حوالى شهرين من الحادثة، سافروا إلى بودابست ليتكلموا معه. أعرب ريباسي عن صدمته من عدم طلبهم منه أبداً العودة إلى لندن ليدلهم على الشرفة. وكما سيتضح، كان ذلك واحداً فقط من بين أمثلة كثيرة على الإهمال المرعب من جانب شرطة سكوتلاند يارد.

أخذ المحققون إفادة ريباسي وصدر بعد وقت قصير تقرير يؤكد رؤية رجلين على شرفة، لكن لم تُحدَّد بشكل رسمي ما إذا كانت تلك شرفة مروان. وبحسب المعلومات المتوفرة، لم يتم تحديد هوية الرجلين، ولذلك لم يتمكن المحققون من الخروج بأي استنتاج من الواقعة، لكن الشبهة ازدادت في احتمال تورط عناصر جرمية في الحادثة. وفي مقابلة أجراها ريباسي مع الصنداي تايمز، قال إنه ربما لم يتم دفع مروان بشكل مادي، لكن كان واضحاً أنه تعرض لضغط من قبل شخص آخر على الشرفة أو من داخل شقته كي يقفز إلى حتفه. وقد أكدت شرطة سكوتلاند يارد، بعد أشهر عدة، أنها لم تتمكن من استبعاد أي من الاحتمالات الثلاثة التالية: حادثة، انتحار، أو جريمة قتل. وقد أشارت هذه المحصلة غير المحددة إلى نهاية التحقيق بشكل أو بآخر.

بعد ثلاث سنوات، في حزيران 2010، تم في لندن إجراء تحقيق عام على امتداد ثلاثة أيام في محاولة لتحديد سبب وفاة مروان. وهو إجراء شائع في الحالات التي توجد فيها شبهات بأفعال جرمية من دون وجود أدلة كافية لتوجيه لائحة اتهام. وقد تم إجراء التحقيق بناءً على طلب من عائلة مروان، وتم استدعاء العديد من الشهود ليدلوا بشهاداتهم. الغريب في الأمر أنهم لم يطلبوا استدعاء جوزف ريباسي الذي كانت شهادته تمثّل أوضح دليل على أن مروان توفي على يد شخص آخر. ولم يتم أيضاً استدعاء جون روبرتس الذي ربما لم يُدلِ بأي أقوال على الإطلاق. في نهاية ثلاثة أيام من الاستماع للشهادات، لم يستطع المحقق المختص بقضايا الانتحار المُكلَّف بإدارة التحقيق التوصل إلى نتيجة تمكنه من استبعاد أي من الاحتمالين، قيام

ويعود ذلك في جزء منه إلى الشكل المريع من عدم الكفاءة من جانب شرطة سكوتلاند يارد. إذ لم يتم فقط أخذ إفادة ريباسي الرئيسية بعد شهرين من وقوع الحادثة، وليس ضمن إطار التحقيق العام إطلاقاً، بل ولأنه لم يُعرَف بوضوح إن كانت إفادة روبرتس، الذي كان إلى جانب ريباسي حين سقط مروان، قد أُخذَت بالأصل. وهاتان المسألتان ليستا الوحيدتين في التحقيق اللتين تم أفسادهما. الحذاء الذي كان يلبسه مروان عندما توفي لم يُعثر عليه أبداً. وإذا كان الشويكي وبارخورست صادقين في قولهما بأنه صعد على أصيص الورد، ثم على الوحدة الخارجية للمكيف، في سبيل الوصول للدرابزين الخارجي قبل القفز، عندها كان يجب أن يعلق على حذائه غبار أو تراب أو طلاء. واختفاء الحذاء ترك الباب مفتوحاً أمام احتمال أنه لم يتسلق الدرابزين عمداً على الإطلاق بل تم دفعه من فوقه[2]. كما أن بعض الأشخاص المطّلعين على التحقيق، والذين طلبوا إبقاء هويتهم سرّية، رجحوا احتمال أن عجز الشرطة المتكرر في التحقيق كان متعمداً تماماً. فمن وجهة نظرهم، من الوارد جداً أن حكومة جلالتها لم تكن ترغب على الإطلاق بحل قضية الموت العنيف لمواطن أجنبي رفيع المكانة، والتي رغم وقوعها على الأراضي البريطانية قد أُزيلت من اهتمامات البريطانيين بسرعة.

هناك تفسير آخر طبعاً يرتبط بالقصور الطبيعي لتحقيقات الشرطة، فالمحققون استعملوا الوسائل التي توفرت بين أيديهم، وهذا لا يتضمن بالضرورة تكوين لمحة تاريخية كاملة عن الضحية كالتي قمنا بها هنا. من وجهة نظرهم، طالما أنه لا توجد دلائل على قيام مروان بالانتحار - مثل تركه رسالة انتحار - لا يمكنهم اعتبارها كذلك. وبشكل مشابه، طالما أنه لا توجد دلائل دامغة على ارتكاب جريمة قتل أو حتى إكراه على الانتحار، فلا يمكنهم أن يمضوا بهذا الاتجاه أيضاً.

غير أن المؤرخين غير مقيدين بالإجراءات القانونية للمحققين الجنائيين أو بقوانين الأدلة والبيّنات المعمول بها في المحاكم. ومن الطبيعي أن تبقى الأجوبة

السؤال الأول الذي سنناقشه هو إن كان انتحاراً. وبمجرد أن يتضح السبب في استبعاد مثل هذا الاحتمال، سننتقل إلى السؤال عمن يمكن أن يكون قد قتله: خصوم في العمل؟ الموساد؟ المصريون؟

برزت مباشرة بعد موت مروان تخمينات متعددة بشأن احتمال انتحاره. لكن من خلال كل ما نعرفه عن الطريقة التي عاش فيها حياته، من الصعب أن تجد سمات واضحة تدل على رجل يفكر جدّياً بإنهاء حياته. إذ لا توجد في تاريخ عائلته قصص انتحار ولم يعانِ من اكتئاب أو عزلة أو صدمة مثل خسارته لعمله أو موت أحد أحبائه. كما أنه لم يكن يتعاطى المخدرات، التي ترتبط بمعدل انتحار أعلى. والأمر ذاته صحيح بالنسبة إلى المؤشرات على وجود نوايا انتحارية. ففي الأيام التي سبقت وفاته، لم يذكر أحد البتة سماعه أي كلمة منه توحي بأنه يمكن أن يؤذي نفسه، ولا توجد أي مؤشرات على أنه كان يبحث عن وسائل لتنفيذ ذلك، مثل تكديس حبوب منومة أو امتلاك سلاح. ولم يُظهر مروان أي تصرفات على الإطلاق تدل على شخصية انتحارية، مثل فقدان الأمل، الغضب أو الانتقام، الإهمال المتعمد، الشعور بالوقوع في الفخ، الإدمان على الكحول أو المخدرات، الانقطاع عن الأهل والأصدقاء، معاداة المجتمع، نوبات الذعر، مجافاة النوم لأيام أو النوم لساعات طويلة، تقلُّب المزاج أو اللامبالاة الشديدة[3].

تقول جميع الروايات التي لدينا عن الأيام الأخيرة من حياة مروان إنه كان يتصرف بشكل طبيعي تماماً، حتى عند تعرضه لضغوط معينة. قال مايكل بارخورست، الذي كان مقرباً منه، إنه في يوم وفاة مروان، كان قد التقى به في أواخر الصباح، وتصرف مروان بشكل طبيعي تماماً، إذ دردش معه وسأله عن أحوال أولاده. وقال مشرف البناء، الذي رآه أيضاً ذلك الصباح، إنه كان «طبيعياً تماماً» بل ومبتهجاً حتى. صديقه شريف صلاح كان قد تحدث إليه هاتفياً قبل وفاته بيوم وأفاد أنه لم يظهر على حديثه

للقلق. وزوجته منى شهدت أن مروان «كان دائما اجتماعيا ومحبا للحياة رغم مشاكله الصحية»، مضيفة أيضاً أنها لم تلاحظ في سلوكه ما يدعو للريبة. وقد أخبرها مروان في الحديث الذي دار بينهما ذاك الصباح أنه يحضّر أمتعته للرحلة التي سيقوم بها إلى الولايات المتحدة في وقت لاحق من اليوم ذاته.

الرواية الأكثر تفصيلاً جاءت من المؤرخ أهرون بريغمان، وهو أول من كشف للرأي العام عن هوية مروان كجاسوس واستطاع مع ذلك البقاء على اتصال معه بعدها. بحسب بريغمان، ترك مروان له رسالة مسجلة قبل وفاته بأقل من أربع وعشرين ساعة، عرّف فيها عن نفسه باسم حركي متفق عليه، قائلاً إنه كان يتصل «بخصوص الكتاب». وطلب من بريغمان معاودة الاتصال به على جهازه المحمول. بعد تسع وخمسين دقيقة بعث برسالة مشابهة أخرى، وواحدة ثانية أيضاً بعد عشرين دقيقة. لم يكن مروان طوال السنين التي كانا فيها على اتصال قد بعث برسائل مسجلة أبداً. هذه الحقيقة، مقرونة بعدد الاتصالات، تدل على أنه كان في وضع حرج. عندما اتصل بريغمان به جرى الحديث عن التقرير الصادر عن القاضي أور. كان بريغمان قد أرسل لمروان قبل أسبوع مجموعة المواد الإعلامية التي ظهرت في إسرائيل عقب نشر تقرير أور، فبدأ يشرح عنها. أراد مروان معرفة خلاصة الحديث، فأجابه بريغمان إن التقرير قد طُبع وأن اسمه مذكور فيه. عندها اقترح مروان أن يلتقيا في اليوم التالي، وناقشا أين ومتى سيلتقيان. ثم اتفقا على أن يتصل مروان لإتمام الاتفاق. في نهاية المحادثة، سأل بريغمان مروان، «باستثناء ذلك، كيف حالك أنت»؟ فأجابه مروان، «هل تقصد شيئاً غير هذا الصداع؟» فهم بريغمان من جوابه أنه كان بخير، برغم الفوضى الحالية التي أحدثها نشر هويته كجاسوس إسرائيلي. وأنهيا مكالمتهما. كانت الأخيرة بينهما.

في مقابلة مع صحيفة هآرتز الإسرائيلية، قال بريغمان مستنتجاً «من خلال معرفتي به، يبدو واضحاً لي أن اتصاله بي ثلاث مرات بظرف ساعة ونصف إنما

كان بطبيعته مقتضباً وعديم الصبر، لكنه مهذب. وهو لم يولِّد لدى بريغمان خلال المكالمة شعوراً بأنه تحت ضغط كبير. وبرأيه، الذي عبر عنه مرتين الأولى بعد وفاة مروان مباشرة والثانية بعد ثلاث سنوات، كان مروان يشعر بالضغط بسبب اطلاع الصحفيين على تقرير القاضي أور، مع أنه لم يكن يعرف بعد أن التقرير قد نشر بكامله على الإنترنت. بكل الأحوال، وبحسب بريغمان، لم يلحظ في سلوك مروان أي شيء يشير إلى نوايا انتحارية[4].

يتبين لنا من خلال الدليل أن مروان، الذي لم تتوفر فيه منذ البداية أي من الصفات الكلاسيكية للشخصية الانتحارية، لم يُظهِر في آخر أربع وعشرين ساعة من حياته قدراً كافياً منها ليدفعنا للاعتقاد بأنه قرر قتل نفسه. وعلى أساس الدليل الظرفي، أصدر المحقق الجنائي البريطاني الذي قاد الاستجواب العام حكمه بأن تصرفاته التي سبقت وفاته كانت «طبيعية ومفعمة بالحياة»، وأنه «لا وجود لأي خلل ذهني أو نفسي... لا دليل على أي نوايا للقيام بالانتحار». ثم أضاف، «واضح أن لدى الدكتور مروان الكثير ليقلق بشأنه وكان متوتراً»[5].

لهذا يبدو الانتحار ممكناً من الناحية المنطقية، لكنه لا يتعدى ذلك. لكن إذا ما استبعدنا احتمال الانتحار، سنكون أمام الاستنتاج الذي لا مفر منه وهو وجود شخص آخر تسبب بسقوطه. وعندها سنواجه الأسئلة الشائعة ذاتها في كل الجرائم الغامضة: من قام بها، ولماذا؟ لكن يجب التنويه ثانية إلى أن جميع الأدلة التي لدينا هنا هي ظرفية، ولو أنها تبقى أدلة.

طُرِحَت ثلاثة احتمالات بخصوص المتسبب في موت أشرف مروان: قُتِل من قبل خصوم في العمل؛ قُتِل من قِبل الإسرائيليين جزاءً لخداعه إياهم عام 1973؛ أو قُتِل من قبل المصريين الذين أرادوا وضع نهاية للأسطورة بطريقة تجنِّبهم إفشاءه لما حدث.

صحيح أن محمد الفايد، غريمه الحقود منذ قضية هارود، كان لا يزال يحصد النجاح في لندن. لكن ما من سبب يدعوه الآن للانتقام من مروان؛ فمروان لم يعد في موقع يسمح لـه بإيذاء الفايد. والأكثر من ذلك أن أساليب عمل الفايـد، التي كانت خلاقة جـداً أحيانـاً، لم يكـن تتميز بالعنف. وعلى صعيد متصل، أشـار البعض إلى أن لموته علاقة ما بماضيه كتاجر أسلحة. وبالفعل، بحسب العرض المثير من قبل صحيفة روز اليوسف الأسبوعية المصرية في آذار 2012، الذي نشرت فيه مذكرات مسجلة مزعومة للرئيس حسني مبارك، فإنـه يزعم فيهـا أن معمر القذافـي أمر باغتيال مروان بسبب أمور تتعلق بخلافات حول بيع الأسـلحة إلى دول إفريقية. ولكن بعد نشـرها في روز اليوسف، التي لم تكن معروفة بمصداقيتها، أنكرت مصادر مقربة من مبارك أنه كتب أو أملى مذكراته بالأسـاس. وقد نفت دار النشـر الأسكتلندية كانونغيت، الناشر المزعوم للمذكرات، أنها موجودة أصلاً، رغم أنه كان على جدول أعمالها نشر مذكرات زوجة مبارك، سوزان. ولا يوجد أي دليل من أي نوع على أن أيّاً من عملاء صفقات السلاح السـابقين، سـواء في عمله الخاص أو مع الحكومة، له أي مصلحة في تصفيته. ومن المعروف أن مروان كان قد ابتعد عن تجارة الأسلحة قبل 2007 بفترة طويلة.

يبدو أيضاً أن لا دلائل جدية تؤيد احتمال قتله من قِبَل الإسرائيليين، فالأشخاص الذين حملوا لواء هذه النظرية كانوا مقربين من عائلته، خصوصاً أرملته منى. وكانت لديهم مبرراتهم. ففي مقابلة مع أسبوعية الأهرام بعد وفاته بأربعة أشـهر أكدت منى أن «الإسـرائيليين متورطـون حتمـاً في جريمة القتل بدم بـارد التي حصلت لزوجي». وفـي ردهـا علـى شـهادة عزام الشـويكي، التي قال فيهـا إنه لم يكن يوجـد أحد آخر على الشـرفة عندما سـقط مروان إلى حتفه، قالت: «ذلك الرجل – عزام الشـويكي – اختلس الملايين من شركة زوجي، وأنا قررت أن أطرده من الشركة... أنا واثقة من أن المحاكم سوف ترسله إلى السجن. هو شخص كاذب أدلى بشهادة مزيفة عندما قال

بـدء التحقيـق العام، قالت منى لصحيفة الأوبزيرفر إن مروان ذكر بأن حياته مهددة لا أقل من ثلاث مرات خلال الأربع سـنوات الأخيرة من حياته، آخرها كان قبل تسـعة أيام من وفاته، حين كانا بمفردهما في شقتهما في لندن. «التفت إليّ وقال: حياتي في خطـر. مـن الممكن أن أُقتَل. لـديّ الكثير من الأعداء من جهـات مختلفة. عَلِم أنهم كانـوا قادميـن لقتله. لقد قُتِل على يد الموسـاد». قالـت فيما بعد إنه في يوم مقتله، لم يتـم إقفـال الباب الخارجي للشـقة، وإن مدبرة المنزل، التـي كانت موجودة في ذلك الوقـت، لم تسـمع شـيئاً. «أعتقد أن الدخلاء سـاقوه إلى غرفة النـوم، ضربوه ورموه من النافذة إلى الشرفة. أحدهم على شرفة الطابق الرابع شهد أمام الشرطة أنه سمعه يصرخ قبل سقوطه. هل الأشخاص الذين ينتحرون يصرخون قبل سقوطهم؟[7]».

إصرار منى الواضح جداً على أن الموساد هم من قتلوا زوجها يخدم مصالحها الشـخصية ومصالح عائلتها، لأنه يجعله يبدو مصرياً وطنياً نجح في خداع الموسـاد القوي حتى اللحظة الخيرة. بالتأكيد إن توريط الموسـاد يخدم منطق المصلحة نفسـه الكامـن عـادة وراء كل نظريات المؤامرة، بدون اعتبار للأدلة. لكن الرواية المقابلة – التـي تقـول إن مـروان قُتل على يد المصريين على إثر نشـر دوره كجاسـوس لصالح الموسـاد – مدمرة بالفعل لمنى ولعائلتها بحيث لا يمكن لأحد أن يلومهم على فعل كل ما تتيحه لهم مكانتهم لضمان عدم وصول أحد إلى ذلك الاستنتاج.

هـذا لا يعنـي أن منـى مروان تكذب بشـكل متعمد. الحقيقة أنهـا هي من طالب شرطة سكوتلاند يارد أن تفتح تحقيقاً معتقدة أن ذلك سوف يثبت ادعائها. ولو كانت تعلم من المرجح أن يكون قد قتل زوجها، لم تكن على الأرجح لتقدم على المجازفة.

لا يسعني أيضاً الافتراض بأن إيمانها بوطنية زوجها مجرد اختراع محض منها. مـن المحتمـل جـداً أنها سـمعت زوجها أكثر مـن مرة يقول إن حياتـه في خطر، وإن الشـائعات التـي تروج لقيامه بالتجسـس لصالح إسـرائيل كانت مجـرد حملة تضليل

وفي حديث مع أهرون بريغمان عام 2003، قال إنه بعد قراءته لكتاب هاورد بلوم حول حرب أكتوبر، توصل إلى نتيجة مفادها أن إيلي عيزرا مقتنع بأن الموساد سوف تغتاله[8]. بعد سنتين، ظهرت في صحيفة يديعوت أحرونوت اليومية مقالة لرونين بيرغمان يدعي فيها أن العناق الحار الذي قدَّمه مبارك لمروان في الأول من تشرين الأول عام 2003 كانت دليلاً على أنه عميل مزدوج. وفي اتصال هاتفي في اليوم التالي، أخبر مروان أهرون بريغمان إن حقيقة نشر المقالة بعد عشرين شهراً من الحادثة المذكورة يظهر أن إسرائيليين محددين أخذوا على عاتقهم تسخين الأجواء بينه وبين المصريين[9].

كل هذا يرفع من احتمال أن مروان المتقلب اعتقد بالفعل أن للموساد مصلحة في كشف اسمه وقتله إما على أيديهم وإما على أيدي آخرين. ما كان يهمه هو أن ذلك هو الدافع الحقيقي وراء كل المقالات التي تتحدث عن عمله كجاسوس، وخاصة مقالة بريغمان نفسه، إذ لم يكن مروان، ونشدد هنا على الاسم، يفهم حقيقة تفاصيل عمل المؤسسة الأمنية الإسرائيلية، وهو بالتأكيد لم يستطع أن يعرف شيئاً عن الدوافع الشخصية التي ربما وقفت وراء فضح إيلي عيزرا لهوية الرجل المعروف سابقاً فقط باسم «بابل». لذلك، كانت الموساد، من وجهة نظره، تسعى للنيل منه. أما الفارق بين الموساد وعيزرا، الذي كان الرئيس السابق للاستخبارات العسكرية والمنافس المر للوكالة، فلم يكن يعنيه. لهذا، من غير المستغرب أن يرفض أيضاً محاولات الموساد المتكررة في تلك الفترة لعرض الحماية عليه[10].

هناك سبب آخر، بطبيعة الحال، لإصرار زوجته وأولاده على أن الموساد قتلت أشرف مروان. وهو أنه لديهم الانطباع أن مروان كان قريباً من إنهاء مذكراته. وبحسب تصورهم، كان سيشرح فيها كيف خدع الإسرائيليين قبل الحرب مباشرة. فكرة الكتاب جاءت بعد نشر الكشف الأول عن بابل في الصحافة الإسرائيلية. وعندها

حديثهما، خاصة بعد أن عرض على بريغمان أن يكون مستشاره في المشروع. اعتقد بريغمان أن الكتاب سيبدأ من عام 1969، حين عرض مروان لأول مرة خدماته على الإسرائيليين، لكن مروان أراد أن يبدأ القصة بعد أيار 1971، عندما أصبح المستشار المقرب للسادات وابتدأ، على حد وصفه، عملية مكافحة الجاسوسية المعقدة للغاية التي لا يعلم بها إلا هو والسادات. ورغم مشاركته المباشرة في المشروع، لم يستبعد بريغمان احتمال أن وراء كل محادثات مروان معه - والتي كانت كلها عبر الهاتف عدا لقاء وحيداً في فندق إنتر كونتيننتال لندن في بارك لين - يوجد دافع مختلف جداً. وفي مقابلة مع صحيفة سبيكتاتور الأسبوعية، لمَّح إلى أن هدف مروان الحقيقي كان الحصول على معلومات حول ما يُكتب ويُقال عنه في إسرائيل، معلومات كان بأمس الحاجة إليها ليحدد على أساسها خطواته التالية[11].

هل كتب مروان بالفعل كتاباً؟ المعلومات متناقضة وغير حاسمة. وفقاً لبعض الشهود، كان على وشك الانتهاء منه. وقد أوردت صحيفة صانداي تايمز أن ثلاث مسودات كُتبت، كل واحدة منها من مائتي صفحة، تم سحبها من شقته يوم وفاته. بالإضافة لفقدان أشرطة كاسيت تحوي نصوصاً مسجلة بصوته في اليوم ذاته. وبحسب مصادر الصحيفة، ومن ضمنها الشرطة التي قامت بالتحقيق بوفاته واستمعت للتفاصيل من أصدقاء مروان وأفراد عائلته، كان مقرراً في يوم وفاته أن يستقل الطائرة المتجهة إلى نيويورك ليتسنى له البدء بكتابة الفصل الأخير. الكتاب ذاته وفقاً لهذا الادعاء، كان مقرراً أن يصدر في المكتبات في أكتوبر 2007، المصادف للذكرى الرابعة والثلاثين لحرب أكتوبر[12]. ووفقاً لمصدر آخر، شوهد أشرف مروان بين الحضور خلال المؤتمر الأكاديمي الذي عقد في لندن عام 2006 إحياءً للذكرى الخمسين لأزمة السويس يضع وحدة تخزين بيانات معلقة بخيط قصير حول عنقه. وعندما سُئل عنها، أجاب أنها تحوي مسودة كتابه الذي سيكشف فيه حقيقة دوره

على الأقل إلى أرشيف الأمن القومي لجامعة جورج واشنطن في العاصمة واشنطن، المتخصص بالمواد التي رفع عنها السرية بموجب قانون حرية المعلومات، من أجل معرفة المزيد عن حرب أكتوبر. استأجر مروان أيضاً مساعداً استقصائياً ليجمع المواد عن الحرب ومن ضمنها ترجمة مقالات بالعبرية تذكر دوره فيها[14].

في الوقت نفسه توجد حقيقة بارزة تزيد من الشكوك حول ما إذا كتب بالفعل كتاباً من أصله: إلى هذا اليوم لم يعثر على صفحة واحدة من مسودة كتابه. في هذا العصر الرقمي، من الصعب أن نتخيل أن مروان احتفظ بنسخة واحدة (الفصول التي أخذت من شقته) ونسخة رقمية واحدة (وحدة تخزين البيانات المعلقة بالخيط). ولو كان مروان يخشى فعلاً أن يُسرق كتابه، لماذا إذاً ارتداه بشكل علني على رقبته، ولماذا أخبر الناس عن ماهيته؟ لم يعثر على نُسخ في خزنته، أو على كمبيوتره، أو مع عائلته أو أصدقائه المقربين، أو في أي مكان من الأماكن التي لا تُعد ولا تُحصى التي كانت متوفرة حينها والمعروفة اليوم «بالسحابة» الافتراضية. توجد أسباب أخرى تجعلك مرتاباً بالادعاء، أيضاً. فلو قام فعلاً بصنع تسجيلات بصوته وهو يُملي النصوص، هذا سيعني وجود ما يشبه ضارب الآلة الكاتبة أو مساعد آخر حوّل التسجيلات إلى نصوص مكتوبة. فلماذا لم يتقدم أحد ليقول إنه عمل معه على المشروع؟ ربما يكون شخص كهذا وفياً لمروان ولديه كل الأسباب لدعم ادعاء العائلة القائل بأنه كتب مذكراته. سؤال آخر: أين هي جميع مواد البحث، صور الوثائق أو مصادر البحث المجمّعة الأخرى التي بدونها لا يمكن لمؤلف أن يكتب كتاباً من هذا النوع؟ ولماذا، إذا كان على وشك أن يكتمل، لا يوجد أحد مستعداً للحديث عما يتناوله الكتاب بالضبط؟ لو كان هناك كتابٌ «مدوٌ» على وشك أن يكتمل، لكان أخبر الناس بالتأكيد عن موضوعه، خاصة إذا كان يدعم حقيقةً وجهة النظر التي كان المصريون راغبين في كل الأحوال بتصديقها عنه، وهي أنه كان عميلاً مزدوجاً.

المسودات الثلاث أو يعلم شيئاً عن وحدة تخزين البيانات غير ما زُعم أن مروان قاله. أما بالنسبة إلى الوقائع المسلم بها من زيارته لمكتبة الأرشيف في واشنطن أو توظيف مساعد في البحث، فهي لا تثبت شيئاً عن كتابه. في النهاية، من اللحظة التي كُشف فيها عنه كأهم جاسوس للموساد في مصر، أصبح اهتمام مروان كبيراً بمعرفة كل ما يُكتب أو يُنشر عنه، لأن كل مادة ظهرت كانت تعني شدّ عقدة الحبل أكثر قليلاً حول عنقه. بالنسبة إلى شخص بإمكانيات مروان، لم يكن هناك ثمن يُعتَبر كبيراً مقابل الحصول على معلومات دقيقة بخصوص التهديدات التي كان يواجهها.

لكن بعيداً عن كل ذلك، يصعب أيضاً فهم الأسباب الجوهرية التي يمكن أن تكون قد دفعت مروان لكتابة القصة من وجهة نظره في المقام الأول. فكما رأينا، المعلومات التي قدَّمها لإسرائيل خلال سنوات كانت على الدوام دقيقةً وصحيحةً ومدمرةً للجهد الحربي المصري. وفي كل مرة كانت الاستخبارات العسكرية للجيش الإسرائيلي أو الموساد تحاولان التحقق من معلوماته، كانت تثبت صحتها، وليس فقط عند وصولها بل أيضاً بعد سنين، عندما أعادت مصادر مصرية سرد روايتها عن تحضيراتهم للحرب، وأصبح بالإمكان مقارنة أقوالهم مع المعلومات التي قدَّمها مروان. أما تعمّد مروان المزعوم عدم تزويد إسرائيل بتاريخ وتوقيت الهجوم بدقة، فإن إعادة تركيب الأحداث من جانبنا تقدِّم تفسيراً معقولاً تماماً. إنه لم يعلم بصدق بتوقيت الهجوم إلى ما قبل وقوعه بيوم واحد (الجمعة)، وعندها أبلغ مشغِّليه من الموساد بذلك حين التقاهم في تلك الليلة نفسها، وهي حقيقةٌ لا تدعمها مصادر من الموساد فحسب، وإنما مصادر مصرية أيضاً. من الصعب أن نتخيل كيف كان سيستطيع تجاوز كل تلك الأدلة في كتاب. الشيء الوحيد الذي كان يمكنه كتابته هو أن السر الحقيقي كان معلوماً له وللسادات فقط، مع عدم وجود الأخير لإثبات صحة ذلك أو دحضه.

محتملـة وغيـر مسـبوقة لا بد أن يشـترك فيها آخـرون، فأين هم هـؤلاء. حتى الآن لم يظهر أحد يزعم أنه كان مطلعاً على السر، رغم أن المصريين يصرُّون على افتخارهم الدائم بأنهم أخذوا إسرائيل على حين غرة.

سُئل مـروان مـراراً عن مسـألة عمالته المزدوجـة وغالباً ما كان يجد مشـقة في الإجابـة علـى هذا السـؤال. على سـبيل المثـال، أجرى هـاورد بلوم حـواراً معه بعد انكشـاف هويته فأنكر مروان بشـكل متكرر ادعاء أهرون بريغمان بأنه كان جاسوسـاً لإسـرائيل، قائـلاً «باسـتطاعة النـاس كتابـة أو قول مـا يشـاؤون... بالنسـبة إليّ، كل ذلك يبدو بأنه مستمد من قصة بوليسـية». فشـدَّد بلوم على هذه النقطة سائلاً إن كان مـروان عميـلاً مزدوجاً، فمـا كان من الأخير إلا أن طلب رقم فاكس بلوم. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم تلقى بلوم فاكسـاً يحوي نسـخة لمقالة من صحيفة الأهرام يعود تاريخها إلى 22 آذار 1976، كانت تصف الاحتفال الذي أُقيم بمناسـبة مغادرة مروان وظيفتـه فـي مكتب الرئيس، وفيه منحه السـادات ميدالية على مسـاهمته الخاصة في الجهـد الحربـي[15]. مـن الواضـح أن الغاية من ذلك كانـت البرهنة لبلـوم بأنه خدع إسرائيل في بداية الحرب. لكننا نعلم اليوم أن القصد من الاحتفال برمَّته كان ترضية مـروان للتعويـض عن طرده من وظيفته، وأن «مسـاهمته الخاصة في الجهد الحربي» تعنـي نجاحـه في الحصول على طائرات ميراج من فرنسـا عبر ليبيا رغم الحظر على الأسـلحة. وحتـى ما قالـه لأهرون بريغمان فـي حوارهما التلفوني عـام 2006 يُظهر مدى ضعف قصة مروان، حيث ذكرَ الأزمة التي واجهت الجيش الإسرائيلي والأزمة العاطفية لجولدا مائير التي فكَّرت، حسب زعمه، في قتل نفسها عند اندلاع الحرب، كدليل على أن الإسـرائيليين خُدعوا، مضيفاً أنه قدَّم مسـاهمته كجزء من فريق مكوَّن من أربعين شـخصاً كانت مهمتهم تتمثَّل في «إطعام التصوُّر للإسـرائيليين... لم يكن الأمر مجرد عميل مزدوج واحد... بل كانت مصر»[16]. وهذا مختلف أشد الاختلاف

لم يكتب ذلك الكتاب.

ثلاثة استنتاجات تبرز من الأدلة المتوفرة. أولاً، من المعقول الافتراض بأن أشرف مروان لم يكتب مذكرات يصف فيها رؤيته للقصة في حرب أكتوبر، لأن فعل ذلك كان سيرغمه على التعامل مع حقيقة مناقضة لا يمكن إنكارها، حقيقة كانت ستدحض مزاعمه وتثبت أنه كان مدَّعياً وأنه كان، حتماً، جاسوساً للموساد. ولم يكن مروان مهتماً حقاً بوضع حياته بين يدي الجمهور ليحكم عليها بهذه الطريقة.

الاستنتاج الثاني يتعلق بالصورة التي صنعها مروان لنفسه كشخص يكتب كتاباً يكشف فيه أسرار خدعة مصر، ويلعب فيه دور البطل. لقد أتاح ذلك له صدَّ مطالبات – في مصر وأماكن أخرى – تطالبه بالرد على مزاعم تتهمه بأنه كان جاسوساً للموساد. في البداية، حاول مروان تجاهلها، لكن مع مرور الوقت، راحت الصحافة الإسرائيلية تنشر التقرير تلو الآخر كاشفةً المزيد والمزيد من التفاصيل. وفجأة بدأ كتَّاب مثل أهرون بريغمان ورونين بيرغمان وهاورد بلوم يطالبون مروان بإخبار القصة من جانبه، فما كان إلا أن ردَّ، على نحو ملائم، بالقول إنه كان على وشك البوح بكل شيء في كتاب.

أخيراً، ثمة استنتاج يمكن استخلاصه بشأن العائلة، وهو أن أسطورة المذكرات تخدمها جيداً لأنها تسهِّل عليها الادعاء بأن مروان كان وطنياً مصرياً خدع الإسرائيليين، وبأن معظم الأدلة القطعية فُقدت ليس فقط باغتياله من قبل الإسرائيليين ولكن بتدميرهم جميع النسخ الموجودة من الكتاب. والصحفيون يحبون هذا النوع من القصص المؤامراتية شديدة التعقيد. لا شيء يحقق مبيعات أكثر من قصص تتحدث عن جريمة ومذكرات مفقودة.

ولكنْ ثمة أسباب أشد إقناعاً بما لا يُقاس تدعونا لاستبعاد النظرية القائلة إن

الاستخباراتي الإسرائيلي وردّه على كشف هوية مروان ستظهر أن الموساد لم يكن فقط مهتماً، بشدة وبصورة دائمة، بالحفاظ على حياته، بل إنه اعتبر موت مروان إخفاقاً ذريعاً للمؤسسة.

بعد فترة وجيزة على انكشاف هويته، دار جدل عام في إسرائيل حول كيفية التعامل مع الشخص المسؤول عن التسريب، وكان معلوماً على نطاق واسع من هو ذلك الشخص. داخل الموساد، سار الجدال كما يلي. كان رئيس الموساد، مائير داغان، مقتنعاً بأن فتح تحقيق مع إيلي عيزرا، أو حتى محاكمته، سيكون بمثابة اعتراف بأن مروان كان جاسوساً لإسرائيل، ما كان سيضع حياة مروان في خطر جدي ويجعل الموساد، نتيجة لذلك، تبدو بأنه غير قادرة على حماية جواسيسها. ولهذا السبب، عارض داغان، حتى حزيران 2007، اتخاذ أي إجراء بحق عيزرا. وعلى الجانب الآخر من الجدال وقف الكثير من كبار الضباط الذين بنوا حياتهم المهنية في الموساد، وخصوصاً الرئيس السابق لفرع تيزموت الذي أصبح نائباً لداغان الآن، الذي كان يعتقد أن عيزرا، بكشفه اسم مروان أمام عامة الناس، خالف الوصية الأولى للاستخبارات، منتهكاً قدس أقداسها كما يُقال، وعلى هذا الأساس كان ينبغي محاكمته[17]. بيد أن داغان فاز في تلك المعركة، وبناءً على توصيته، رفض مكتب النائب العام الإسرائيلي فتح تحقيق.

بصرف النظر عمن كان مصيباً من الجانبين، فإن ما يعنينا هنا هو أن هذا الجدال – طرف يحاول جاهداً الحفاظ على حياة مروان، والآخر يريد معاقبة الرجل الذي عرَّض حياة مروان للخطر – ما كان ليحدث لو أن الموساد كانت تريده ميتاً. بل على العكس من ذلك تماماً، إذ اعتبر كل من الموساد والحكومة الإسرائيلية موتَه كارثة. وكان زامير أول من يعترف بذلك، حيث قال في مقابلة أُجريت معه على التلفزيون الإسرائيلي: «لقد خسرنا المصدر الأعظم في تاريخنا... وخسرناه نتيجة

وبين أشرف مروان». وجاء فيه: «لا يمر يوم واحد لا أعذب فيه نفسي بشأن ما إذا كان باستطاعتي حمايته بصورة أفضل»[19].

ولكن، إذا لم يفعلها الموساد، ولم يفعلها منافسو مروان في عالم الأعمال، يبقى الخيار المعقول الوحيد هو أن المصريين هم من فعلوها. وهنا فقط وجدنا الدوافع التي يمكن أن تدفعهم لقتل أشرف مروان وكذلك وجدنا خيطاً مشتركاً واضحاً بين موته وبين حالات موت شبيهة لآخرين وقفوا في طريق النظام المصري في الماضي.

واحد من الأسئلة الكبرى التي يطرحها موت مروان هو التالي: كيف يُعقَل أن الحكومة المصرية لم تقم بأي محاولة للتحقيق في خيانته أو إخضاعه للمحاكمة، في الفترة ما بين الكشف عن هويته كبابل في 2002 وبين موته في 2007، بل كرَّمته وضخّمت مساهمته في حرب 1973؟ ربما يعود ذلك إلى تصديق المصريين حقاً قصة العميل المزدوج. لكن، من الصعب تخيُّل أن يقبل ضباط الاستخبارات المصرية، الذين يعرفون الكثير عما كان يجري على أرضهم، روايةً للحقائق تقول إن مروان والسادات تعاونا على خداع إسرائيل دون أن يعلما أحداً بذلك. ومن المعقول الافتراض أيضاً أن مسؤولي الاستخبارات المصرية قرأوا كل ما صدر عن العميل بابل في الصحافة الإسرائيلية وأنهم كانوا قادرين على اكتشاف هويته الحقيقية. لقد اكتشفوا، كباقي العالم، أن أشرف مروان كان عميلاً للموساد. وإذا كانوا قد قرأوا ما كُتب حول الأيام التي سبقت الحرب، فهذا يعني أنهم علموا أن إخفاقات إسرائيل حدثت رغماً عن مروان، وليس بسببه.

إن طريقة تعامل الرئيس مبارك مع مروان بعد انكشافه تُفسّر الأسلوب المعقد والحذر الذي عالج به النظام المشكلة. كان الرجلان يعرفان أحدهما الآخر منذ أوائل السبعينيات، عندما أدار مروان مشروع الحصول على طائرات الميراج الفرنسية

فـي الأعمـال. في 2005، أظهرت وسـائل الإعلام المصرية الرجليـن يتصافحان في احتفال شعبي بمناسبة ذكرى حرب أكتوبر. وقد أقنعت تلك الصورة صحفياً إسرائيلياً واحـداً علـى الأقل بأن مـروان كان بالفعل عميلاً مزدوجاً[21]. لكن، بحسـب هيكل، كان مبارك متفاجئاً لرؤية مروان في الاحتفال وطلب من رجاله مرافقته والخروج من مصـر علـى الفور. وفي صبـاح اليوم التالي عاد مروان إلى لنـدن. وبعد تلك الحادثة أصدر مبارك أمراً يمنعه من العودة إلى مصر[22].

امتدحـت وسـائل الإعـلام المصريـة مـروان أيضاً بعـد موته، إذ وصفـه مبارك بأنـه «وطنـي حقيقـي»، كمـا حضـر جنازتـه أفراد مـن النخب السياسـية والعسـكرية والاستخباراتية. ولكن في أيلول 2011، بعد سقوط نظام مبارك، ذكرت روز اليوسف – وهي الصحيفة الأسبوعية نفسها التي ستدّعي بعد ستة أشهر أن مبارك اتّهم القذافي بقتل مروان – أن مبارك شخصياً أمر باغتيال مروان. بيد أن هذا الادعاء، نظراً لسجل الصحيفة غير النزيه، لم يجتذب أي اهتمام يستحق الذكر.

ليس معلوماً ما إذا كان أي من هذه الادعاءات صحيحاً أم لا، لكن من الواضح أن مبارك ورجاله كانوا يريد دفن هذا الحادثة المحرجة عميقاً في الأرض. لا عجب أن مبارك رفض طلب الصحفي الأكثر احتراماً في مصر، محمد حسنين هيكل، بفتح تحقيق رسمي في قضية مروان[23].

توجد ثلاثة تفسيرات مكمِّلة للمعاملة المراعية التي تلقاها مروان بعد انكشاف هويته كجاسوس للموساد. منها أهمية قضية العار في المجتمع العربي. ففي حين أن قدراً كبيراً من قيمة المرء داخل المجتمع يتوقف في الثقافة الغربية على مسألة الذنب مقابل البراءة، فإنها تعتمد في الثقافة العربية بشكل أكبر بكثير على مسألة العار مقابل الشرف. ولا ينعكس العار على الفرد فحسب، وإنما أيضاً على الجماعات التي يرتبط بهـا، بمـا فيها العائلات الصغـرى والكبرى، والقبائل، والـدول. فعندما يتبيَّن أن فرداً

مبارك وابن آخر له صهر وزير الخارجية المصري والأمين العام الأسبق للجامعة العربية، عمرو موسى، هو الرجل الخائن الأكبر في التاريخ المصري، فإن ذلك سيجلب الخزي والعار ليس لمروان فحسب، وإنما أيضاً لمبارك والنخبة الحاكمة المصرية برمّتها، وسيشكل ضربة قاسمة للكرامة الوطنية للبلد ككل.

وهنالك مسألة وثيقة الصلة بعبء العار، وهي نزعة الدفاع عن المنتمين للمجموعة نفسها التي تميِّز الطبقات العليا من المجتمعات العربية بصفة عامة والمصرية بصفة خاصة؛ «واحد منا». بالنسبة إلى الرجال الأقوى في النظام قد يكون مروان خائناً لكنه كان صديقاً أيضاً وفرداً محترماً من أوساطهم المقرَّبة. ولهذا السبب، كان يستحق الحماية.

أخيراً، يوجد أيضاً الخوف من الضرر الذي كان يمكن أن يسببه مروان فيما لو اتخذ النظام إجراءً قانونياً بحقه. إن كونه جزءاً أساسياً من النخبة المصرية لما يزيد عن أربعين عاماً ومعرفته للأسرار الشخصية لأشد الرجال نفوذاً في مصر جعله مصدر تهديد حقيقي. وكان مروان نفسه يدرك ذلك وقد أوضح أنه لن يتردد في استخدام نفوذه. في حوار مع هيكل في لندن في أيلول 2006، أنكر أن مبارك منعه من زيارة مصر، مضيفاً: «لا يمكنه فعل ذلك. أنا قادر على تدميره». كما قال إنه قادر على تدمير آخرين، بمن فيهم عمر سليمان، المدير القوي للمخابرات المصرية[24].

من أجل جميع هذه الأسباب، خلق اعتراف إيلي عيزرا العلني بأن مروان كان يعمل لصالح الموساد – في كتابه وكذلك في مقابلات تلفزيونية لاحقة في 2004 – حقيقةً جديدةً بالنسبة إلى مصر؛ لأن هناك فرقاً كبيراً بين أن يَصدر مثل هذا الادعاء عن صحفي أو مؤرخ وبين أن يصدر عن الرجل الذي كان يرأس الاستخبارات العسكرية في الجيش الإسرائيلي خلال حرب أكتوبر. فما بالك عندما يُصدرُ قاض سابق في المحكمة العليا الإسرائيلية حكماً حول الموضوع، الأمر الذي يمكن تفسيره بسهولة

أن تزعزع أركان الحكم المصري، وأدرك أيضاً الحاجة لتحييد هذا التهديد. كان ينبغي فعل شيء ما.

بيد أن كل هذا لا يفسّر سوى الدافع؛ لماذا أصبح لدى المصريين كل الأسباب الموجبة في العالم لقتل مروان بعد صدور حكم القاضي أور مباشرة؟ مع أن الدافع وحده ليس كافياً. هل هناك مؤشرات أخرى تشير إلى أن للمصريين دوراً في موته؟

أجل، وخصوصاً أسلوب قتله. عبر رميه من الشرفة وإيجاد طريقة لإخفاء حذائه، إنك بذلك تزيد إلى أقصى درجة ممكنة احتمال عدم استبعاد فرضيتي الانتحار أو الحادث أبداً. بعد وفاة مروان، أثار صحفيون مصريون عدداً من الحالات الشبيهة، بينها اثنتان تحملان شبهاً مذهلاً.

وقعت الأولى في 1973 في لندن، عندما قُتل الفريق الليثي ناصف، الذي اختاره عبد الناصر لقيادة الحرس الجمهوري، والذي سَجَنَ، بناءَ على أوامر من السادات، شخصيات معارضة بارزة في أيار 1971. كان الفريق، المعروف بنزاهته ورفعة خُلُقه، قد أُعفي من منصبه في الحرس الجمهوري في 1972 قبل أن يرقيه السادات ويعيِّنه في منصب «مستشار» غير ذي أهمية في الجيش. وبعد سنة، عُيِّن سفيراً في اليونان، لكنه قبل الانتقال إلى أثينا توقف في لندن لإجراء فحوصات طبية. كان يقيم في الطابق الحادي عشر من برج ستيوارت، وهو مبنى سكني في ويستمينستر يرتاده في العادة زوّار من الشرق الأوسط. في 15 آب 1973، عُثر على جثته عند قاعدة البرج، بعد سقوطه من شرفة جناحه. لم يكشف تشريح الجثة أي شيء مثير للشكوك، لكن زوجته ادَّعت مراراً بأنه قُتل على يد رجال السادات، الذين أخرجوه من الحمام ورموه من الشرفة، لأنه كان موالياً سرياً لعبد الناصر. واتَّهمتْ بصفة خاصة ضابطاً رفيعاً في الاستخبارات المصرية كان يعيش في المبنى نفسه في ذلك الحين، بل كان

ورغم عدم وضوح السبب الذي جعل السادات يريد قتله بعد أن كان موالياً خلال «الثورة التصحيحية»، إلا أن الشعور العام في مصر كان يشير إلى أن موت ناصف لم يكن حادثاً بل اغتيال بناء على أوامر من الحكومة[25].

بعد ثمانية وعشرين عاماً، في 21 حزيران 2001، لقيت الممثلة السينمائية المصرية سعاد حسني المصير ذاته، حيث وُجدت ميتة أسفل برج ستيوارت بعد سقوطها من شرفتها في الطابق السابع. كانت سعاد حسني، التي ظهرت في ثمانين فيلماً مصرياً ولُقِّبت «سندريلا السينما المصرية»، تعاني من ألم مزمن وتُعالَج من الوزن الزائد، لكن الأشخاص الذين كانوا مقرَّبين منها في السنوات الأربع التي قضتها في لندن صرحوا أنها لم تُبدِ أي مؤشرات انتحارية. كما كان طبيبها يعرفها عن قرب وقد شهدَ بأنه تحدَّث معها قبل موتها بيوم واحد وبأنها بدت له متفائلة حيث وعدَتْه برؤيته في وقت قريب. وشهدتْ صديقتها المقرَّبة ومساعدتها الشخصية بأن سعاد كانت في الشرفة عندما دخلتُ إلى الشقة، لكنها لم ترها حالما أصبحت في الداخل. فذهبت إلى الشرفة ونظرت إلى الأسفل فوجدت جثة سعاد على الأرض. غير أن القاضي البريطاني الذي كان يحاول إثبات سبب الوفاة خلصَ إلى أن المساعِدة لم تكن شاهدة موثوقة لوجود تناقضات في قصتها.

أثار الموت الغامض لسعاد حسني، وهي واحدة من أشد نجوم السينما احتراماً في العالم العربي، موجة من الشائعات، التي أشار بعضها بأصابع الاتهام إلى المخابرات المصرية. بحسب الرواية التي أصبحت مقبولة لاحقاً، كانت سعاد حسني تنوي كتابة مذكراتها التي ستكشف فيها أنها عملت مع المخابرات المصرية في الثمانينيات. وقد لقيت قصة عملها كعميلة – التي كانت تتضمن على الأرجح أعمال إغراء من الممثلة الجميلة – دعماً من رئيس المخابرات في ذلك الحين، اللواء فؤاد نصار، الذي ادّعى في مقابلة مع صحيفة مصرية أن سعاد حسني قُتلت. لا عجب إذاً أن الكثيرين في

في موت مروان – بحسب الصحيفة الأسبوعية الفضائحية، روز اليوسف – خلصوا إلى نتيجة مفادها أن الفريق ذاته المكوّن من ثلاثة أشخاص (رجلان وامرأة) ارتكب جريمتي قتل الممثلة السينمائية وجاسوس الموساد[27]. لكنها قد تكون قصة مختلقة، لأنها لم تلقَ أي تأكيد من سكوتلاند يارد ولا من أي مصدر مطلع آخر.

لم تقنع الجنازة المهيبة وكلمة الرئيس مبارك، التي قال فيها إنه «لم يشك على الإطلاق في وطنية الدكتور أشرف مروان» وإن مروان «لم يكن جاسوساً لأي منظمة على الإطلاق»[28] إلا القليل من الصحفيين والمحللين الغربيين بأن فرضية العميل المزدوج يمكن أن تكون صحيحة في نهاية المطاف. أما الآخرون المطلعون على أدق تفاصيل قصة أشرف مروان خلال الحرب، فقد ظلوا متشككين. تفحّص الجنرال الإسرائيلي المتقاعد عاموس جلبوع، الرئيس الأسبق لشعبة أبحاث الاستخبارات العسكرية، جميع المعلومات التي قدّمها مروان، وأعطى رأيه الخاص حول سلوك مصر الرسمي. قال جلبوع إن صور الجنازة، التي يظهر فيها مسؤولون حكوميون رفيعو المستوى وهم يقدّمون تعازيهم لأرملته الثكلى، ذكّرتْهُ «بفيلم حول المافيا. تقتل المافيا شخصاً ما، وبعد ذلك، عندما تكون الأرملة وأطفالها يبكون فوق قبره، يأتي القتلة ويقبّلونها»[29].

على أي حال، كانت كلمة مبارك – أكثر من أي شيء آخر – هي التي أرست الطريقة التي ينبغي أن يُنظَر فيها إلى مروان في مصر. رغم أن الصحفيين والمدوِّنين المستقلين واصلوا التحدث عن مروان بطريقة تناقض الخط الرسمي، إلا أن جميع الناطقين الرسميين الذين يلجأ إليهم الصحفيون للحصول على تعليقات رسمية كانوا يؤكدون بأن مروان خدم مصر بإخلاص، وبأنه من الضروري الحفاظ على السرية لأن الموضوع يمثّل قضية أمنية حساسة. حاول المنتجون في برنامج 60 دقيقة، الذي

نسخاً مختلفة مكررة من فرضية العميل المزدوج، قائلين إن مروان خدع الإسرائيليين لكنهم لم يكونوا مستعدين لقول ذلك أمام الكاميرا، لأسباب تتعلق بالسرية. وفي النهاية، قُدِّم الموقف المصري أمام الكاميرا بواسطة الدكتور عبد المنعم سعيد، رئيس مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، الذي زعم أن مروان كان محوراً مركزياً في الجهد المصري لخداع الإسرائيليين، الذي بدونه لم يكن الجيش المصري يملك أي فرصة لهزيمة الجيش الإسرائيلي. بيد أنه لم يقدِّم أي تفاصيل مقنعة لدعم زعمه[30].

كانت تعليقات سعيد، التي بُثَّت في أيار 2009، أشبه ما تكون ببيان مصري رسمي حول مروان منذ أن أعلن مبارك بأنه «لم يتجسس لصالح أي وكالة». وكانت تعكس، أكثر من أي شيء آخر، الضيق الشديد من جانب نظام مبارك الذي كان يتعرض للضغط لقول أي شيء حول أشرف مروان. ويبدو أن الرسالة الضمنية التي كانوا يريدون إيصالها هي أنهم هم أنفسهم لم يكونوا يعلمون حقاً ماذا فعل. إذا كان صهر عبد الناصر حقاً عميلاً مزدوجاً خدع إسرائيل، فهذا يعني أنها يجب أن تكون أكثر قصص مكافحة الجاسوسية إثارة للدهشة في التاريخ، وتثبت بدرجة كبيرة تفوُّق الذكاء المصري على الإسرائيلي. وهذا يدفعنا للاعتقاد بأن المصريين ينبغي أن ينظروا إلى هذه القصة على أنها مصدر فخر لا ينضب.

لماذا إذاً لم يظهر أي مصري راغب بإخبار القصة بأكملها؟ لماذا السرية، بعد أكثر من أربعين عاماً على الحرب، وأكثر من ثلاثين عاماً على موت السادات، وما يقرب من عقد على موت مروان؟ إذا كان المصريون أذكياء جداً بحيث خدعوا حتى الموساد، فلماذا لم تصبح هذه القصة جزءاً من الرواية المصرية لحرب أكتوبر، في الكتب والأفلام الوثائقية وغيرها؟ لماذا لا يستغلون القصة في تعزيز الفخر الوطني ودعم النظام، كما فعلوا مع إنجازاتهم العسكرية في الحرب، حيث بنوا متحفاً كاملاً

في الواقع، يرفض المصريون تقديم شرح مفصل مقنع لقصة العميل المزدوج لأنهم لا يستطيعون. إن الدليل الوحيد الذي يملكونه حقاً لدعم زعمهم هو حقيقة فشل إسرائيل في الاستعداد بشكل مناسب للهجوم المصري في 6 تشرين الأول 1973.

مضى أكثر من أربعة عقود على نشر لجنة التحقيق الإسرائيلية الرسمية، لجنة أغرانات، اكتشافاتها حول الإخفاق الإسرائيلي المهين في حرب أكتوبر. وفيها علم العالم أن إخفاقات إسرائيل في الأيام الأولى للحرب لم يكن لها علاقة بالذكاء المصري بل برفض إسرائيل التخلي عن تصوُّرها البالي. في الوقت الحالي، تبقى فرضية العميل المزدوج المصرية في ما يتعلق بأشرف مروان وهماً لا أساس واقعي له. وسيبقى كذلك إلى أن، وما لم، يقدِّم شخص ما أدلة دامغة لدعمها. على سبيل المثال، متى وأين التقى مروان مع مشرفيه، وماذا قيل في الاجتماعات. إذا كان يعمل حقاً لصالح مصر، فلابد أن يكون هناك سجل ما، في مكان ما، يوثِّق طريقة تعامله مع مشرفيه وخداعه لرئيس الموساد. طالما أنهم لا يستطيعون تقديم وثيقة واحدة من الجانب المصري لعمله، وطالما أن كل بيان يصدرونه لا يعدو كونه رد فعل على منشورات أو مقالات إسرائيلية تصدر من مصادر إسرائيلية، فلا مفر من الاستنتاج بأنهم لا يملكون حتى الآن أدنى فكرة عما كان أشرف مروان يفعله قبل الحرب وخلالها، بالرغم من جميع تأكيداتهم.

وطالما أن الوضع على هذا النحو، فلا مفر من الاستنتاج بأن أشرف مروان لم يكن عميلاً مزدوجاً على الإطلاق، بل واحد من أهم الجواسيس الذين عرفهم العالم في نصف القرن الماضي.



المصادر والمراجع

(1) Muhammad Tharwat, *Ashraf Marwan: Fact and Illusion* (Cairo: Madbuli, 2008), pp. 19–20; unknown author,«Al–Souhagh: Birthplace of Ashraf Marwan,» from the website of Mallawi in the Al–Manya Province, accessed September 28, 2007.

(2) Tharwat, *Ashraf Marwan: Fact and Illusion*, pp. 19–20.

(3) Anne Alexander, *Nasser* (London: Haus Publishing, 2005), p. 104; Anthony Nutting, *Nasser* (New York: E. p. Dutton, 1972), p. 306.

(4) Tahia Gamal Abdel Nasser, *Nasser: My Husband* (Cairo and New York: American University in Cairo Press, 2013), p. 94.

(5) The Opportunist: «The Bright Side of the Moon,» *Egyptian Chronicles*, June 28, 2007, http://egyptianchronicles.blogspot.com/2007/06/opportunist–well–bright–dark–side–of.html

(6) Tahia Gamal Abdel Nasser, *Nasser: My Husband*, p. 94.

(7) Amru al–Laithi interview with Mona Abdel Nasser, «Ahathraq» Egyptian Television, March 10, 2009.

(8) Mohamed Fawzi, *Secrets of the Assassination of Ashraf Marwan* (Beirut: Al–Watan Lel Nasher, 2007), p. 18.

(9) Kemal Halef al–Tawil, «Ashraf Marwan: The Dilemma Child,» *Al–Akhbar al–Lebnaniya*, February 7, 2007.

(10) Mohamed Jam'a, *I Knew Sadat: Half a Century of Secrets About Sadat and the [Muslim] Brotherhood* (Cairo: Al–Maktab al–Masry al–Hadeth, 1999), p. 182.

(11) Tahia Gamal Abdel Nasser, *Nasser: My Husband*, p. 93.

(12) Amru al–Laithi interview with Mona Abdel Nasser.

(13) Nadav Zeevi, *Life of an Agent* (unpublished manuscript in Hebrew). The contradiction between the way Mona's parents accepted Ashraf Marwan and Hoda's husband is evident in Tahia Nasser's memoirs. She described in detail Hoda's engagement process and marriage (Tahia Gamal Abdel Nasser, *Nasser: My Husband*, pp. 92–93) and summarized in only six lines Mona's marriage to Ashraf (Ibid., p. 94).

(14) Al–Tawil, «Ashraf Mawan:The Dilemma Child.»

(15) Tharwat, *Ashraf Marwan: Fact and Illusion*, pp. 20–21.

(16) Assam Abdel Fatah, *The Agent Babel: The Man Who Shocked the Command of the Mossad* (Cairo: Dar el–Katab el–Arabi, 2008), p. 26; Amru el–Laithi interview with Mona Abdel Nasser.

(17) Mohammad Zara, «Reliving a Piece of History,» *Egypt Daily News*, September 22, 2006.

(18) Selim Nassib, *Umm* (Tel Aviv: Asia, 1999), p. 159.

(19) Amru al–Laithi interview with Mona Abdel Nasser.

(23) The Opportunist: «The Bright Side of the Moon,» *Egyptian Chronicles* (see n. 5 above).

(24) Al–Tawil, «Ashraf Marwan: The Dilemma Child.»

(25) Nutting, *Nasser*, p. 306.

(26) Gamal Nkrumah, «Sami Sharaf: Shadows of the Revolution,» *Al–Ahram Weekly Online*, August 9–15, 2001, http://weekly.ahram.org.eg/2001/546/profile.htm; Nutting, *Nasser*, pp. 306–308.

(27) Assam Abdel Fatah, *Who Killed Ashraf Marwan*?: *The File of Agent Babel* (Cairo: El–Eiman, 2007), p. 14; Musa Sabri, *Sadat:The Truth and the Legend* (Cairo: Al–Maktab al–Masry al–Hadeth, 1985), p. 651.

(28) Abdel Majid Farid interview with the Egyptian television program «Ahatraq,» broadcast November–December 2008.

(29) Fatah, *Agent Babel*, pp. 15–18.

(30) Panayiotis J. Vatikiotis, *The Modern History of Egypt* (New York: Praeger, 1969), p. 432.

(31) Souad al–Sabah, *Falcon of the Gulf:Abdullah Mubarak al–Sabah* (Kuwait: Kadhma, 1995), pp. 259–268.

(32) Ibid., pp. 263–264.

(33) Al–Tawil, «Ashraf Mawan.»

(34) Zeevi, *Life of an Agent*.

(35) Saad el Shazly, *The Crossing of the Suez–Revised Edition* (San Francisco: Ameri–can Mideast Research, 2003), pp. 184–185.

(36) Scott Shane, «A Spy's Motivation: For Love of Another Country,» *New York Times*, April 20, 2008;Yuri Modin, *My Five Cambridge Friends*: *Burgess*, *Maclean*, *Philby*, *Blunt*, *and Cairncross* (New York: Farrar, Straus, Giroux, 1994); Cher–kashin Victor and Gregory Feiger, *Spy Handler*: *Memoirs of a KGB Officer*: *The True Story of the Man Who Recruited Robert Hanssen and Aldrich Ames* (New York: Basic Books, 2005); David Wise, *Nightmover*: *How Aldrich Ames Sold the CIA to the KGB for* $4.6 *Million* (New York: Harper Collins, 1995); Jerrold L. Schecter and Peter S. Deriabin, *The Spy Who Saved the World*: *How a Soviet Colonel Changed the Course of the Cold War* (New York: Charles Scribner's Sons, 1992); Dusko Doder, «Of Moles and Men,» *The Nation*, February 18, 2002, pp. 25–32.

الفصل الثاني

لندن، 1970: الاتصال

(1) Unless noted otherwise, this chapter is based on interviews with Zvi Zamir, Meir Meir, Nahik Navot, Freddy Eini, Amos Gilboa, and other sources who requested anonymity, as well as: Zvi Zamir and Efrat Mass, *With Open Eyes* (Or Yehuda:

2008), p. 511.

(4) Thomas Harris, *Garbo: The Spy Who Saved D–Day* (Richmond, Va.: Public Record Office, 2000); Stephan Talty, *Agent Garbo: The Brilliant, Eccentric Secret Agent Who Tricked Hitler and Saved D–Day* (Boston: Houghton Mifflin Harcourt, 2012).

(5) John Le Carré, *The Secret Pilgrim* (New York: Alfred A. Knopf, 1990), p. 9.

الفصل الرابع

أيار 1971: الصعود

This chapter is based on interviews with Zvi Zamir, Meir Meir, Nahik Navot, Freddy Eini, Amos Gilboa, and other sources who requested anonymity.

(1) Anwar el–Sadat, *In Search of Identity: An Autobiography* (New York: Harper–Collins, 1978), p. 139.

(2) Said K. Aburish, *Nasser: The Last Arab* (New York: Thomas Dunn, 2004), pp. 242, 286;Tahia Gamal Abdel Nasser, *Nasser: My Husband*, pp. 103–117.

(3) Arieh Shalev,«Intelligence Estimates in Advance of the War,» in *National Trauma: The Yom Kippur War After Thirty Years and Another War*, ed. Moshe Shemesh and Ze'ev Drori (Sdeh Boker: Ben–Gurion University Press, 2008), pp. 125–183, 106; Arieh Shalev, *Failure and Success in the Warning: Intelligence Assessments on the Eve of the Yom Kippur War* (Tel Aviv: Maarachot, 2006), p. 167.

(4) Sources for this exchange: Shimon Shamir, *Egypt Under Sadat's Leadership:The Search for a New Orientation* (Tel Aviv: Dvir, 1978); Vatikiotis, *Modern History of Egypt*, n. 28 of ch. 1; Sadat, *In Search of Identity*; Jehan Sadat, *A Woman of Egypt* (New York: Simon & Schuster, 2002); interview with Prof. Shimon Shamir at Tel Aviv University, December 31, 2009; Anthony Nutting, *Nasser* (New York: Dutton, 1972); Kirk J. Beattie, *Egypt During the Sadat Years* (New York: Palgrave Macmillan, 1980); «The Underrated Heir,» *Time*, May 17, 1971; «A Preemptive Purge in Cairo,» *Time*, May 24, 1971.

(5) Sadat, *In Search of Identity*, p. 170.

(6) Beattie, *Egypt During the Sadat Years*, p. 291.

(7) Fatah, *Who Killed Ashraf Marwan*? p. 21. Fatah's source is Salah al–Shahed, a senior officer in the President's Office who had gone to school with Sadat; Tharwat, *Ashraf Marwan: Fact and Illusion*, n. 1 of ch. 1, p. 184. Tharwat relies, among others, on: Mahmud Jamaa, *I Knew Sadat: Fifty Years of Secrets about Sadat and the Muslim Brotherhood* (Cairo: al Maktab al Misri, 1999).

(8) Fatah, *Who Killed Ashraf Marwan*? n. 14 of ch. 1, p. 21.

(9) Owen L. Sirrs, *A History of the Egyptian Intelligence Service: A History of the Mukhabarat*, 1910–2009 (New York: Routledge, 2010), p. 120.

(13) Zamir and Mass, *With Open Eyes*, p. 133.
(14) «Sadat in the Saddle,» *Time*, May 31, 1971.
(15) Tharwat, *Ashraf Marwan: Fact and Illusion*, n. 8 of ch. 1.

الفصل الخامس

حلم أي وكالة استخبارات على وجه الأرض

(1) Interview with Meir Meir.
(2) This affair served as the basis for Michael Frayn's play, *Democracy*, which premiered at Britain's Royal National Theatre in September 2003.
(3) Interview with Yonah Bandman.
(4) Interview with Meir Meir.
(5) Interviews with Meir Meir, Yonah Bandman, and Yaakov Rosenfeld, who in 1971 served as an MI expert on the Egyptian army.
(6) Gad Yaacobi, *By a Hair's Breadth: How an Agreement Between Israel and Egypt Was Missed, and the Yom Kippur War Was Not Prevented* (Tel Aviv: Edanim, 1989), p. 157.
(7) Interview with Yaakov Rosenfeld.
(8) Yaacobi, *By a Hair's Breadth*, p. 157.
(9) Interviews with Freddy Eini and Zvi Zamir.
(10) Shalev, *Failure and Success in the Warning*, n. 3 of ch. 4, p. 63.
(11) Yitzhak Rabin, *Record of Service* (Tel Aviv: Maariv, 1978), pp. 345–346.
(12) Military Intelligence document from June 1971; Shalev, *Failure and Success in the Warning*, n. 3 of ch. 4, p. 63.
(13) It should be said, however, that the roots of the Concept could be found as early as 1968, two years before Marwan offered his services. In a meeting of the IDF General Staff about the possibility of war with Egypt that fall, the chiefs of the Israeli Air Force expressed their opinion that any Egyptian effort to cross the Suez Canal without first neutralizing Israel's air superiority would necessarily fail. The IDF chief of operations, Maj. Gen. Ezer Weizman, who had until recently been the commander of the IAF, said of such an Egyptian move, «If only they would make such a mistake.» Uri Bar–Joseph, *The Watchman Fell Asleep: The Surprise of Yom Kippur and Its Sources* (Albany: SUNY Press), 2005, p. 45.
(14) Shazly, *Crossing the Suez*, p. 128.
(15) See: Ibid., p. 18; Sadat, *In Search of Identity*, p. 178; Mohamed Abdel Ghani el–Gamasy, *The October War: Memoirs of Field Marshall El–Gamasy of Egypt* (Cairo: The American University of Cairo Press, 1993), p. 205; Mohamed Heikal, *Autumn of Fury: The Assassination of Sadat* (New York: Random House, 1983), p. 50.

(19) «Intelligence Summary from Operation Dovecote,» December 17, 1972; Shalev, *Failure and Success in the Warning*, n. 3 of ch. 4, pp. 80–81; Eli Zeira, *Myth Versus Reality:Yom Kippur War–Failures and Lessons* (Tel Aviv: Yedioth Ahronot, 2004), pp. 89–90.The first edition of Zeira's book came out in 1993.

(20) Zvi Zamir interviewed on the Israeli television program *Fact* (*Uvda*), Cahnel 2, «The Last Spy,» December 27, 2007.

(21) Interview with Zvi Zamir, July 8, 2008.

(22) Conversation with Amos Gilboa.

(23) Shalev, *Failure and Success in the Warning*, n. 3 of ch. 4, p. 186.

(24) Interview with Aharon Levran.

(25) Moshe Dayan interview with Rami Tal, in Ronen Bergman and Gil Meltser, *The Yom Kippur War*: *Real Time* (Tel Aviv: Yedioth Ahronot, 2003), p. 180.

(26) Interview with Yonah Bandman.

(27) Zeira, *Myth Versus Reality*, pp. 155–156.

(28) Ibid., pp. 151–163.

(29) «Supplement of Supplements,» Israel Television Channel 1, interviewed by Dan Margalit, September 23–24, 2004.

(30) Interview with Arieh Shalev.

(31) Interview with Aharon Levran.

(32) Bergman and Meltser, *The Yom Kippur War*, p. 175.

(33) Zamir and Mass, *With Open Eyes*, p. 133.

(34) Ibid., pp. 132–135.

(35) Interviews with Zvi Zamir and Freddy Eini.

الفصل السادس

مبعوث السادات للشؤون الخاصة

(1) Nadav Safran, *Saudi Arabia*: *Ceaseless Quest for Security* (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1988), p. 145; Robert Dreyfuss, *Devil's Game*: *How the United States Helped Unleash Fundamentalist Islam* (New York: Henry Holt, 2006), p. 151; Gerald Posner, *Secrets of the Kingdom* (New York: Random House, 2005), pp. 80–82; Said Aburish, *The Rise, Corruption, and Coming Fall of the House of Saud* (London: Bloomsbury, 2005), p. 301; Bob Woodward, *Veil*: *The Secret Wars of the CIA*, 1981–1987 (New York: Simon & Schuster, 2005), p. 347; Mohamed Heikal, *The Sphinx and the Commissar*: *The Rise and Fall of Soviet Influence in the Middle East* (New York: Harper & Row, 1978), p. 226.

(2) Mohamed Hassanein Heikal interview with Al Jezeera television, December 7, 2009.

(4) Jeffrey Robinson, *The Risk Takers* (New York: Harper Collins, 1985), p. 122.
(5) Avi Shlaim, *Lion of Jordan:The Life of King Hussein in War and Peace* (New York: Alfred A. Knopf, 2008), pp. 346–347.
(6) Gideon Gera, *Gaddafi's Way in Libya* (Tel Aviv: Hakibutz Hameuhad, 1983), pp. 118–119.
(7) John K. Cooley, *Libyan Sandstorm* (New York: Holt, Reinhart and Winston, 1982), pp. 6–7, 68.
(8) Mohamed Hamad, «Egypt–Libya Relations from Revolution to War: Recollections of Salah al–Din al–Saadani, Egypt's First Ambassador to Libya After the Revolution,» part 13, *Al–Rei al–A'am* (Kuwait), October 15, 1997, p. 12.
(9) Sabri, Sadat: *The Truth and the Legend*, pp. 652–653.
(10) Tharwat, *Ashraf Marwan: Fact and Illusion*, p. 34.
(11) Ibid.; Sabri, *Sadat:The Truth and the Legend*, pp. 652–653.
(12) «For 100,000 dollars a month... the 'prophetic,' one of the great weapons dealers of Egypt,» *Al–Shaab*, December 2, 2009.. [**URL doesn't work**].
(13) Sabri, Sadat: *The Truth and the Legend*, p. 652.
(14) Fawzi, *Secrets of the Assassination of Ashraf Marwan*, p. 29.
(15) Jamaa, *I Knew Sadat*, pp. 217–218; Sabri, Sadat: *The Truth and the Legend*, p. 652; Fatah, *Who Killed Ashraf Marwan*? p. 26.
(16) Fatah, *Who Killed Ashraf Marwan*? p. 31.
(17) Jamaa, *I Knew Sadat*, pp. 184–185; Tharwat, *Ashraf Marwan: Fact and Illusion*, pp. 27–36.
(18) Jamaa, *I Knew Sadat*, pp. 184–185; Tharwat, *Ashraf Marwan: Fact and Illusion*, pp. 35–36.
(19) Jeffrey Robinson, *Yamani: The Inside Story* (London: Simon & Schuster, 1988), pp. 85–86.
(20) Shazly, *Crossing the Suez*, pp. 148–149.
(21) Conversation with Howard Blum, September 1, 2010.
(22) Ronen Bergman, «The 'Khotel' Code,» *Yediot Ahronot* (7 *Days Supplement*), September 7, 2007, pp. 29–30.

الفصل السابع

مصر تتهيأ للحرب

(1) Eyal Zisser, «Syrian and the October War: The Missed Opportunity,» in *The October* 1973 *War*: *Politics*, *Diplomacy*, *Legacy*, ed. Asaf Siniver (London: Hurst, 2013), pp. 67–83.
(2) Uri Bar–Joseph and Amr Yossef, «The Hidden Factors that Turned the Tide: Strategic Decision–Making and Operational Intelligence in the 1973 War,»

(5) Ibid., pp. 17–18.
(6) Rabin, *Record of Service*, p. 380.
(7) Braun, *Moshe Dayan in the Yom Kippur War*, p. 18.
(8) Ibid., p. 19.
(9) Interview with Avner Shalev, Tel Aviv, August 29, 1998. In 1973 Shalev served as the Chief of Staff 's aide–de–camp.
(10) Branch 6, *Intelligence Survey* 15/73, January 24, 1973.
(11) Lon Norden and David Nicole, *Phoenix Over the Nile: A History of Egyptian Air Power*, 1932–1994 (Washington D.C., Smithonian Institute Press, 1996), pp. 269–70.
(12) Arieh Shalev,«Intelligence Assessment Before the War,» in *National Trauma:The Yom Kippur War After ThirtyYears and Another War*, ed. Moshe Shemesh and Zeev Drori (Sdeh Boker: Ben–Gurion University, 2008), p. 117.
(13) *Commission of Inquiry–The Yom Kippur War, Additional Partial Report: Justifications and Additions to the Partial Report of* 9 *Nissan* 5734 (*January* 4, 1974), vol. 1, Jerusalem (1974), p. 93 (hereafter: Agranat Commission,Third and Final Report).
(14) Shalev, «Intelligence Assessment,» pp. 118–119.
(15) Interview with Yonah Bandman.
(16) For a detailed description of this discussion, see: Bar–Joseph, *The Watchman Fell Asleep*, 2005, pp. 69–70.
(17). Ibid., pp. 71–73.
(18) Shmuel Gordon, *Thirty Hours in October*, *Fateful Decisions*: *The Air Force at the Start of the Yom Kippur War* (Tel Aviv: Maariv, 2008), p. 193.

الفصل الثامن

التحضيرات النهائية وفاصل في روما

(1) Braun, *Moshe Dayan in the Yom Kippur War*, p. 28
(2) *Time*, July 30, 1973, p. 13.
(3) Robinson, *Yamani*, pp. 84–86.
(4) Hanoch Bartov, *Dado*: 48 *Years and Another* 20 *Days* (Or Yehuda: Dvir, 2002), pp. 237–239.
(5) John K. Cooley, *Libyan Sandstorm* (New York: Holt, Reinhart, and Winston, 1982), pp. 106–109.
(6) Aaron J. Klein, *The Master of Operations*: *The Story of Mike Harari* (Jerusalem: Keter, 2014), pp. 16–20; Zamir and Mass, *With Open Eyes*, pp. 142–146; Mohamad Hamad, *El–Rai el–A'am* (Kuwait), October 15, 1997, p. 12; inter–view with Zvi Zamir, September 1, 2009; Oded Granot, «How Gaddafi and Sadat Conspired to Shoot Down an El Al Plane,» *Maariv* Sabbath Supplement,

(*Uvda*), Israel Television Channel 2, December 27, 2007; *Maariv*, September 6, 1973.
(7) See, for example, Shalev, *Failure and Success in the Warning*, p. 133.
(8) Agranat Commission, Third and Final Report, vol. 1.

الفصل التاسع

التوقيع عند غروب شمس السبت

(1) Mohamed Heikal, *Mubarak and His Time... From the Podium to the Square* (Cairo: Dar al–Shorouq, 2013), p. 257.
(2) In a personal interview conducted with Zamir on August 19, 1998, Zamir rejected the commission's report that he had used the word «imminent.»That, he claimed, is a word he never uses.
(3) Transcripts of telephone conversations among Freddy Eini, Zvi Zamir, and Eli Zeira, in *The Commission of Inquiry–Yom Kippur War*: *Additional Interim Report*: *Reasoning and Addenda for the Interim Report of April* 1, 1974, vol. 1, Appendix A, «Actions of the Mossad in Early October,» pp. 51–52.
(4) Braun, *Moshe Dayan in the Yom Kippur War*, pp. 58–59, 61.
(5) Shazly, ***Crossing the Suez*** p. 213; El–Gamasy, *The October War*, p. 197.
(6) «Mohammad **Nusseir** to the TV Show 'Ahatraq': Ashraf Marwan Didn't Know When the October War Would Begin, and His Relations with Arab Intelligence Were Strong,» *Al–Mizri Al–Yum*, November 7, 2008, quotes from television interview given November 6, 2008. «So He Was in London on the 5th of October 1973!!» *Egyptian Chronicles*, October 23, 2008, http://egyptian–chronicles.blogspot.com/2008/10/so–he–was–in–london–on–5th–of–october.html.
(7) Mohamed Heikal, *The Road to Ramadan* (New York: Quadrangle/New York Times Book Co., 1975), pp. 15–16. [**change per Harvard Library (Hollis**)].
(8) Howard Blum, *The Eve of Destruction*: *The Untold Story of the Yom Kippur War* (New York: HarperCollins, 2003, p. 120.
(9) Yigal Kipnis, 1973:*The Road to War* (Charlottesvile, VA: Just World Books, 2013), pp. 46–47.
(10) Bar–Joseph, *The Watchman Fell Asleep*, pp. 116–17, 148–49, 248–50. True, Zeira tried to claim on a number of occasions that he gave the order to deploy the special equipment forty hours before the war was launched (that is,Thursday night at 10:00 p.m. Israel time). However, Col.Yossi Langotsky, who at the time commanded the unit responsible for deploying them, stated that forty hours before the start of war, Zeira approved conducting a check of the equip–ment's readiness («tool check») and insisted that they be turned off again on Friday at 6:00 a.m. The commander of the 848th Intelligence Unit, Col.

the war.»Yossi Langotsky,«The Truth About the 'Special Means,'» *Haaretz*, December 20, 2005; personal correspondence with Yossi Langotsky.

(11) Account of the events of Friday, October 6, according to Bar–Joseph, *The Watchman Fell Asleep*, pp. 141–86.

(12) Zamir and Mass, *With Open Eyes*, p. 150.

(13) Personal interviews with Freddy Eini, Arieh Shalev, Avner Shalev, and Zvi Zamir.

الفصل العاشر

برج الحمام: التحذير والحرب

(1) Quoted from the transcript of the conversation, as it was recorded by Maj. Gen. Shlomo Gazit, coordinator of the territories, who was present at the meeting. *Haaretz* Weekend Supplement, January 1, 1999.

(2) Bar–Joseph,*The Watchman Fell Asleep*, p. 199..

(3) Prime Minister's Office, National Archive, *Summary of Consultations with the Prime Minister*, *October* 6, 1973, 8:05 (recorded by Mr. Eli Mizrahi), http://www.archives.gov.il/NR/rdonlyres/66FC5A72–27F7–41A6–9969–7ED71A097F57/0/yk6_10_0805.pdf.

(4) For example: *Prime Minister's Office*, *National Archive*, *Meeting with the Prime Minister*, *October* 7, 1973, 1450 *hours* (recorded by Mr. Eli Mizrahi), http:// ww w.archives.gov.il/NR/rdonlyres/0FC0ABE9–C023–46 6D–9B65–2502586EE0AF/0/yk7_10_1450.pdf.

(5) Elchanan Oren, *The History of the Yom Kippur War* (Tel Aviv: IDF–History De–partment, 2013), pp. 112–13; Maj. Gen. (ret.) Amnon Reshef, *We Will Never Cease*! *Brigade* 14 *in the War of Yom Kippur* (Ot Yehuda: Dvir, 2013), pp.94–95.

(6) Motti Ashkenazi with Baruch Nevo and Nurit Ashkenazi, *Tonight at Six There Will Be War* (Tel Aviv: Hakibutz Hameuhad, 2003), pp. 61–67.

(7) Braun, *Moshe Dayan in the Yom Kippur War*, p. 82.

(8) Telephone conversation with Eitan Carmi, August 27, 2010. «In the Middle of Yom Kippur, the IDF Spokesman Announced:'At approximately 2:00 p.m., the forces of Egypt and Syria launched an attack in Sinai and the Golan Heights. Our forces are working to fight the attackers,'» IAF website, http://iaf.org.il/843–13277–he/IAF.aspx.

(9) Shimon Gola, *Decision–Making of the Israeli High Command in the Yom Kippur War* (Ben Shemen: Modan and IDF History Department, 2013), pp. 318–19, 328–329, 341–2, 369–70. Amiram Ezov, «'Ministerial Recommendation': The Southern Command During the Yom Kippur War–October 7, 1973–Thwarted the Counter–Attack,» in *War Today*: *Studies of the Yom Kippur War*, ed. Hagai Golan and Shaul Shai (Tel Aviv: Maarachot, 2003), pp. 204–258, 208.

yk7_10_2350. pdf; Prime Minister's Office, National Archive, *Meeting with the Prime Minister, October* 8, 1973, 1950 *hours. Report of M–G Bar–Lev and Minister Alon After Sur–veying the Front* (recorded by Eli Mizrahi), http://www.archives.gov.il/NR/rdonlyres/A6A68F84–86A8–488D–8A3C–216644051639/0/yk8_10_1950.pdf
(12) Personal interview with Zvi Zamir, August 13, 1998.

الفصل الحادي عشر

صعود وهبوط أشرف مروان

(1) «Sekretarijat za informacije,» *Yugoslav Survey*, vol. 17, 1976, p.68. [**add page numbers**?]
(2) Interview with Zvi Zamir, July 8, 2008; telephone conversation with Freddy Eini, October 1, 2010; Shimon Golan, «The Yom Kippur War: The Debate About Crossing the Canal on October 12, 1973,» in *State Army Relations in Israel*, 1948–1974, ed.Yehudit Ronen and Avraham Zohar (Tel Aviv: The Golda Meir Memorial Association and the Israeli Society for Military History, 2004), pp. XXX–XXX; Uri Bar–Joseph, «When the Gates Were Locked: MI in the Yom Kippur War,» in *Mlechet Machshevet*: 60 *Years of Israeli Intelligence–A View from Within*, ed. Amos Gilboa and Efraim Lapid (Tel Aviv: Yedioth Ahronot, 2008), pp. 70–77; Zeira, *Myth Versus Reality*, p. 162.
(3) Hagai Tzoref,«The Director of the Mossad, Zvi Zamir, and Israel's Leadership–During the War of Yom Kippur.» An unpublished paper. Dr. Tzoref is a senior archivist in Israel's National Archives, in charge of the archive's collection of documents during Golda Meir's tenure as prime minister (1969–1974).
(4) Victor Israelyan, *Inside the Kremlin during the Yom Kippur War* (University Park: Penn State Press, 1995), 103–14.
(5) Tzoref.
(6) *Maariv*, November 9, 1973; *Maariv*, December 4, 1973; Bahgat Korany and Ali E. Hillal Dessouki, *The Foreign Policies of Arab States: The Challenge of Globaliza–tion* (Cairo: American University of Cairo Press, 2008), p. 184.
(7) *Maariv*, December 19, 1973.
(8) Henry Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston: Little, Brown, 1982), p. 1061.
(9) *Maariv*, May 7, 1974.
(10) Kissinger, *Years of Upheaval*, p. 844.
(11) Le Carré, *The Secret Pilgrim*, p. 193.
(12) Fawzi, *Secrets of the Assassination of Ashraf Marwan*, p. 17; *Maariv*, August 23, 1974.
(13) Gerard Chaliand, ed., *People Without a Country*: *Kurds and Kurdistan* (London: Zed Books, 1984), p. 170; Asadollah Alam, *The Shah and I*: *The Confidential*

and Assistant to the President for National Security Affairs, and Mr. Peter W. Rodman, NSC Staff, August 13, 1974, Madison Room 8th Floor Department of State,» National Security Archives,Washington, D.C., pp. 10–11.

(15) «After the Jehan Sadat Interview: Shocking Secrets Revealed by Her Hus–band's Friend,» *Al Arabiya* Network, March 4, 2007.,

(16) Christopher Andrew and Vasili Mitrokhin, *The World Was Going Our Way: The KGB and the Battle for theThirdWorld* (NewYork: Basic Books, 2005), pp. 161, 167.

(17) John Cooley, *Unholy Wars* (London: Pluto Press, 2002), p. 17; «Saudi Ambassa–dor to the United States Prince Turki Al–Faisal Interview with the Saudi–US Relations Information Service (SUSRIS),» March 2, 2006, http://www.saudi embassy.net/archive/2006/transcript/Page19.aspx.

(18) Joseph J. Trento, *Prelude to Terror:The Rogue CIA and the Legacy of America's Pri–vate Intelligence Network and the Compromising of American Intelligence* (New York: Carroll & Graf, 2005), p. 5; Peter Dale Scott, *The Road to* 9/11:*Wealth, Empire, and the Future of America* (Berkeley: University of California Press, 2007), p. 111.

(19) Heikal, *Mubarak and His Time*, p. 248.

(20) Tharwat, *Ashraf Marwan: Fact and Illusion*, pp. 38–40.

(21) J. C. Louis and Harvey Z.Yazikian, *The Cola Wars:The Story of the Global Battle Between the Coca–Cola Company and PepsiCo, Inc.* (New York: Everest House, 1980), pp. 177–178.

(22) Mohamed Jamaa, *I Knew Sadat*: p. 181.

(23) Sabri, *Sadat:The Truth and the Legend*, p. 653.

(24) Jamaa, *I Knew Sadat*, pp. 216–218.

(25) *Maariv*, October 15, 1975.

(26) *Al–Ahram*, March 22, 1976.

(27) Sabri, *Sadat:The Truth and the Legend*, p. 655; Fawzi, *Secrets of the Assassination of Ashraf Marwan*, p. 32.

(28) «The Arabs Diversify into the Arms Business,» *BusinessWeek*, October 31, 1977, pp. 31–32;Thomas Lippman,«The Arab Organization for Industry Signs Secret Agreements with France and Britain for Joint Production of Modern Weap–onry,» *Maariv*, September 11, 1978.

(29) Sabri, *Sadat: The Truth and the Legend*, pp. 654–655; Fatah, *Who Killed Ashraf Marwan*? pp. 33–34.

(30) Fawzi, *Secrets of the Assassination of Ashraf Marwan*, p. 29; Sabri, *Sadat:The Truth and the Legend*, p. 656.

(31) Sabri, *Sadat:The Truth and the Legend*, pp. 656–657.

(32) Ibid., pp. 657–659;Tharwat, *Ashraf Marwan: Fact and Illusion*, pp. 36–38.

(33) *Al–Akhbar*, October 12, 1978.

(34) Sabri, *Sadat: The Truth and the Legend*, pp. 656–657; Fatah, *Who Killed Ashraf*

Engineer) Osman Ahmed Osman,» *Al–Akhbar al–Youm* and *Al–Ahram*, April 16, 1981; Sabri, *Sadat:The Truth and the Legend*, p. 665.

(38) Sabri, *Sadat:The Truth and the Legend*, pp. 662–665.

الفصل الثاني عشر:

ملاك في المدينة، الكشف عن الصهر

(1) Interview with Tom Bower; *New York Times*, December 28, 2004.

(2) A report on the Proposed Merger, *Lonrho Limited and House of Fraser Limited*, Presented to Parliament in Pursuance of Section 83 of the Fair Trading Act 1973 (London: Her Majesty's Printing Office, December 9, 1981), p. 27 (here–after: Griffiths Report, 1981).

(3) Pinkindustry, «The House of Fraser,» *Atlantic Semantic*, http://pinkindustry.wordpress.com/the–house–of–fraser.

(4) Tom Bower, *Fayad*: *The Unauthorized Biography* (London: Macmillan, 1998), p. 151; Tom Bower, *Tiny Rowland*: *A Rebel Tycoon* (London: Mandarin, 1994), pp. 499–500.

(5) Chris Blackhurst, «As Mysterious in Life as in Death,» *Timeout* London, July 2, 2007.

(6) Chris Blackhurst, «The Shadowy World of Ashraf Marwan,» *Business*, May 5, 1987.

(7) Interview with Tom Bower.

(8) Quotations from *Griffiths Report*, 1981. Statement of Member of Parliament Charles Wardle, June 4, 1997, http://hansard.millbanksystems.com/com–mons/1997/jun/04/dti–inquiries#column_318; commentary on Griffiths's choice of words; interview with Tom Bower, June 28, 2010.

(9) *Letter from Sir Andrew Bowden MBE, MP to the Parliamentary Commissioner for Standards*, February 13, 1997 (hereafter: Bowden Letter).

(10) Interviews with Bower and Blackhurst; Robinson, *Yamani*, pp. 130–135.

(11) Simon Parkin, «Who Killed the 20th Century Greatest Spy?» *Guardian*, September 15, 2015: http://www.theguardian.com/world/2015/sep/15/ who–killed–20th–centurys–greatest–spy–ashraf–marwan

(12) Graham Greene, *Our Man in Havana* (New York: Penguin, 1969); John le Carré, *The Tailor of Panama* (New York: Knopf, 1996).

(13) Yossi Melman and Dan Raviv, *Imperfect Spies* (Tel Aviv: Maariv, 1990), p. 176.

(14) Ian Black and Benny Morris, *Israel's Secret Wars* (New York: Grove Weidenfeld, 1991), p. 286.

(15) Shmuel Katz, *Soldier Spies*: *Israeli Military Intelligence* (Novato, Calif.: Presidio, 1992), p. 246.

(16) Eli Zeira, *Myth versus Reality*: *The Yom Kippur War–Failures and Lessons* (Tel

(19) Robinson, *Yamani*, p. 85.
(20 Zeira, *Myth versus Reality:The Yom Kippur War–Failures and Lessons*, p.126.
(21) Ruling of Arbitration, before Justice (ret.) Theodor Orr. Plaintiff: Elihau (Eli) Zeira, represented by Adv. B. Mozer et al.; v. Defendant: Zvi Zamir, represented by Adv. Danziger, Klegsbald et al., March 25, 2007, pp. 15–17 (hereafter: Orr Ruling).
(22) Zeira, *Myth versus Reality:The Yom Kippur War–Failures and Lessons*, pp. 85, 123.
(23) Orr Ruling, pp. 16–17.
(24) Ephraim Kahana, «Early Warning Against Concept: The Case of the Yom Kippur War 1973,» *Intelligence and National Security* 7, no. 2 (2002): 81–104, 99.
(25) Ahron Bregman and Jihan el–Tahri, *The Fifty Years War: Israel and the Arabs* (London: Penguin, 1998).
(26) Ahron Bregman, *Israel's Wars*, 1947–93 (London: Routledge, 2000).
(27) Ahron Bregman, *A History of Israel* (Houndmills, UK: Palgrave Macmillan, 2002).
(28) Israel Television Channel One, *Supplement of Supplements*, September 23, 2004.
(29) Orr Ruling, p. 34.

الفصل الثالث عشر

سقوط الملاك

(1) In addition to the sources cited below, the current description of the events surrounding Marwan's death rely on interviews with two of the people most closely associated with the affair but who preferred to remain anonymous. Other sources include: Private electronic correspondence with Dr. Ahron Bregman, June 28, 2010; Yossi Melman, «It Doesn't Sound Like the Ashraf Marwan I Know»; Majdi al–Jallad,«*Al–Masry al–Youm* Publishes Important De–tails on the Death of Ashraf Marwan,» *Al–Masry al–Youm*, July 7, 2007; «Mona Abdel Nasser Interviews with *Al–Ahram Weekly*: The Israelis Murdered My Husband and Paid Money to Distort the Truth,» *El–Araby*, September 24, 2007; «Apology,» *Al–Ahram Weekly*, November 2007, Issue 872, pp. 22–28; Rajiv Syal, «'Double Agent' Billionaire's Death in Fall from Balcony Was Murder, Says Friend,» *Sunday Times*, October 13, 2007; «An Egyptian Riddle,» *Private Eye*, August 4, 2010; Parkin, «Who Killed the 20th Century's Greatest Spy?».
(2) Rajiv Syal, «Evidence Missing in 'Spy' Death–Fall Mystery,» *Times Online*, August 29, 2007.
(3) Rick E. Ingram, ed., *The International Encyclopedia of Depression* (New York: Springer, 2009), pp. 546–547.

July 15, 2010.

(6) *Al–Araby*, September 24, 2007.

(7) «Mossad Agents Murdered My Husband, Says Widow of Billionaire Arms Dealer,» *Observer*, July 11, 2010.

(8) Telephone conversation between Ahron Bregman and Ashraf Marwan, October 14, 2003, in Dr. Bregman's private collection.

(9) Transcript of telephone conversation between Ahron Bregman and Ashraf Marwan, May 7, 2005.

(10) Zamir and Mass, *With Open Eyes*, pp. 151–153.

(11) James Forsyth, «Did He Fall or Was He Pushed?» *Spectator*, August 15, 2007.

(12) Rajiv Syal, «Missing Memoirs Fuel Spy Death Mystery,» *Sunday Times*, August 13, 2007.

(13) Ronen Bergman, «The 'Khotel' Code.»

(14) Electronic correspondence with the librarian at the archive in Washington and with Dr. Ahron Bregman, August 10 and 29, 2010.

(15) Howard Blum, «The Double Agent Who Fooled Israel,» early draft of «Another Operative Is Outed–But in Israel This Time,» *LA Times*, October 5, 2003.

(16) Telephone conversation between Ahron Bregman and Ashraf Marwan, October 6, 2006.

(17) Yossi Melman, «What Is Known About the Mysterious Death of Ashraf Marwan, the Agent Who Warned Israel of the Yom Kippur War,» *Haaretz*, May 28, 2010.

(18) Ilana Dayan, «The Last Spy.»

(19) Zamir and Mass, *With Open Eyes*, p. 129.

(20) Heikal, *Mubarak and His Time*, p. 246.**TK**.

(21) Ronen Bergman, «Their Man in Cairo,» *Yediot Ahronot*, May 6, 2005.

(22) Heikal, *Mubarak and His Time*, p. 252.TK.

(23) Ibid., p. 256.TK.

(24) Ibid., p. 260.TK.

(25) Dr. Moustafa al–Fiqi, «On El–Leithy Nassif, the Egyptian General Who Died in a Manner Similar to Ashraf in London,» *Al–Masry al–Youm*, October 9, 2008; «Egyptian X–File: Stuart Tower, the Beginning,» *Egyptian Chronicles*, May 21, 2010, http://egyptianchronicles.blogspot.com/2010/05/egyptian–x–file–stuart–tower–beginning.html

(26) Kris Kenway, «Searching for Cinderella,» *Egypt Today* 25, no. 6 (June 2004): pp. 22–30; «Egyptian X–File: Cinderella's Rank,» *Egyptian Chronicles*, July 14, 2009, http://egyptianchronicles.blogspot.com/2009/07/egyptian–x–file–cinderella–rank.html.

(27) *Rose al–Yusuf*, June 29, 2011.

(28) Reuters, July 2, 2007.

(29) Ilana Dayan, «The Last Spy.»

(30) Steve Croft, «Was the Perfect Spy a Double Agent?» 60 *Minutes*, May 10, 2009.

"الملاك"!

يوري بار-جوزيف

يغطي كتاب «الملاك» إحدى أكثر قصص الجاسوسية إثارة في القرن العشرين: الحياة الباهرة والموت المريب لأشرف مروان، الموظف المصري الرفيع الذي عمل سراً لمصلحة الموساد الإسرائيلي. من موقعه كصهر للرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر ومستشار مقرَّب من خلفه، أنور السادات، استطاع أشرف مروان الوصول إلى أدق أسرار حكومة بلاده. لكن كان لدى مروان سره الخاص: لقد كان جاسوساً للموساد، وكالة الاستخبارات الإسرائيلية الشهيرة. مروان، الذي كان معروفاً لدى مشرفه باسم «الملاك»، حوَّل مصر إلى كتاب مفتوح وأنقذ إسرائيل من هزيمة نكراء بتزويده الموساد معلومات مسبقة عن الهجوم المشترك المصري السوري في حرب أكتوبر 1973. الملفت في الأمر أن مروان استطاع تضليل الشرطة السرية المصرية الصارمة لعقود. في السنوات اللاحقة، استمتع بحياة مترفة، لكنها وصلت إلى نهاية صاعقة في عام 2007، حين عُثر على جثته في الحديقة أسفل مبنى شقته في لندن. شكَّت الشرطة في احتمال أن يكون قد رُمي من شرفته في الطابق الخامس، لكن القضية بقيت غير محسومة. ولغاية الآن، بعد موت مروان، لم يُكشف سوى النذر اليسير عن حياته الغامضة.

إن كتاب «الملاك»، الذي يستند إلى أبحاث دقيقة ومقابلات حصرية مع الشخصيات الهامة ذات الصلة، هو أول كتاب يناقش دوافع مروان، كيف تم الكشف عن هويته كجاسوس للموساد ليس من أحد آخر سوى الرئيس السابق للاستخبارات العسكرية الإسرائيلية، وكيف تمت الاستفادة من – وإساءة استخدام – المعلومات التي قدَّمها. وبالتوسع حول هذه القضية، يُلقِي الكتاب الضوء على التاريخ المعاصر للشرق الأوسط والدور الحاسم للجاسوسية البشرية في تشكيل مصير الأمم. وهو، لأول مرة، يجيب عن الأسئلة التي تلف ميراث مروان: في آخر الأمر، من الذي كان أشرف مروان يخونه حقاً؟ ومن قتله؟